

الغرابة

الجماعات التي هاجرت من غرب إفريقيا واستوطنت سودان وادي النيل ودورهم في تكوين الهوية السودانية

تأليف

دكتور عبدالله عبدالماجد ابراهيم

مدير جامعة أم درمان الإسلامية (بالإنابة) سابقاً

وعضو هيئة التدريس بجامعة الملك عبدالعزيز بجدة



الغرابة

الجماعات التي هاجرت من غرب إفريقيا واستوطنت سودان وادي النيل ودورهم في تكوين الهوية السودانية

تأليف

دكتور عبدالله عبدالماجد ابراهيم

مدير جامعة أم درمان الإسلامية (بالإنابة) سابقًا
وعضو هيئة التدريس بجامعة الملك عبدالعزيز بجدة



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ [النساء: ١].

وقال ﷺ:

«أيها الناس: إن الرب واحد والأب واحد والدين واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هي اللسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربي».

رواه ابن عساكر بسنده. إلى الزهري

وقال ﷺ:

«الناس من آدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلاّ بالتقوى».

ابن سعد عن أبي هريرة

الغرابة

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

بالتعاون مع

الناشر للطباعة والنشر والتوزيع والاعلان

هاتف: ٣٤٢٨٨٦ ـ ص. ب: ٥٩٢٠ ـ ١١٣ ـ تلكس: ٤٣٢١٨ ـ فاكس: ٨٦٠١٢٨ ـ ١ ـ ٩٦١

إلى السوداني الشرقي(*) والسوداني الغربي

أما بعد:

فإن النيجر بلاد مسلمة خالصة للإسلام وأهلها كانوا من الأخوة السودانيين الذين كان أسلافنا من المؤرخين المسلمين يذكرونهم فيشكرونهم، بل يكثرون من ذلك ويسمونهم بالسودان قبل أن يكتسب السودان العربي الذي عاصمته الخرطوم ويصح أن نسميه بالسودان الشرقي هذه التسمية، بل قبل أن ينتزع شرفها من هؤلاء الإخوة المسلمين سكان السودان التاريخي القديم الذي يصح أن نسميه بالسودان الغربي ونقول قبل أن ينتزع شرفها ونحن نصر على ذلك لأن أخبار السودانيين الغربيين وتاريخهم القديم فيه من الأمجاد ما تقصر عن التطلع إليه أعناق شعوب كثير من البلاد وناهيك ببلاد وصلت بالإدارة تحت ظل الشريعة الإسلامية في القرون الوسطية إلى ما لم تصل إليه، بل ما لم تقارب الوصول إليه كل أقطار أوروبا في ذلك الوقت حاشا بلاد الأندلس: بلاد المسلمين.

محمد بن ناصر العبودي

الأمين العام المساعد لرابطة العالم الإسلامي

(*) انظر ملحق رقم ٢٨١ ص ٣٩٠.

تقديم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه وسلم

لقد طالعت كتاب أخينا العلامة البركة الشيخ الدكتور عبد الله عبد الماجد الأستاذ بقسم الدراسات الإسلامية بجامعة الملك عبد العزيز بجدة عن (الغرَّابة) القبائل المهاجرة عن غرب إفريقيا إلى القطر السوداني الحبيب فاطلعت من خلاله على معلومات كثيرة عن هذه القبائل بخاصة وعن أهل السودان عامة وهي معلومات ستضيف ـ حتماً ـ إلى المكتبة العربية في التاريخ والأنساب وعلم المجتمعات ـ إضافة حسنة وهذه القبيلة «الفلانة» هي قبيلة تنتشر في الحزام الواقع في جنوب الصحراء وتحاذي المنطقة العربية وهي في غرب إفريقيا تنقسم إلى فروع منها فوتاديالو (ضياء الله) والفوتاتورو والماسينا. ففرع الفوتاجالو المنتشر في أعالي غينيا حيث منابع نهر السنغال من جبال الفوتاديالو وهذا الفرع كذلك موجود على ضفاف نهر السنغال من الجهة الموريتانية والسنغالية ويوجد في الشمال الغربي لمالي ومن هذا الفرع المام LE Almamie أئمة فوتا الذين كونوا إمارات إسلامية على شواطىء النهر ومنه المجاهد الكبير الحاج عمر صيدتال الذي أدار الجهاد من مالي بعد أن درس العلم على كثير من المشايخ ومنهم مشايخ ولاته في الشرق الموريتاني كما يقول الكومندان شابيل في مذكراته CHAPELLE أن الفرع الماسيني ينتشر في الشرق مالي في عاود وتمبكتو وعلى منابع النيجر وحتى نيجيريا.

والجملة فهذه القبيلة معروفة بالذكاء والشجاعة وبالبأس ومنها مزارعون وهم الذين يطلق عليهم الفرنسيون TOWCOULEUR التوكلار ومنهم الرعاة أهل الماشية وهم الذين يطلقون عليهم PEUL والفلاني. وقد تعرض الدكتور عبد الله بتفصيل فيما يخص نيجيريا إلا أنه يجب أن نشير أنه وفي نفس الفترة وغرب هذه المنطقة وفي ماسينا بالتحديد شرق مالي التي كانت تحكمها عائلات ديالو DIALLO وسنفار SNJARE وباري BARY نشأ الشيخ أحمد أحمد وهو من باري يسمع عن فتوحات عثمان فوديه وبعد أن سافر ١٨٠٥ م حيث شاهد تلك الحروب وأعطاه السلطان سوكتو الحاج عثمان فوديه لقب (شيخ) دخل في معركة مع الوثنيين الذين كانوا متحالفين مع ملك بمبارا في سيفو وتحت حمايته وهكذا استولى على مدينة جني وبعد ذلك أنشأ عاصمة (حَمد الله) وأسس مجلساً من أربعين عالماً ليساعده في الحكم وفي الغرب أيضاً على ضفاف نهر السنغال في هذا التاريخ كان يقوم نظام الأئمة الفوتين كما أشرنا إليه سابقاً وباختصار فقد قامت هذه القبيلة أو القبائل ـ باعتبار أن التوكلار TOWCOULEUR إنما تجمعهم بالفلاني اللغة وباعتبار أن التوردو هم أخوال الفلاني فقط ـ قامت بدور نشط في الدعوة من نيجيريا شرقاً والنيجر إلى ضفاف نهر السنغال غرباً عبوراً بشمال مالي والسنغال وجنوب موريتانيا وشمال غينيا.

وقد شرح أخونا الدكتور عبد الله عبد الماجد دورهم في القطر السوداني الحبيب وذلك جزء من تاريخ الأمة الإسلامية وتاريخ الدعوة في إفريقيا فجزاه الله خيراً فقد اطلع على كثير من المصادر العربية التي تحدثت عن دور الغرابة القبائل الإفريقية المهاجرة إلى السودان ومنها قبيلة الفلاني وقد استفدت من المعلومات التي ذكرها والأخبار التي جمعها والأسماء التي سردها. معلوماتنا ترجع إلى ما عندنا من التاريخ وإلى الكتابات الفرنسية وبخاصة عن كتاب (تاريخ أفريقيا السمراء من أمس إلى غد) -Jki)

ZERBO: HISTOIRE DE L'AfRQUE NOIRE) المطبوع في باريس ١٩٧٢ م مكتبة هاتير HATIER وكذلك من مقالات مورس لافوس وغيرها.

لقد اختلف في أصول شعب الفلاني ونعني هم من هم من يتكلم اللغة الفلانية HALROLOR سواء كانوا من فرع توردودو TORODO أو الفلاني أو التوكلار وهم يتكلمون لغة واحدة هي لغة الفلاني (البلارية) وخلاصة ما ذكرته المصادر الغربية والذي ترجحه الروايات أن التورو هم أخوال الفلاني حيث أم الفلاني هي بنت ملك التورو واسمها يَجُمَعُ YADJMAOU هؤلاء التورو قدموا من سوريا عبر سيناء ـ جبل الطور ـ وهنا جاء اسم ـ طورو ـ وأنهم من أصول سامية بيضاء فعبروا إلى إفريقيا وكان يطلق أميرهم دنا عكا DIDIDKKA وجاء إلى بلاد ماسين والحوض والسهل الأفريقي وهم يسوقون قطعاناً كبيرة من البقر على ضفاف نهر السنغال ثم انتشروا إلى النيجر وتشاد ونيجيريا إلا أن الفلاني يرجعون في كثير من الروايات والنصوص المكتوبة في نسبهم إلى التابعي الجليل فاتح أفريقيا وباني القيروان عقبة بن نافع الفهري القرشي نجد ذلك في إنفاق الميسور في بلاد التكرور للسلطان محمد بلو بن الحاج عثمان بن فوديه سلطان سكوتو.

حيث صرح بأن عقبة بن نافع كان قد تزوج بنت ملك تورودو TORODO يَجُمَعُ YADJMAOU وهي جدة الفلاني PEULE.

وقد أشارت كتابات أخرى إلى أن تنقالا TENNGUELLA الذي غزا الفوتا الذي ذكره كتاب (تاريخ السودان) وهو في القرن (١٦) الميلادي ينحدر من عقبة، كما أشارت إلى أن الإمام سليمان بال ـ الذي أطاح بالأسرة كولي الوثنية التي كانت حاكمة في نهاية القرن (١٨) الميلادي ليحل محلها حكومة إسلامية كان رئيسها الأول الإمام عبد القادر ـ ينتسب إلى

عقبة عن طريق ابنه روبة ROU أنظر ما كتبه موريس دي لافوتس M.DELAFOSSE في دورية العالم الإسلامي الفرنسية (Revue demnde muslman)وسواء صح ذلك النسب أو لم يصح فإن ديننا الإسلامي الحنيف دين المساواة والمحبة والأخوة والوئام بين جميع الأجناس لا يفرق بين عربي وعجمي.

ذكر القرطبي في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ أنه عليه الصلاة والسلام قال لثابت بن قيس رضي الله عنه: (أنظر في وجوه القوم) فنظر؛ فقال: (ما رأيت)؟ قال: رأيت أبيض وأسود وأحمر؛ فقال: (فإنك لا تفضلهم إلا بالتقوى). وقد روى الترمذي أنه ﷺ خطب بمكة فقال: يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعاظمها بآبائها.

وباختصار فإن هذه القبيلة المنتشرة على هذا الحزام الممتد من ضفاف نهر السنغال على الضفتين الموريتانية والسنغالية إلى جبال فوتاديالو في غرب وشمال مالي وشرقها في بلاد ماسينا وفي النيجر ونيجريا معروفة بالذكاء والشجاعة قد انتجت في تلك الفترة علماً أعلاماً. ويكفي أن قادة هذه الإمارات كانوا كلهم من العلماء.

والكتاب الذي نقدمه للقارىء يقرر ما هو واقع بالفعل من أن حدود السودان كانت وما زالت مفتوحة وأن الموجات البشرية التي جاءت مهاجرة إلى وادي النيل من جهة الغرب قبل وبعد سقوط تلك الإمبراطوريات والممالیك الإسلامية العريقة. هم قبائل وشعوب ذات حضارات متفاوتة لها تأثيرها وفعاليتها في أي قومية وجماعات استقرت قبلهم أو نزلت عليهم عرباً كانوا أم أفارقة تبعاً لتقبلهم المبكر للثقافة الإسلامية وامتزاجهم بالقبائل العربية.

لقد استقر الإسلام في غرب أفريقيا في القرن السابع الميلادي (القرن

الأول الهجري) وليس في القرن الحادي عشر الميلادي على أيدي دولة المرابطين كما هو متواتر لدى غالبية المؤرخين. وقد أشار أحمد باب مؤرخ دولة السنغال إلى وجود (١٢) مسجداً في مدينة غانا وهي حاضرة أول الممالك الإسلامية الكبرى في مرابطين أفريقيا حوالي عام ٦٠ هجرية (٦٧٩ م) ولكن المرابطين كان لهم دور رئيسي في التاريخ الإسلامي لهذه المنطقة. ليس فقط في نشر الإسلام بين الوثنيين بل أيضاً عقيدة المسلمين الأفارقة الذين اعتنقوا الإسلام ولم يلتزموا بأحكامه.

وقد أورد المؤرخ المسلم أبو عبد الله البكري (١٠٢٨ ـ ١٠٩٤ م) في كتابه (المسالك والممالك) عن رحلته إلى منطقة غرب أفريقيا أنه يندر أن توجد مدينة من مصب نهر السنغال إلى لاغوس لا تكون إلا وبها الأئمة وطلبة العلم. وفيها الفقهاء وحملة علم وقد اشتهر سلاطين مملكة مالي (١٢٣٨ ـ ١٤٨١ م) بالحرص على بناء المساجد والاعتناء بها بل كان سلطان (منسا موسى) أعظم سلاطين هذه الإمبراطورية (١٣٠٧ ـ ١٢٣٢ م) ليبني مسجداً في كل مدينة تدركه فيها صلاة الجمعة[1].

وتذكر بعض الروايات وجود (٤٢٠٠) عالم مسلم في مدينة جني مما يدل على سعة انتشار الإسلام في هذه البلاد[2] لا شك أن الشعوب التي هاجرت من غرب أفريقيا. واستوطنت سودان وادي النيل كانت متفاعلة ومنفعلة بالثقافة الإسلامية ومنصهرة مع القبائل العربية والكتاب جملة وتفصيلاً يدعو إلى محاربة العنصرية بقوة من أي جهة صدرت وإن تقسيم أبناء البلد الواحد والوطن الواحد والشعب الواحد والهدف المشترك الواحد

---

(١) حسن عيسى عبد الظاهر الدعوة الإسلامية في غرب أفريقيا منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الرياض ص ١٠٢.

(٢) المرجع السابق ٢٠٣.

إلى أولاد بلد. وإلى غرّابة أمر مستهجن حضارياً وبخاصة في العصر الحديث عصر التكتلات الإقليمية والاديولوجيات المادية وسيادة الحضارة الغربية والإصرار على هيمنتها على القارة الإفريقية في ظل ما يسمى بالنظام العالمي الجديد والواجب الإسلامي يحتم بل يدعو كل مثقف في أي قطر إسلامي إلى محاربة العنصرية بكل الوسائل والأساليب وفي هذا الوقت بالذات إن لم يكن من منطلق سياسي فإن مصلحة شعوبنا ومستقبل أوطاننا يدعوننا إلى ذلك بحرارة وقوة. إنني أحس أبعاد هذه المشكلة وخطورتها وقوة دفعها وتناميها في مجتمعاتنا المتطلعة إلى النمو الاقتصادي والتكامل الاجتماعي مما يؤكد أن وراء إثارة النعرات العنصرية أيدٍ خفيةٍ تعمل على ترسيخها لتفكيك وحدتنا وضرب مصالحنا ومقاومة ديننا الحنيف وعزله من أن يكون هو الرباط وهو النسب وهو الوطن وهو القومية وهو الأم وهو الأب.

ألا فليعلم الجميع أن الدعوة إلى العنصرية كالدعوة إلى الإنسانية دعوة إلى البديل عن الرباط الديني وتعرف هذه الفكر في الغرب بفكرة [(كوزوموبوليته) وهي دعوة في مضامينها وثناياها تلح على الإكتفاء برباط الإنسانية وحده وتحرص على نبذ كل ما يسبب الفرقة والإنقسام من بعد ذلك] وأهم ما يجب في الدعوة الإنسانية نبذه هو الدين.

فالكتاب في أسلوبه وعرضه محاربة للعنصرية والدعوات القومية والوطنية بقوة. وإن كان قد أظهر دور (الفلانة أو الفلان) بقوة وتشخيص ووضوح لما كان لهم من دور قيادي في المساحة التأريخية فإنما جاء ذلك من قبيل الإخبار بما تضمنته الوثائق التاريخية من مواقف لهم لا من قبيل الافتخار والتعارض أو التظاهر والتمايز على القبائل الأخرى إظهاراً لدورهم التأريخي المجهول في سودان وادي النيل والمعترف به في كل القارة الإفريقية، وجعل التشابه بين قبائل السودان الشمالي الجعليين والدنقلة

والشايقية وقبائل الفلانة قوية جدا وظاهرة سواء في الناحية القتالية أو نشر الإسلام أو التحدث بلهجات محلية.

وأكد صلة كل البيوتات الدينية الكبرى والقيادية في السودان. مثل بيت الإمام المهدي والزعيم المرغني بقبيلة (الفلانة والفلانة) نسباً وصهراً مما يؤكد أن الهوية السودانية التي ظهرت في عهد قيام مملكة (الفونج) وتغلغلت في سلطنة دافور وقويت بظهوره الثورة المهدية وهي الهوية التي سادت في دول وإمبراطوريات غرب أفريقيا مثل كانم وبرنوا وصنغي ومالي ووادي وهوسا وهي الهوية التي صاغت الشخصية السودانية وأعطتها بعدها الديني والحضاري في أتم صورة متمسكةً بتعاليم الإسلام منصهرة بالدم العربي وأصالته وممتزجة بالمشاعر الأفريقية وسماحتها.

لقد كان السودان بحق (دائرة تفاعل بين العرب والأفارقة بل ومجال الانصهار القومي لكل شعوب القارة الأفريقية ببعضها من ناحية ومع العرب من ناحية أخرى).

وأخيراً ناشد الكاتب رجال الأقلام من السودانيين المثقفين والمسؤولين إلى ضرورة إعادة كتابة تأريخ السودان في ضوء رؤية فاحصة وعدم الاكتفاء بالنقل الشائع وعدم الاعتماد على آراء الرحالة الغربيين والمستشرقين دون فحص وإنعام نظر.

وقد أضاف الكاتب إلى فصول الكتاب ملاحق من دراسات أكاديمية متخصصة لا شك أنها أعطت الكتاب إلى جانب التوثيق العلمي البعد التأريخي وفي نفس الوقت الاستكشاف المستقبلي.

إنه ليس كتاباً ثقافياً فقط.

وليس كتاباً تاريخياً فقط.

وليس كتاباً اجتماعياً فقط.

بل إنه كتاب دعوة وثقافة وتاريخ واجتماع ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾.

عبد الله شيخ المحفوظ بن بيه (لطف الله به)
أستاذ بجامعة الملك عبد العزيز كلية الآداب
وعضو المجلس العالمي الأعلى للمساجد لرابطة العالم الإسلامي
والوزير الأسبق لوزارة التعليم والعدل والتوجيه بموريتانيا

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تعليق:

لقد تصفحت كتاب الغرَّابة ودورهم في تكوين الهوية السودانية لأخينا فضيلة الدكتور عبد الله عبد الماجد إبراهيم فوجدت فيه معلومات تاريخية هامة عندما تحدث بإسهاب عن أصول هذه القبائل التي أتت من غرب أفريقيا، هذه المنطقة وأعني بها غرب أفريقيا التي بلغت شأواً عظيماً في الحضارة ومن المؤسف حقاً أن الأغلبية الساحقة من السودانيين وأنا كواحد منهم يجهلون هذا التاريخ ولقد هيأ لي زيارة غرب أفريقيا في السنين الماضية واطلعت على بعض كتب التاريخ التي كتبت عن المنطقة فهالني الجهل الذي كنت أعيش فيه عن تاريخ تلك المناطق وشعوبها. مثلي مثل كل سوداني متعلم. لقد أكد هذه الحقيقة فضيلة الشيخ محمد ناصر العبودي نائب الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي في مقدمة كتابه عن النيجر يؤكد لشعب الخرطوم أصالة تلك المجتمعات وتاريخها الطويل وحضارتها الفعالة وما لتلك الشعوب من أمجاد ومآثر فاق الكثير والكثير من الشعوب، جاء في هذا الكتاب ما أنقله بالنص كما يلي أما بعد:

(فإن النيجر بلاد مسلمة خالصة للإسلام وأهلها كانوا من الإخوة السودانيين الذين كان أسلافنا من المؤرخين المسلمين يذكرونهم فيشكرونهم بل يكثرون من ذلك ويسمونهم بالسودان قبل أن يكتسب السودان العربي الذي عاصمته الخرطوم ويصح أن نسميه بالسودان الشرقي الغربي ونقول قبل أن ينتزع شرفها ونحن نصر على ذلك لأن أخبار السودانيين الغربيين وتاريخهم القديم فيه من الأمجاد ما تقصر عن التطلع إليه أعناق شعوب

كثيرة من البلاد وناهيك ببلاد وصلت بالإدارة تحت. ظل الشريعة الإسلامية في القرون الوسطية إلى ما لم تصل إليه بل ما لم تقارب الوصول إليه كل أقطار أوروبا في ذلك الوقت حاشا بلاد ـ الأندلس ـ بلاد المسلمين).

كما وصلت بالأمن في بلادها في تلك القرون التي يسميها الأوروبيون بالقرون المظلمة وهي بحق مظلمة لهم ولكنها مضيئة لنا إلى درجة من الأمن في مدن السودان وبراريه ما لم تستطع الأقطار الأوروبية ومعها الولايات المتحدة الأمريكية... أن تصل إليه في الوقت الحاضر).

لقد قصدت أن أورد في تعليقي هذا. ما جاء في كتاب الشيخ محمد ناصر العبودي لأن هنالك جدار سميك أو حواجز نفسية وضعها المستعمر وجسدتها الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بيننا وبين إخواننا في غرب السودان وأخواننا الذين أتوا من غرب أفريقيا واستوطنوا سودان وادي النيل فأصبحنا ننظر بالدونية لمن يأتي من هذه المناطق باعتبار أنهم أتوا من شعوب متخلفة وأنهم الغرابة وأنهم سكان العشش ولا نعرف أنهم أتوا من مناطق كانت مهد حضارة إسلامية قبل دولة الفتح التي نعتز بتاريخها وقبل المهدية بقرون.

وكتاب الغرّابة ودورهم في تكوين الهوية السودانية يؤكد بأن القبائل التي هاجرت من غرب أفريقيا واستوطنت سودان وادي النيل مثلها كمثل القبائل التي تكونت من هجرات العرب من ناحية الشمال كالجعليين والشابقية وامتزجت بالقبائل التي كانت تسكن تلك المناطق سواء أكانوا عرباً أو زنوجاً أو نوبة وهي التي ساهمت كغيرها في تكوين الشخصية السودانية من هذا النسيج القبلي وصار العنصر السوداني نموذجاً في السمات والأوصاف جمع كل المحاسن العربية التي غذاها الإسلام بتعاليمه السمحة أو قام بتأصيلها وصار السودان بوتقة انصهرت فيه كل الثقافات الأمر الذي يتطلب من المثقف السوداني سواء أكان في الشمال أو غير الشمال أن

يسعى لتحديد هويته ولا نعني بالهوية المفهوم القانوني الذي يعتمد على القانون الذي يمنح الجنسية وفق شروط معينة ينالها مواطنيه في هذا السودان المتراص الأطراف دون خلف الشعور الوجداني الذي يتأتى من معرفة التاريخ المشترك الذي يستشعره كل مواطن وهي إحدى المكونات الهامة للهوية أو ما يمكن أن نسميه بالقومية السودانية وعلى المثقفين دراسة عناصر تكوين القومية السودانية ودراستها ليس لأي غرض وكما يقول الكاتب نقلاً عن (أحمد إبراهيم أبو سليم) (إن دراسة قومية من الأمم مهمة إيجابية إذا ما هدفت لاستكشاف الذات وأدت إلى معطيات هذه الذات أما إذا كانت بغرض وضعها على التعارض لقومية أخرى فإنها تكون نظرة سلبية للقومية).

إن المثقفين مطالبون لاستكشاف الذات السودانية التي لها انتماءاتها العربية وخاصة الإفريقية ولعل التحدي الذي يواجه السوداني في تحديد هويته هو من أكبر التحديات يحتاج إلى إعمال الفكر والتحرر وسبر غور التاريخ ومعرفة التكوينات القبيلة ومخاطبة كل العناصر التي تكون السودان في تحديد الهوية بحيث لا يعلو أو لا يشعز أي عنصر من العناصر التي تكون أصول السودان بالنظر إليها نظرة دونية وهذا الأمر يتطلب دراسة المواقف بجدية وصراحة ووضوح وجرأة تلامس الواقع، والكاتب تلمس هذه الجوانب بموضوعية وفي ضوء الوثائق التاريخية والمراجع المثبتة. والواقع بأن الحقبة التاريخية التي ينظر إليها السودانيون بانتماء أكثر حقبة دولة الفوتج أو المهدية وسواء بدأت من الفوتج أو المهدية فالدولتان قامتا على الإسلام وما دام الأمر يتوقف على الإسلام والهجرات العربية التي صاحبته فإنه بلا شك قامت دول إسلامية وامبراطوريات كبيرة بغرب أفريقيا قبل الفوتج وقبل المهدية بقرون كثيرة وتأصلت الدماء العربية والحضارة الإسلامية فيها. وهذا ما أشار إليه الشيخ محمد ناصر عبودي حسب ما ذكرنا آنفاً. إنني من واقع التجربة المعاشة بمقتضى عملي في الحكومات

المحلية وطوافي بكل أنحاء السودان بما فيها الغرب وبحكم أن عملي يجعلني وثيق الصلة بالمواطنين على اختلاف قبائلهم ومشاربهم الفكرية والروحية فقد تأكد لي أن قبائل غرب السودان التي ذكرها المؤلف لا فرق بينها وبين قبائل الشعوب النيلية في كثير من العادات والتقاليد بل أن بعضهم يفوق حضارياً الكثير من القبائل الشمالية وقبائل المناطق النيلية خصوصاً فيما يتعلق بالطهي واحترام الرجل وكل ما ينسب إلى المدينة والتطور مما يؤكد أن هذه القبائل عناصر أساسية في تكوين الهوية السودانية امتزاجاً وفكراً وروحاً وثقافة أقول بكل تجرد وموضوعية أن العناصر الواندة إلى سودان وادي النيل (من الغرب) عناصر قوية وفعَّالة لها ثقافتها وارثها العربي سواء وفدوا إلى السودان قبل الاستعمار أو بعده والكثير منهم وفد إلى السودان في أوقات سابقة لمملكة الفونج سواءً أكان هذا الوفد موريتانياً أو برناوياً أو فلانياً أو مغربياً كل هؤلاء في مستوى ثقافي واجتماعي متقارب قد انصهروا جميعاً في بوتقة سودان وادي النيل فلا فرق بين عنصر وعنصر والكتاب قد أشار إلى هذه الجوانب موضحاً دورهم في تكوين الهوية السودانية هذا الدور الذي غاب عن كثير من أبناء السودان الذين لم يبارحوا مدنهم ويجوبوا أنحاء السودان أو تأثروا بحساسيات الثورة المهدية وقد أدى ذلك إلى وسم كل من يأتي من الغرب بأنهم غرَّابة وجعل كلمة فلانة عنواناً للتخلف والهمجية وأنهم سكان العشش بينما الواقع يؤكد أن الفلانة من أعرق القبائل الفريقية والتي تنتمي إلى أصول عربية عريقة ولها دورها البارز في نشر الدعوة الإسلامية على امتداد منطقة ودول أفريقيا الغربية هذه الدول التي لا يعرفه مواطنوا سكان وادي النيل عامة والمثقفون بصفة خاصة ولعل أبرز دور للفلانة ما قاموا به تحت قيادة المجدد الإسلامي عثمان بن فوديو الذي قهر جحافل الوثنية في غرب أفريقية وأقام دولة إسلامية قامت على أسس حضارية وكانت لتوجيهاته الأثر الكبير في دفع الهجرات الإسلامية إلى سودان وادي النيل على أثر تغلب القوى الاستعمارية الغازية لضرب

أفريقيا. فكانت الثورة المهدية التي جمعت أولاد الغرب وأولاد البحر في نضالهم ضد نظام الحكم الخديوي الذي كان يسومهم سوء العذاب وسلط عليهم إدارة فاسدة واستعان بمديرين من النصارى كفردون باشا الإنجليزي وسلاطين باشا النمساوي وبهذه الثورة تم وضع أول لبنة في بناء الأمة السودانية أيام المهدية التي تعتبر امتداداً لدولة الفونج وممالك الغرب والمسبعات واتفق مع المؤلف في ما طرح من أراء وإلى أهمية إعادة كتابة التاريخ السوداني بموضوعية وتجرد والله الموفق.

كرم محمد آدم
معتمد العاصمة القومية سابقاً (والخرطوم)
خريج جامعة الخرطوم كلية الاقتصاد والدراسات الاجتماعية
حائز على درجة الماجستير في الإدارة التنموية ـ جامعة برمنجهام ـ انجلترا

شكر وتقدير

الشكر لله على توفيقه وعونه.

ثم الشكر لفضيلة الشيخ الكبير عمر محمد فلاتة ـ أمين عام الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سابقاً ـ ورئيس مركز خدمة السنة ومدير دار الحديث والمدرِّس بالمسجد النبوي الشريف ـ على ما أفادني به من معلومات، كوَّنها من خلال رحلاته واتصاله بكبار الشيوخ الأفاضل والمخطوطات النادرة، آملاً أن يظهر بعض هذه المعلومات في كتاب: (الغرَّابة ودورهم الدعوي في السودان).

وأتقدم بالشكر لحضرة الأساتذة: الأستاذ الدكتور محمد الحسن أبو سم، أستاذ الأدب والنقد بجامعة أم القرى؛ والأستاذ الدكتور صلاح التيجاني حمودي، أستاذ التاريخ بجامعة الملك عبد العزيز؛ والأستاذ عالم عباس محمد النور ـ بالمعهد الإسلامي للبحوث والتدريب ـ البنك الإسلامي للتنمية - جدة مراجعتهم وآرائهم؛ والشكر الجزيل للأستاذ الدكتور عبد الرحمن بارود، استاذ اللغة العربية بجامعة الملك عبد العزيز، فقد أسعفني بأكثر من ثلاثين كتاباً وبعض المخطوطات، وكلها في الدراسات الأفريقية.

والشكر لكل من أبدى رأياً أو أثار مناقشة جادة أو ساخنة أو سيثير؛ وأخص بالشكر السيد عز الدين ميرغني صبيان، الَّذي قام بالنسخ والكتابة، وعلى من ساعد في تصحيح تجارب الطبع، أثاب الله الجميع.

إهـــداء

إلى كل من كتب كتاباً أو سطر سطراً للتعريف بالدعوة الإسلامية، ودور الفلاتي في انتشار الإسلام في القارة.

إلى الأستاذ الدكتور عبد الله الطيب، عميد الأدب ومدير جامعتي الخرطوم وجوبا سابقاً[١] ورئيس مجمع اللغة العربية بالسودان. إلى الدكتور يوسف فضل حسن، مدير جامعتي أم درمان الإسلامية وجامعة الخرطوم سابقاً.

د. عون الشريف قاسم وزير الاوقاف والشئون الدينية الاسبق رئيس مجلس اداره جامعه أم درمان الاسلامية سابقاً ورئيس مجلس الجامعة الاهلية - ام درمان سابقاً[٢].

إلى الأستاذ الدكتور محمد البهي - وزير الأوقاف وشؤون الأزهر[٣].

إلى الأستاذ الدكتور حسن إبراهيم حسن، مدير جامعة أسيوط سابقاً.

إلى الأستاذ الكبير إبراهيم علي طرخان، رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة الرياض سابقاً.

---

(١) انظر: «بين النير والنور»، بيروت ١٩٧١م، الطبعة الأولى.

(٢) كتاب د. عون الشريف - موسوعة القبائل والانساب في السودان واشهر اسماء الأعلام والإماكن (ستة اجزاء) الجزء الرابع ص ١٧٩٩.

(٣) فقد أشاد بالإمام المجاهد «عثمان دانفوديو» في تقديمه لكتاب «إحياء السنة وإخماد البدعة» ص «جـ. د» من مطبوعات الإدارة العامة للثقافة الإسلامية بالأزهر، وأكد بأن الحركة السلفية في أفريقيا ومصر لمدينة له ولمحمد بن علي السنوسي.

إلى الأستاذ الطيب عبد الرحيم محمد، عضو هيئة التدريس بجامعة القرآن[١].

إلى الدكتور محمد أحمد بدين[٢].

إلى العلماء الأفاضل الَّذين شاركوا بأبحاثهم ومناقشاتهم العلمية في الندوة العالمية، للاحتفاء بالشيخ المجاهد عثمان دانفوديو، في الفترة من ١٩ ـ ٢١ نوفمبر ١٩٩٥م بالخرطوم قاعة الصداقة.

إلى جامعة أفريقيا العالمية، التي أقامت تلك الندوة، والتي ألقت مزيداً من الأضواء لكشف بعض الجوانب في حياة الإمام عثمان دانفوديو، ودور قبيلته التي احتضنتها الحروف وصارت كتاباً.

أهدي هذه الصفحات، والتي آمل أن تكون نافذة لأبنائنا ومشكاة لمن يهمه أن يظهر الحق في أتم نور.

* * *

---

(١) مؤلف كتاب «الفلاتة» في أفريقيا ومساهمتهم الإسلامية والتنموية في السودان.
(٢) مؤلف كتاب «الفلاتة والفلانيون» في السودان.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونصلي ونسلم على سيدنا محمد خاتم أنبيائه وصفوة رسله، المصطفى، العاقب، الطاهر، الطيب، الصادق، الأمين، وعلى آله الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً وعلى أصحابه الكرام البررة الهداة المهتدين، وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد:

فالشكر لله ثم لكل من كتب كتاباً أو سطر سطراً للإفادة والاستفادة، أو للتأريخ والإشادة؛ وأخص بالشكر أصحاب المؤلفات الَّذين أفدت من تأليفهم أو نقلت عنهم؛ وقد أشرت إلى مصدر النقل بذكر اسم الكتاب ورقم الصفحة، أو جعلته بين معكوفين؛ ثم إن المتصفح لكتب التأريخ والتراث يدرك من خلال الصفحات الأولى لكتاب: (الغرَّابة ودورهم في تشكيل الهوية السودانية)؛ أني لم أستهدف العرض التأريخي ولا الدراسة التحليلية، بقدر ما استهدفت رصد وتسجيل أقوال المؤرخين والباحثين من مصادرها الأساس، أو من المصادر التي نقلت عن المصادر الأساس، نشداناً للتجرد وتحرياً للموضوعية، فلا يستغرب القارىء إذا رأى في الكتاب كثرة النقول أو الاستفادة مما كتبه غيري كتابة جيدة. إذ لا أرى مانعاً أن أنقل ما كتب أو جزءاً منه. فإن حرصي على إبراز الفكرة أكبر من حرصي على أن يمدح مادح أو خوفي أن يقدح قادح. إضافةً إلى تخصيص ملحق للبحوث الأكاديمية المتخصصة التي فحصت وتم نشرها، وتشترك في الموضوع ذاته من طرف أو آخر. إذ إن إلقاء الأضواء على جانب هام من تأريخ وحياة شعب أو قبيلة مّا، وإبراز دورها الاجتماعي والحضاري في

حياة أمة أو في حياة الشعوب المجاورة لها، وما يتبع ذلك من سرد تأريخي للأحداث، بغرض الوصول إلى رأي مستقيم في علاقات القبائل ذات الحدود المشتركة وتداخل شخصيتها مع هويات الشعوب المجاورة؛ إضافةً إلى ما تفرضه الأحداث التأريخية بإظهار دور قوميات وجنسيات كان لها السبق القيادي، والدور الحضاري، والقوة والتأثير في شعوب المنطقة؛ بعد أن بسطت سلطانها على قبائل السودان الشرقي وبلاد النوبة..

كل ذلك أمر قد يثير ناقداً وقد يثير آخر مناقشاً، ويبعث معلقاً وآخر معقباً؛ ومعلوم أن الفكرة التي لا تثير نقاشاً فكرة ميتة الميلاد، فالنقاش - في حد ذاته - يعد مقصداً نبيلاً من مقاصد (الكتاب)[1] فمثل هذه المناقشات والنقد والتعليقات، لا تقوم من منطلقات العواطف، والنزعات، والميول الشخصية؛ ولا بدافع الشعور بالسخط، أو الاشمئزاز، أو التعصب، أو السفسطة، والرومانسية[2]؛ وإنما تقوم على الأسس العلمية المدعمة بالوثائق التأريخية والتي تثبت في النهاية أن السودان قد شهد هجرات مستمرة من قبائل وعناصر أفريقية ذات عظمة، وحضارة، ومجد، وتاريخ؛ مثل قبيلة الزغاوة، والكانم، والبرنو، والفلاتة، والهوسا، والوداي، والباقرمي؛ وهم من أقدم القبائل إسلاماً في المنطقة، وأن لهم الفضل في تطوير الحضارة السودانية وترقيتها إذ كان لهم اتصالهم الوثيق بأرض النوبة، وسودان وادي النيل، وسلطنة دارفور، ومملكة سنار؛ فقد روى ضيف الله في طبقاته: (إن نحو ألف طالب من التكرور قد انخرطوا في خلوة الشيخ قدال) والتكرور والتكارنة اسم مرادف للفلاني أو الفلاتة،

---

(١) لعل هذا ما قصده مؤلف كتاب [السودان المأزق التاريخي وآفاق المستقبل] محمد ابو القاسم حاج محمد حين قال ص ١٤ [واملت في الكتاب ان يكون بداية حوار جاد بقينا نفتقده ونقاش موضوعى طال بنا عهده حول أوضاعنا ومستقبلنا. حوار تشترك فيه كل القوى الحية من المثقفين السودانيين، وشرط الحوار كما هو شرطه دائماً. عقل اكثر تطوراً وقلب منزه عن الغرض].

(٢) انظر: محمد عمر بشير: «تطور التعليم في السودان»، ص ١٢٢.

ويستخدم في سودان وادي النيل إشارة (للغرّابة) القادمين من البلاد الواقعة غرب دارفور، ويشمل الفلاتة، والهوسا، والبرنو، والبرقو[١].

إضافةً إلى ما خلفته حركة الحجيج المستمرة والمتواصلة في القرن التاسع عشر، وما أثارته تعاليم الشيخ عثمان دانفوديو، خاصةً ما يتعلق بالمهدي المنتظر وقرب ظهوره فوق أرض النيل.

كل ذلك دفع بالقبائل والعناصر القوية والمندفعة مع الدعوات الجهادية وفي مقدمتهم قبائل الفلاتة، للهجرة إلى وادي النيل لمقابلة الإمام المهدي ومبايعته ونصرته.. إن لم يكن لإيجاده وبعثه.

وهذا هو الدور الَّذي قام به الخليفة عبد الله آدم، خليفة المهدي الَّذي كان جده علي الكرار من رواد تلك الهجرات الفلانية، ثم استقر بين التعايشة في جنوب دارفور[٢]، وبالتقاء هذه العناصر والأجناس حصل التفاعل الاجتماعي والقومي، والتواصل الفكري والثقافي، وقويت الصلات الاجتماعية، وولدت الشخصية السودانية التي أشعلت الثورة المهدية، واتخذت بعدها التأريخي والسياسي بصرف النظر عن تباين الانتماءات القبلية والأصول العرقية[٣].

---

(١) الأستاذ يوسف فضل حسن: «أثر حركة دان فوديو على دعوة المهدية في سودان وادي النيل» بحث مقدم للندوة العالمية للاحتفاء بالشيخ المجاهد عثمان دان فوديو، جامعة أفريقيا العالمية بالتعاون مع المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، قاعة الصداقة، الخرطوم، الفترة ١٩ ـ ٢١ نوفمبر ١٩٩٥م.

(٢) المرجع السابق، ص ٧، يوسف فضل حسن: «أثر حركة دان فوديو على دعوة المهدية في سودان وادي النيل»؛ وانظر: «الفلاتة في أفريقيا ومساهمتهم الإسلامية»: الطيب عبد الرحيم محمد، ص ٧٤ ـ ٨٠.

(٣) [فالسودان ليس بلداً واسعاً فقط [مليون ميل مربع] بل هو ـ وهنا النقطة الخطرة ـ مجال التدامج القومي لكل شعوب القارة الافريقية ببعضها من ناحية، ولتدامجها مع العرب من الناحية الاخرى] انظر: السودان المأزق ص٣٣ و٣٤ محمد ابو القاسم حاج محمد.

نعم: إثارة المناقشات العلمية والحوار، والنقد الباني والتعليق الموضوعي؛ يعد مقصداً نبيلاً من مقاصد هذا الكتاب، لأنه قد يوصل إلى حسم مشكلة الهوية، وتحديد معالم الشخصية، وإسكات اللهجات والتعبيرات والألفاظ، وكل ما من شأنه إضعاف الروابط القومية وإحياء النعرات العنصرية والقبلية، بتصنيف الشعب الواحد وأبناء الوطن الواحد والعقيدة الواحدة، والهدف المشترك إلى أولاد بلد، وأشراف وأصحاب الوزن الحقيقي، وإلى غرّابة، وبقّارة، وفلاتة، وحلب، ومهمشين[1]؛ ورحم الله القائل: (إن العنصرية في العصر الحديث قبيحة أشد القبح عن أي جهة صدرت، ويستوي في أمرها الأحمر والأبيض والأسود) ومهمة الذهنية السودانية الحديثة المتفتحة عقلانياً وسياسياً، محاربة العنصرية بأي شكل وبأي أسلوب وفي هذا الوقت بالذات؛ كما يتعين عليها أن تكون قادرة على بحث موضوع الهوية ومتعلقاتها دون حدود، إلاّ ما تفرضه اعتبارات العلم والموضوعية؛ وهذا هو دور مؤسسات الدعوة الشمولية، ومعهد الدراسات الأفريقية والآسيوية والجامعات الإسلامية.

ولا شك أن الندوة التي أقامتها جامعة أفريقيا العالمية بالتعاون مع المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم (ايسيسكو) بقاعة الصداقة بالخرطوم في الفترة من ١٩ إلى ٢١ نوفمبر ١٩٩٥م... إشادة بدولة الفلان واحتفاء بمؤسسها الشيخ المجاهد عثمان دان فوديو؛ يعد عملاً إسلامياً رائعاً لتأصيل المد الإسلامي والثقافة الإسلامية في هذا القطر الحبيب (السودان) تعميقاً لجذور الروابط القومية والدينية، إيصالاً لأفكار الشيخ عثمان دان فوديو لشعب (الخرطوم) على أن دعوته تمثل قيادة فكرية كان لها أكبر الأثر على المنطقة (سودان القارة) في مطلع القرن الثالث عشر الهجري؛ وأنه قائد فلاتي، وزعيم سوداني، ومجاهد له في السودان ذرية

---

(١) ومن التعبيرات والالفاظ ـ الدهماء واولاد الشوارع ـ انظر السودان المأزق التأريخي ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

وعصب، وأبناء، وحسب، وأرحام، ونسب، وعلماء، ودعاة، وزعماء، وقادة.

هذا وقد اقتضى الكلام عن الغرّابة ضرورة التكرار للإشادة، كما اقتضى ضرورة الإشارة إلى القبائل ذات التأريخ العريق والممالك الشهيرة، التي عرفت بأنها هاجرت إلى السودان، سواء من شمال أفريقيا أو غربها، مثل: الودّاي (البرقو)، والكانم، والزغاوة، والبرنو، والهوسا؛ وأنهم سودانيون بالاستيطان المكاني والسبق الزمني، ثم حدث الاختلاط والتداخل فصاروا في عداد المجموعات المختلفة التي شاركت في تشكيل الهوية السودانية، وهم لا يزالون يحتفظون بانتماءاتهم القبلية تبعاً لتقسيمات المناطق إدارياً، وقد شكلوا وجوداً اجتماعياً بارزاً، وثقلاً سياسياً واقتصادياً واضحاً، سواء من خلال تحركاتهم التجارية، أو الرعوية، أو بمقتضى وظائفهم العلمية ومناصبهم السياسية والإدارية؛ ولقد ذكرت أسماء بعض الشخصيات البارزة لكل قبيلة حسب ما توصلت إليه، وبداهة.. هناك شخصيات كبيرة وهامة لم أجد من يذكر لي أسماءهم، وشخصيات لا يريدون ذكر أسمائهم، وإني أستسمح الجميع من ذكرت اسمه وهو لا يريد ومن لم أذكر اسمه وهو يريد.

والله أسأل أن يكون عملي هذا مبرءاً عن الهوى ومنزهاً عن الغرض خالصاً لوجهه الكريم ولا أكون قد جافيت الحق أو جانبت الصواب، ومنه السداد والتجاوز عن العثرات وهو من وراء القصد إنّه المستعان وعليه التكلان وبالله التوفيق.

جدة في ١/ ذو القعدة/١٤١٦ هـ الموافق ٢٠/ ٣/ ١٩٩٦م

تمهيد

إن وجود فرد أو كاتب يحاول إخفاء الدور الحضاري الدعوي لقبيلة الفلاتة في السودان ـ أو في أي قطر ـ أمر لا يستبعد[1]، أما أن يتعدى الأمر لتجريد قبيلة الفلاتة من أخص خصائصهم ومزاياهم، وإلصاق النقائص بهم، وأنهم سكان العشش[2] أو مجموعة من الأخلاط والدهماء، كالغجر وأمثالهم؛ فهذا موضوع لا نجد له تفسيراً سوى إثارة البغضاء، والكراهية، والأحقاد، والضغائن بين الشعوب المسلمة في القارة الواحدة والوطن الواحد والأمة الواحدة؛ من فئات تجاهلت هويتها قبل جهلها بتأريخ الفلاتة، أو حاقدة على دعاة الإسلام، وحملة رسالته وثقافته وحضارته؛ بخاصة في غرب أفريقيا.

رجال الله أنصار الرسول هم الضرغام ثم هم شبول
أمامهم رياح النصر شهراً ذوابلهم تزل لها وعول[3]

---

(١) انظر: كتاب «العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عد السلطنتين الإسلاميتين مالي وسنغي»: الشيخ الأمين عوض الله، الناشر دار المجتمع العلمي بجدة سنة ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٦م، فقد أغفل المؤلف دور قبيلة الفلاتة تماما، بينما هم في الواقع شاركوا ـ سلماً وحرباً ـ في إيجاد هاتين السلطنتين وفي تأسيسهما ـ وانظر: كتاب «تاريخ دارفور السياسي: موسى المبارك» فقد أغفل المؤلف دور قبيلة الفلاتة تماماً.

(٢) مساكن عشوائية شيدها الفلاتة بالخرطوم ثم غادروها إلى الحجاز وتركوها بمثابة رباط (دار ضيافة) انظر ص ٢٤٤ من هذا الكتاب.

(٣) هذه الأبيات من قصيدة طويلة للشيخ عبد الله بن فوديو ـ انظر: «تزيين الورقات»، ص ١٥.

إن الهجوم على قبيلة الفلاتة والاعتداء عليهم بإخفاء دورهم البطولي الجهادي الدعوي والأنصهاري القومي في قلب القارة الأفريقية، وبخاصة في غرب أفريقيا أو جمهورية السودان، أمر مستبعد وفي غاية الغرابة، لا يصدر عن مثقف عربي أو أفريقي أو أوربي، ذلك لأن الاتجاه السائد في المجتمعات العربية الأصيلة هو الاحترام والود من العرب إلى إخوانهم من غير العرب، والإعجاب بهم طالما شاركوهم في حمل أعباء الدعوة إلى الله ونشر تعاليم الإسلام ولغته وحضارته؛ كما أن السمة البارزة في نظر المسلمين من غير العرب ـ زنوجاً أو أعاجم ـ هي الإكبار والحب لإخوانهم من المسلمين العرب، إذ لاحظوا أن العربي قد تخلص بالإسلام من القبلية والعنصرية إلى النزعة الإنسانية والعالمية، فلا استعلاء لعرق على عرق، أو فئة على فئة، أو قبيلة على قبيلة، أو أمة على أمة: (فالناس كلهم لآدم وآدم من تراب)، (وأن العربية ليست بأم ولا أب وإنما اللسان فمن تعلم العربية فهو عربي)، مما دعاهم إلى التخلي عن لغتهم الأصلية وتعلم لغة العرب، بل إنهم قد برعوا في ذلك وأبدعوا، وألفوا في علومها، وأوسعوا وشاركوا مشاركة فعالة في علوم الإسلام المتعددة.

أما الأجناس المتولدة أو المختلطة، فإن الإتجاه العام هو انتسابهم إلى العرب والتخلي عن أعراقهم الزنجية، أو البربرية، أو النوبية، أو الحبشية: (انتسب بعضهم إلى بني أمية أو بني هاشم وارتبط آخرون بالقحطانيين والعدنانيين)[1]؛ فادعى البرنو، والسنغي، والفلاتة، والوداي، والتنجر: النسب العربي، كما ادعى أهل السودان من الجعليين والشايقية والدناقلة والبرقو وغيرهم. . . مثل هذا النسب.

أما المثقف الأوروبي ـ سواء أكان مبشراً أم رحالة ـ فإنه في الكثير الغالب ـ وبخاصة فيما يتعلق بخصائص الشعوب غير العربية ـ تراه يعمد إلى

(١) الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، د. حسن أحمد محمود، ص ٣١٨.

تسجيل الواقع من خلال مشاهداته ودراساته دون تحزب أو تزيُّد، بل تراه يحرص كل الحرص على إبراز خصائص القبائل الأفريقية التي لها نشاط كبير في مواجهة البعثات التبشيرية، للفت نظر المبشرين إلى خطورة هذه القبائل ودوافع انطلاقها بالإسلام وإبراز نشاطها، سواء أكانوا من مالي، أو سنغي[١]، وغانة، وبرنو، وفلاتة، أو كانم، أو جعليين، ونوبة، وطوارق، وصنهاجة، وموريتانيا، وملثمين.

فإذا كان هذا هو الاتجاه العام والسائد في كل هذه الجماعات، الاحترام المتبادل والإعجاب والتقدير، إدراكاً منهم بأن الحضارة حلقة متصلة تسلمها الأمة المتحضرة إلى من بعدها، لا تختص بأرض ولا عرق وتكاد لا تخلو أمة من تسجيل بعض الصفحات في تأريخ الحضارة.

وإذن فإن إثارة تلك النعرات بغمط جهود الفلاتة، وإخفاء دورهم الحضاري في تكوين الهوية السودانية، أو محاولة طمس نضالهم في جمهورية السودان، أو في سودان القارة، ومن أشخاص هم أصلاً من جنس متولد أو مختلط؛ لأمر يثير العجب والدهشة ويلفت نظر المثقف في سودان وادي النيل أياً كان عنصره، ليقف مع نفسه موقفاً إسلامياً وسياسياً أو عقلانياً، ليبحث عن عناصر مكونات شخصيته وذاتيته، قبل أن يقف موقف التعارض لقومية أخرى مجاورة لقبائل سودان وادي النيل، أو سودان جنوب مصر، سواء من الشمال أو الجنوب؛ أو يقف موقف المناهضة لقومية مختلطة مع قبائل سودان (القارة السوداء) من شرقه إلى غربه.

إن المثقف السوداني مدعو لمناقشة قضية تكوين السودان القومي، وقضية الهوية السودانية بجدية وموضوعية، لا على أساس الأعراق والسحنات، ولا على أساس آصرة الدم أو اللون أو الوطن؛ وإنما على أساس آصرة العقيدة والدين أولاً، بحيث لا يستعلي فيها عرق على عرق

---

(١) سنغي أو صنغي، ذكرت في المراجع بالصاد وأحياناً بالسِّين.

ولا لون على لون؛ فإن ذلك من أولويات مقومات الدولة الإسلامية أو الأمة الإسلامية.. المساواة والإخاء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً...﴾ [الحجرات: ١٣].

(فالأصل البشري لأبناء البشرية قاطبة هو أصل واحد، ومهما تفرق الناس بعد ذلك إلى أمم وقبائل وبلدان وأجناس..، فإنما هو كتفرق البيت الواحد والإخوة من أب واحد وأم واحدة؛ وما كان كذلك.. فسبيل هذا الاختلاف في أجناسهم وبلدانهم أن يؤدي إلى تعاونهم وتعارفهم وتلاقيهم على الخير؛ ومن ذلك انبثق المبدأ الإنساني الخالد: ﴿يأيها الناس إنا خلقنٰكم من ذكر وأنثى وجعلنٰكم شعوباً وقبائل لتعارفوا...﴾. وقد ترفع الحياة - بعد ذلك - أفراداً وتخفض آخرين، وقد تغتني فئات ويفتقر كثيرون، وقد يحكم شخص ويخضع شعب، وقد تبيض بشرة أقوام وتسود ألوان أمم أخرى.

إن هذا وإن كان من سنة الحياة - بل هو نظامها الَّذي لا يتبدل - فليس من شأنه أن يميز من ارتفع على من اتضع، ولا من اغتنى على من افتقر، ولا من حكم على من خضع، ولا ذا اللون الأبيض على ذي اللون الأسود؛ بل الكل سواء عند الله في آدميتهم وإنسانيتهم، لا تمايز بينهم إلاَّ بالتقوى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ وهم سواء أمام القانون في الخضوع له لا تمايز بينهم إلاَّ بالحق: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨]. وهم سواء في كيان المجتمع يتأثر قويهم بضعيفهم ومجموعهم لعمل أفراد منهم: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر»[١].

إن المثقف السوداني اليوم مدعو لمحاربة ألفاظ وتعابير الاستخفاف والاحتقار والمهانة لقبيلةٍ ما: زنجية كانت بالأصالة، أو عربية بالتوالد

---

(١) متفق عليه.

والمصاهرة؛ إن الشارع السوداني إن عرف من هو الفلاتي حضارةً وأصالة، ومن هو العبد أو الرقيق في المنظور الإسلامي، أو حتى في المنظور المتعارف عليه في المجتمعات عامة؛ لاختفت تلك العبارات التي توحي بالإزدراء أو الاستعلاء أو الاستخفاف، مثل: يا عبد؛ ويا حلبي؛ ويا فلاتي؛ ويا حاج؛ ويا يمني؛ ويا تكروني؛ ويا غرابة؛ ويا نوباوي؛ ويا بربري؛ ويا دخيل؛ ويا جواني؛ ويا أجنبي؛ ويا براني؛ ويا بقاري؛ ويا غجري؛ ويا فلاح؛ وأحياناً يا عربي[1]؛ كل هذه عبارات تستخدم للاحتقار وللاستخفاف. . ، وتختلف من مكان إلى مكان ومن قطر إلى قطر؛ شاعت واستقرت نتيجة أحداث وظروف سياسية، أو اجتماعية، أو اقتصادية، أو الاستعمار.

إنها ألفاظ استعملت بسبب التعصب العرقي وإظهاراً لمشاعر العداء، سواء لفرد أو لجماعة، بدافع الكراهية للون أو للجنس أو بسبب الحسد؛ ولا يخلو من أن يكون الاستعمار والتبشير هو المحرك لبواعث العرقية في السودان وفي غيره.

(تغاضب أبو ذر وهو عربي من غفار مع بلال الأسود الحبشي مولى أبي بكر (رضي الله عنه) وكان أبو ذر وبلال صحابيين ممن آمنوا بالإسلام ورسوله؛ وتطور النزاع بينهما إلى أن أخذت أبا ذر الحدّة، فقال لبلال: يا ابن السوداء! فشكاه بلال إلى النبي ﷺ فقال لأبي ذر: أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية! فقال أبو ذر ـ وقد ظن الجاهلية هي الانحراف الأخلاقي الشهواني الَّذي لا يأتيه إلاّ الشباب ـ: على ساعتي هذه من كبر السن؟ . . قال: نعم، هم أخوانكم[2] فندم أبو ذر وتاب، حتى أنه أمر بلالاً أن يطأه

---

(١) تستخدم لفظة عرب في السودان للدلالة على معان كثيرة؛ فقد تستخدم للتعبير عن الأصول السودانية أو مشاعر وعواطف بعينها، أو عن طريقة معينة لممارسة الحياة.

(٢) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

على وجهه مبالغة في التوبة والندم).

وكثيراً ما حاول أعداء الإسلام استغلال مثل هذه الفوارق وتلك العبارات، لتفتيت وحدة الأمة، وإشاعة الكراهية والبغضاء والفرقة في الأمة الواحدة والمجتمع الواحد.

(وجاء قيس بن مطاطية ـ وكان منافقاً ـ إلى حلقة فيها سلمان الفارسي، وصهيب الرومي، وبلال الحبشي، فقال: هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل (أي محمد ﷺ) فما بال هؤلاء؟ (يعني سلمان وصهيباً وبلالاً) فقام إليه معاذ بن جبل فأخذ بتلابيبه (أي قبض على ثيابه من جهة نحره) ثم أتى النبي ﷺ فأخبره بمقالته؛ فقام رسول الله ﷺ يجر رداءه حتى أتى المسجد ثم نودي: إن الصلاة جامعة (نداء إلى الاجتماع العام وفي صلاة العيدين) فخطب في الناس، وقال: يا أيها الناس: إن الرب واحد والأب واحد وإن الدين واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هي اللسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربي)[١].

إننا في حاجة اليوم إلى أمثال معاذ بن جبل يقفون بجدّية بأفكارهم وأعمالهم، آخذين بتلابيب الأقلام التي تريد أن تشيع الفرقة، وتوهن رباط الوحدة الإسلامية، بتحقير تراث الفلاتة والقبائل التي ساهمت معهم في ازدهار الحضارة الإسلامية في أفريقيا والسودان على وجه الخصوص، لتقف تلك الأقلام على أمجاد تراث الفلاتة، وما قدموه للمجتمع الأفريقي حضارياً، إن لم تؤمن تلك الأقلام بمبادىء الإسلام وتعاليمه التي تسفّه آراءهم وتقدم العجمي أو الزنجي أو الأسود على العربي وعلى الأبيض، حين يقدمه عمله وشجاعته وإيمانه.

وعندئذٍ يدركون أن الفلاتة قد تخلصوا من الاستعلاء «بالفلتنة» إلى الأسلمة، وصارت لهم إسهامات واسعة في نشر الإسلام ولغة القرآن،

---

(١) رواه ابن عساكر بسنده إلى الزهري.

والدعوة إلى الله، والجهاد في سبيله بالقتال والمصابرة، والزواج والمصاهرة، وأنهم حيثما ذكر الإسلام وانتشاره وحضارته كان لهم الدور البارز والسبق الزمني؛ وبذلك استحقوا مكان الصدارة في كل المجتمعات، في المسجد، والمدرسة، والمحكمة، والقيادة، وفي كتب التأريخ وسجلات الرحالة.

الفلاتة عنصر يعتز به كل عربي قح، وكل مسلم غيور على مبادىء الإسلام، وكل أفريقي مثقف، وكل جنس متولد أو مختلط، وكل أوروبي باحث، وكل دارس لحياة الشعوب وتراث الأمم، فضلاً عن كل فلاتي يعتمد في ثبوت صحة نسبه إلى الرواية وضبط النقل مع التواتر.

قال الشيخ عبد الله بن فوديو في كتابه: «ضياء التأويل في معاني التنزيل» عند تفسير قوله تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾[1]. أي جعل الله ـ أو إبراهيم ـ كلمة التوحيد باقية في عقبه، أي في ذريته، فلا يزال فيهم من يوحد الله ويدعو إلى توحيده، والحمد لله الَّذي جعلنا من ذريته على ما نسمع من نساب سلفنا.

وفي موضع آخر يقول: هذا ما تواتر عندنا وأخذناه عن الثقاة الَّذين يخرجون من بلاد (فوت) أعني العلماء، وللشيخ الحاج عمر الأمير ـ المجاهد في بلاد مالي ـ قصيدة يذكر فيها أن بني (طور) الـ (فوتيين) من إسماعيل بن إبراهيم (عليهما السلام)[2].

ولا شك أن هذا يدعو إلى الاعتزاز، سواء من ناحية التوثيق أو النقل، بقطع النظر عن وجود القناعة بثبوت صحة صلة النسب أو عدم

---

(١) سورة الزخرف، الآيات: ٢٦ ـ ٢٧.

(٢) الدعوة الإسلامية في غرب أفريقيا وقيام دولة الفولاني، د. حسن عيسى عبد الظاهر، ص ٥٥.

وجودها؛ إذ التوثيق ـ في حد ذاته ـ يعد دراسة موضوعية في التثبت في النقل والرواية، وأخذ العلم من أفواه الرواة؛ ناهيك أن علماء الأجناس أجمعوا أخيراً على أن أصول شعب الفولاني ترجع إلى أرومة مصرية[1].

فإذا كان هذا هو آخر ما انتهت إليه الدراسات التأريخية عن جنس الفلاتة وأنهم والمصريين من أرومة واحدة، ولا شك أن مصر أسبق اتصالاً بالإسلام والعرب من السودان، سواء أكان السودان الشرقي سودان وادي النيل ودارفور، أو السودان الغربي سودان أمبراطورية غانه، ومالي، وسنغي، والممالك الواقعة بين نهر النيجر وبحيرة تشاد، والتي تتمثل ـ أساساً ـ في ممالك كانم، برنو، والهوسا.

إذا كان هذا هو الواقع...

فماذا يقول القارىء في تعليق السيد (أحمد درو)[2] على ما توصل إليه السيد (الطيب عبد الرحيم) في كتابه: (الفلاتة في السودان ومساهماتهم الإسلامية والتنموية) المؤكد لأصالة الفلاتة في العروبة؟ وما جاء في تعقيب السيد (أحمد موسى) على هذا التعليق، المتجسد في الخوف على الهوية السودانية من الفلتنة، أو جعل الهوية السودانية والشخصية السودانية تنطلق من محور الفلاتة أو الفلان، وربطهم بالعرب والأصول العربية (توطئة للمناداة بالهوية الفلاتية كأحد الأسس لمنح البطاقة السودانية بالإضافة إلى الإسلام... ولإيجاد مواطىء أقدام لهم في السودان كعنصر أساسي متناهي الزمكانية، كما يقول الأستاذ عوض الفيل)[3].

---

(١) فجر التأريخ الأفريقي، ص ٤٧، تعليق المترجم نقلاً من كتاب موسوعة التأريخ الإسلامي ج/٦ الدكتور أحمد شلبي، ص ٧٩.

(٢) جريدة الخرطوم السبت ١٤ يناير ١٩٩٥م ـ العدد ٧٨٣.

(٣) جريدة الخرطوم تاريخ ١٩٩٥/٤/٩ ـ تحت عنوان تعقيب على مقالة الفلاتة في السودان.

ماذا يفهم القارىء المثقف أو الدارس لتاريخ شعبه وأمته والشعوب المجاورة لأمته من هذا التعليق؟ وبهذا الأسلوب؟ غير الجهل بالذات؛ أو الجهل الثقافي والتخلف الحضاري؛ إذ أن سودان وادي النيل منذ قيام الفونج ـ مملكة سنار الإسلامية ـ إلى قبيل قيام (المهدية) وبعده، ظل يستقبل أفواجاً من المهاجرين متعددة الأجناس مختلفة القوميات، وفي داخل هذا الإطار الطبيعي والبشري ولدت الشخصية السودانية، واتخذت بعدها التأريخي[١].

وبقيام الثورة المهدية تمت عملية الامتزاج بين شمال السودان والغرَّابة، وصارت الأمة السودانية أمة لا تعرف الجنس أو العنصر، بعد أن انصهرت هذه القبائل في بوتقة واحدة.. امتزجت دماؤها، واشتبكت مصالحها، واتحدت غايتها، واتجهت إلى هدف واحد، وصار السودان شماله وشرقه وغربه أمة عربية لغةً وتقاليد وعادات، ومثلاً علياً شعارهم: (لا شيع ولا طوائف ولا أحزاب؛ ديننا الإسلام ووطننا السودان)[٢].

وها أنا ذا أنقل للقارىء تعقيب السيد أحمد موسى، على مقال الفلاتة في السودان بنصه، ليقف المثقف القارىء على براءة دلالاته وسمو موحياته!!! فيستيقن بأن هناك حلقة مفقودة أو أن شعوراً بالتوتر نحو قبيلة الفلاتة وجد مستقراً في اللاشعور عند السيد أحمد موسى؛ سمها ما شئت، جهلاً ثقافياً وقصوراً في الإطلاع، أو ما يمت إلى الجهل والقصور بصلة؛ وتخلفاً حضارياً، أو ضيقاً في الأفق الاجتماعي والسياسي، أو ما يمت إليهما بصلة، أو جهلاً بالذات وبمعالم الشخصية وهويات الشعوب المجاورة لسوداننا الحبيب.. سودان وادي النيل[٣]، أو إخفاءً متعمداً لدور

---

(١) في الشخصية السودانية محمد إبراهيم أبو سليم، ص ١٢.

(٢) من مأثورات السيد عبد الرحمٰن المهدي.

(٣) انظر: ملحق رقم ٥.

الفلاتة الحضاري والدعوي، وغمطاً وتجاهلاً وتجريداً لهم من أخص خصائصهم إن لم يكن تجريحاً؛ من الَّذي يستطيع أن يحجب ضوء الشمس عن حياة وسيرة الشيخ الإمام عثمان دان فوديو، ودور قبيلته الجهادي في السودان؟.

نص تعقيب أحمد موسى[1]:

أخونا الأستاذ الكاتب والمؤلف: «الطيب عبد الرحيم محمد» في كتابه: «الفلاتة في السودان ومساهماتهم الإسلامية والتنموية» أوشك أن «يفلتن» الهوية السودانية، وكاد أن يجعلها تنطلق من محور الفلاتة.. وربما كان ذلك منه إرضاءً لبعض الوجوه الحاكمة في النظام القائم في السودان؟؟ وقد استطاع الأستاذ أحمد درو ـ والَّذي قام باستعراض الكتاب ـ أن يوقف تتابع اندفاع الأخ الطيب عبد الرحيم في مسحه العاجل لكينونة الفلاتة، ومحاولة إيجاد موطىء أقدام لهم في السودان كعنصر أساسي متناهي الزمكانية، كما يقول الأستاذ عوض الفيل؛ لا أحد ينكر ما للإخوة الفلاتة من جهد جهيد في دفع عجلة التنمية في السودان.

وكأحد أبناء مدينة: «الأبيض» أستطيع أن أبصم بالعشرين على ذلك؛ ونحن نعلم أن لهم بعض الوجود انطلاقاً من الأساس الديني، وذلك لتشبث أهل السودان بكل ما يمت إلى الإسلام بصلة، ولا سيما والاعتقاد السائد بالفقيه وضلوعه في أمور الدين، ونحن نعلم كذلك بأن أربعة منهم قد قاموا بدور بارز في دعم وتأسيس بعض المدن في السودان، مدني السني ـ مثلاً ـ وما يرنو؛ ومساهماتهم في الفن ما زالت باقية؛ وليست

---

(١) نقلاً من جريدة الخرطوم السبت ١٤ يناير ١٩٩٥م ـ العدد ٧٨٣ في ١٩٩٥/٤/٩ ـ بعنوان تعقيب على مقالة الفلاتة في السودان.

الفلاتية «عائشة» ببعيدة أو الراحل المقيم «أبو داؤد» (رحمها الله) وكذلك في الصحافة والأدب. . .

وبالرغم من أن الشعب السوداني له كثير من المداخلات والاختلاط بالفلاتة، ولهم وجودهم الصارخ في بعض الأماكن، إلاَّ إن عملية تعريبهم والتي لجأ إليها المؤلف بربطهم مباشرة بالسيدة (صفية بنت جعفر بن أبي طالب) واسعة شوية؛ حتى هم أنفسهم ـ وأعني الفلاتة ـ لا يميلون كثيراً للعرب والعربية ناهيك عن التأصيل؛ ولا ندري هل يريد الكاتب أن يقوم بعملية غسل لبعض الأصول توطئة للمناداة بالهوية الفلاتية، كأحد الأسس لمنح البطاقة السودانية بالإضافة إلى الإسلام؟.

وهذا لا يعني أن شعب الفلاتة شعب مرفوض. . فهم ـ والحق يقال ـ أنشط الشعوب الأفريقية قاطبة، ولا يركنون إلى الكسل، وليسوا من الشعوب الاتكالية، ولا يمد قويهم يده أبداً بالمسألة. . ويكفيهم فخراً أنهم أكثر الشعوب الإفريقية حباً للإسلام وسعياً وراء الحج راجلة قبل الركوب.

نحن نشكر للكاتب إذ جعلنا نلم ببعض التفاصيل عن زواج الفاتح: «عقبة بن نافع» من ابنة ملك الروم، وعن السيدة فاطمة شلفو وأحفادها الَّذين يسكنون أرض السودان، حول مناطق الكبابيش وأرض الشايقية؟؟ ولعل الأستاذ سيد أحمد خليفة، أو الأديب الشاعر عوض فضيل يشاركاننا البحث، فالموضوع يهمهما بالضرورة، وأما أسماء أبناء السيدة صفية بنت جعفر بن أبي طالب، وهم: يزيد، فولو، فيلا، غرغاو، وحيدر. . فإني أعتقد بأن الأول والأخير أولادهما، إذ لا يعقل أن تسمي امرأة عربية من بني هاشم ابنها غرغاو، أو فيلا، أو فولو؟؟ عموماً نحن نتساءل فقط والجواب عند الراسخين في التاريخ القديم وعلم الأجناس، أمثال المؤلف

الطيب عبد الرحيم؛ ومعذرةً.. فكل شيء في هذا الوجود أصبح وارداً، فالسيرة الذاتية للمؤلف تكشف لنا مدى علمه وتعمقه، هذا بالإضافة إلى تأثير النسمة الفلاتية على حياته وشدة الإعجاب»؛ انتهى.

والمشكلة من وجهة نظري أو في ضوء الرؤية الشمولية لقضية الغرَّابة، ليست في تعليق السيد أحمد درو على ما توصل إليه الأخ الطيب عبد الرحيم في كتابه: (الفلاتة ومساهماتهم الإسلامية والتنموية في السودان) والمؤكد لأصالتهم في الإسلام والعروبة.

وليست المشكلة أيضاً في تعقيب (السيد أحمد موسى) على هذا التعليق، والمتجسد في الخوف على الهوية السودانية من الفلتنة، أو جعل الهوية السودانية تنطلق من محور الفلاتة أو الفلان، وربط الفلاتة بالعرب والأصول العربية (توطئة للمناداة بالهوية الفلاتية كأحد الأسس لمنح البطاقة السودانية بالإضافة إلى الإسلام).

ليست هذه هي المشكلة..

لماذا؟ لأن للفلاتي وجوده المتميز ورسالته في الحياة، يتضح ذلك فيما خلفه الإنسان الفلاتي من أثر في طريقة حياته وفي مساره الاجتماعي المادي، والروحي، والسياسي، والتعليمي، وفي النظام الَّذي ارتضاه لتقنين تصرفاته الاجتماعية عبر أطوار حياته، وصارت معلومة مشهورة عنهم يعرفه الخاص والعام، ودونتها كتب التاريخ والدعوة الإسلامية[1].

ليست المشكلة من وجهة نظري في جعل الهوية السودانية تنطلق من محور الفلاتة.

---

(١) انظر: كتاب «الدعوة الإسلامية بحث في تأريخ العقيدة للسيد توماس وأرنولد. ترجمة حسن إبراهيم حسن والدكتور عبد المجيد عابدين والدكتور إسماعيل النحراوي. مطبعة النهضة المصرية ١٩٧٠م.

فمحور الفلاتة محور غير زنجي أو نوبي[1]، إنه محور الجنسية المستقلة غير المتولدة من جنسيات مختلطة؛ إنهم عرب أو كالعرب، والطوارق، والموريتان، والهدندوة؛ فكان عمق الدم العربي ماثلاً في عنصرهم وفي لغتهم بشكل ميزهم عن كل الجماعات الإفريقية، وتبع ذلك عمق فهم لتعاليم الإسلام والتزامه في مسار حياتهم، بشكل أحالهم إلى مرابطين يعشقون الجهاد في سبيل الدعوة ويعدونه تراثاً لهم، مما أعطتهم البطاقة الإسلامية والعربية بجدارة واستحقاق قبل البطاقة السودانية العامة في أفريقيا من أقصاها إلى أقصاها.

وليست المشكلة محاولة إيجاد موطىء أقدام لهم في السودان كعنصر أساسي متناهي الزمكانية، إذ أن سبق الفلاتة الانصهاري والاندماجي في سكان أفريقيا الأصليين من الزنوج والمتولدين، وغيرهم... وتخلصهم من الارستقراطية، والتعالي بالفلتنة، وعدم الاغترار بالسلطة، أعطتهم الزمكانية المتناهية بإقامة ممالك وبناء دول وحوز: (حواكير) في أنحاء السودان عامة، ابتداءً من المحيط الأطلسي في سيراليون، وغامبيا، والسنغال وانتهاءً بنجيريا، ودارفور، وكردفان، وأعالي النيل الأبيض والأزرق، وبحر الغزال والبحر الأحمر. (بل قيل أنهم استوطنوا منطقة الخرطوم منذ أربعين قرناً أو يزيد؛ أي عام ٤٠٠٠ قبل الميلاد)[2].

ذلك لأن الواقع الَّذي لا مرية فيه أن المجتمع السوداني كان في عصر مَّا وثنياً، وفي عصر مَّا مسيحياً، وكان الزنوج يشكلون العنصر

---

(١) انظر: كتاب «سكان السودان»، ص ١٥ لمؤلفه د. م باربر، أستاذ الجغرافية بجامعة لندن وبجامعة الخرطوم سابقاً؛ ترجمة هنري رياض وكرم شفيق، دار الثقافة بيروت ومكتبة النهضة السودانية، الخرطوم.

(٢) المرجع السابق، ص ١٠ ـ ١١.

الأصلي القديم للشعب السوداني، وليس العرب المهجنين أو المختلطين؛ ثم أصبح بعد ذلك بسبب الهجرات المتدفقة من الشمال والشرق والغرب مجتمعاً مسلماً يعج بالمسلمين، ابتداءً من عصر الفونج، وازداد توسعاً في عصر الإمام المهدي وعهد خليفته إلى يومنا هذا «بل أصبح اليوم مجتمعاً يتطلع إلى إقامة دولة إسلامية تعيد للمسلمين العزة والكرامة، وتحميهم من الهجمات الشرسة التي تستهدف وجودهم وكيانهم ومقدساتهم وثروتهم.

ولا شك أن عنصر الفلاتة كان في طليعة الجنسيات أو الوحدات الوافدة، أو المهاجرة استجابةً لدعوة سلاطين دارفور للعلماء أولاً، ثم لتوجيه الشيخ المجاهد عثمان دان فوديو، الَّذي تنبأ لأصحابه باستيلاء الكفار على ديارهم وظهور المهدي في سودان وادي النيل، وأمرهم بالهجرة إليه حين يحدث ذلك؛ وقد كان في مقدمة الَّذين وفدوا مع الفلاتة المهاجرين علي الكرار[1] جد عبد الله آدم تورشين، الَّذي استقر بين التعايشة في جنوب دارفور.

إذن ما هي المشكلة؟.

المشكلة بكل بساطة قد شخصها وحدد أبعادها الأستاذ محمد إبراهيم أبو سليم في محاضراته وفي كتاباته؛ فقد قال في كتابه: (في الشخصية السودانية)[2] ما نصه: (إن الموضوع هو موضوع الشخصية السودانية أو موضوع القومية السودانية. موضوع له أهميته القومية، قال: ولقد عالجت طرفاً منه في محاضرتي وفي البعد الجنوبي، وهو مكونات الذهن السوداني وأصوله، مع الاعتبار لاختلافات اللون والعرق، وتفاوت مستويات الحياة وعمق التجربة البشرية؛ ثم استعرضت تصرفات هذا الذهن ومحاولة تقنينه؛

---

(١) عبد الله آدم ـ هو خليفة المهدي الَّذي اشتهر بالتعايشي.

(٢) طباعة دار جامعة الخرطوم للنشر ١٩٧٩م.

ولقد خالفني في تصوري كثيرون، وبعضهم أنكر حتى وجود شخصية سودانية على الإطلاق، وبعض ثالث ذهب إلى أنني لم أمض بالمحاولة إلى نهايتها، وأنني تركت بعض القضايا دون حسمها وذهب قوم آخرون إلى أنني أعارض تياراً معيناً؛ ولكن ليس ذلك هو الأمر، وإنما موضوعي محاولة مخلصة لاستكشاف ذاتنا... فإن المثقفين السودانيين مطالبون بتقنين علاقاتنا بالعالم العربي والعالم الإفريقي، ومعنى انتمائنا إلى العالمين، ووصلنا لهما، وتأثيرنا فيهما، وتأثير كل فينا حتى يكون مركزنا القومي كأمة مستقلة ـ ولكن غير منشطرة عن أصولها وإنتماءاتها ـ ومركزنا الإقليمي كطرف من عالمين: الإفريقي والعربي، ومركزنا الإنساني كأمة بين الأمم تسهم في بناء الحضارة الإنسانية...

إن دراسة قومية من الأمم مهمة إيجابية إذا ما هدفت لاستكشاف الذات، وأدت إلى معطيات هذه الذات؛ أمّا إذا كانت بغرض وضعها على التعارض لقومية أخرى.. فإنها تكون نظرة سلبية للقومية..) انتهى.

إذن المشكلة مشكلة الهوية السودانية والشخصية السودانية.

(هل لها وجود متميز؟ ما معالمها؟ ما خصائصها؟ ما مكوناتها؟...

لا بد من أن تتضافر جهود كثيرة وأن تتعاون ضروب شتى من العلوم، لنستطيع ـ في نهاية الأمر ـ أن نحدد خطوط هذه الشخصية، وأن نقتل موضوعها بحثاً.. إن المثقف السوداني مطالب بتقنين علاقاتنا بالعالم العربي والعالم الأفريقي...).

إذن المشكلة ليست فلتنة الهوية السودانية، إذ إن الهوية السودانية لم تتحدد معالمها بعد[1] بل إن البعض أنكرها على الإطلاق، نتيجة لمكونات

---

(١) انظر السودان: «حوارات الهوية والوحدة الوطنية»، عبد العزيز حسين الصاوي، مركز الدراسات السودانية؛ وكتاب «في الشخصية السودانية» محمد إبراهيم أبو سليم.

الذهن السوداني وأصوله وتصرفات هذا الذهن، ولأنها وليدة بيئات متعددة).

إن الفلاتة أو الفلان قد تخلصوا من ارستقراطية الفلتنة إلى الأسلمة منذ زمن بعيد، فقد تحولت قبيلة الفلاتة إلى الإسلام منذ تاريخ ظهور دولة تكرور، ثم غانة؛ وكان ظهور غانة على يد جماعة من البيض وفدوا من الشمال، كانوا أكثر ثقافة من المواطنين الأصليين الَّذين ينتمون إلى قبائل السوننكي[1] لكن الفقيه محمود كعت لا يقطع في ذلك برأي ويرجح أنهم من الصنهاجة[2].

أما السعدي فقد حدد أنهم من البيضان، ولكنه ذكر أنه لا يستطيع نسبتهم إلى أي طائفة من البيض[3].

والنقول تثبت بأن الصنهاجة من البيض ولمتونة وجدالة، وكذلك الفلاتة؛ ولا شك أن العلاقة ما بين لمتونه والفلاتة في غاية القوة، مما جعل أبا بكر بن عمر يستقدم قبيلة الفلاتة ويستعين بها على هزيمة السوننكي والوثنيين، فهزم أبو بكر غانة ودمر كومبي عاصمتها، وأصبحت مملكة غانة جزءاً من أمبراطورية المرابطين[4] مما يؤكد أن للفلاتة دورهم في ظهور دولة غانة[5] الإسلامية الكبرى أو دعم إقامتها.

لقد تحولت ـ فعلاً ـ قبيلة الفلاتة من الفلتنة إلى الأسلمة، ومن

---

(١) «تاريخ الفتاش» ص ٤٢.

(٢) «تاريخ السودان»، ص ٩.

(٣) «تاريخ السودان»، ص ٩.

(٤) «المرابطون» د. محمد عبد الهادي شعيرة، ص ٥١.

(٥) تقع غانة القديمة جنوبي موريتانيا وكانت عاصمتها تسمى «كومي» وقد امتدت نفوذ غانة إلى أوداغست في سنة ٩٩٠هـ، وكانت عاصمة إسلامية تحكمها قبيلة لمتونة، وهي وطن عبد الله بن ياسين.

الطبقية والارستقراطية والعنصرية والقبلية إلى مفهوم الإسلام لقضايا الهويات والشخصيات، والتي تقوم على أساس العقيدة ووحدة الأصل البشري، لا النوعي «ولا الجنس» ولا الإقليمي؛ فالناس كلهم لآدم وآدم من تراب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الحجرات: ١٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

ومعيار التفاضل بين بني آدم هو التقوى، فلا اعتبار لجنس خاص من البشر، أو إقليم معين من الأرض، أو لفئة خاصة من الناس؛ بل كل الناس في الوجود سواء.. بغض النظر عن لونه أو جنسه أو لغته أو أرضه؛ فلا عنصرية ولا عصبية ولا طبقية، وإنما الناس سواء كأسنان المشط.. لا فضل لأحد على أحد إلاّ بالتقوى: «لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلاّ بالتقوى». فأقاموا للإسلام دولته التي جمعت كل القبائل والأجناس - على السواء - في أمبراطورية واحدة هي دولة الفلان.

المشكلة ليست مشكلة فلتنة الهوية السودانية، فالفلاتي في فلتنته جنس متميز عن الجنس النوبي والزنجي «والنصوص التاريخية تؤكد ذلك.. الجنس الوحيد الأبيض أو الأحمر في أفريقيا الزنجية[١]».

(إنهم صفر البشرة، ذو شعر سبيبي ناعم، رقاق الأنف والفم، رشيقوا القوام). (ليس هناك أدنى شك في إن كانت هناك قبيلة أفريقية واحدة، تستحق اهتمام المتعلمين الأوروبيين.. فهي قبيلة الفلاتة)[٢].

---

(١) «دائرة المعارف الإسلامية»، ص ٩٣٩.

(٢) Stenning D. J: Savana Nomads, Oxford University press, 1959, page 5.

لا شك أنَّ هذا الجنس المتميز في دمه وعنصره، وفي مدى تمسكه بعقيدته وإسلامه، ليشرف كل أفريقي أن ينطلق من محوره، وأن يفلتن شخصيته بهويته، ناهيك.. وقد تخلصوا بالإسلام من قيم الجاهلية، وأوضار العرقية، وعقد التعالي والارستقراطية، والشعور بالتمييز المحلي؛ وصارت لهم إسهامات واسعة في نشر الإسلام بالمصاهرة والاختلاط والتعليم والجهاد؛ يكفي الدعاة إلى الله فخراً أنه حيثما ذكر الإسلام وانتشار حضارته.. كان للفلاتي دوره البارز والسبق الزمني[1].

إن المثقف السوداني المعاصر مدعو لمناقشة قضية تكوين الهوية السودانية، لا على أساس الأعراق والسحنات، ولا على أساس آصرة الدم أو الوطن، وإنما على أساس العقيدة والدين؛ ثم تأتي الأواصر الأخرى لتقرب ولتقوم بدور مساعد، كاللغة.. والدم؛ ويقرر المتخصصون في حياة الشعوب وتأريخهم هذه الحقيقة، يقول الأستاذ محمد إبراهيم أبو سليم في محاولة مخلصة ـ كما يقول ـ لاكتشاف ذاتيتنا: (بأن أول ما يلفت النظر حول هذه الشخصية السودانية أنها وليدة بيئات متعددة...)[2].

فإذا صح هذا ـ بل سجله التأريخ بالفعل ـ فما الَّذي يمنع ادعاء عروبة الوداي (البرقو) أو البرنو انتماءهم العربي إلى صالح بن عبد الله بن العباس عم الرسول ﷺ.

وأنهم والجعليين سواء ينتسبون إلى القبائل العدنانية، هذا جده فضل بن عبد الله بن العباس، وذاك جده صالح بن عبد الله بن العباس؛ بل ويعتبر البرقو سلطان وَدَاي (جامع..) من جعليي النيل الأزرق وعطبرة، وأن مدينة شندى كانت مركزاً لهم؛ أم أن هذا بالنسبة للبرقو والبرنو (واسعة شوية) وغير معقول، ـ بينما المؤرخون يثبتون أن أصول

---

(١) «أثر الفلان في انتشار الإسلام في غرب أفريقيا»، د. حسن إبراهيم حسن.
(٢) «في الشخصية السودانية»، ص ١٢.

الجعليين ترجع إلى الفور[١] ـ.

أما بالنسبة للنوبة الدناقلة والجعليين (ضيقة شوية) وفي غاية المعقولية؛ فإذا صحت معقولية هذه الدعوى في قوم وأجناس أصولهم نوبية، فمن باب أولى معقولية نسبة العرب والعربية إلى الفلاتة أو الفلان، الَّذين لا تتصل أصولهم بالزنجية والنوبة أصلاً، ودون [قيام بعملية غسل لبعض الأصول توطئة للمناداة بالهوية الفلانية، كأحد الأسس لمنح البطاقة السودانية بالإضافة إلى الإسلام].

إن الفلاتة قد تخلصوا من حدود القبلية الضيقة إلى رحاب الإنسانية الواعية، ومن إطار القومية المقيتة إلى آفاق الإسلام الواسع؛ وهذا هو المحور الَّذي انطلقت منه الهوية العربية، وهو محور المنطلق الفلاتي، والكانمي، والهوساوي، والبرناوي، والبرقاوي، والزغاوي، الإسلام أولاً؛ وحيث تقع برنو إلى الشرق من أمارات الهوسا، وتتصل ببحيرة تشاد التي صارت ملتقى خطوط تجارية، تصل هذه المنطقة بالشمال الشرقي والشمال وبالشمال الغربي والغرب؛ وعلى هذا فإن هذه المنطقة قد تلقت أفواجاً من الوافدين من مصر، ومن العرب، ومن البربر، ومن كانم، والزغاوة، والهوسا؛ وكل هذه الممالك كانت على صلة بشعب وادي النيل، وخاصةً قبائل سلطنة دارفور التي كانت عاصمة سلطنتها تسمى طُرَّة وتقع شمال جبل مرة، وفي عهد السلطان عبد الرحمن انتقلت العاصمة إلى الفاشر، ولا تزال الفاشر عاصمة دارفور[٢].

---

(١) يقول ك. م باربر ـ أستاذ الجغرافية بجامعة لندن وجامعة الخرطوم سابقاً ـ في كتابه: «سكان السودان» ترجمة هنري رياض وآخرون، يقول: وترجع أصول الجعليين إلى الفور رغم أنهم يدعون أنهم من أشرف العرب. انظر: ص ١٩.

(٢) قسمت سلطنة دارفور التي صارت بعد سقوطها في يد الانجليز عام ١٩١٦ مديرية دارفور إلى ثلاث ولايات: ولاية غرب دارفور وعاصمتها الجنينة، وولاية جنوب دارفور وعاصمتها نيالا، وولاية شمال دارفور وعاصمتها الفاشر وذلك بعد قيام ثورة الانقاذ.

وقد امتدت حدود دولة سلاطين دارفور إلى كردفان شرقاً وإلى بحر الغزال جنوباً، ووصلت إلى عطبرة، وكان ذلك في أوائل القرن الثامن عشر[1] فإذا كان كل هذا واقعاً ومثبتاً ولا يحتاج ثبوته إلى تأكيد، ألا يحق للدارس أن يتساءل ما المانع إذن من أن تكون الهوية السودانية من عناصرها الأساسية أو مكوناتها الذاتية والعضوية العنصر ـ الكانمي، والزغاوي، والبرناوي، والبرقاوي، والفلاتي، والهوساوي؛ فقد ارتبطت هذه القبائل بسلطنة دارفور التي امتد نفوذها إلى الشرق حتى بلغت شواطىء النيل، وغرباً حتى وصلت نيجيريا[2].

ما المانع من ذلك؟ ولكل هذه القبائل تأريخ مجيد من الاعتزاز بأنفسهم، واستمساك بالإسلام، واحترام للتقاليد، وصراع مع الاستعمار، وانتساب إلى العرب، وحب واحترام وتقدير لجميع قبائل سودان وادي النيل؛ بل وحدة شعور وإحساس وأماني وأهداف؛ ما المانع من أن تكون الهوية السودانية من مكوناتها العنصر الفلاتي، والبرناوي، والهوساوي، والجعلي؟ في حين أن ما أُثير حول شخصية سودان وادي النيل، وما جرت من محاولات لطمسها لم يثر حول شخصية الفلاتة، أو الكانم، أو البرنو، أو الزغاوة، أو الهوسا أو الفور.

(فقد اعتبر المؤرخ المصري محمد فؤاد شكري أن السودان قبل فتح محمد علي باشا كان مجرد فراغ، وأنه كان يحق لمحمد علي أن يفتحه ويتملكه حسب نظرية الخلو؛ وفي اعتبار (ماكما يكل) في مقدمة تأريخ السودان: (لآركل) إن السودان ظل يعيش في بربرية بغير نظام أو هدف حتى جاء الحكم الثنائي؛ وفي اعتبار آخرين أن هذه البلاد مفتوحة في شكل حق لغزو حاكم قوي في مصر)[3].

---

(١) موسوعة «التاريخ الإسلامي» د. أحمد شلبي ج ٦، ص ١٤٢.

(٢) «موجز تأريخ نيجيريا» ـ آدم عبد الله الألوري، ص ٣٥.

(٣) «الشخصية السودانية» محمد إبراهيم أبو سليم.

كل هذا قد قيل، إلاً أن السودان الَّذي استقبل كل القبائل الوافدة والمهاجرة.. وتفاعلت معها، ظلت محتفظة بذاتيتها رغم كل الدعايات المغرضة لطمس هويتها وإخفاء معالم شخصيتها.

الجهل الثقافي والتخلف الحضاري:

للمجتمع السوداني كغيره من المجتمعات مقومات معينة تنطق بمشخصاته الذاتية، وتعبر عن طابعه الَّذي تميزه عن غيره من الوحدات الاجتماعية؛ وغني عن البيان أن هذه المقومات إنما هي ثمرة ناضجة لتفاعل ظروفه التأريخية والاجتماعية والثقافية؛ والسبيل الواضح لفهم هذه المقومات هو أن ندرس تأريخ الماضي، لأن الدراسة التأريخية ضرورة ولازمة لمعرفة حقيقة النظم الحاضرة، ووضع النظم المستقبلية على أساس سليم؛ هذا إلى أن كشف الحقائق وإدراك الأمور العامة لا يمكن الوصول إليها من دراسة الحاضر فقط، ولا سيما أن حياة المجتمع السوداني تمتد إلى عصور سحيقة ولذلك يجب أن ندرس نتائج الماضي كما نلاحظها في الحاضر، وبخاصة عندما نريد استكشاف الذات السودانية.

إن مما لا شك فيه أن عدم استكشاف الذات، وبناء حاجز وهمي بين الشخصية السودانية والهويات المجاورة لها، يعد جهلاً ثقافياً؛ كما أن تجاهل العناصر والقوميات التي شكلت الذاتية السودانية والفرد السوداني، والَّذي ظل السودان يستقبل أفواجاً منها كالجراد المنتشر ـ من الداجو، وبرنو، والهوسا، وكانم، وزغاوة، وفلاتة، وبرقو، وتنجر، والبربر، والتكرور، والباجرمى الَّذين هاجروا إلى السودان وسكنوا فيه، سواء لأسباب سياسية... أو اقتصادية.. أو دينية؛ واختلطوا بشعب وادي النيل وصاهروهم، سواء أكانت المصاهرة من قبائل الفور، أو المساليت، أو اليمن أو الشلك والنوير، الأتراك أو الجانقي والسارا، أو الفرتيت والقِمِر،

أو النوبة والمصريين أو البجة والتي في إطارها وتفاعلاتها التأريخية والاجتماعية ولدت الشخصية السودانية المعاصرة؛ إن إيجاد حاجز وهمي بين الذات وهذه الكيانات، أو تجاهل دورها أو تهميشها، يعد ـ أيضاً ـ تخلفاً حضارياً وسياسياً؛ إذ أن الشخصية السودانية تعتبر ثمرة ناضجة لتفاعلات بسبب الاختلاط المتكرر بغيره من هذه الأجناس وغيرها، في إطار إسلامي وثقافي.

إن المثقف السوداني الَّذي يريد أن يعرف ذاتيته وموقعه من الذاتيات الأخرى، يتعين عليه أن يضع في الاعتبار: (إن حدود السودان مفتوحة، ولا زالت، وأن أطرافها متصلة ببلاد مأهولة ذات حضارات متفاوتة، أفريقية، ومسيحية، وإسلامية، وزنجية، وعربية، وتركية، ومصرية، وليبية).

ولا شك أن لهذه الحضارات التأثير في الشخصية السودانية، مما يؤكد أن الشخصية السودانية وليدة بيئات متعددة وحضارات متفاوتة؛ وهذا يفرض على المثقف أن يقف على تأريخ هذه الشعوب المجاورة.. والوافدة.. والمهاجرة التي استقرت؛ وهل هي شعوب لها واقع في التأريخ؟ وواقع في كل مظهر من مظاهر الحياة العربية والإسلامية؟ وهل لها كيانات ومواطىء أقدام وتأثير وتأثر؟ وهل شكلت قوميات وأوجدت تحولات وأحدثت انقلابات؟ أم هي شعوب متخلفة أو متبدية، لا ذاتية لها ولا هوية ولا قومية ولا قيادات، همج رعاع لاذوا بالفرار والهجرة، خوفاً من القتل الجماعي أو الزحف الصحراوي إنهم الدهماء أو الغجر؟.

وعندئذٍ يقف المثقف السوداني على حقيقة تاريخية وموضوعية، فيعلم أن الكانم، والبرنو، والزغاوة، والفلاتة، والتنجر[1]، وغيرهم.. كانوا من

---

(١) ذكر بعض المؤرخين بأن هناك صلة دم بين التنجر وعرب جذام وبين قبائل البلولا. انظر: «امبراطورية البرنو» د. إبراهيم علي طرخان، ص ١٨٨.

أسبق الشعوب الأفريقية اتصالاً بالإسلام والعرب في هذه المنطقة، وأن الدم العربي فيهم عميق قوي، وأن استقرار العرب بينهم كان بشكل أوسع وأطول وأقدم، إذا ما قيس بوجود العرب ودخولهم أو فتحهم للسودان (النوبة) من الشمال أو الشرق؛ فقد ذكر المؤرخون: (أنه في خلال القرون السبعة التي تلت فتح العرب لمصر وتوقيعهم لعهد النوبة، إثر هجومهم على دنقلا في عام ٦٥١ ـ ٦٥٢، تسرب العرب جماعاتٍ وأفراداً وفي يسر وبطء إلى بلاد البجة ومملكتي النوبة، أو (المقره) و(علوة) المسيحيتين، سعياً وراء المرعى، وطلباً للتجارة)[١].

يقول المقريزي: إن النوبة لم ينساقوا من المسيحية إلى الإسلام إلاً بالتدرج وفي بطء شديد[٢] ولقد منع النوبة بقوة شجاعتهم الدم العربي من الاستقرار والاستيطان في شمال السودان، فلم يسمحوا للمسلمين دخول وادي النيل إلاً مجتازين غير مقيمين؛ نعم هناك هجرات عربية تدفقت نحو أرض المعدن بقيادة عبد الله بن عبد الحميد العمري (٨٨٥ ـ ٨٨٧) وبعد فترة تمكنت قبيلة ربيعة بزعامة بشر بن مروان (٩٤٣)[٣] من التحالف مع قبائل مضر وتصاهر مع القبائل البجاوية، وحصل الاستقرار، وبخاصةٍ في عهد أبو عبد الله محمد المشهور بأبي زيد بن بشر وابنه أبو المكارم، الَّذي خلع عليه الحاكم الفاطمي لقب كنز الدولة.

وشهد العهد الفاطمي قيام أول دولة عربية إسلامية بزعامة كنز الدولة في النوبة السفلى، وتربع كنز الدولة على عرش دنقلا في سنة ١٣٢٣، وهو

(١) «مقدمة في تأريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي» ١٤٥٠ ـ ١٨٢١، د. يوسف فضل حسن، ص ١٣ الفصل الأول؛ وذلك في ولاية عبد الله بن أبي السرح؛ انظر: «مختصر تأريخ السودان»، مكي شبيكة، ص ٧.

(٢) المقريزي كتاب «الخطط» ج ١ ص ١٩٣.

(٣) «مقدمة في تأريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي»، ص ١٣ ـ ١٥.

من سلالة دولة الكنوز وهو عربي من قبيلة ربيعة، ولكن من جهة أمه يمت بصلة رحم لملوك مقرة)[١].

أما منطقة علوة، فالظاهر أن العرب تكاثروا بدرجة تفوقوا بها على سكان البلاد الأصليين، حتى زالت لغتهم واندمجوا في القبائل العربية وزال كيانهم، وأصبح الدم العربي غالباً، وانتشرت اللغة العربية، وأخيراً زحف الفونج وهم من البرنو والعبدلاب وأخضعوا القبائل التي حلت محل دولة مقرة، وأقاموا مكان الدولتين مملكة إسلامية سنة ١٥٠٥، وابتنوا مدينة سنار، وكانت الدولة تسمى: دولة الفونج أو دولة سنار[٢] وبسقوط دولة مقرة المسيحية في أيدي المسلمين، إنهار السد المنيع الَّذي كان لعدة قرون يحول دون توغل العرب في حوض النيل، وقد كان لقبيلة الزغاوة المشاركة الإيجابية في إسقاط دولة مقرة[٣].

ومع هذا كله فإن التاريخ الَّذي أثبت هذه الحقيقة أثبت ـ أيضاً ـ أن الزحف العربي كان على أفريقيا ـ شمالها وجنوبها ـ واسعاً وضخماً، وفي شكل قبائل وبطون وجماعات من بني هلال وسليم، وتم ذلك في أواسط القرن الخامس الهجري، وفي بعض الروايات: «إن الَّذي أدخل العرب إلى أفريقيا إنما هو أبو القاسم الجرجاني» ولكن ابن خلدون ينفي ذلك ويقول: بل هو المستنصر الَّذي بعث وزيره سنة إحدى وأربعين إلى أحياء هلال (من جشم، والأشيح، وزغبة، ورياح، وربيعة، وعدي) وأجزل لأمرائهم العطاء، ووصل عامتهم ببعير ودينار لكل واحد منهم، وأباح لهم إجازة النيل، وقال لهم:

---

(١) مكي شبيكة «مختصر تأريخ السودان»، ص ٨ ـ ٩.
(٢) موسوعة «التاريخ الإسلامي»، د. أحمد شلبي ص ١٤٦.
(٣) «الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا»، د. حسن أحمد محمود، ص ٢٩٩.

(قد أعطيتم المغرب وملك المعز فلا تفتقروا).

وكتب الوزير اليازوري أبو الحسن إلى المغرب:

(أما بعد: فقد أنفذنا إليكم خيولاً فحولاً، وأرسلنا عليكم رجالاً كهولاً، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً) فطمعت العرب إذ ذاك وأجازوا النيل إلى برقة ونزلوا بها، وفتحوا أمصارها واستباحوها، وكتبوا لإخوانهم بشرقي النيل يرغبونهم في البلاد.

ووصف ابن خلدون الزحف العربي على أفريقيا بقوله: (إنه الجراد المنتشر.. لا يمرون بشيء إلاّ أتوا عليه)!!.

وفي هذا الوصف ما يوحي بقوة الفتح، وأهمية الحدث، وكثافة العرب، واندفاعهم إلى أفريقيا، مما عرب جزءاً كبيراً من القارة الأفريقية وأدخله بشرياً وثقافياً في العائلة العربية عبر المحيط الأطلسي، وربطه برباطي الدين واللغة.

وتوالت الهجرات العربية وأسلم البربر، وظهر الطوارق، والمرابطون، والملثمون، وهم من صنهاجة، وتعددت قبائلهم: كذالة، ولمتونة، ومسوفة، وتريكة، وفناوكة، ولمطة، والزغاوة، واستوطنوا جنوب موريتانيا، واتخذوا اللثام شعاراً لهم تميزوا به بين الأمم، فسموا: (بالملثمين).

أما الطوارق فهم ـ أيضاً ـ ينتمون إلى البربر في شمال أفريقيا، وهم يعيشون عيشة البداوة في الصحراء السودانية، وفي حوض بحيرة تشاد.

وقد قام المرابطون بنشر الإسلام في جنوب موريتانيا والمناطق الزنجية والوثنية، واستولوا على مملكة غانة وأدخلوها في الإسلام، كما أدخلوا شعب التكرور، والمادنغا، والسرخللي، والديوة؛ ثم ابتدأ الإسلام

ينتشر بجهود المواطنين الَّذين أسلموا وتفهموا تعاليم الإسلام، ولم ينته القرن الحادي عشر حتى كان الإسلام قد عم السودان كله، وتمت السيطرة على مملكة غانا الوثنية وعلى ملحقاتها، وأسلم ملوك المادنغا، وقبائل المناطق الواقعة بين السنغال الأعلى والنيجر الأعلى، ثم شعوب وادي السنغال، ثم أمراء الولايات الواقعة في أوساط النيجر.. وماسينا.. والساحل، ثم أمبراطورية غوا، ثم بلغ بحيرة تشاد وانتشر في ممالك الكانم، والبرنو، والهوسا، ودارفور.

فإذا وقف المثقف على هذا المسح التأريخي، وعلم أن لهذه الشعوب ممالك إسلامية قامت كما قامت مملكة العبدلاب، والفونج، والفور، وتقلي[1] وإنها ممالك أثرت الحياة الإنسانية والحضارة الإسلامية والثقافة العربية، وإنها كانت أعظم بكثير من ممالك السودان الشرقي، سواء في دورها في القيام بنشر الإسلام، وتعميق تعاليمه، وإقامة دولته؛ أم في مقاومة الاستعمار الَّذي جاء لتصفية الإسلام والسيطرة على شعوبه وموارده، مثل[2]:

- مملكة غانة.
- مملكة مالي.
- مملكة التكرور.
- مملكة صنغاي.

---

(١) هذه هي الممالك الإسلامية التي قامت في السودان الشرقي ١٤٥٠ ـ ١٨٢١ ـ انظر: د. يوسف فضل حسن، «مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي».

(٢) انظر إنفاق الميسور في فتح بلاد تكرور لمؤلفه السلطان محمد بيلو سلطان سكتو الفلاتي وقد ألفه ما بين ١٨١٠ ـ ١٨٢٥.
وانظر: «إمبراطورية غانة الإسلامية»، د. إبراهيم علي طرخان، ص ٣٠ ـ ٣٣؛ ومملكة مالي للدكتور صلاح المنجد، ص ٤ ـ ٧.

- مملكة برنو.

- مملكة كانم.

- مملكة البمبارا.

- مملكة صوصو.

- مملكة الفلان.

وأن لهم قيادات وزعامات هم الممثلون لحركة البعث الإسلامي ومقاومة الاستعمار، أمثال: الشيخ عثمان دان فوديو، والزعيم سيكو أحمد في ماسينا، والحاج عمر تال في إمارة البامبرا، والسلطان سعيد، وماء العينين، والوداد محمد بن عبد الله حسن[1].

إذا وقف المثقف السوداني على هذه الحقائق أدرك بلا شك أن نضاله اليوم امتداد لنضال هؤلاء الأفذاذ، وبعث لكفاحهم، وحمل للراية بعدهم.

فكان الاحترام والتقدير لهؤلاء القادة، والإكبار والاحترام لشعوبهم، والإعجاب بهم.. انطلاقاً من وحدة المبادىء، أو من الإيمان بنظرية أن الحضارة حلقة متصلة تسلمها الأمة المتحضرة إلى من بعدها، لا تختص بأرض ولا عرق، وتكاد لا تخلو أمة من تسجيل بعض الصفحات في تأريخ الحضارة، وإن تعصبه لنسبة الدم العربي فيه مساوٍ لتعصب غيره لنفس النسبة.

هكذا كان حال المجتمع السوداني قبل ظهور المهدي وبعد ظهوره وقبيل وفاته، حيث اختفت كلمة: (أصلي وفصلي) فالكل أبناء السودان، الدناقلة، والفلاتة، والجعليون، والبقَّارة، والغرَّابة، والشايقية، والزغاوة، والبرنو، والكواهلة، دينهم الإسلام ووطنهم السودان.

---

(١) «السودان والحضارة العربية»، د. عبده بدوي، ص ٢٥٨.
«الإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا»، د. عبد الرحمٰن زكي، ص ٩٩ ـ ١١٤.

وتأكدت نظرية التجنس للأوطان للموجات البشرية الفاتحة أو الوافدة، التي تتفاعل وتتوالد وتقوى على حفظ وجودها في بقعة من البقاع. وبذلك نستطيع ان نرتفع [إلى مستوى حدود الانتماء القومي العضوي والاستراتيجي للشخصية السودانية].

فإذا كان هذا هو الواقع فعلاً ومعاشاً فلماذا لا تكون الهوية السودانية من مكوناتها العنصر الكانمي، والزغاوي، والعنصر الفلاتي، والبرناوي، والوداي؟ كلها عناصر وجنسيات وفدت إلى السودان واستقرت، وتفاعلت، وحافظت على وجودها، وإن صلتهم بالعرب والعربية مساوٍ لنسبة المواطنين في شمال السودان وشرقه إلى هذا الفرع أو ذاك، فالكل مرتبط بالعرب ويجعل لنفسه سبباً ونسباً يعود إليهما.

كثير من المؤرخين والكتاب أكدوا امتزاج العرب بسلالات حبشية وعناصر نوبية وليبية في عصور ما قبل التاريخ، مما يضفي عليهم صفة الجنس الحامي الأفريقي الأصل، الّذي سكن في عصر ما قبل التاريخ، وأقام أقدم الحضارات؛ لكن الثابت أن الحاميين أنفسهم يرجعون في أصولهم الجنسية إلى عناصر البحر المتوسط أساساً كالمصريين تماماً؛ بل هناك من الكُتّاب من ذهب إلى أن كل العناصر الأفريقية الحامية كانت في وقت مًا ممتزجة ومنتشرة في الجزيرة العربية نفسها؛ ويستدلون على هذا بوجود الصفات الأفريقية، ولا سيما الشعر، ولون البشرة، ومميزات الوجه الواضحة في سكان المناطق الجنوبية من الجزيرة العربية، وضوحاً يصعب معه - في بعض الأحيان - التفريق بينهم وبين عناصر من المجموعة الأفريقية، كالهدندوة، وبني عامر، والزغاوة - مثلاً - والليبيون مثلهم في ذلك مثل الأرمن والساميين، ينتمون - جميعاً - إلى سلالات البحر المتوسط التي ينتمي إليها المصريون)[١].

---

(١) «الإسلام والمسلمون في غرب إفريقيا» وكتاب: «شخصيات أفريقية» للمؤلف، ص ١٢.

إن العقل والواقع يؤكدان بأن حياة المجتمع السوداني تمتد إلى عصور سحيقة، وإن حدود المجتمع السوداني مفتوحة ومتصلة ببلاد مأهولة بجنسيات وقبائل ذات حضارات متفاوتة، وإن الموجات التي كانت نازحة إلى وادي النيل من جهة الغرب، كانت أكثر تأثيراً من غيرها في القبائل التي استقرت قبلهم في المنطقة؛ فإذا سلمنا بهذا وبدوام الاتصال بين سكان دولة سنار وما جاورها، وسكان غرب دارفور وتدفقهم إلى أنحاء بعيدة حتى مشارف البحر الأحمر، وإنهم سلالات ولهم كيانات معترف بها، ونظارات، وعموديات، ومشيخات، وإدارات؛ لكان من المنطق أن نسلم ـ أيضاً ـ بصلة الجنس التي تربط بين شعب وادي النيل وجميع القبائل القاطنة على ضفاف النيل الأبيض والأزرق، وبين هذه الكيانات (الغرّابة) وبالتالي نسلم بمقولة: إن الهوية السودانية أو الشخصية السودانية من مكوناتها الأساسية قبائل دارفور، والقبائل التي وفدت من غرب دارفور، في مقدمتها قبائل الكانم، والزغاوة، والبرنو، والبرقو، والفلاتة، والهوسا.

(فالسودان يعتبر ملتقى الأجناس والحضارات منذ فترة طويلة شهدت هجرات واسعة، وامتدت من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق، وتفاعلت في شرق النيل وغربه، فكانت مهيأة لأن تلعب أعظم دور في حياة السودان الثقافية والحضارية، فمن التقاء هذه العناصر المهاجرة نجمت تلك التحولات الكبرى التي طبعت المنطقة بطابعها السياسي والثقافي. كما يقول الدكتور عون شريف قاسم)[1].

(وفي داخل هذا الإطار الطبيعي والبشري ـ كما يقول الأستاذ محمد إبراهيم أبو سليم ـ ولدت الشخصية السودانية ونمت، واتخذت بُعدها التاريخي).

---

(١) مجلة حروف، المجلد الأول، العدد الرابع، ص ٢٣٠.

من الَّذي ينكر أن هناك هجرات بشرية جماعية أو فردية قدمت إلى السودان من الغرب إلى الشرق، واستوطنت غرب السودان في دارفور، كما استوطنت وسط السودان شرق النيل وغربه؟.

وإذا كان هذا هو الواقع والحاصل بالفعل... فلماذا لا نفكر في دراسة تاريخية واجتماعية لحياة وتأريخ هذه الجماعات، التي استوطنت شرق النيل وغربه، كما استوطنت دارفور من كانم، وهوسا، وزغاوة، وبرنو، وتنجر، وبرقو وفي طليعتهم الفلاتة؟!! وأن ننظر إلى خصائصهم ومقوماتهم الاجتماعية والحضارية؟!!.

هل قدموا إلى السودان كشعوب وثنية أو بدائية؟.

هل هم همل رعاع؟ لا أصالة ولا رسالة ولا سابق حضارة؟.

أم هم شعوب لها رسالة، هي دعوة الإسلام، ولها حضارة.

هي حضارة الإسلام، ولها سابق جهاد وكفاح، سواء مع الوثنية أم مع الاستعمار، ولها قيادات وزعامات وانتفاضات؟.

فإذا صح هذا، فما المانع من أن نقرر بأن الهوية السودانية للشخصية السودانية هوية متميزة ناضجة، ومبلورة لخصائص جميع القوميات التي وفدت إليه؛ (فلا المصري صار مصرياً، ولا التركي أضحى تركياً، ولا الكانمي.. أو البرناوي.. أو الزغاوي.. أو الفلاتي.. صار فولاتياً) وصار المنظور هو وحدة الأصل البشري، لا النوعي، ولا الجنسي، أو الإقليمي: (كلكم لآدم وآدم من تراب) وعليه.. فآمل ألاَّ يتورم مثقف ملتزم بقيود من الأعراف غير المستنيرة، يرى نفسه بطلاً لنهضة أكثر عظمة، بهذا العرض التأريخي الَّذي قد لا يعجب كثيراً من المتعلمين لأسباب غير منطقية، لعل أهمها ما قرره البروفسير محمد عمر بشير، على لسان أحد النقاد: إن المتعلم السوداني نشأ في أحضان جماعة بدائية ينطوي قلبه على احتقارها... وهو يستعيض عن إحساسه بالانسحاق بخلق أسطورة عن

ماضيه المجيد، ويرى نفسه بطلاً لنهضة أكثر عظمة؛ وما ذلك إلاً لأن التعليم في السودان ـ منذ بدايته ـ لم يكن يهدف إلى خلق الإنسان الوطني الغيور على بلاده المحب لشعبه، وفي نفس الوقت خلق الإنسان المبدع والخلاق، بل على العكس.. فإن التعليم في السودان خلق اتجاهاً عقلياً يبلغ في دركه الأسفل الحسد، وفي أحسن صوره إحساساً بالانحراف صوب السفسطة والرومانسية[١].

ولما كانت كلمة الغرَّابة تستخدم في سودان وادي النيل للإشارة إلى الشعوب القادمين من البلاد الواقعة غرب دارفور[٢]، ويشمل التكرور، والهوسا، وسكان برنو، ودار برقو[٣]، ثم استخدمت في مقابل أناس هم: (سكان النيل وزعماؤهم الأشراف، والدناقلة، والجعليون أساساً) وعندئذٍ يكون الغرَّابة هم سكان كردفان ودارفور، وزعماؤهم البقارة[٤] وكل من ناصر خليفة المهدي[٥]. ويطلق عليهم ـ أيضاً ـ لقب: (الغرباء)[٦] ويطلق عليهم ـ أيضاً ـ لقب: (أولاد العرب)[٧].

وإذن فالمقصود بالغرَّابة هنا هم: الفلاتة أو الفلان؛ وهم الجنس

---

(١) محمد عمر بشير: «تطور التعليم في السودان»، دار الثقافة للطباعة والنشر، الخرطوم ١٩٧٠، ص ٢٢.

(٢) انظر: صفحة ١١ من هذا الكتاب.

(٣) انظر: حركة عثمان دان فوديو على دعوة المهدية في سودان وادي النيل، للأستاذ يوسف فضل حسن، ص ٨ ـ ٩، جامعة أفريقيا العالمية ١٩/١١/١٩٩٥.

(٤) «العلاقات بين الخليفة عبد الله التعايشي وقبائل السودان»، ص ٣٢، رسالة الماجستير عزام أبو بكر علي الطيب.

(٥) «تاريخ السودان الحديث»، ضرار صالح ضرار، ص ١٦٧، و«تاريخ الحركة الوطنية في السودان، ص ٢٥، و«مختصر تاريخ السودان الحديث» مكي شبيكة، ص ٩٠.

(٦) بروفسير محمد عمر بشير ـ «تاريخ الحركة الوطنية في السودان».

(٧) د. مكي شبيكة، «مختصر تاريخ السودان الحديث»، ص ٩٠.

المتميز عن الجنس النوبي والزنجي[1] بإسهاماتهم الواسعة في مجال نشر الإسلام ولغته، والدعوة إلى تفهم تعاليمه، وتطبيق أحكامه، وإقامة دولته، وبناء أمته.

قيل إنهم جنس مستقل له خصائصه وذاتيته كالبربر، والزنوج، والعرب، والروم؛ وقيل إنهم جنس مولد أو خليط من عدة أجناس، حدث بينهم امتزاج ومصاهرة أدت إلى تمييز الفلاتة كجنس له خصائص مجتمعة من كل جنس داخل تكوينه.

وهناك عدة آراء بهذا الصدد، ولكني أختار الرأي القائل: بأن الفلانيين ينتمون إلى عقبة بن نافع، وذلك لأن كل الآراء في جملتها استنتاجية وتحليلية؛ وما اخترناه هو رأي علماء الفلاتة الَّذي نقلوه عن أسلافهم وأثبتوه في كتبهم وأشعارهم، عن طريق الرواية والسماع والنقل؛ وهو منهج سليم في التثبت، فهم من أولاد: (عقبة بن نافع عرب أباً وروم أماً) وهم الَّذين قال الإمام المهدي فيهم: (الفلاتة ردائي وإزاري، شعري ودثاري، شمسي في النهار، وقمري في الليالي)[2] وقال السيد عبد الرحمن المهدي: [الفلاتة جنس يعتز به هم لنا عصب، لهم بالمهدي نسب، ومع الأنصار حسب][3]. وقال السيد الصديق المهدي: [الفلاتة هم أهل الصفا

---

(١) جميع الَّذين كتبوا عن أفريقيا ذكروا أن عنصر الفلاتة غير زنجي، وقال رولاند أوليفر وجوب فتح في كتاب: «موجز تأريخ أفريقيا» ص ١٦٥، ترجمة د. دولة أحمد صادق: «وعلى الرغم من أن الصفات الجسمية للفولاني غير زنجية بشكل ملحوظ، مما دعا بعض العلماء إلى القول: «بأنهم منحدرون من عنصر غير زنجي في غانة القديمة، إلاّ أننا يجب أن نعتبرهم اليوم من الشعوب الزنجية، لارتباطهم بالعائلة الزنجية في اللغة».

(٢) انظر: رسالة الإمام المهدي للشيخ حياة.

(٣) انظر: خطاب السيد عبد الرحمٰن المهدي للشيخ إبراهيم ناصر المعروف «بمرفعين الفقراء» له مسجد كبير بالعباسية أم درمان في حي الأمراء، والغريب في الأمر أن غالبية=

والوفا، لهم عند الإمام المهدي قربى ومكانة وزلفى] وقال السيد حسن المرغنى: [إنهم أبناء ديني وجلدتي أنا وهم من شجرة واحدة][1] هؤلاء هم الفلاتة المعنيون في هذا العرض.

والجدير بالذكر (إنك لا تكاد تجد قبيلة من أصل زنجي، أو نوبي، أو بربري؛ ابتداءً من المحيط الأطلسي إلى ساحل البحر الأحمر، أسلمت إلاّ واصطنعت لنفسها نسباً عربياً؛ فسلاطين مالي يدعون الانتساب إلى عبد الله بن صالح بن حسن بن علي، وانتسب سلاطين كانم، وبرنو، والزغاوة إلى حمير، واتخذ سلاطين سنغى مثل هذا النسب العربي)[2] ومثل ذلك كان ادعاء الجعليين والبرقو وكلاهما ينتسب إلى المجموعة العباسية.

دورهم في تشكيل الهوية:

ونعني بدورهم في تشكيل الهوية ما خلفوه من أثر نتيجة لتفهمهم لتعاليم الإسلام، وارتباطهم بتوجيهاته في المسار الاجتماعي؛ فخالطوا كل الأجناس وصاهروا كل القبائل، دون افتخار بعروبتهم، أو اغترار بفلتنتهم، أو اعتزاز بهيمنتهم على القرار الاقتصادي والسياسي؛ فحصل الانصهار القومي الممتزج بالنسب والمصاهرة مع كل القبائل التي نشأت نشأة ذاتية من طبيعة المجتمع، مصطبغة بصبغة العروبة والإسلام، وقد صارت معلومة مشهورة عنهم يعرفها الخاص والعام، ودونتها كتب التأريخ باعتبارها نماذج

= الفلاتة أنصار، إلاّ أن الشيخ إبراهيم ناصر «مرفعين الفقراء» كان ختمياً ومن خاصة السيد علي المرغني وأحبابه. وهو متزوج من قبيلة الشايقية.

(١) د. حسن أحمد محمود: «الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا» ص ٣١٨.

(٢) نقلاً عن كرم محمد كرم والي ولاية الخرطوم سابقاً فقد أثبت أن السيد حسن المرغني أشرك الفلاتة في المصاهرة من أرحامه وجعل زوجاتهم أخوات نسائه وخالات أبنائه. انظر: صفحة ٣٧٨.

سلوكية لازمت وجودهم وحددت معالم شخصيتهم، سواء في البلاد التي فتحوها وأقاموا فيها ممالك وإمارات، أو البلاد التي عاشوا فيها وهاجروا إليها؛ وقد تمثل ذلك في قيام دولة الفلاتة التي ضَمَّتْ كل القوميات في وحدة دينية لا تعرف العصبية ولا القبلية، بقيادة الشيخ عثمان بن محمد دان فوديو، الَّذي بدأ جهاده من أوائل القرن الثالث عشر الهجري (١٢١٩ ـ ١٢٣٢ هـ) التاسع عشر الميلادي (١٨٠٢ ـ ١٨١٧ م)[١] ويعد من أعظم القادة والمصلحين في السودان على الإطلاق، سبقت دعوته ثورة الإمام محمد أحمد المهدي بنصف قرن من الزمن أو أكثر، بل تعد ثورة الإمام المهدي امتداداً لدعوته وأثراً من آثار حركته الإصلاحية والفكرية، فقد بشرت بقرب ظهوره وشجعت على تأييده، وطلبت من الفلاتة أن يهبوا لمبايعته ونصرته فور ظهوره، فلا موالاة للنصارى ولا مهادنة للكفار، فإما الهجرة وإما القتال؛ فكانت هجرتهم الجماعية اللاحقة لهجرتهم الفردية، والدعوية، والتعليمية السابقة.

ماذا نعني بالسودان؟.

نعني بالسودان سودان وادي النيل، والسودان الأوسط، والسودان الغربي، وهو في إطار السودان الكبير الَّذي عرفه الرحالة والجغرافيون المسلمون في العصور الوسطى باسم بلاد السود وبلاد السودان، والَّذي اشتهر أخيراً بغرب أفريقيا، وهي تشمل: السنغال، جامبيا، مالي، النيجر، الكونغو، سيراليون، غانا، فولتا العليا، جمهورية تشاد (أي أن بلاد السودان تشمل في عرف العرب من الناحية الجغرافية إقليم غربي أفريقيا ومعظم سودان وادي النيل)[٢].

فالَّذي يتكلم عن الجنس السوداني، أو الهوية السودانية الأفريقية، أو

---

(١) «الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا» د. حسن أحمد محمود، ص ٢٦٦.

(٢) موسوعة «التاريخ الإسلامي»، ج ٦، د. أحمد شلبي، ص ٦٢٩ و٦٣٠، إمبراطورية البرنو الإسلامية، د. إبراهيم علي طرخان، ص ١٧.

النوبية، لا يمكنه ـ بحال ـ أن يتجاوز أبعاد هذا الإطلاق للمفهوم الجغرافي لكلمة السودان الّذي يصور ارتباط الجنس الزنجي بالمنطقة أولاً، وما تبع ذلك من لغة وعادات، ثم الجنس الوافد إلى هذه المناطق منذ عهود سحيقة، وما يحمله من لغة وعادات، وما يحمله من لغة وديانة وحضارة، سواء أكان هذا الوافد مصرياً، أو فلاتياً برناوياً فونجياً، أو أموياً حبشياً، أو كردياً عراقياً، أو تركياً يونانياً، أو مورتانياً شنقيطياً أو ليبياً سنوسياً.

وسواء ارتبطت الهوية بعقيدة.. وفكرة.. ومذهب، أو بجنس.. ولغة.. ومصلحة مشتركة، فكلها لا تستبعد المؤثرات الخارجية المساهمة والمساعدة في تشكيل الشخصية وبلورتها والمحددة لأبعادها وأهدافها، سواء أكانت تلك المؤثرات زنجية، أو حامية، أو سامية، بالمجاورة والمصاهرة أو المشابهة في اللون، أو اللغة، أو التقاليد، والأعراف؛ ولقد كان لعنصر الفلاتة في تلك المناطق الوجود المؤثر والدور البارز في تحديد معالم الشخصية أو تكوين الهوية فيها، إسلامية كانت الهوية، أو زنجية، أو عربية[1]، نعم.. هنالك عناصر مختلفة دخلت واستقرت في تلك المناطق من عرب وبربر، بل وقام البربر ـ وبخاصة قبائل (صنهاجة) و(لمتونة)[2] و(مسوفة) و(جدالة) و(زغاوة) ـ بأعظم دور، فتحوا مملكة (غانة) وحولوها دولة إسلامية، وكانت دولتهم هي التي مهدت لانتشار الإسلام في كل أنحاء السودان، وقد عرف ملوك (اللمتونة) بالمرابطين، إضافة إلى ما قام به الطوارق بعد إسلامهم من نشاط توسعي نحو الجنوب لنشر الإسلام بين قبائل الزنوج؛ ثم قامت عدة ممالك: (غانة) ومملكة: (مالي) و: (سنغى)

---

(١) «انتشار الإسلام في العالم» في ٤٦ دولة أسيوية وأفريقية، الجزء الأول، الدكتور عبد الله مبشر الطرازي، ص ١١٨ ـ ٢٠٨.

(٢) هذه القبيلة لها علاقة رحمية ووطيدة بالفلاتة قديماً وحديثاً، فقد اشتركوا معاً في إسقاط غانة وفي قتال السوننكي الوثنيين سنة ١٠٦٧ ـ انظر: موسوعة «التاريخ الإسلامي» ج ٦، د. أحمد شلبي، ص ١٠٩.

بمشاركة جنسيات متعددة في مقدمتهم قبيلة الفلاتة[١].

وكان لقبائل السوننكي[٢] أعظم دور في إيصال الإسلام إلى الساحل الغربي الأفريقي بإقليم ماسينا، إلاَّ أن دور الفلاتة من بين تلك المجموعات التي شاركت في تأسيس تلك الممالك، كان دوراً متواصل الكفاح وممتد النشاط، تعدى حدود (مالي) و(سكتو) و(برنو) و(كانم) و(باقرمي) و(وداي) إلى أن وصل (دارفور) و(سنار) و(البحر الأحمر) و(الحجاز) وبنفس القوة التي قاومت بها قبيلة الفلاتة الوثنية بالدعوة، والجهاد، والمصاهرة، والزواج، كانت مقاومتهم للاستعمار، وحتى الصهيونية بالسيف، والجهاد، والهجرة: بغرض الإعداد والاستعداد، امتداداً من ثورة الشيخ عثمان دانفوديو وانتهاءاً بحفيده: (سردونا أحمد بيلو) الَّذي منع أي إسرائيلي من دخول شمال نيجريا حتى وزيرة خارجيتها آنذاك: (جولدا مائير). وما دخلها إسرائيلي إلاَّ بعد استشهاده سنة ١٩٦٦، بمؤامرة استعمارية صهيونية مع حركة بيافرا الانفصالية[٣].

ولقد أشاد الأزهر الشريف بهذا الدور للفلاتة، ممثلاً في زعامة الشيخ عثمان دان فوديو لدى احتفائه بحفيده سردونا: (أحمدو بلو) ومنحته الشهادة العالمية من درجة أستاذ[٤].

---

(١) «الفلاتة في أفريقيا ومساهماتهم الإسلامية»: الطيب عبد الرحيم محمد، ص ٣٧.

(٢) السوننكي يعيشون في مناطق الساحل وقد سكنوا قديماً الصحراء، وامتزجت بهم عناصر البربر والفلاتا، وهم أحد شعوب «الماندي» وهم الَّذين استولوا على مملكة غانا سنة ٧٧٠م - انظر: «الإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا»، الدكتور عبد الرحمٰن زكي، ص ١٦، وص ٢٦، وص ١٢٣، وص ١٠٣.

(٣) «الدعوة الإسلامية في غرب أفريقيا وقيام دولة الفلان»، د. حسن عيسى عبد الظاهر، ص ٦، تشاد، محمود شاكر، هامش ٣٨.

(٤) المرجع نفسه، ص ٥١، انظر الأزهر تاريخه وتطوره ص ٥٩٧، ط ٤، ١٩٦٤م - القاهرة، وكان ذلك بتاريخ ٢٢ يوليو ١٩٦٢م.

وقامت وزارة الأوقاف المصرية بطباعة كتاب: (إنفاق الميسور في تأريخ بلاد التكرور) للسيد: (محمد بيلو) سنة ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م؛ إشادةً وتخليداً لهذا الكفاح.

كما أشادت جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالمملكة العربية السعودية بنفس الدور، إذ قامت إدارة الثقافة والنشر فيها بطباعة كتاب: (الدعوة الإسلامية في غرب أفريقيا وقيام دولة الفولاني) للدكتور حسن عيسى عبد الظاهر، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م؛ ومن قبل قامت جامعة أم درمان الإسلامية بنفس الدور، إذ خصصت في مجلتها الإسلامية - العدد الأول ١٣٨٨هـ - باباً خاصاً بعنوان: «الإسلام وحركات الفولان الإصلاحية» بقلم د. مصطفى مسعد.

وقبل كل هذا وذاك قام الملك عبد العزيز - ملك المملكة العربية السعودية - بتخليد هذا الدور، والإشادة بعلماء الفلاتة، فأمر بطباعة كتاب: (إيقاظ همم أولي الأبصار للاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار، وتحذيرهم عن الابتداع الشائع في القرى والأمصار) للشيخ الإمام: (صالح بن محمد العمري) الشهير بالفلاني (رحمه الله) سنة ١١٦٦- ١٢١٨هـ[١] على نفقته الخاصة سنة ١٣٥٤هـ بباكستان، وتم توزيع الكتاب لجميع أنحاء المملكة والعالم الإسلامي، وقد أعيد طبعه في ذي الحجة ١٣٩٤هـ ديسمبر ١٩٧٤م، تخليداً لإنجازات الملك عبد العزيز في المجال الثقافي[٢].

إني من هنا أناشد كل الجامعات العربية - بخاصة الجامعات الإسلامية، وأخص بالذكر جامعة الملك عبد العزيز، باعتباري أحد منسوبيها وعضواً في هيئة التدريس فيها - بأخذها سبق المبادرة بإعادة طبع هذا الكتاب إحياءً لهذه السنة الحسنة.

---

(١) انظر: «فهرس الفهارس والإثبات»، للأستاذ الشيخ عبد الحي الكتاني.
(٢) مطبعة دار نشر الكتب الإسلامية كوجرانواله ٥ باكستان.

سكان النيل وسكان الغرب:

جاء في كتاب تأريخ السودان الحديث[1].

(بمجرد استلام الخليفة عبد الله الحكم، شعرت القبائل السودانية ـ التي تسكن على النيل ـ بأن السلطان خرج من أيديهم إلى من هم دونهم تقدماً ومدنيةً ومالاً؛ ووجدوا أنفسهم يحكمهم رجل لا يكنون له احتراماً كبيراً، لأنه لا يمتاز عنهم بشيء في النسب أو الجاه؛ بل يعتبرونه أقل منهم في كل ناحية.. وخاصةً العلم والرقي؛ ومنذ ذلك الحين انقسم السودانيون إلى قسمين: سكان النيل، وسكان الغرب الَّذين يسكنون في غرب السودان؛ وكان زعماء سكان النيل هم من الأشراف، والدناقلة، والجعليين أساساً؛ أما أهل الغرب فعلى زعامتهم البقارة ثم بقية من ناصرهم من هناك) ـ ويطلق عليهم ـ أيضاً ـ لقب الغرباء[2] وأولاد عرب.

البقارة هم الفلاتة:

وكلمة البقارة هنا لم تكن في مقابل الأبالة، فالَّذين نصروا المهدي وخليفته من أهل الغرب فيهم رعاة الإبل والبقر والأغنام؛ ولكن المراد بالبقّارة هنا الفلاتة، والمراد بزعامتهم هو خليفة المهدي (عبد الله بن محمد آدم تورشين) الملقب بالتعايشي الَّذي جاء جده علي الكرار في طلائع هجرات الفلاتة القادمة من الغرب لمقابلة المهدي المنتظر، واستقر بمنطقة التعايشة وتزوج منهم[3]؛ وهذا لا ينافي شمول العبارة لغيرهم[4].

---

(١) لمؤلفه ضرار صالح ضرار، ص ١٦٧.

(٢) «تاريخ الحركة الوطنية في السودان»، محمد عمر بشير، ص ٢٥.

(٣) انظر: «أثر حركة عثمان دان فوديو على دعوة المهدية: الأستاذ يوسف فضل حسن، ص ٧ و١٥ و١٦.

(٤) الَّذين اشتهروا بتربية الأبقار في جنوب دارفور هم: الرزيقات، ثم يأتي بعدهم مباشرةً في كثرة الأبقار الفلاتة، ثم التعايشة، وبني هلبة والهبانية، وغيرهم.

وممن أطلق كلمة البقارة على الفلاتة: (مورى لاست الإنجليزي) في كتابه: (خلافة سكتو) وقال (موردوك) في كتابه: (أفريقيا وشعوبها وثقافتها التأريخية): (تعتبر البقارة ثقافة مجموعة من القبائل تعمل في رعي الأبقار، وتضم: البدويين، والبقارة، والفلاتة، والطوارق) وأيده في ذلك البروفسير يوسف فضل حسن في كتابه: (تأريخ الممالك الإسلامية في السودان)[1]؛ ويقول عزام أبو بكر علي الطيب[2]:

[ويطلق لفظ ـ البقارة ـ على رعاة البقر في السودان، وهم غالبية ساحقة في جنوب دارفور، ذلك الجزء الَّذي تشاركهم العيش فيه مجموعة كبيرة من القبائل التي نزحت من (السودان الغربي) ـ غرب (أفريقيا) كما تلتقي الحدود الجنوبية لمناطق البقارة بإقليم بحر الغزال؛ وقبائل البقارة من القبائل العربية التي استوطنت في إقليم دارفور؛ ويرجع دخول العرب إلى دارفور إلى القرن الرابع عشر... وتكونت بتدفق العرب على دارفور قبائل البقارة في الجنوب ورعاة الإبل في الشمال؛ وبتزاوج عرب الجنوب من السكان الأصليين غلبت الحمرة الداكنة على لونهم بمضي الزمن وتعاقب الأجيال، وتأثرت عاداتهم بعادات الزنوج رغم احتفاظهم باللسان والتقاطيع العربية].

ومن هنا يتضّح للقارىء اختيارنا كلمة «الغرابة» عنواناً لهذا البحث

وكما جاءت كلمة البقارة مرادفة لكلمة الفلاتة، كذلك جاءت كلمة «تكرور» و«تكاررة».

والواقع أن كلمة «تكرور» تطلق أساساً على سكان جنوب نهر السنغال

---

(١) انظر: «الفلاتة في أفريقيا»: الطيب عبد الرحيم محمد، ص ٢٥.

(٢) العلاقات بين الخليفة عبد الله التعايشي وقبائل السودان، رسالة ماجستير ـ ١٩٩٢م ـ مطبعة جامعة الخرطوم دار جامعة الخرطوم للنشر، ص ٩٥.

وعلى الفلاتة الذين أقاموا فيهم أول دولة إفريقية إسلامية وذلك في مطلع القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي بزعامة [محمد الورجبي الفلاتي] والذي تولى بعده ابنه [لبني بن ورجبي]. فلقد قدر لهذه الدولة أن تلعب دوراً كبيراً في نشر الإسلام وإقامة دولته خاصة بعد أن حالف قائدها [محمد الورجبي] أمير المرابطين وحارب إلى جواره فاستولوا على الصحراء الكبرى وانقاد لهم جميع قبائل الملثمين ودخلوا دعوتهم(١). فصارت لهم من الشهرة والمكانة ما جعل كل القبائل السودانية تنتسب إليها اعتزازاً وافتخاراً، بل صار الكتّاب العرب يطلقوْن اسم تكرور على كل أقطار السودان الغربي التي تشمل النيجر، وكانم، وبلاد برنو، وباقرمى، ووداي وزاد المقريزي على ذلك فأطلق نفس التسمية على كل الأقطار الواقعة شرقي النيجر حتى الحبشة، فأدخل سودان وادي النيل في مسمى بلاد تكرور(٢). وهذا ما قرره أيضاً صاحب كتاب «أحكام المرجان» إذ حدد بلاد السودان بأنها تبدأ من المغرب وتنتهي بالبحر الأحمر رابطاً بين مناطق النوبة ومملكة غانا وأوداغستا أرض الروم والتكرور وعلوة وكوكا(٣).

فالتكرور هم قبائل سكان جنوب نهر السنغال والفلاتة الذين شكلوا هوية واحدة فحملوا راية الجهاد من أجل الدعوة واستمر التكاررة والفلان في تلاحم إلى أن تلاشت دولتهم ولم يبق لها إلاّ الاسم والسيرة العطرة، ولقد أشاد المقريزي بمكانة التكاررة(٤) العلمية في مصر فذكر منهم الشيخ العالم الفقيه (أبو محمد يوسف بن عبد الله التكروري) الذي وفد إلى مصر

---

(١) «المغرب في بلاد أفريقيا والمغرب: لأبي عبيد البكري/ت/٤٨٧، طبعة الجزائر ١٨٥٧.

(٢) نفس المرجع ص ١٦٧ ـ ١٧٢.

(٣) «أحكام المرجان» لابن إسحٰق الجغرافي المتوفي عام ٩٥١ صفحة ١٥٧.

(٤) اللفظ الصحيح التكاررة من تكرور والعامة تقول التكارنة خطأ وتقول تكروني بدلاً من تكروري.

ونبغ بين علمائه حتى قرّبه الخليفة الفاطمي العزيز بالله [٣٦٥ـ ٣٨٦هـ] وأغدق عليه وظل في القاهرة ينشر علمه حتى وافته المنية فدفن في حي من أحيائها ينسب إليه هو بولاق [الدكرور] المحرف عن [التكرور][١] ويقول صاحب كتاب إنفاق الميسور إن هذا الاسم الذي هو التكرور شائع في الحرمين ومصر والحبشة ومندرس في محله حتى لا يعرفه أهل هذه البلاد أصلاً وإنما يتلقونه من الحجاج الذين سمعوه بالحرمين ومصر.

ورأيت لمجد الدين (الفيروزبادي) في القاموس إنه بلد بالمغرب ورأينا لبعضهم إنه عبر عن كنو، وكاشنا وما والاهما ببلاد السودان، وعبر عن تنبكت، وما والاهما ببلاد تكرور وأول هذه البلاد من جهة الشرق على تعبيرهم ـ دارفور، ويليه من جهة المغرب بلد وداى وبلد باغرم[٢].

ويفسر بعض الكتاب أن كلمة تكرور معناها الحرفي أسود، ويقول ياقوت الحموي عن التكاررة «إنهم أشبه الناس بالزنوج» وليس من شك في أن ياقوت يعني كلمة التكاررة كل ما جاء من بلاد السودان الغربي والأوسط، ومن التفسيرات الطريقة التي أوردها بعض الكتّاب الإنجليز أن كلمة تكرور تدل على اختلاط لونين Two Colours[٣].

وهكذا ترادفت كلمة «الغرّابة» و«البقارة» و«التكاررة» مع الفلاتة. يقول

---

(١) «الخطط» لتقي الدين المقريزي ج ٢ ص ١٧١، ودولة مالي الإسلامية، د. طرخان ص ١٩٦.

(٢) انظر إنفاق الميسور من تأريخ بلاد تكرور للإمام محمد بن بو ابن دانفوديو ص ٢٧ ـ ٢٩ طبعة وزارة الأوقاف المصرية سنة ١٣٨٣ هـ ١٩٦٤م.

(٣) انظر: «معجم البلدان» ج ٢ ص ١٣٨ الفتاش ص ٢٤ ـ ٢٥ تعريف العشائر والخلان بشعوب وقبائل الفلان ص ٤.
انظر: تاج العروس.
انظر دولة مالي الإسلامية. د. إبراهيم علي طرخان، ص ١٨٤.

الأستاذ الدكتور يوسف فضل حسن: [و(التكرور) أو (التكارنة) اسم مرادف للفولاني أو «الفلاتة» ويستخدم في سودان وادي النيل للإشارة للغرابة القادمين من البلاد الواقعة غرب دارفور ويشمل التكرور والفولاني والهوسا وسكان برنو ودار برقو][1].

---

(١) د. يوسف فضل حسن، «أثر حركة عثمان دان فوديو على دعوة المهدية في سودان وادي النيل ـ ورقة مقدمة للندوة العالمية للاحتفاء بالشيخ المجاهد عثمان دان فوديو ـ الخرطوم ١٩ ـ ٢١ نوفمبر ١٩٩٥م جامعة إفريقيا العالمية.

الباب الأول

عناصر الهوية

بعض الأجناس والعناصر التي شكلت الهوية السودانية والتي لا يمكن لباحث تجاهلها أو تهميشها:

الفصل الأول ـ البرقو.

الفصل الثاني ـ الزغاوة.

الفصل الثالث ـ الكانم.

الفصل الرابع ـ البرنو.

الفصل الخامس ـ الهوسا.

الفصل السادس ـ البيضان.

الفصل الأول:

الهوية السودانية وعنصر الودّاي «البرقو»[1]

نتساءل: ما المانع أن يكون من مقومات وعناصر الهوية السودانية العنصر البرقاوي؟ إذ أن [وداي] من الناحية الجغرافية والتاريخية تتصل اتصالاً وثيقاً بدارفور، وكانم، وبرنو؛ فهي امتداد لسلطنة دارفور، وهم - أصلاً - من قبائل التنجر التي قدمت في القرن السادس عشر من دارفور إلى وداي وجعلت عاصمتها: «كادابة» جنوب أبشا[2].

ويذكر الرحالة الألماني: (بارت) أن شعب التنجر قدم من دنقلا؛ ويؤيده في ذلك جماعة من المؤرخين، منهم: «ترمنجهام»[3] أي أنهم من النوبة، هؤلاء التنجر بعد أن استقروا في دارفور اضطروا للرحيل، فانتشروا في ودّاي إلى حدود باجرمي؛ ويقال: إن أول من دعا إلى الإسلام في ودّاي رجل اسمه صالح أو جامع؛ وينسبه بعض الرواة إلى قبائل الجعليين في شندى؛ وفي عام ١٦١٢م تمكن عبد الكريم (وهو من أقارب صالح أو جامع) من إزاحة نفوذ التنجر، وأصبح زعيماً في وداي، واتخذ لقب: «كولاق العباس» ويعتبر أول ملوك وداي المسلمين، وأنه من أب سوداني من بلدة شندى شمال الخرطوم، وصار لأسرته حكم وداي من عام

---

(١) راجع «امبراطورية رابح الزبير»، لمؤلفه سعد الدين الزبير، القاهرة، سنة ١٩٥٣م.

(٢) الإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا، د. عبد الرحمٰن زكي، ص ٧١ - ٧٣.

(٣) هناك من يقول: أسرة التنجر جاءت من جنوب تونس بعد أن دخلها قبائل بني هلال، وصلت دارفور واختلط بشعب الداجو الذي جاء من الشرق، ونشأ من اختلاط التنجر والداجو شعب جديد هم الفور - انظر: محمود شاكر: «تشاد» سلسلة مواطن الشعوب الإسلامية، ص ٤٠. فالفور ليس شعباً مجهول الإصل فهم والدناقلة والبرقو من اصل واحد. [التنجر].

١٦٥٥ـ ١٩١١م[1] أمّا علاقة البرقو بالفلاتة فإنه قد وجدت في منطقة تشاد مجموعات من الفولانيين الّذين ينتمون ـ أصلاً ـ إلى البيض، وأن سلفهم هو عقبة بن نافع؛ ولكن لغتهم سودانية بسبب طول مقامهم في بلاد السودان واختلاطهم بالزنوج[2].

وحيث سجل التاريخ هذه الجوانب الهامة في العلاقة الجغرافية والعرقية ما بين البرقو والفلاتة، والبرقو والنوبة، والبرقو والجعليين؛ فما المانع ـ إذن ـ من أن تكون الهوية السودانية من منطلقاتها ومكوناتها عنصر «الوداي» والجنس البرقاوي؟ علماً بأن الشعب التشادي يعد مزيجاً من الساميين والحاميين، وخليطاً من البيض والسود، شأنهم شأن سكان وادي النيل، بل هم ـ إلى يومنا هذا ـ أكثر الشعوب تأثراً بعادات وسلوك شعب الخرطوم؛ ولا غرابة في هذا، فقد سجل التاريخ أن الفقهاء من دولة سنار وفدوا إلى ودّاي لتعليم المسلمين ونشر الثقافة العربية، ومن بين هؤلاء أبو زيد بن عبد القادر الّذي عاصر حكم السلطان يعقوب العروسي سنة ١٦٨١ـ ١٧٠٧؛ وأبو سرور الفضلي؛ كما ذهب كثير من طلاب ودّاي إلى المراكز الإسلامية بحوض النيل وتلقوا بها علوم الإسلام، ومن هؤلاء: الشيخ الزين بن صغيرون[3].

مما تقدم يتضح لنا أن الإتصال حاصل بالفعل بين ودّاي وسودان

---

(١) «الإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا»، د. عبد الرحمٰن زكي، ص ٧٢ ـ وانظر: موسوعة التأريخ الإسلامي، ج ٦، دكتور أحمد شلبي، ص ٣٠٣.
انظر: توماس، أرنولد: الدعوة إلى الإسلام بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية، ص ٣٦٠، مكتبة النهضة المصرية ١٩٧١.

(٢) امبراطورية البرنو الإسلامية، د. إبراهيم علي طرخان، ص ٣٥.

(٣) طبقات ود ضيف الله، ص ٣٢ ـ انظر موسوعة «التاريخ الإسلامي» جزء ٦، للدكتور أحمد شلبي، ص ٣٠٤ ـ وانظر: الإسلام والمسلمون، د. عبد الرحمٰن زكي، ص ٧٣.

وادي النيل، ومتواصل ومستمر في القديم والحديث، بل أن البرقو يقولون بانتمائهم العربي إلى صالح بن عبد الله بن عباس عم الرسول ﷺ وأنهم والجعليين ينتسبون إلى القبائل العدنانية: الجعلي جده فضل بن عبد الله بن عباس، والوداي البرقو جده صالح بن عبد الله بن عباس؛ إذا كان هذا هو الحاصل.. فلماذا لا نجعل الشخصية السودانية من محاورها جنس الوداي والعنصر البرقاوي؟ والشواهد التاريخية أمامنا ماثلة، بل قد أثبت الجميع وكاد إجماعهم ينعقد على أن سلطان وداي «رابح الزبير» من جعليي النيل الأزرق، وأنه الَّذي صارع الاستعمار الفرنسي حتى سقط سنة ١٩٠٠ في معركة كُسْري، وسقط معه القائد الفرنسي: «لامي» في نفس المعركة؛ وعندما سقطت أمبراطورية رابح قسمت القوتان الغربيتان فرنسا وبريطانيا هذه المنطقة، فوقفت بريطانيا على الحدود بين دارفور ووداي، واستولت فرنسا على وداي، وباجرمي، وكانم.

أما مملكة برنو، فقد أخذت فرنسا جزءاً منها من الناحية الشرقية، وتكونت من هذه المناطق جمهورية تشاد الحالية؛ واستولت بريطانيا على أكثر أراضي برنو وضمتها إلى نيجريا[1]. فما تقول بعد هذا الإجماع والنقل المتواتر؟.

إن عوامل الربط وقوة العلاقة بين شعب وداي البرقو وشعب سودان وادي النيل في غاية الوضوح والقوة، مما يجعلنا نقول: بأن تأثير الفور على وداي مماثل لتأثير الجعليين في البرقو، مما يؤكد قوة الصلة ومتانة العلاقة بين شرق وادي النيل وقبائل غرب دارفور البرقو، والبرنو[2] فإذا كانت علاقة وداي وشعب وادي النيل بهذه المتانة، إضافةً إلى أن وداي بحكم موقعها بين ليبيا، وحمهورية أفريقيا الوسطى، والكمرون، والنيجر

---

(١) موسوعة «التأريخ الإسلامي»، ج ٦، د. أحمد شلبي، ص ٦١٧.
انظر: «الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، د. حسن أحمد محمود، ص ٦١.
(٢) انتشار الإسلام في القارة الأفريقية، د. حسن إبراهيم حسن، ص ١٦١.
وانظر: «البرنو» في عهد الأسرة الكانمية، مصطفى علي بسيوني أبو شعيشع، ص ١٨٥.

تحتل موقعاً استراتيجياً، وتشكل جزءاً هاماً من الوطن الإسلامي؛ وأنها بهذه المكانة والموقع صارت مركزاً هاماً لهجرات البربر وشعب التنجر، اللّذين كان لهم شأن في نشر الإسلام في المنطقة، بل صارت ملتقى وعاصمة لشعوب أمبراطورية كانم، والبرنو، والفلاتة، والزغاوة، والباجرمي، والتنجر؛ فضلاً عن أنها قد ارتبطت أرومة وجنساً وموطناً بالجعليين وشعب وادي النيل وخاصة الدناقلة [كما يقول بارث الرحالة الألماني][1].

إذا كان هذا هو الواقع والمثبت فعلام إذن التخوف وجعل حاجز وهمي بين الهوية السودانية وقومية هذه الجنسيات؟ إن من أساسيات مقومات هوية وداي البرقو العنصر السوداني الجعلي، والنوبي، والدنقلاوي، والتنجري: (الفوراوي) كما أن من عناصر مقومات هوية وشخصية سودان وادي النيل العنصر البرقاوي: (الوداي) والفلاتي[2].

فقد نقل الرحالة: «بارث» أن: «صو» أحد أقسام الفلاتة، وأنهم السكان الأصليون لمعظم الإقليم الواقع بين واحة يوأوواو، الواقع شمالي تبيسي وبين نهر شاري جنوب بحيرة تشاد، وهم الّذين وقفوا من كوش كما وقفت كوش من مصر؛ أي أنهم نقلوا حضارة كوش بخصائصها إلى منطقة تشاد، كما هو الشأن بالنسبة لكوش يوم نقلت الحضارة المصرية القديمة إلى السودان الشمالي.

ويتساءل الدكتور إبراهيم طرخان ـ الّذي نقلنا هذا النص من كتابه أمبراطورية البرنو، ص ١٩ وما بعدها ـ فيقول: هل معنى هذا أن: (الصو الفلاتة) كانوا من المهاجرين الّذين غادروا مروي على أثر تحطيمها على يد

---

(١) انظر: صفحة ٥٩.

(٢) [يجب علينا وما كان لنا سوى ان نتبع اسلوب الحديث السافر والطرح الواضح] [ليس لنا ان نهرب من اكتشاف الثغرات، ليس لنا ان نهرب من إعادة النظر. . . انها معركة بناء فكري تتطلب من المثقف السوداني] ان يناقش تركيبته السودانية بجدية وواقعية.

الأحباش الألوميين في القرن الرابع الميلادي؟[1] وإذا كان الجواب بالإثبات فعلام كل هذا التخوف والوثائق تؤكد قوة الربط ومتانة العلاقة وعمق الصلة بين وداي والسودان، وبين البرقو والجعليين، وبينهما وبين التنجر والفور، وبين قبائل صو الفلاتة ومدينة مروي؟!!!.

وكما أثبت التاريخ اتصال الوداي وارتباطهم القبلي بالجعليين ومنطقة (مروى) فلقد أثبت البصيلي وآركل أن الزغاوة بعد انهيار مملكتهم ـ حوالي منتصف القرن الرابع الميلادي ـ اتجهت الأسرة الحاكمة نحو الشمال الغربي واستقرت بأطراف الصحراء في مدينة (مروى) وتعني كلمة (مرو) بلغة الزغاوة الأفضل[2] وهناك من المؤرخين والجغرافيين من جعل الفلاتة من الكوشيين ولهم ارتباط بمدينة مروي[3] فماذا تقول بعد كل هذه المؤيدات؟.

علماً بأن كل هذه القبائل التي ادعت أو أثبت المؤرخون أن لها علاقة بمروي، كانت دولاً وممالك لها عراقتها وأمجادها تاريخاً وتراثاً، وما لنا نذهب بعيداً؟ فللبرقو اليوم في جمهورية السودان وجودهم الاستيطاني، والإنصهاري، والقومي؛ ولهم مناطق نفوذ، وإدارات، وعموديات معترف بها، تمتد من الجنينة ولاية غرب دارفور، وتسير شرقاً لتشمل جميع نواحي أرض الجزيرة المروية وأرض المناقل، تنتهي بمنطقة (قلع النحل) إذ لهم بها نظارة يرأسها: (الأمير يعقوب موسى) الّذي قام أبناؤه من بعده بدعم عظيم في مسيرة البلاد الوطنية، وهناك شخصيات بارزة من أبناء: (الوداي البرقو) لهم مشاركتهم الفعالة والمقدرة في شتى مجالات الحياة الاجتماعية التعليمية والسياسية والقيادية، أذكر منهم على سبيل المثال:

---

(١) انظر: «امبراطورية البرنو الإسلامية»، د. إبراهيم علي طرخان، ص ١٩ ـ ٢٤.

(٢) «السودان الأوسط والشرقي»، شاطر البوصيلي.

(٣) «تاريخ وحضارة السودان»، الشاطر البوصيلي، القاهرة، ١٩٧٤، ص ٥٥ ـ ٧٦؛ وممن قال بذلك إسحاق الجغرافي المتوفي عام ٩٥١م، في كتابه: «أحكام المرجان».

١ ـ الإمام / موسى إبراهيم ضيف الله ـ إمام المسلمين بجمهورية تشاد سابقاً[١].

٢ ـ الفقيه / السنوسي أبكر ـ معلم للقرآن الكريم بالفاشر ـ كتاتيب الشيخ التجاني عبد الماجد إبراهيم[٢] يقال إنه من العرب ولكنه تربى مع البرقو.

٣ ـ العمدة / أحمد التجاني أبو سعدية ـ عمدة بنيالا.

٤ ـ العمدة / محمد عبد الله محمد ـ عمدة بنيالا.

٥ ـ العمدة / أحمد حسين ـ عمدة بالجنينة.

٦ ـ الدكتور / يوسف العالم ـ عميد كلية القرآن الكريم بأم درمان.

٧ ـ الدكتور / عبد الله منحمد آدم ـ أستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

٨ ـ الدكتور / الطاهر محمد هارون ـ بالسعودية.

٩ ـ الدكتور / إبراهيم الدومة ـ دكتوراه في العلوم السياسية بأمريكا.

١٠ ـ الدكتور / أحمد محمد بحر ـ أخصائي بمستشفى أبها بالسعودية.

١١ ـ الدكتور / محمد النور آدم ـ مستشفى أبها بالسعودية.

١٢ ـ الدكتور / أحمد يعقوب ـ المستشفى العسكري بالرياض بالسعودية.

---

(١) وهو الآن بالخرطوم آثر البقاء والاستيطان بالسودان تقديراً لاعتبارات كثيرة، وذلك إثر أحداث إنجمينا (عاصمة شاد) التي أطاحت بحكومة تمبلباي، وله ـ الآن ـ مسجد كبير ومدارس لتحفيظ القرآن بشمبات وهو أصلاً من سكان دارفور قبيلة الداجو.

(٢) انظر «الفلاتة الفلانيون في السودان» د. محمد أحمد بدين.

١٣ ـ الدكتور / محمد نور عبد الرحيم ـ أخصائي الأمراض النفسية بمستشفى بلجرشي بالسعودية.

١٤ ـ الدكتور / عبد الكريم إبراهيم أبكر ـ مستشفى الباحة بالسعودية.

١٥ ـ الدكتور / عبد الله حسن ـ مستشفى الكويت.

١٦ ـ الدكتور / كمال آدم محمد ـ أخصائي بنجيريا.

١٧ ـ الدكتور / عوض مختار ناصر ـ مستشفى الكويت.

١٨ ـ الدكتور / محمد صالح إبراهيم كرسي ـ مستشفى نيالا.

١٩ ـ الدكتور / عبد الجبار شرف الدين ـ أمريكا.

٢٠ ـ الدكتور / عثمان النور بحر ـ أمريكا.

٢١ ـ الدكتور / حسن صالح آدم ـ أمريكا.

٢٢ ـ الدكتور / يعقوب محمد بحر ـ أخصائي التخدير بمستشفى أبها بالسعودية.

٢٣ ـ الدكتور / حسين يوسف آدم ـ أخصائي باطني بالخرطوم.

٢٤ ـ الأستاذ / آدم عيسى إسحاق ـ من أوائل رجال التربية والتعليم بالفاشر.

٢٥ ـ الأستاذ / محمد صالح يعقوب ـ محاضر بجامعة الملك عبد العزيز بالسعودية.

٢٦ ـ الأستاذ / أمين إسحاق آدم ـ محاضر بجامعة الملك عبد العزيز بالسعودية.

٢٧ ـ الشيخ / محمد الأمين الشعراني الأزهري ـ من أوائل المعلمين بمعهد الفاشر.

٢٨ ـ الشيخ / التجاني جبريل ـ إمام مسجد القبة بالفاشر.

٢٩ ـ الشيخ / محمد عبد المحمود ـ عالم بالنهود.

٣٠ ـ الشيخ عبد الباقي أبوه ـ عالم بالأبيض.

٣١ ـ الشيخ / محمد علي بشير كرسي ـ عالم بالنهود.

٣٢ ـ الشيخ / دهب محمد نور ـ عالم بالأبيض.

٣٣ ـ القاضي / أحمد محمد هارون ـ قاضي شرعي بالأبيض.

٣٤ ـ القاضي / أحمد عبد الجبار ـ قاضي شرعي بالنهود.

٣٥ ـ القاضي / آدم دكم ـ وزير ولائي.

٣٦ ـ المحافظ / عبد الرحمن عبودة ـ محافظ الدمازين.

٣٧ ـ السيد / إبراهيم السنوسي ـ نائب الأمين العام لمؤتمر الشعب الإسلامي العربي. والي شمال كردفان.

٣٨ ـ السيد / عبد المنعم أبو بكر ـ الأمين العام للمؤتمر التأسيسي لقبيلة البرقو[١].

٣٩ ـ السيد / آدم طه ـ رئيس مجلس الشورى بالمؤتمر التأسيسي للبرقو.

---

(١) شاع حديثاً كلمة الصليحاب بدلاً عن كلمة البرقو، وراق لبعض أبناء البرقو [الوادي سياد الرأي] إلغاء هذه التسمية التأريخية العميقة الجذور القوية الدلالة أو هجرانها توطئة لنسيانها، فإذا سئل أحدهم عن قبيلته أو جنسه قال: صالحا بي نسبة إلى صالح جدهم الأعلى بينما الكتب التأريخية لا تقر مثل هذه التسمية أو النسبة التي جاء محاكاة لبعض قبائل شمال السودان، أو هرباً من المرددات الشعبية.
انظر: د. بدين الفلاتة الفلانيون خ السودان ص ١٠٠ ـ ١٠٤.

٤٠ ـ السيد / يوسف الحاج إسحاق ـ نائب رئيس مجلس الشورى للمؤتمر التأسيسي للبرقو.

٤١ ـ السيد / محمد صالح السنوسي ـ ديوان الزكاة.

٤٢ ـ السيد / أحمد دقرشم عبد الله ـ نائب الأمين العام لصندوق دعم الطلاب.

٤٣ ـ السيد / يحيى عبد الله أحمد ـ بديوان المراجع العام، نال وسام النيلين.

٤٤ ـ السيد / بشير كرسي ـ مدير التعاون بالأبيض.

٤٥ ـ السيد / محمود الحلو محمد ـ رئيس رابطة أبناء البرقو سابقاً.

٤٦ ـ السيد / سليمان صابر ـ نقابة العمال بالخرطوم.

٤٧ ـ السيد / أبكر محمد عمر ـ ضابط إداري نيالا.

٤٨ ـ السيد / عبد الوهاب محمد جباي ـ قائد سلاح الطيران بالمعاش.

٤٩ ـ السيد / حسن محمد هارون ـ لواء بالمعاش.

٥٠ ـ السيد / عبد الباقي حمزة ـ لواء بالمعاش.

٥١ ـ السيد / آدم فضل ـ لواء شرطة.

٥٢ ـ السيد / عمر زائد عيسى ـ لواء بالقوات المسلحة.

٥٣ ـ السيد يوسف ذهب محمد ـ البنك الإسلامي للتنمية ـ بجدة.

وهناك غير هؤلاء شخصيات إدارية وقيادية في جميع أنحاء جمهورية السودان[١].

لقد أثبت الواقع أن الوداي البرقو شاركوا في مسيرة البلاد الوطنية والتنموية، وصاهروا غالبية القبائل النيلية من دناقلة ومولدين وغيرهم، كما

(١) قام بتقديم هذه الأسماء الاستاذ: أمين اسحق آدم وهو من ابناء قبيلة البرقو ـ ويعمل محاضراً بجامعة الملك عبد العزيز ـ كلية الآداب والعلوم الانسانية وهو شخصيته بارزة يعرفه الجميع.

خالطوا البقارة، والنوبة، والمسيرية؛ فكانوا ـ بلا شك ـ من عناصر تشكيل الهوية السودانية تاريخاً، وانتماءً، ومصاهرةً، ولغةً، وعقيدةً؛ إلى جانب الهدف المشترك والجوار؛ والواقع أن أرض (الوداي البرقو) تعد أرض تماس.. واحتكاك.. وصراع؛ فكانت مملكة كانم شمال شرقي بحيرة شاد، وانضمت مملكة باقرمي إلى تشاد في عهد السلطان بريمي، الَّذي يعد أول السلاطين المسلمين في مملكة (باقرمي) وذلك في أوائل القرن السادس عشر[1] كما ضم رابح كانم وبرنو إلى شاد في سنة ١٨٢٩، وقد كان العامل الأساسي في هجرة البرقو الوداي إلى جمهورية السودان، هو الفرار بديهم من أن تتكرر مذبحة الفرنسيين الرهيبة لهم، التي عرفت باسم: «كُبْكُبْ» حيث كان القتل بالساطور، وكان عدد العلماء الَّذين جمعهم الفرنسيون من أنحاء البلاد كافة يزيد على أربعمائة عالم سيقوا إلى مدينة أبشة، وهناك كان مصرعهم عام ١٩١٧[2].

البرقو في الحجاز:

وللبرقو وجودهم الاستيطاني والقومي في الحجاز كما في السودان تماماً.

وهكذا تجد البرقو في الحجاز كما تجدهم في السودان وفي الشام ومصر والبصرة والكوفة والقيروان وبغداد. إلاّ أن وجودهم في السودان والحجاز يغاير وجودهم في تلك الأقطار إذ أن صلتهم بالسودان والحجاز قبل الاستيطان كانت صلة الجوار والرحلة والعبادة. فلما جاءت هجرتهم الاستيطانية إلى الحجاز إثر مذبحة الفرنسيين لهم كانت هجرة إلى بلاد لهم بها سابق معرفة، فيها العدل والسلام والأمن والإخاء. أما هجرتهم إلى

---

(١) انظر: تشاد: محمود شاكر، ص ٣٧ وص ٤١.
(٢) المرجع السابق: ص ٤٨ ـ ٤٩.

السودان فكانت رحلة إلى بلاد تربطهم إلى جانب الجوار والحدود المشتركة صلة الرحم والقومية الواحدة فكان الامتزاج السريع والتقارب وكان الرباط الوثيق مع كل قبائل سودان وادي النيل.

* * *

الفصل الثاني:

الهوية السودانية والعنصر الزغاوي

ونتساءل ما المانع ـ عقلاً ـ أن يكون من مكونات الهوية السودانية العنصر الزغاوي؟ فعن أبي الفداء (٧٣٢) ـ (١٣٣٢م): (وبلاد زغاوة تحاذي بلاد النوبة على ضفة النيل من المغرب[١] وطول بلادهم ـ أي الزغاوة ـ خمسة عشرة مرحلة في مثلها في عمارة متصلة، وبيوتهم جصوص كلها، وكذلك قصر ملكهم)[٢].

قال المهلبي: (مملكة الزغاوة مملكة عظيمة من ممالك السودان في حد المشرق، منها: مملكة النوبة الَّذي بأعلى صعيد مصر، بينهم مسيرة عشرة أيام)[٣].

وقد أثبت المؤرخون أنه في الفترة الواقعة بين عام ٨٠٠ ـ ١٢٥٠ هاجر قوم عرفوا باسم الزغاوة ـ وهم شعب جمع بين الخصائص الزنجية والحامية ـ وانتشروا في بقعة حية امتدت من دارفور غرب سودان وادي النيل حتى بحيرة تشاد، وهي المنطقة التي عرفت باسم كانم منذ القرن التاسع عشر؛ وقد أشار إلى الزغاوة المؤرخ العربي اليعقوبي، الَّذي كتب عنهم عام ٨٩٠[٤].

---

(١) «تقويم البلدان» لأبي الفداء، ص ١٥٣.

(٢) «معجم البلدان» للحموي، ج ٤، ص ١٩١ ـ ١٩٢ ـ انظر: امبراطورية البرنو، د. إبراهيم علي طرخان، ص ٤٣ ـ ٥٣.

(٣) «معجم البلدان» للحموي، ج ٤، ص ١٩١ ـ ١٩٢ ـ انظر: «امبراطورية البرنو»، د. إبراهيم علي طرخان، ص ٤٣ ـ ٥٣.

(٤) أحمد بن واضح اليعقوبي، التاريخ نشرة المستشرق هتس مابليدن، ص ٢١٩، نقلاً من الدكتور طرخان.

كما تكلم عنهم ـ أيضاً ـ أبو عبيد الله البكري في كتابه المعروف باسم: «وصف أفريقيا»، وقد أشار إلى بلادهم الرحالة ابن بطوطة، وابن خلدون في: «تاريخ البربر القرن الخامس عشر» وجاء في دائرة المعارف الإسلامية: (مادة حوصه) ذكرهم؛ ويبدو أن الزغاوة ظلوا على الوثنية حتى النصف الأول من القرن الحادي عشر، فالبكري الَّذي كتب عن هذه البلاد في هذه الفترة يذكر أنهم لا زالوا على الوثنية، حتى إذا مضى القرن الحادي عشر وبدأ القرن الثاني عشر، تعرض الزغاوة لهجرة جديدة من الطوارق والملثمين، ومثلها من التبو سكان هضبة تبستي و: (التيدا) ولم تكن هجرة شاملة، بل كانت على هيئة أُرستقراطية حاكمة، استطاعت أن تخضع شعب الزغاوة بسلطانها؛ وكان الزغاوة قد دخلوا الإسلام حوالي النصف الأول من القرن الثاني عشر[1] ثم أنجبت هذه الأُرستقراطية الحاكمة أول أسرة مالكة سيطرت على المنطقة الواقعة شرقي بحيرة تشاد، وأسست سلطنة كانم، وأطلقت الأسرة الزغاوية على نفسها اسم بني سيف: «السيفية»[2] ويقول الدكتور حسن أحمد محمود: (ومما يلفت النظر أن ملوك هذه الأسرة يطلقون على أنفسهم اسم: «بني سيف» يدعون نسباً حميرياً يصلهم بسيف بن ذي يزن، وهذا النسب يؤكد صحة انحدارهم من أصل ملثم، لأن الملثمين جميعهم من صنهاجة الجنوب ينسبون إلى الحميريين، وكان طبيعياً أن يحتفظ بنو سيف بهذه القرابة الوثيقة، وأن يحافظوا على هذا النسب التقليدي)[3].

هدفنا من ذكر هذه النصوص التاريخية إظهار عنصر الزغاوة، وارتباطهم التاريخي والحضاري بمملكة النوبة، الَّذي كان بأعلى صعيد مصر

---

(١) جاء في بعض المراجع العربية الأخرى: أن الإسلام دخل بلاد كانم عام ٥٠٠هـ ١١١٦ ـ ١١١٧.

(٢) «الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا»، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥.

(٣) المرجع السابق، نفس الصفحة.

باب ومدخل المد العربي والزحف الإسلامي؛ وأنهم من الحمير ومن أعظم قبائل الملثمين الصنهاجة، ولمتونة، ومسوفة، وجدالة، ومسطاطة؛ وهي قبائل عرفت بحمل راية الإسلام إلى أعماق أفريقيا، والذود عن تعاليمه، ونشر لغته؛ فإذا كان هذا واقعاً مؤكداً بالمستندات التاريخية.. فما المانع ـ إذن ـ أن تكون الهوية السودانية من مكوناتها عنصر الزغاوة؟ أو من منطلق زغاوي؟!!.

فإلى قبيلة الزغاوة ـ كما يقول الدكتور إبراهيم طرخان ـ يرجع تأسيس مملكة كانم، وإلى قبيلة الزغاوة يرجع قيام سلطنة سنار، التي ظهرت بدايات القرن السادس عشر (١٥٠٥) [إذ يقال إن مملكة الزغاوة الحوضيين ظلت حتى عام ١١٥٠م، واتسعت أمبراطورية البرنو زمن دونمة، ووصلت حدودها الشرقية والشمالية إلى قرب حدود مصر؛ ودونمة هذا هو الَّذي دمر عاصمة الزغاوة مدينة سامينا في منطقة بحيرة].

وقد سادت حكومة الزغاوة على إقليم ودّاي وعلى قبائل النوبة المجاورة لها من جهة الشرق[١]. وقد انتشروا في مسافة تمتد من بلاد دارفور حتى بحيرة تشاد[٢].

قل لي: ما المانع أن تكون الهوية السودانية منطلقها الجنس الزغاوي والعنصر الزغاوي؟ فقد كان للزغاوة أعظم دور في سقوط مملكة علوة، وقيام دولة الفونج بسبب غاراتهم المتلاحقة والمنحدرة من برنو عبر دارفور[٣].

---

(١) د. إبراهيم علي طرخان، «امبراطورية البرنو الإسلامية»، ص ٤٩.

(٢) «الإسلام والثقافة في أفريقيا، د. حسن أحمد محمود، ص ٢٣٤ ـ انظر: «امبراطورية البرنو الإسلامية»، د. إبراهيم علي طرخان، ص ٨٤ ـ و«دائرة المعارف الإسلامية»: مادة حوصة.
«البرنو في عهد الأسرة الكانمية»، د. مصطفى علي بسيوني أبو شعيشع، ص ١٣.

(٣) «الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، د. حسن أحمد محمود، ص ٢٩٩.

إذ المعروف عن هذه القبيلة أنها وفدت ـ أصلاً ـ من الشرق، كغيرها من القبائل الكثيرة التي نزحت نحو الغرب واندمجت مع المواطنين في غرب أفريقيا؛ وكان الأصل الشرقي أهم ما تمسك به هذه القبيلة وغيرها من القبائل والأُسر التي سادت في بلاد السودان الأوسط؛ وتنسب الحكومة التي قامت في إقليم كانم إلى الزغاوة، وإلى قبيلة الزغاوة يرجع ـ أيضاً ـ تأسيس مملكة البولالا الأولى، وأنهم كانوا طبقة أُرستقراطية؛ وإذا كان هذا واقعاً ومثبتاً.. قل لي: ما المانع أن يكون لعنصر هذه القبيلة الدور المحوري بإثبات الهوية وتحديد معالم الشخصية؟!! ناهيك أن الاختلاط والمصاهرة كان أمراً معروفاً ومؤكداً بين الزنوج والعرب، وبين العرب والنوبة؛ فقد أثبت المؤرخون أنهم كانوا في تناوش مستمر واحتكاك وتلاحم مع ملوك علوة، وتلاقٍ وائتلاف مع قبائل جهينة، وخاصةً بعد أن امتدت هجراتهم إلى كل ناحية.

وبعد انهيار مملكتهم ـ كما يقول (البصيلي) و(آركل) حوالي منتصف القرن الرابع الميلادي ـ اتجهت بعدها الأسرة الحاكمة نحو الشمال الغربي واستقرت بأطراف الصحراء في مدينة: (مروى) و: (مرو) تعني الأفضل بلغة الزغاوة؛ وتحديداً استقروا باديء الأمر بواحة: (سليمة) ومنها توجهوا نحو بحيرة تشاد؛ والزغاوة اليوم يمتد وجودهم من شمال دارفور إلى داخل أعماق تشاد، إلاَّ أن وجودهم بدارفور يوحي بثقلهم الاجتماعي والقومي، وتأريخهم الحضاري.

وينقسم الزغاوة من حيث اللغة إلى أربعة أقسام أو مجموعات[1]:

---

(١) الخرطوم ـ العدد (١١١٨) ـ الأربعاء ١٤ ـ فبراير ـ ١٩٩٦م الموافق ٢٥ رمضان ١٤١٦هـ تحت عنوان: «ثقافة المجموعات» تقديم المحرر لبحث: «الزغاوة» اسم ثاني للبربر، بقلم آدم فاشر.

١ ـ المجموعة الأولى:

وهم ينطقون جميع الحروف العربية بما فيها حرف: (ض) ولغة الأدب الغنائي عندهم هي اللغة العربية، فتجد الفتيات لا يعرفن اللغة العربية، ولكن يتغنين باللسان العربي ولا علاقة لغنائهن بالمجموعات العربية.

٢ ـ جماعات كوبي:

وهم زغاوة الحدود، ويتكلمون لغة مغايرة من أصعب لهجات الزغاوة وأقربها لأصول لغتهم القديمة، لأنهم الأقل تأثراً بالقبائل الأخرى.

٣ ـ جماعات البديات:

ولهجتهم وسط ما بين المجموعة الأولى والثانية.

٤ ـ جماعة بابرا:

مع أنها فصيل من الزغاوة، إلاَّ أن لغتها اتخذت منحنى مغايراً عنها، وتأثرت هذه الفئة بالقبائل المجاورة الأخرى، فعرفوا بزغاوة عرب، وزغاوة ميما، وزغاوة فور، نتيجة لاختلاطهم بالقبائل الأخرى الموجودة في المنطقة.

وفيهم رعاة الإبل، ورعاة البقر، ورعاة الضأن؛ ولهم معرفة بعلم الكواكب وأبراج النجوم، يستعينون بهذا العلم في معرفة الاتجاهات في الصحراء ومعرفة أماكن هطول الأمطار، كما لهم معرفة واسعة بعلم: [(الرمل)].

وباعتبار أنهم من البربر، وأن قسماً منهم توجه نحو النيل وأسس

مملكة شمالي الخرطوم، منطقة مروى جنوب شندى[١]، وأنَّ قسماً آخر منهم استقر في هضبة دارفور. . . فهم ـ إذن ـ من الأجناس المهاجرة إلى السودان، وقد استحقوا الهوية السودانية بالسبق الزمني والاستيطان المكاني، بل هم في عداد المجموعات والقبائل المختلفة التي شاركت في تشكيل النسيج العام لمجتمعنا السوداني، انطلاقاً من غرب السودان وانتهاءً بمناوشتها لمملكة علوة[٢].

ولا أحد يستطيع أن يتجاهل وجود الزغاوة المؤثر والفَعَّال، سواء في ولاية دارفور، أو في السودان من أقصاه إلى أقصاه؛ إنهم يشكلون وجوداً اجتماعياً وثقلاً سياسياً واقتصادياً، سواء من خلال تقسيماتهم الإدارية، أو تحركاتهم التجارية، أو وظائفهم الحكومية أو العلمية، وها أمامك ما يثبت هذا الواقع:

١ ـ زغاوة إدارة عاصمة (طينة):

السلطان: بشارة دوسة.

٢ ـ زغاوة إدارية تور: عاصمة (أمبرو):

الملك خليفة علي محمدين.

٣ ـ زغاوة إدارة كرنوي دار قلا:

الشرتاي: آدم صبي التيجاني الطيب.

---

(١) انظر: «السودان الأوسط الشرقي»، الشاطر البوصيلي، وإمبراطورية البرنو، د. إبراهيم علي طرخان، ص ٤٩.

(٢) الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، د. حسن أحمد محمود، ص ٢٩٩.

٤ ـ زغاوة إدارة (مزبد) أولاد دقيل:

الناظر: خاطر باسي سالم تقل.

٥ ـ زغاوة أتارج:

الملك: أبكر حسب النبي.

٦ ـ زغاوة دار سويني:

الملك: الشريف آدم طاهر.

٧ ـ زغاوة (مرة) أنكا:

الملك: أبو أمو آدم أبو ككا.

٨ ـ زغاوة كوبي كلبس:

السلطان: حسن برقو.

ولا شك أن فيهم شخصيات قيادية بارزة لها وزنها الاجتماعي والسياسي، والرأسمالي؛ نذكر منهم ـ على سبيل المثال ـ بعض هذه الأسماء[١]:

١ ـ د. عبد الرحمن بشارة دوسة ـ وزير اقليمي طبيب بيطري.

٢ ـ د. أحمد مصطفى حسن ـ أستاذ بكلية الهندسة جامعة الخرطوم.

٣ ـ د. علي آدم طاهر.

٤ ـ د. إدريس جمعه ضرار ـ أستاذ بجامعة أم درمان الإسلامية.

٥ ـ د. محمد أبكر أحمد ـ أستاذ بجامعة الخرطوم.

---

(١) راجع هذه الاسماء الشيخ آدم يعقوب هارون. والمهندس عبد الحميد خاطر يحيى والسيد عبد الحميد بشير مانيس.

٦ ـ د. محمود أبكر سليمان ـ مدير جامعة نيالا.

٧ ـ د. يوسف التجاني سيف النصر ـ أستاذ بجامعة الفاشر.

٨ ـ الشيخ آدم يعقوب هارون ـ شخصية رأسمالية بارزة على مستوى القطر، نال وسام النيلين من الطبقة الأولى (المسمى ابن السودان البار) له إسهامات متعددة في شتى المجالات الاجتماعية والوطنية ـ وله عدة مساجد ومدارس في أم درمان والفاشر، وهو من الشخصيات الفذة والنادرة في مجاله.

٩ ـ د. جبريل إبراهيم محمد ـ مدير شركة عزة للطيران.

١٠ ـ د. شريف عبد الله ـ أستاذ بجامعة الخرطوم.

١١ ـ د. التجاني مصطفى محمد صالح ـ أستاذ بجامعة النيلين.

١٢ ـ د. صالح محمد صالح بوش.

١٣ ـ بروفسير محمد أحمد علي الشيخ مدير جامعة جوبا سابقاً.

١٤ ـ الأستاذ سليمان مصطفى أبكر ـ من رجال التربية والتعليم، وعضو الجمعية التأسيسية، وممثل جبهة الميثاق.

١٥ ـ د. عبد الرؤوف أحمد وادي ـ طبيب.

١٦ ـ د. محمد علي دوسه ـ أبها ـ المستشفى.

١٧ ـ د. عبد الله إدريس سبيل ـ أخصائي كلى بالسويد.

١٨ ـ د. بارود مصطفى فاشر المستشفى التخصصي بالرياض.

١٩ ـ د. محمد صالح عز الدين ـ طبيب.

٢٠ ـ د. عبد الرزاق إبراهيم ـ طبيب.

٢١ ـ د. بخيت خاطر خميس ـ مدني ـ طبيب.

٢٢ ـ د. عبد العزيز عبد الله كدوك ـ طبيب.

٢٣ ـ د. آدم صالح محمدين ـ أخصائي بالمستشفى السعودي في الفاشر.

٢٤ ـ د. إدريس عبد الرحمن دوسه ـ جراح، بولاية جنوب دارفور.

٢٥ ـ د. عبد الله علي خميس ـ طبيب.

٢٦ ـ د. نور الدين أحمد النور ـ طبيب.

٢٧ ـ د. صالح محمد صالح محمدين ـ طبيب.

٢٨ ـ د. طيفور سليمان علي ـ دراسات عليا ـ لندن.

٢٩ ـ السيد / عبد الحميد بشير محمد مانيس ـ شخصية حركية.

٣٠ ـ د. خليل إبراهيم محمد ـ وزير ولائي.

٣١ ـ د. الطاهر بشارة ـ طبيب.

٣٢ ـ د. أحمد، بابكر نهار ـ طبيب ورجل أعمال، ووزير اقليمي وهو من الشخصيات القيادية والرأسمالية، خلف والده في إدارة أعماله، وفي رئاسة حزب الأمة[1]، وفي الوجود الاجتماعي المتميز. لوالده (رحمه الله) مسجد كبير، ومعهد وخلاوي للقرآن، ودار ضيافة.

٣٣ ـ د. علي بابكر نهار ـ طبيب ورجل أعمال.

٣٤ ـ د. هرون عرمه ـ طبيب.

٣٥ ـ السيد /آدم نورين ـ شخصية رأسمالية على مستوى القطر.

٣٦ ـ د. هرون عمر آدم ـ طبيب بيطري.

٣٧ ـ د. عبد الله أحمد وادي ـ طبيب.

---

(١) بعد قيام ثورة الإنقاذ تم إلغاء الأحزاب السياسية وصار لمكانته الاجتماعية التأثير الموجه.

٣٨ ـ الشيخ عبد الماجد سليمان عبد الله ـ شخصية دينية.

٣٩ ـ د. أبو القاسم إدريس عمر ـ طبيب صيدلي.

٤٠ ـ السيد / يوسف محمود الطيب ـ رجل أعمال بجدة.

٤١ ـ المهندس / محمود بشير جماع ـ مهندس ـ تقلد مناصب وزارية ودستورية.

٤٢ ـ صالح عبد الله أحمد ـ مهندس.

٤٣ ـ النور يعقوب هارون ـ رجل أعمال بالفاشر ومن الشخصيات البارزة.

٤٤ ـ إسحاق آدم بشير جماع ـ مهندس.

٤٥ ـ عبد الرحمن أحمد حامد ـ مهندس.

٤٦ ـ أحمد هارون حسين ـ مهندس.

٤٧ ـ محمد الحاج عبد الرحمن رجل أعمال بالفاشر.

٤٧ ـ آدم يوسف ـ مهندس.

٤٨ ـ عبد الحميد خاطر يحيى ـ مهندس: مدير النظم الملاحية برئاسة الطيران المدني السعودي.

٤٩ ـ علي شمار عبد الله ـ وزير، إقليمي.

٥٠ ـ أحمد آدم عمر ـ مهندس.

٥١ ـ آدم جابر آدم ـ مهندس.

٥٢ ـ أحمد سليمان مصطفى ـ مهندس.

٥٣ ـ أبكر قرنفل ـ مهندس.

٥٥ ـ عبد الله بشر ـ مهندس.

٥٦ ـ آدم حسن خليل ـ مهندس.

٥٧ ـ آدم طاهر حمدون ـ مهندس نائباً والي.

٥٨ ـ أحمد آدم طاهر ـ مهندس.

٥٩ ـ محمد آدم طاهر ـ مهندس.

٦٠ ـ جوهر آدم طاهر ـ مهندس.

٦١ ـ السيد / أحمد نهار ـ شخصية بارزة في المجال الاجتماعي.

٦٢ ـ موسى نور بوش.

٦٣ ـ محمود محمد عبد الله.

٦٤ ـ سليمان محمود عربي.

٦٥ ـ التجاني موسى الطاهر ـ مهندس.

٦٦ ـ آدم إسحاق الطيب ـ مهندس.

٦٧ ـ علي خميس ـ مهندس.

٦٨ ـ محمد يوسف ـ مهندس.

٦٩ ـ آدم النور ـ مهندس.

٧٠ ـ نور الدين جبارة خميس ـ مهندس.

٧١ ـ جلال هارون حسين ـ مدير لإحدى المؤسسات التجارية بكندا.

وغيرهم كثير.

وإنهم بلا شك شاركوا في شتى الميادين، وعملوا في جميع أنحاء السودان، وساهموا في كل المجالات، واستحقوا الجنسية السودانية ولقب أولاد (بلد) سواء بالسبق الزمني، أم الأصالة التاريخية، أم بالاختلاط والمصاهرة، أم بالإسلام والعروبة.

فهم عرب ترجع أعراقهم مع المورتانيين إلى قبيلة (صنهاجة) وهم من الطوارق والملثمين، اتخذوا اللثام شعاراً تميزوا به بين الأمم فسموا: (الملثمين) وتعددت قبائلهم من كذالة (بالذال وقيل كدالة بالدال غير المعجمة) فلمتونة، فمسوفة، فوتريكه، ومسطاطة، فناوكا، فزغاوة، ثم لمطة أخوة صنهاجة[1] كلهم بين البحر المحيط الأطلسي بالمغرب إلى غدامس من جهة طرابلس وبرقة.

ويفتخر اللمتونيون ـ قبائل صنهاجة ـ بنسبهم، فيقول بعض شعرائهم المتقدمون:

قوم لهم شرف العلى من حمير   وإذا دعوا (لمتونة) فهمو همو!!
لما حووا علياء كل فضيلة   غلب الحياء عليهم فتلثموا!!

والزغاوة، والبرنو، والفلاتة، والكانم، والموريتان؛ جميعاً يشتركون في البربرية، والحميرية، والصنهاج، وفي الموقع، وتبادل السلطة، والسيادة.

فقد ذكر المؤرخون أنه في حوالي مطلع القرن التاسع عشر، قامت أسرة حاكمة جديدة في كانم، تسلمت مقاليد الأمور بعد حكومة الزغاوة السابقة، وهذه الحكومة الجديدة هي حكومة الماغوميين من البربر البيض، وهي التي انتحلت فيما بعد النسبة إلى سيف بن ذي يزن الحميري، وهؤلاء الماغوميّون من أبناء عمومة الطوارق.

ظلت أسرة الماغوميين تحكم أمبراطورية البرنو، سواء أكان مركزها في إقليم كانم أم في إقليم برنو، حتى قضى عليها الفولانيون خلال القرن

---

(١) انظر: ابن خلدون، ج ٦، ص ١٤٤ ـ «والاستقصاء في أخبار مغرب الأقصى» للسلاوي، ص ٩٨ ـ وأبو الفداء، ص ١٧٤ ـ وروض القرطاس، ص ٧٥.

التاسع عشر الميلادي، وعهد هذه الأسرة من أطول عهود الأسر الحاكمة في العالم[١].

ورغم شهرة الزغاوة بالهجرة، والحركة إلاّ إننا لم نجد لهم وجوداً ظاهراً في الحجاز كوجود رصفائهم من الموريتانيين والفلاتة والبرنو ولعل هذا يرجع في القديم إلى ارتباطهم بالصحراء وندرة الفقهاء في مجتمعاتهم الرعوية الصحراوية.

ثم جاء الاستعمار الإنجيلزي واعتبر منطقة الزغاوة شمال دارفور من المناطق المقفولة. وقانون المناطق المقفولة يمنع أصحابها من الخروج والهجرة كما يمنع غيرهم من الدخول إليهم.

وقد حاول الاستعمار تنصيرهم وبناء كنائس ومؤسسات تبشيرية. إلاّ أن مقاومتهم لهذه المحاولات كانت عنيفة وقوية[٢].

* * *

(١) انظر: أمبراطورية البرنو، د. إبراهيم علي طرخان، ص ٤٦ ـ ٥٠.

(٢) ظهرت هذه المحاولات في عهد الحاكم البريطاني لمنطقة الزغاوة [المسترمور] وكان موقف المقدوم يوسف موقفاً شجاعاً وقيادياً إلى جانب شراتي وملوك وسلاطين الزغاوة.

الفصل الثالث:

الهوية السودانية والعنصر الكانمي(١)

في ضوء كل ما تقدم أتساءل: ما المانع من أن تكون من مكونات الهوية السودانية العنصر الكانمي؟ فالتاريخ يؤكد بأن اتصالات قديمة وحديثة متنوعة كانت قائمة بين بلاد السودان الغربي، وبين البلاد الإسلامية في وادي النيل وما والاها شرقاً؛ وإن الإسلام وصل إلى كانم عن طريق مصر، وهو نفس الطريق الَّذي وصل به الإسلام إلى وادي النيل؛ وهناك من يقول: إنهم من مهاجري مملكة مروى(٢) أو من الهكسوس الَّذين غزوا مصر؛ ويقول القلقشندي: «وسلطان كانم من بيت قديم في الإسلام، وقد ظهر منهم من ادعى النسب العلوي وتمذهب بمذهب الإمام الشافعي» وفي موضع آخر يقول: «والعدل قائم في بلادهم، ويتمذهبون بمذهب الإمام مالك، وشيدوا مدرسة للمالكية، واتخذوا مركزاً للثقافة الإسلامية، وكانوا يرسلون أبناءهم إلى الأزهر للتفقه في شؤون الدين؛ وكانت لهم مراكز تجارية في مصر والسودان والبحر الأحمر، وأن طائفة من أهل كانم رحلوا إلى مصر وأقاموا بها، واشتركوا في نصيب موفور في تجارتهم الخارجية، وقد اتخذت هذه الطائفة مدينة قوص مركزاً لها، وأصبحت سوقاً تجارياً حافلاً بمنتجات أفريقيا الوسطى.. والمغرب.. والهند؛ وكونوا لهم نقابة

---

(١) يقول العمري (ت ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨م) [وبلادهم ـ أي كانم ـ بين أفريقية وبرقة، وتمتد جنوباً إلى سمت الغرب الأوسط في مبدأ هذه المملكة من جهة مصر مدينة: «دالا ـ أو زالا» وآخرها بلدة «كاكا» بينهما ثلاثة شهور]. انظر: «مسالك الأبصار»، ج ٢، ص ٢٨٠.

(٢) «الإسلام والمسلمون»، د. عبد الرحمٰن زكي، ص ٦٢.

قوية هيمنت على التجارة واحتكرتها، وأقاموا على نقابتهم رئيساً معترفاً به من قبل الحكومة[١].

فإذا كان هذا هو الواقع لدولة كانم التي اكتسبت دولتهم أهمية كبرى، وبسطت سلطانها على بعض قبائل السودان الشرقي إلى حدود مصر الغربية والنوبية..

نقول: ما الّذي يمنع افتراض أن الهوية السودانية منطلقها الكانمي، أو من أنها من مكونات الشخصية السودانية؟ فقد انفردوا بالسيادة على طرق القوافل المارة بفزان شرق الصحراء الكبرى، وبين البحر المتوسط وتشاد، وكذلك بوادي النيل[٢].

إن الواقع في ضوء تلك المستندات يؤكد بأن الهوية السودانية يعد من عناصرها الرئيسة الجنس الكانمي وأن العنصر الكانمي هو عنصر فعّال في تشكيل الشخصية السودانية، ناهيك أن كانم كانت أسبق للإسلام من مملكة سنار وسلطنة دارفور، وأن الدم العربي في الجنس الكانمي أعمق منها في الجنس النوبي، فقد اتفقت كلمة غالبية المؤرخين ـ وفي مقدمتهم (أورفوى) ـ على أن أول حكام كانم الّذين اعتنقوا الإسلام هو ماي هوميه، المعروف ـ أيضاً ـ هوميه جليمه، الّذي حكم البلاد ١٠٨٥ ـ ١٠٩٧[٣].

وتولى بعد هوميه جليمة ابنه دونمة دبلمة ١٠٩٨ ـ ١١٥٠، وكان أول من حج من ملوك كانم، حج مرتين وفي المرة الثالثة غرق بالقرب من المياه المصرية في السويس؛ وكان دونمة طموحاً.. دفع حدود بلاده

---

(١) نقلاً ـ «الإسلام والثقافة في أفريقيا»، د. حسن أحمد محمود، ص ٢٣٨ ت وانظر: «الإسلام والمسلمون»، ص ٦٥.

(٢) «الإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا، د. عبد الرحمٰن زكي، ص ٦٣.

(٣) «دائرة المعارف الإسلامية»: مادة برنو.

الشرقية إلى شواطىء النيل، وكان له الإشراف المطلق على مسالك التجارة حتى فزان[1].

إن تفاعل العنصر الكانمي بالقبائل السودانية من شماله وشرقه إلى غربه[2] حاصل وواقع كتفاعلها بالعنصر الزغاوي، والبرناوي، والفلاتي والمورتاني والبرقاوي؛ وأن عدم معرفتنا بهذه الحقيقة ـ أو عدم الاعتراف بها ـ لا يغير في الأمر شيئاً[3].

أترى متى كانت الحقائق تنمحي وتزول بسبب تجاهلها أو عدم معرفتنا لها؟ وعندما تفرض الأقلام الانتباه إليها يكون الشعور بالسخط، أو الاشمئزاز، أو الدهشة؛ لا.. لا.. الحقائق ثابتة سواء تاريخية أو اجتماعية، والعنصر الكانمي عنصر قوي وأساس في تشكيل المواطن السوداني، والشخصية السودانية، والهوية السودانية[4].

ولا شك أن فيهم شخصيات بارزة لها وزنها الاجتماعي والسياسي، وحيث أن أعدادهم لم تكن وفيرة، ومن ثم لم تكن لهم بجمهورية السودان نظارة.. أو عمودية.. أو مشيخة؛ تراهم ينتسبون إلى الزغاوة وبخاصة عندما تضطرهم الظروف للاتصال بالجهات الحكومية؛ والزغاوة، والبرنو، والفلاتة يعرفونهم ويقدرون لهم مواقفهم، إذ يرجع تأريخ ظهور مملكة كانم إلى الأزمنة البعيدة، وتشبه في أصولها أصول أمبراطورية صنغي، وتنسب الحكومة الأولى التي قامت في إقليم كانم إلى قبائل الزغاوة[5].

---

(١) «الإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا»، الدكتور عبد الرحمٰن زكي.

(٢) «انتشار الإسلام في أفريقيا»، د. حسن إبراهيم حسن، ص ١٣٠.

(٣) انظر: «موسوعة التأريخ، ج ٦، د. أحمد شلبي، ص ٢٨٩ ـ ٢٩٩.

(٤) يقول الدكتور إبراهيم علي طرخان: إن الروايات المتواترة التي تربط الأسرة الحاكمة في كانم بالطوارق، تربطها ـ أيضاً ـ بنفس الدرجة مع سكان منطقة الجزيرة في سودان وادي النيل، والنوبة، ومروى ـ انظر: «أمبراطورية البرنو الإسلامية»، هامش ص٥١.

(٥) انظر: «أمبراطورية البرنو الإسلامية»، د. إبراهيم علي طرخان، ص ٤٥، ٤٦، ٤٧.

ولقد قامت كانم وبرنو في السودان بنفس الدور الذي قامت به غانة ومالي وسنغي في السودان الغربي، فلقد كانت هذه الدول صاحبة الفضل في تطوير الحضارة السودانية وترقيتها[1] وفيهم أعداد وفيرة استوطنوا الحجاز وأقاموا بها منذ مجيئهم مع دونمة دبلة الذي أثبت التأريخ بأنه حَجَّ أكثر من مرة[2].

* * *

(١) انظر: «إمبراطورية البرنو، د. طرخان، ص ١٢٣.

(٢) «الإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا، د. عبد الرحمٰن زكي.

الفصل الرابع:

الهوية السودانية والعنصر البرناوي

ونتساءل أيضاً: ما المانع من أن يكون من أول مكونات الهوية السودانية العنصر البرناوي؟ وهو عنصر خليط من الدماء العربية، والحامية، والزنجية، وهم - في الواقع - امتداد لدولة الزغاوة؛ والكانم استقرت دولتهم قرب بحيرة تشاد، ويعتبر السلطان: «علي غازي السيفي» ١٤٧٢ - ١٥٠٢، هو مؤسس أمبراطورية برنو، وفي عهده استطاعت أمبراطورية برنو أن تخضع: «البلولة» الثائرين على المنطقة الواقعة شرق بحيرة تشاد، وأن توحد كانم وبرنو في أمبراطورية واحدة[١].

قامت هذه الأمبراطورية في الأجزاء التي لم تستطع أن تصل إليها سيادة الأمبراطوريات الأفريقية السابقة، ونجحت في القيام بالدور التاريخي القومي الَّذي قامت به من قبل قبائل السوننك في غانا، والماندجو في مالي، والسنغي في سنغى، وأن بعض المؤرخين يرجع أصل الفونج إلى البرنو؛ يقول د. يوسف فضل: (يرجع مواطن الفونج وأصلهم إلى واحدة من ثلاثة مناطق: بلاد الحبشة، وبلاد برنو، ومنطقة الشلك على النيل الأبيض) ويقول الأستاذ يوسف فضل: (ويلاحظ أن بلاد الحبشة تجد تفضلاً في الروايات الوطنية، وتتواتر عند النسابة السودانية الَّذين ينسبون الفونج إلى بني أمية، بينما تقف بلاد الحبشة والبرنو في أنهما وقعتا تحت

---

(١) انظر: كتاب برنو في عهد الأسرة الكانومية، د. مصطفى علي بسيوني أبو شعيشع - وكتاب «انتشار الإسلام في القارة الأفريقية»، د. حسن إبراهيم حسن، ص ١٣٨ - و«كتاب دولة الإسلام وحضارته في أفريقيا، د. عبد الرحمٰن عبد الله الشيخ، ص ٨٣/ ٨٩.

مؤثرات إسلامية قبل قيام مملكة الفونج)[١] وتكاد المصادر تجمع على أن أول بلد دخله الإسلام في السودان الأوسط هو كانم والبرنو[٢].

إذا كان هذا واقعاً ومثبتاً في سجلات التاريخ، وصح أن دولة برنو كانت على صلة عظيمة بوداي ودارفور ـ طبعاً لعظمتها وقوة نفوذها ـ فهي أعظم دولة إسلامية أقامها الوطنيون الأفريقيون وحافظوا على عظمتها، واستمرت دولة إسلامية كبرى عمرت أكثر من تسعة قرون؛ والدولة أو النظام الَّذي يبقى هذه المدة الطويلة ـ رغم ما يعرض لها من صعاب وكوارث ـ هي من غير شك دولة وطيدة الأركان ثابتة الدعائم؛ ولولا قوة نظمها وأصالة القوائم التي قامت عليها لما عاشت هذه القرون، بصرف النظر عما تعرضت له سعةً وانكماشاً في حدودها، فهذه عوارض تصيب الدول كأي كائن حي[٣].

إذا كان هذا واقع ازدهار إمبراطورية البرنو، وقوة نظمها، وأصالة قواعدها؛ وأنها كانت على اتصال بسلطة دارفور التي امتد نفوذها إلى سنار حتى وصل شندى؛ وأن آركل عدل عن تأييده المطلق إلى نظرية الأصل الشلكاوي للفنج، وأن الفنج في نظره وتحليله هم البرنو، وأن نظرية الأصل الأموي التي تجد تفضلاً واستحساناً في الروايات الوطنية قد يتطرق إليها الشك؛ إذا كان هذا هو الواقع وما قيل في أصل الفونج، فلماذا نتعدى هذا الواقع رغم معقولية المبررات؟.

لم لا نربط هويتنا السودانية بهذه الامبراطورية الإسلامية الوطيدة، التي عمرت أكثر من تسعة قرون، وشاركت مع الزغاوة في إسقاط مملكة

---

(١) «مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي، الدكتور يوسف فضل حسن، ص ٤٥/ ٥٠.

(٢) «الجهاد الإسلامي في غرب أفريقية»، أحمد محمد كاني، ص ٧.

(٣) إمبراطورية البرنو الإسلامية، د. إبراهيم علي طرخان، ص ٧.

علوة وقيام مملكة الفونج الإسلامية؟[1] ولا يزال هناك قبيلة من الزغاوة هم: (عقابة) وأولاد دوري، وأولا زلحين، والنوى، وكدو، ينتسبون إلى الشيخ محمد علي علومة الأمين البرناوي.

أولاً: اتصالها المباشر بدارفور، إذ يرجع أصل شعب البرنو إلى الهجرات التي امتدت من سنة ٨٠٠ ـ ١٢٥٠، وكانت هذه الهجرات قوامها البرنو والزغاوة الَّذين امتدوا في منطقة واسعة من دارفور شرقاً حتى بحيرة تشاد وما جاورها غرباً، وصار التداخل بين تلك القبائل على مستويات عديدة، شكلت وحدة سياسية خاض سكانها تجارب تاريخية مشتركة.

ثانياً: إن إمبراطورية البرنو هي التي استولت على نفوذ دولة كانم، التي بسطت سلطانها على قبائل السودان الشرقي إلى حدود مصر وبلاد النوبة[2].

ثالثاً: إن الروايات تشير إلى امتداد نفوذ البرنو إلى شرق وادي النيل، وأن سلطنة سنار أسسها الملك عثمان الَّذي طُرد من برنو عام ١٤٨٦، وأن عمارة دنقس من سلالة ماي عثمان، ولا سيما إذا عرفنا أن اسم عمارة يتردد في جدول أسماء برنو؛ ورغم النقد الموجه لهذا الرأي[3] فإن هناك من المؤرخين من يرجح هرب ماي عثمان بعد سنة ١٤٤١، أي: قبل ظهور الفونج بعشرين سنة، وأنه قد يكون صحيحاً[4]؛ وقد صحبه أفواج من البرنو، ولا يستبعد أن يكون معهم بعض قبائل الفلاتة والتنجر،

---

(١) «الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا»، د. حسن أحمد محمود، ص ٢٩٩.

(٢) «الدعوة الإسلامية توماس وأرنولد»، ترجمة د. عبد المجيد عابدين، ص ٣٥٧ ـ وأمبراطورية البرنو، طرخان، ص ٤٩.

(٣) شاطر بصيلي عبد الجليل: «معالم تاريخ سودان وادي النيل» ص ٢٤، د. يوسف فضل حسن «مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي» ص ٦٠ ـ ٦٥.

(٤) «تاريخ الثقافة العربية في السودان»، د. عبد المجيد عابدين، ص ٤٨/٥٢ ـ و«الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا»، د. حسن أحمد محمود، ص ٣١٥.

وغيرهم. .

رابعاً: إنها دولة أفريقية إسلامية أصيلة، أخذت في العروبة والإسلام ـ كما يقال ـ بسبب ونسب، وكان لها شأن وحضارة واستمرار تاريخي حتى مطلع القرن العشرين؛ وقد علق صاحب كتاب: «الفتاش على دولة البرنو الإسلامية وعظمتها» يقول: «إن صاحب برنو هو أحد سلاطين الدنيا الأربعة العظام، وعبارة سلاطين الدنيا الأربعة: السلطان الأعظم سلطان بغداد، وسلطان مصر، وسلطان برنو، وسلطان مالي[1].

خامساً: إن قبيلة البرنو ما زالت لها بالسودان وجودها الفعال، وقوتها المؤثرة في الجنس والهوية، ولهم مواطن ومواطىء أقدام في جنوب دارفور، وكردفان، والجزيرة، وانتشروا في جميع أنحاء السودان، واختلطوا بكل القبائل الشمالية، الدناقلة، والجعليين، والشاقية، وغيرهم تبعاً لتوافر عوامل شَبَهٍ كثيرة، مثل: شكل الرأس، والشعر، وأبعاد الأطراف، مع إضافة صفات فسيولوجية وخصائص دموية، بحيث لا تستطيع اليوم أن تميز البرناوي من الشايقي، والزغاوي من السوارابي، والبرقاوي من الدنقلاوي، والكانم من الهدندوي، في الشكل والصورة: إلاَّ في جوانب ضيقة جداً، ناهيك عن أنَّ بعض المؤرخين قد أثبتوا العلاقة بين الفلاتة التكرور وبين الجعليين العباسيين، وخاصة الشايقية. . وفيهم السوراراب الَّذين هم من أم تنجراوية أتى أهلها من أرض برنو، الَّذين استقروا بدارفور ثم انتقلوا إلى شمال السودان[2].

فلماذا رغم كل هذه المبررات لا نربط الهوية السودانية بالعنصر البرناوي والشخصية البرناوية؟ أو نجعل من مقومات الشخصية السودانية

---

(١) تاريخ الفتاش، ص ٣١.

(٢) انظر «الفلاتة في أفريقيا ومساهمتهم الإسلامية والتنموية في السودان»، أستاذ الطيب عبد الرحيم محمد، ص ٢٢٤، و٢٣٣. وانظر: الملحق رقم (٤).

المعاصرة الجنس البرناوي؟!!! فلقد ازدهرت حضارة امبراطورية البرنو، وظلت آثارها الثقافية والحضارية سائدة في مساحات كبيرة، وفي قلب أفريقيا من فزان شمالاً إلى أداماوة وبحيرة فترى جنوباً، ومن نهر النيجر غرباً إلى وداي ودارفور شرقاً، بل امتدت آثارها إلى مشارف النيل[١].

ونعود ونتساءل: لماذا الحاجز الوهمي بين الهوية السودانية والجنس البرناوي، ما دام الواقع يؤكد قوة الاتصال، وعظمة الدولة، ونفوذ الإمبراطورية، وحضارة البرنو؟ وكل الافتراضات تتضافر على تأكيد ذلك، بدلاً من ربطها بقصة العرب الأمويين، الَّذين هربوا من مصر إلى بلاد النوبة والبجا وتزوجوا بالأفريقيات[٢].

لأن هؤلاء العرب وإن شكلوا قومية إلاَّ أن التأريخ لم يثبت لهم حضارة، سواء قدموا عن طريق مصر أم انحدروا من الشرق من المنطقة التي تقوم على مداخل بين حوض النيل وأثيوبيا[٣].

وحتى لو كانت لهم حضارة، فإنها لم تكن ـ بحال من الأحوال ـ في مستوى وعظمة حضارة امبراطورية البرنو، لا في امتداد عمقها العربي، ولا في توسعها القاري أو القطري؛ وسواء أكانوا أموين تزوجوا بالأفريقيات مما أثر في لونهم، وطباعهم، وتقاليدهم كما يقرر الدكتور مكي شبيكة؛ لهم حضارة أم ليست لهم حضارة.. فالنتيجة واحدة، عناصر وافدة اختلطت بجماعات مستقرة عن طريق المصاهرة، شكلوا وجوداً، وبنوا مجتمعاً، ووقعوا حلفاً، ثم أقاموا دولة هي دولة سنار.

والَّذي يعنينا من كل هذا، هو الواقع الَّذي يقول: إن كل مجموعة

---

(١) دفي دسم بازل: «أفريقيا نحو أضواء جديدة» ترجمة جمال محمد أحمد، مصر ١٩٦٢م، ص ١٦٢ إلى ص ١٦٣.
(٢) السودان عبر القرون، د. مكي شبيكة، ص ٥٢ ـ ونعيم شقير، ج ٢، ص ٧٢.
(٣) معالم تاريخ السودان، شاطر بصيلي عبد الجليل، ص ٢٣.

من الناس تنتمي إلى العنصر الَّذي أثر فيها أكثر من غيره من العناصر؛ ولا شك أن العنصر القادم إلى سودان وادي النيل من جهة الغرب، هو أقوى العناصر والجنسيات تأثيراً في قومية وسط سودان وادي النيل، إذا ما قيس بتأثير العناصر الأخرى القادمة إلى وسط السودان من جهة الشرق الحجاز والحبشة وجهة الشمال مصر وليبيا؛ فهل يا ترى كل هذا لا يدعم الرأي القائل: بأن سلطنة سنار أسسها الملك عثمان الَّذي طُرد من برنو عام ١٤٨٦م، وأن عمارة دنقس من سلالة ماي عثمان؟ ومن ثم تكون الطريق إلى ربط الهوية السودانية بهذه الجنسيات ذات العلاقة الوطيدة بشعب وادي النيل معقولاً ومنطقياً، بدلاً من اللجوء إلى الاستنتاجات والاحتمالات والروايات المستحسنة لربط الهوية السودانية بالأصل الأموي أو الحبشي للفونج، وأنهم من الأمويين المولدين الَّذين اختلطوا بالأثيوبيين والبجا، وتزوجوا بالأفريقيات[١] فإن نظرية ادعاء ملك الفونج النسب إلى الدوحة الأموية العربية الشريفة، والَّذي شكك فيه (بروس) قائلاً: إن تجعيد شعره وفرطحة قسمات وجهه وسواده يدلان بأنه من الشلك[٢].

هذا الادعاء نجده سائداً في كل المجموعات السودانية المستعربة، والتي اعتنقت الإسلام، وفي مخطوطة عربية ترجع كتابتها إلى فترة ١٦٥٧ ـ ١٦٦٩ في (تمبكتو) عثر عليه الفرنسي: (دوينريير) هناك أربعة جنود من جيش عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي ٩٩هـ ـ ١٠١ هـ ـ ٧١٧ ـ ٧٢٠م، جاؤوا من اليمن إلى البرنو، واستطاعوا أن يُكَوِّنوا أسرة مالكة في

---

(١) والمتواتر بين البرنويين أن هناك صلة بين حكام برنو وحكام الحبشة، بدليل أنه بين ألقاب ماي برنو لقب: «ماقدة بي» أي «من ماقدة» وكذلك هناك صلة من حيث التقاليد والعادات بين مايات برنو وبين حكام منطقة الجزيرة في سودان وادي النيل، وفي النوبة ومروى» ـ انظر: إمبراطورية مملكة البرنو، د. طرخان، ص ٥١.

(٢) «مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي، د. يوسف فضل حسن، ص ٥١ ـ ٥٣.

برنو وغيرها من بلاد السودان؛ وقد اختلطت أخبار هذه المخطوطة بالأساطير، وذكر (البكري) أن قوماً من بني أمية هاجروا إلى كانم عند محنته ببني العباس ويشكك (ياقوت) في هذه الرواية حين تحدث عن كانم وأهلها في قوله: «وهم سودان مشركون يزعمون أن هناك قوماً من بني أمية ساروا إليها عند محنتهم من بني العباس» فإذا كان هذا الادعاء سائداً في كل الشعوب الأفريقية التي اعتنقت الإسلام، سواء من شرق أفريقيا أو غربها، وقد شكك فيه المؤرخون من العرب وغيرهم أمثال (بروس وياقوت).

أقول لماذا لا نخرج من دائرة الشك إلى اليقين، الَّذي يستمد جذوره من الواقع المعاش، ومن أعماق البيئة، وأحداث التاريخ، وظروف الاجتماع؟ وهي ضرورة سياسية واستراتيجية لها ما يبررها، ولا سيما في هذا العصر.. عصر الوعي القومي والسياسي؛ ناهيك بأن كل مجموعة من الناس تنتمي إلى العنصر الَّذي أثر فيها أكثر من غيره من العناصر، ولا شك أن أثر الدم الأفريقي في المواطن السوداني أكثر من أثر الدم العربي، ولست أعني بهذا أن عروبة المرء تقاس بشكله أو بلون بشرته، فإن نظرية نقاء الدماء في جنس من الأجناس أصبحت نظرية بالية عتيقة، بعد أن تمت طريقة اكتشاف المورثات، وأن المورثات موجودة في كل مكان من العالم، وإن كانت نسب هذه المورثات تختلف ـ أحياناً ـ من بيئة إلى بيئة ومن جنس إلى جنس[1].

إضافةً إلى ما تقدم فإن أي دارس لتاريخ الممالك الإسلامية في غرب أفريقيا ووسطها، يكاد يجزم بالربط الثقافي، والفكري، ووحدة الحس، والشعور، والمثل، والأهداف..، ما بين ممالك غرب دارفور: غانا، وصنغي، وكانم، وبرنو، وفلاتة، وقبائل ممالك دولة سنار، وشعب وادي النيل؛ كانت ـ ولا تزال ـ أقوى من أي رباط بين دولة سنار وقبائل الدول

---

(١) السود والحضارة العربية، عبدة بدوي، ص ٢٩ ـ ٣٣.

والممالك المجاورة للسودان، من الشرق أو الشمال أو الجنوب.

إن ربط الهوية السودانية بالعنصر البرناوي له وجاهته ومبرراته، وما يدعمه إسلامياً، وجغرافياً، وثقافياً، وتاريخياً؛ ولا شك أن التاريخ ـ كما يقال ـ: «محكمة قديمة خالدة نزيهة، وجدت قبل ظهور الغايات السياسية والأهداف الشخصية».

ولا أحد يستطيع اليوم أن يتجاهل هذه القبيلة ووجودها الواسع الممتد من كلامبار ومنواشي، ودارا، وكبم، ورهيد البردي وملمول، وأرديب وتويل، ودرتي، وتوال، وديتو، وأم غبيشا، وجديد صدقي، ومرشن، ومنسا، ونيالا، وانتهاءً بالرهد، وكوستى، والجزيرة.

ولقد شارك أبناء البرنو في كل مجالات الحياة الاجتماعية، والسياسية، والتعليمية؛ ولهم شخصيات بارزة في كل الأوساط، وعلى أعلى مستوى أذكر منهم على سبيل المثال[١]:

١ ـ د. محمد أبو إمام ـ (علوم سياسية) جامعة الخرطوم.

٢ ـ د. علي الحاج محمد آدم ـ شغل مناصب وزارية متعددة، ولائية ومركزية وهو أخصائي أمراض النساء والولادة.

٣ ـ الشفيع أحمد محمد ـ شغل مناصب سياسية متعددة.

٤ ـ د. حبيب مختوم ـ والي جنوب كردفان.

٥ ـ د. يوسف سليمان ـ جامعة أم درمان الإسلامية.

٦ ـ د. نجيب آدم قمر الدين ـ مدير وكالة سونا للأنباء.

٧ ـ د. محمد آدم حمزة ـ أخصائي نساء وولادة جامعة الخرطوم.

٨ ـ د. محمد الأمين تاج الأصفياء ـ اقتصاد جامعة الجزيرة.

---

(١) قدم هذه الاسماء وقام بمراجعته السيد. حسن عثمان حمزة السماني وهو من ابناء هذه القبيلة ويعمل بمكاتب الترجمة بجدة [مؤسس].

٩ ـ د. الطاهر محمود أحمد ـ مدير ومؤسس شركة هبة الرحمن الخرطوم.

١٠ ـ د. حسين إبراهيم صالح ـ محافظ نيالا.

١١ ـ د. يونس إبراهيم صالح ـ بيطري.

١٢ ـ إبراهيم آدم حبيب ـ نائب مدير عام بنك الخرطوم.

١٣ ـ الأستاذ التيجاني بخارى ـ خريج جامعة الأزهر ـ إدارة تعليم نيالا.

١٤ ـ محمد يعقوب حسين (عميد سجون).

١٥ ـ محمد طاهر فضل (عقيد شرطة).

وهناك شخصيات كثيرة في مجال التجارة والأعمال الحرة، والدعوة والإرشاد، والإدارة الأهلية مثل:

العمدة تميم أمين أحمد جعفر.

السيد محمد طاهر أحمد ـ رجل أعمال ومن الشخصيات القيادية.

السيد حسن عثمان حمزة التيجاني، مؤسس مكاتب ترجمة ـ جدة.

السيد إبراهيم أبو علي ـ مدير إدارة الإرشاد والتوجيه ـ كسلا.

الشيخ عطا المنان ـ وهو من كبار رجال الدعوة السلفية بنيالا.

السيد نور الدين إبراهيم.

السيد المهندس الصافي نور الدين ـ مؤسس ومدير شركة منواشي الهندسية.

السيد مصطفى عز الدين الطاهر.

السيد عثمان عطا المنان.

السيد عبد الله محمد أحمد تنقو.

وكثيرون غيرهم..

وهكذا تجد وجودهم المزاحم والمشارك في شتى الميادين، وفي جميع أنحاء السودان الحبيب؛ وأنهم قد شكلوا ـ بالفعل ـ وجوداً اجتماعياً واسعاً، وثقلاً سياسياً كبيراً، وخالطوا كل القبائل من جعليين، ودناقلة، ونوبة؛ كما خالطوا الهبانية، والرزيقات، والبرتي، والفلاتة، والفور.

إنهم ـ بلا أدنى شك ـ قد ساهموا في تشكيل الهوية القومية، واستحقوا الهوية السودانية، سواء بالسبق الزمني، أو بالاختلاط والمصاهرة، أو الأصالة التأريخية؛ إذ المعروف أن البرنو ـ منذ اعتنق ملوكها الإسلام خلال عصر سيادة كانم ـ قفزت إلى مصاف الدول السودانية العظيمة، ودخلت في علاقات مباشرة وقوية مع مصر وبلاد شمال أفريقيا، وكانت هذه العلاقات أكثر ازدهاراً واستمراراً مع جيرانها الأقربين بالسودان الغربي قبل القرن الحادي عشر الميلادي[1].

البرنو في الحجاز:

وقبيلة البرنو ارتبطت بالحجاز منذ أن بسطت سلطانها على قبائل السودان الشرقي إلى حدود مصر وبلاد النوبة واستولت على نفوذ كانم فضلاً عن أنها كانت أعظم دولة إسلامية إفريقية في القارة لها وجودها الحضاري والسياسي حتى مطلع القرن العشرين.

فلا غرابة إذا اتجهوا إلى بيت الله الحرام حجاجاً وعماراً وزواراً ومجاورين حباً في الإسلام ودار الإسلام وتجاوباً مع توجيهات الإمام المجاهد الشيخ عثمان ـ دان فوديو ـ الذي أخبر باستيلاء الكفار على ديارهم

(١) انظر: «إمبراطورية البرنو الإسلامية، للدكتور إبراهيم طرخان، ص ١٧٠ ـ ١٧٢.

وأمرهم بالهجرة حين يحدث ذلك وألاّ تكون مراعاة حقوق القرابة والزوجية عذراً لأحد في ترك الهجرة. فكان وجودهم في الحجاز. وفي عهد الملك عبد العزيز ـ موحِّد الجزيرة العربية طيب الله ثراه ـ شعروا بالأمن والأمان والعدالة والمساواة، فكان ارتباطهم بالمملكة العربية السعودية أرض الحرمين الشريفين ارتباط عقيدة وإيمان وحب وإخلاص.

وهكذا تجد البرنو في الحجاز كما تجدهم في السودان وفي الشام ومصر وليبيا والأردن، إلاّ أن وجودهم في السودان والحجاز يغاير وجودهم في تلك الأقطار.

* * *

الفصل الخامس:

الهوية السودانية والعنصر الهوساوي

ثم ما المانع من أن يكون للعنصر الهوساوي المشاركة في الهوية السودانية وفي تكوين الشخصية؟!!.

فالهوسا ليس عنصراً واحداً، أو مجموعة واحدة، أو شعباً واحداً؛ وإنما هم يمثلون خليطاً من شعوب تنتمي إلى أصول مختلفة، وإن جمعتهم لغة واحدة واجتمعوا في صعيد واحد؛ فهم يمثلون قبائل تختلف اختلافاً كبيراً في مميزاتها العرقية، وإن تقاربت دينياً وثقافياً، بحيث يشكلون - بتقاربهم هذا - أكبر مجموعة لغوية وحضارية في تلك المنطقة، بل إنهم من الناحية الاجتماعية والاقتصادية يسودون تلك المنطقة[١].

وهناك من يرى أن شعوب الهوسا تمثل هجرة من هجرات البربر، الَّذين كانوا لا يكفون عن المضي صوب الجنوب كلما أتيحت لهم الفرصة.

فدفعت غارات الهلاليين فريقاً من الملثمين وبعض قبائل البربر من غير الملثمين إلى الهجرة إلى واحة أير، وقد عاش الفريقان جنباً إلى جنب فترة طويلة وتزاوجا واندمجا، ومن هذا الاندماج نشأت شعوب الهوسا ولم تعد واحة أير تكفي هذا العدد من السكان، فبدأ الهوسا يبحثون عن مهاجر جديد، فانطلقوا صوب الجنوب إلى شمال نيجريا وكونوا لأنفسهم إمارات صغيرة بلغ عددها سبعاً، أقدمها إمارة بيرم، وإمارة غوبير، وكانو، وكانسينا، وزاريا، وزنفرة[٢].

وهناك من يقول: بأن الهوسا منحدرون من العرب الَّذين دخلوا

(١) «الدعوة الإسلامية في غرب أفريقيا وقيام دولة الفلان»، د. حسن عيسى عبد الظاهر، ص ٤٨.

(٢) «الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا»، د. حسن أحمد محمود، ص ٢٣٢.

السودان وأواسط أفريقية، وأن الممعن في صفاتهم الجسمية يراها لا تمت بصلة كلية إلى الزنجية، وأن لغتهم مزيج من الزنجية والسامية، وفيها الكثير من الألفاظ العربية الظاهرة...[1].

وقد دخل الإسلام بلاد الهوسا في نهاية القرن الرابع عشر وأوائل الخامس عشر، بواساطة تجار النيجر وبعض قبائل الونقارة، وربما كانوا من الفلاتة الوافدين من مالي؛ فاعتنق أهل كانو الإسلام، ويقال: أن الزعيم الَّذي وصل في زمنه الإسلام إلى كانو اسمه: (ياجي) وهو الَّذي غزا زاريا وفي أيامه ازداد عدد الَّذين اعتنقوا الإسلام وشيدت المساجد[2] ولقبه: «الساكرن ياجي بن تسامبا» ٧٥٠هـ - ٧٨٧هـ و ١٣٤٩ - ١٣٨٥م.

وأن هناك فريقاً من الفقهاء يزيدون على الأربعين رجلاً قد وفدوا على هذه المدينة، فعلموا ملكها الإسلام، وأسسوا مسجداً، وأقاموا فيها يعلمون الإسلام ويطبقون الشريعة الإسلامية[3].

وليس ببعيد أن يكون سلاطين مالي قد بسطوا - على الأقل - نفوذهم الروحي في هذه البلاد؛ ويبدو أن ثمة تأثيرات إسلامية أخرى دخلت البلاد من الشرق، ويبدو أن فقهاء المغرب قد شاركوا في هذه الجهود السلمية لنشر الإسلام بين شعب الهوسا، مثل الجهود التي بذلها فقيه توات الشهير محمد بن عبد القادر المغيلي[4].

---

(١) الدعوة الإسلامية في غرب أفريقيا وقيام دولة الفلاني، د. حسن عيسى عبد الظاهر، ص ٤٩.

(٢) «الإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا، د. عبد الرحمٰن زكي، ص ٨٥ - ٨٦ - انظر: «الدعوة الإسلامية في غرب أفريقيا، د. حسن عيسى عبد الظاهر، ص ١٠٦.

(٣) كان في سنة ٧٥٠ - ٧٨٧ هـ/ ١٣٤٩ - ١٣٨٥م - انظر: «دولة مالي الإسلامية»، د. إبراهيم طرخان، ص ٥٥.

(٤) «الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا»، د. حسن أحمد محمود، ص ٢٣٢ - ص ٢٣٣ - انظر: «دولة مالي الإسلامية»، د. إبراهيم علي طرخان ص ٥٥.

المهم أن نيجريا التي تحدها الكمرون شرقاً، وبحيرة تشاد في الشمال الشرقي، وتشاد والنيجر شمالاً، وداهومي غرباً، ويقع المحيط إلى الجنوب منها؛ وتشمل دولة برنو، وامبراطورية الفلاتة، وممالك اليوربا، ومناطق الإيبو، وهي أكبر دولة أفريقية وتحتل دولة الفلاتة التي استولت على امبراطورية البرنو والكانم، وينسب سكانها إلى قبائل برنو، الفلان، والإيبو، واليوروبا، وقبائل الإيدو[1] وكلها قبائل لها علاقة وطيدة وقديمة بالسودان، فهناك من يرى أن الإسلام اندفع إلى نيجريا من منبعين أولهما: مصر عبر السودان الغربي، ودارفور، وباجرمي، وبرنو؛ وثانيهما: من شمال أفريقية عبر الصحراء؛ ثم جاءت امبراطوريات غربي أفريقية وحركة الشيخ عثمان دان فوديو الإصلاحية، فتمكن الإسلام في الشمال وانتشر به انتشاراً واسعاً، ومن الشمال أنساب نحو الغرب وبخاصة في عهد إمبراطورية الفولان[2].

أضف إلى ذلك أنه ـ وبحلول القرن الثامن عشر ـ صار طريق السودان هو الخيار الأول للجزء الأكبر من قوافل الحجيج القادمة من بلاد السودان الأوسط مما أدى إلى التقارب بين سكان بلاد السودان الأوسط والشرقي، تولد عن ذلك درجة من التكامل الاجتماعي والثقافي، وفوق ذلك تسببت هجرات الفولاني البطيئة وقوافل الحجيج ـ عبر عقود من الزمان ـ في إقامة مجتمعات من الفلاتة، والهوسا، والكانميين، والكتكو، والمايا، في كل من دارفور وسودان وادي النيل[3] وهناك قبيلة من قبائل الكنوز تعرف بالهوساب[4] أضف إلى ذلك ما كان من أمر الوشم المشترك: (الشلوخ)

---

(١) «موسوعة التاريخ الإسلامي»، ج ٦، ص ٥٧٧.

(٢) «موسوعة التاريخ»، ج ٦، ص ٥٨٧ ـ ٥٨٨.

(٣) «أثر حركة عثمان دان فودي على دعوة المهدية في سودان وادي النيل، للبروفسير يوسف فضل حسن، ص ٩ ـ ١٠.

(٤) «تاريخ دولة الكنوز الإسلامية»، ص ١٣٩ ـ ١٤٠، د. عطية القوصي.

بين قبائل اليوربا وشعوب حضارة مروى، مما يؤكد قوة الاتصال وتقارب العادات ما بين هذه القبيلة وقبائل سودان وادي النيل حضارياً[1]. بل لا تكاد تجد فارقاً ما بين الشايقي والهوساوي خاصة في ظاهرة الشلوخ.

إذن لا غرابة في أن يكون لعنصر الهوسا المشاركة في تكوين الهوية السودانية والشخصية السودانية؛ فالهوسا ـ اليوم ـ قبيلة لها كيانها وفعاليتها في كل ولايات السودان من أقصاها إلى أقصاها، وفيهم شخصيات بارزة في شتى المجالات[2].

نذكر منهم على سبيل المثال الأسماء التالية:

١ ـ الدكتور / إبراهيم نوح ـ أخصائي باطني بالرياض بالسعودية.

٢ ـ الدكتور / الأمين يحيى عثمان ـ طبيب بيطري ـ كسلا.

٣ ـ الدكتور / عمر محمد ثاني ـ طبيب بيطري ـ كسلا.

٤ ـ السيد / صلاح سليمان ـ بلدية كسلا.

٥ ـ السيد / مبارك مالك أبو بكر ـ ضابط إداري ـ بلدية كسلا.

٦ ـ السيد / نور الدين محمد النور أبكر ـ محامي.

٧ ـ السيد / كمال رابح أحمد بشير ـ محامي.

٨ ـ السيد / ياسر حسن يعقوب ـ محامي.

٩ ـ السيد / شيتو آدم أبكر ـ محامي.

١٠ ـ السيد / تجاني محمد صديق ـ مصلحة الضرائب.

١١ ـ السيد / كمال سليمان ـ الجمارك ـ كسلا.

---

(١) لا شك أن للإسلام دوره البارز في تكوين حضارة الهوسا لغةً واعتقاداً ـ انظر: «معالم التاريخ الأفريقي، حسن عابدين، والسر العراقي، الخرطوم ١٩٧٩.

(٢) قام بتقديم هذه الاسماء الشيخ خليل يعقوب عمر وهو من ابناء قبيلة الهوسا ـ وهو يعمل حاليا بالمدينة المنورة.

١٢ ـ السيد / صالح محمد صديق ـ مهندس معماري بالخرطوم.

١٣ ـ السيد / يوسف عثمان ـ عميد بالجيش.

١٤ ـ السيد / يوسف إدريس علي ـ نقيب بالجيش.

١٥ ـ السيد /عثمان حسن أبكر ـ محامي بالقضارف.

١٦ ـ السيد / سعد عمر عثمان ـ رئيس بلدية ود الحلو ـ القضارف.

١٧ ـ السيد / عثمان محمد موسى ـ قاضي بولاية كسلا.

١٨ ـ السيد / معاوية محمد نور أبكر ـ ضابط إداري.

١٩ ـ السيد / شعيب أبكر ـ محامي ببورتسودان.

٢٠ ـ السيد / علي محمد علي صغير ـ ضابط تنفيذي.

٢١ ـ الشيخ / حبيب محمد دكو ـ شخصية دينية بوقر.

٢٢ ـ الشيخ / محمد عبد المؤمن محمد ـ شخصية دينية بكسلا.

٢٣ ـ الشيخ / عبد الرحمن آدم إسماعيل ـ شخصية دينية بكسلا.

٢٤ ـ الشيخ / مصطفى إسحاق ـ شخصية دينية بكسلا.

٢٥ ـ الشيخ / محمد عثمان محمد موسى ـ شخصية دينية بكسلا.

٢٦ ـ الشيخ / خليل يعقوب عمر ـ شخصية دينية بالمدينة المنورة.

٢٧ ـ السيد / محمد كاو ـ بالقضارف.

٢٨ ـ السيد / داؤود محمد موسى ـ بالقضارف.

٢٩ ـ السيد / محمد نور يوسف ـ بورتسوان.

٣٠ ـ السيد / نصر الدين إبراهيم ـ الإعلام والثقافة.

٣١ ـ السيد / محمد إبراهيم ـ التربية والتعليم بكسلا.

٣٢ ـ السيد / محمد زبير ـ التربية والتعليم بكسلا.

٣٣ ـ السيد / عبد العليم زكريا محمد ـ التربية والتعليم بكسلا.

٣٤ ـ السيد / آدم علي عبد المؤمن ـ رئيس حي غرب القاش.

٣٥ ـ السيد / محمد سعيد محمد ـ رئيس حي وسط غرب القاش.

٣٦ ـ السيد / حبيب عبد القادر عبد الرحمن ـ رئيس غرب القاش شمال.

٣٧ ـ السيد / محمد أبكر الور ـ مدير التعاون بالقضارف.

٣٨ ـ السيد / عبد الله حبيب ـ محامي بالقضارف.

الهوسا في الحجاز:

وكما كان للهوسا وجودهم المشارك والفعَّال في سودان وادي النيل كان لهم أيضاً وجودهم في الحجاز وبشكل ملموس منذ أن اعتنق ملوكهم الإسلام فاستقروا بالحجاز حيث نعمة الأمن والعدالة والمحبة والأخوة.

وهكذا تجد الهوسا في الحجاز كما تجدهم في السودان مشاركين في شتى ميادين الحياة الاجتماعية. ورغم أنهم لا ينصهرون مع غيرهم من القبائل إلاَّ ما ندر فإن المثقفين منهم قد كسروا هذا الحاجز فتزوجوا من المصريين والمغاربة والحلنقة والشايقية وغيرهم.

* * *

الفصل السادس:

البيضان والهوية السودانية

وأعني بالبيضان الجنس المصري، واليمني، والليبي، والموريتاني: (الشنقيطي)، والكردي، والشامي، والمغربي، والجزائري، والحلب. والحلب هم المعروفون في مصر بالغجر، وفي الشام بالنور؛ وهم في السودان كما في مصر والشام قوم رحل يشتغل رجالهم بالحدادة وألعاب القرود، ونساؤهم يشتغلن بالوشم، وتبصير البخت، وخفض البنات، وكلهم يتعاطون الشحاذة[1].

العنصر المصري والهوية السودانية:

لا أحد ينكر قوة علاقة مصر بالسودان قديماً[2] وحديثاً، منذ قيام مملكة نبتة على الضفة الشرقية للنيل جنوبي كريمة، وعلى بعد ١٠٣٥ ك جنوبي وادي حلفا، وفي مقابل مدينة (مروى) الحديثة شمالي شندي التي انتقلت العاصمة من نباتا (نبتة) إليها، وقد أصبحت عاصمة لمملكة (كوش) التي استقل أبناؤها عن مصر[3].

والَّذي يعنينا من هذا الجانب التأريخي هو القول بأن كلاً من مصر والسودان كانتا مرتبطتين طوال تلك الحقب الطويلة بحضارة دينية وثقافية متينة، وتأثر كل منهما بالأخرى، وامتزجت هذه الصلة بينهما إلى الحد الَّذي جعل بعض المؤرخين يعتبر الأسرة الخامسة والعشرين التي أسسها

---

(١) نعوم شقير، «تاريخ وجغرافية السودان»، الفصل الثامن من سكان السودان»، ص ٦٣ ـ ٦٤.

(٢) «الإسلام والحضارة الإسلامية»، د. أحمد شلبي، ج ٥، ص ٢٠٢.

(٣) تأريخ السودان القديم، د. محمد بيومي مهران، ص ٣٢٣ ـ ٣٢٥.

(شبكة) السوداني أسرة من الأسر الفرعونية الحاكمة في مصر، وهو أبلغ دليل على الارتباط في أقوى صور الاتحاد، في الدين والدولة، ووحدة التاريخ ذاته؛ لأن الأسرة الخامسة والعشرين هي من صميم الأسر الحاكمة من أسر الفراعنة المصريين، بينما هي في الوقت نفسه من صميم الشعب السوداني[1]. فأقاموا القلاع وشيدوا المعابد التي امتدت إلى منطقة (عمارة) و(الكوة) و(جبل البركل) الأمر الَّذي ترتب عليه إقامة عدد كبير من الكهنة، وأعداد كبيرة من الكتاب المصريين: (الخطاطين) الَّذين كانوا يتميزون بأنهم علماء في الطب، والدين، واللغة المصرية القديمة؛ وبجانب ذلك كان يقيم بجانب المعابد عدد كبير من الصناع؛ وبذلك اختلط السودانيون بالمصريين واندمجوا فيهم وتزاوجوا، وتمصرت تلك البلاد بالتدريج، واشتركوا في الحكم، والدين، والفن، والعمارة[2].

ولا شك أن هذا الاختلاط والمصاهرة مع المصريين أديا إلى تغيير - أو تعديل - في لون البشرة وفي السلالة السودانية إلى حد مّا.

إذا كان هذا هو الواقع فعلاً، فما الَّذي يمنع أن يكون من مقومات الهوية السودانية العنصر المصري إلى جانب الجنس العربي والأفريقي (الغرَّابة)؟ أضف إلى ذلك أن أعداداً كبيرة من المصريين قد انتشروا في جميع أنحاء السودان، حتى وصلوا إلى سنار، وكردفان، ولهم بدارفور - وإلى يومنا هذا - أسر كبيرة استقرت بالفاشر والجنينة منذ ازدهار سلطنة دارفور، ويطلق عليهم لقب أولاد الريف؛ ولا يزالون يحتفظون بلون بشرتهم وإن افتقدوا لغتهم ومصريتهم بالاستيطان والمصاهرة، فصاروا فوراً، مساليت، وسودانيين لهم مكانتهم الاجتماعية والثقافية، يعتزون بالأصل الفوراوي اعتزازهم بالانتماء إلى السودان والجنسية السودانية.

---

(١) «تاريخ سودان وادي النيل، د. شوقي الجمل، ص ١٣٦ ـ ١٣٧.

(٢) «تاريخ السودان من أقدم العصور»، مندور المهدي، ص ٢٥ ـ ٣٢.

الهوية السودانية والعنصر اليمني والمغربي والليبي[1]:

لا شك أن اليمني عربي قح في جنسه، ولونه، ودمه، ولسانه؛ يحمل كل صفات العروبة وخصائصها من عزة وإباء للضيم، ومروءة ووفاء.

وقد كان بين اليمن والسودان صلات عديدة، أهمها: صلة الجوار والإقامة، والرحلة والتجارة، ونشر العلم والثقافة؛ ولا أدل على ذلك من ظهور: (غلام الله بن عائذ اليمنية) في دنقلة؛ فقد وَجَدَ أهلها في حيرة من أمر دينهم بسبب افتقارهم إلى العلم والفقه، فعمر المساجد وعلم أبناءها وتلاميذها ـ من أبناء المسلمين ـ تلاوة القرآن وبعض العلوم الفقهية[2] وباستقرار غلام الله بن عائذ اليمني في دنقلة نشأ الاختلاط ما بين العناصر النوبية واليمنية، مما أدى إلى ظهور قبيلة الركابية التي تنتمي إلى عاذر اليماني.

وقل مثل ذلك في الشناقيط: (الموريتانيين) الَّذين اختلطوا بشعب السودان منذ مئات السنين، وعاشوا في القرى والأقاليم أئمة في المساجد وعلماء في المعاهد، وتجاراً في الأسواق ورجال أعمال ومشاريع؛ وتجدهم مع الإبالة والبقارة، وصار لهم في جميع أنحاء السودان حسب، وفي مدينة شندى نسب، وفي دارفور أرحام، وفي كردفان أصهار، وتقلدوا مناصب قيادية رفيعة المستوى لهم وجودهم المتميز في كل المجالات.

وقل مثل ذلك في العنصر المغربي، فقد تحدث كتاب الطبقات[3] عن بعض علماء المغرب الَّذين رحلوا إلى السودان، في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي، مثل الشيخ التلمساني المغربي، الَّذي قدم على الشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب، واستقل بتدريس القرآن وعلم

---

(١) «الإسلام والثقافة في أفريقيا»، د. حسن أحمد محمود، ص ٢٩٨.

(٢) من معالم تأريخ الإسلام في السودان، يوسف فضل حسن، ص ٤٦ .

(٣) طبقات ود ضيف الله، ص ٤٢.

الكلام؛ ويمضي ود ضيف الله إلى أبعد من هذا حين يتحدث عن بعض علماء الفونج ويرجع أصلهم إلى المغرب والأندلس، ويضرب لذلك أمثلة بعبد الكافي المغربي، وحسن ود حسونة، ودفع الله بن مقبل، وسعد ود شوساي، واللبدي، وهما صوفيان من المغاربة(١).

وقل مثل ذلك في الأصل الليبي، فهناك من يقرر بأن الليبيين الجنوبيين قد هاجروا إلى السودان أثناء هجرة القبائل الليبية الشمالية إلى دلتا مصر الوسطى، وقد اتخذوا طريق الواحات جنوباً حتى وصلوا إلى (دنقلة) وقد استطاع زعيم هذا الفريق من الليبيين أن يصبح نائب الملك في كوش، وأن يستقل آخر الأمر بأمارته الجديدة قبل عصر (بعنخى بست أجيال)(٢).

وكانت هذه الصلة وطيدة بدارفور، فقد اتصل أهل دارفور بليبيا: (فزان) عن طريق (الكفْرة) وذهب كثير منهم إلى المغرب وتنبكت(٣) ولا يزال للفيزان بدارفور وجود وتأريخ وتراث يتمثل في جامع أبو صفيطة بالفاشر، الَّذي أضيفت إليه كلية القرآن الكريم تتبع لجامعة القرآن؛ ومن أبناء آل أبو صفيطة ـ على سبيل المثال ـ: منصور، وإسماعيل، ويونس، ويوسف؛ ومن الفيزان ـ أيضاً ـ آل التيباوي، وآل السنوسي النفار، وآل فرج عمود؛ وجميعهم من أهل دارفور.

كل هذا يؤكد قوة العلاقة ومتانة الصلة ما بين هذه الأجناس وشعب السودان؛ ولا شك أن الدين، واللغة، والتزاوج، والاستيطان من أقوى عوامل الربط بين الشعوب وتقويم الشخصية وتحديد الهوية.

---

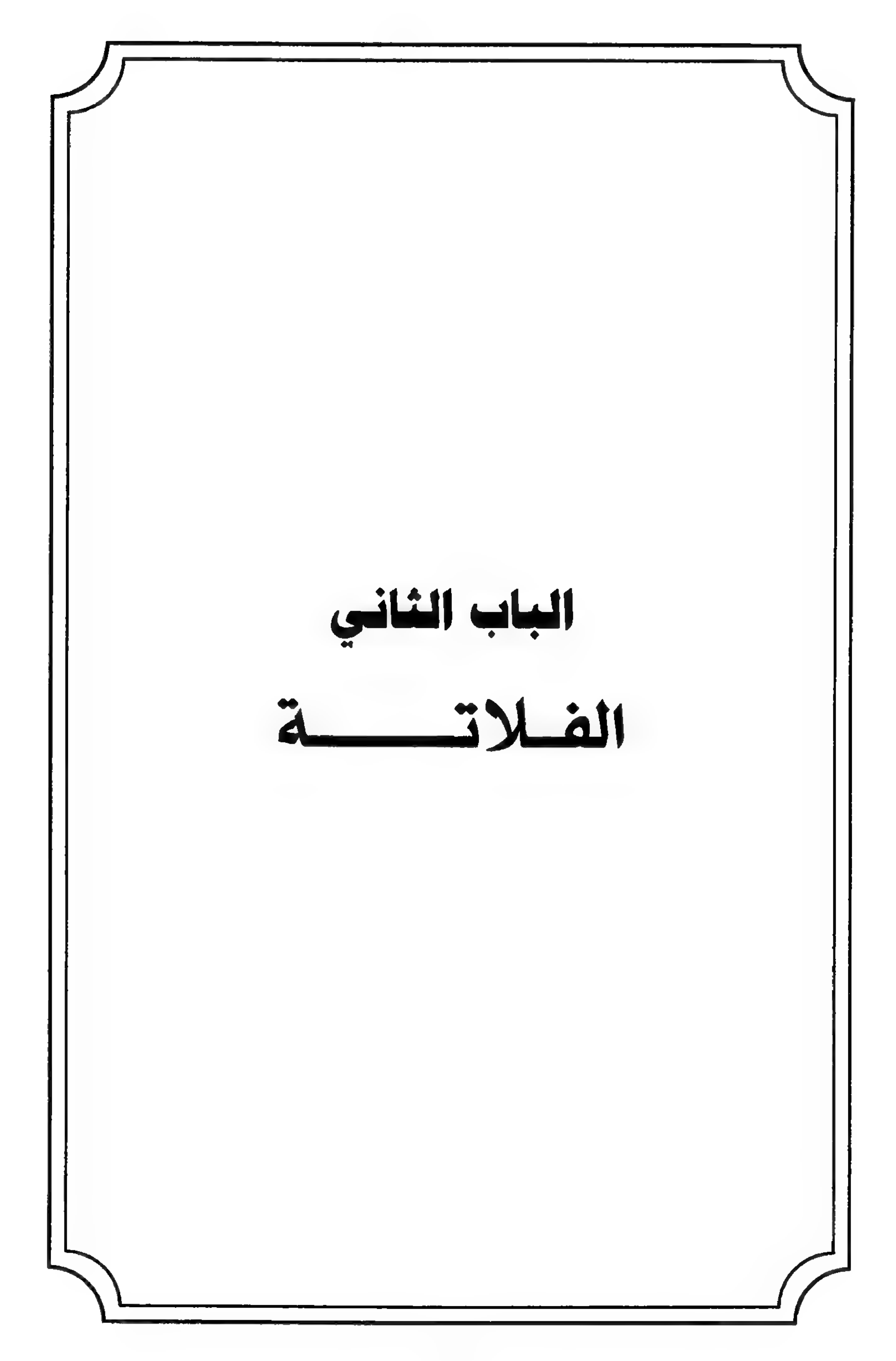
(١) «الطبقات»، ص ٤٥: ١١٩.

(٢) «تاريخ السودان القديم»، د. محمد بيومي مهران، ص ٣٣٥.

(٣) «الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا»، د. حسن أحمد محمود، ص ٣٢٤.
«التونسي تشحيذ الأذهان»، ص ٥٥ ـ ٥٦.
«التربية في السودان» عبد العزيز عبد المجيد، ص ٧١.

ولا أكون مبالغاً لو قلت: إن كل القبائل التي ذكرها نعوم شقير في قبائل السودان، بأنهم الأجانب والمولدون هم عناصر أساسية في تكوين الهوية السودانية، فما أكثر الَّذين تولدوا من اختلاط هذه الأصول بعضها ببعض، مصريين، وأتراك، ومغاربة، وشوام، ومكادة، وأحباش، وحضور.

* * *



الباب الثاني

الفـلاتـــــة

الفصل الأول:

من هم الفلاتة؟

من هم الفلاتة؟ أو الفلان..؟.

هل هم من الفينيقيين والهنود؟ أم هم من السوريين واليهود؟[1].

هل هم من المورتانيين؟ أم من الطوارق والملثمين؟[2].

هل هم من البربر؟ أم خليط من مجموعة تأثرت بالعرب والروم؟[3].

هل هم من الزنوج؟ أم من الأثيوبيين[4] أو البقارة؟.

هل هم من النوبة في السودان؟ أم هم من صعيد مصر؟[5].

---

(١) انظر: ميك، وفيري، وكُتّاب آخرون يرون أنهم من الهنود أو الفينيقيين؛ بينما يرى موريل ودلاقوس أن أصلهم من اليهود أو من سوريا؛ وكذلك بارت يرى أنهم من اليهود؛ وكتاب «الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، د. حسن محمود، ص ٢٠٦.

(٢) الطوارق والملثمون: هم من قبائل المغرب، قاموا بدور الوسيط بين المغرب الأقصى وبين أقاليم غرب أفريقيا، وهم الَّذين حملوا الإسلام إلى هذه الجهات؛ كما وتعتبر موريتانيا حلقة اتصال بين جنس البربر في الشمال وبين الزنوج في الجنوب، وأن الفلان اختلطوا بهم وبالسكان المحليين في جنوب موريتانيا من جماعة التروز المتأثرين بالروم والبربر، ثم نزحوا جنوباً إلى حوض السنغال.

(٣) دي لافرس، يرى أنهم من البربر، وبالمر يرى أنهم خليط من مجموعة العرب والبربر - انظر: «الإسلام العربية في أفريقيا»، د. حسن محمود، ص ٢٥٨؛ كما يؤيد هذا الرأي أفمسيا، وبعض المراجع الألمانية.

(٤) رولاند أولفر وفيج يقرران بأن الفلاتة من أصل زنجي أفريقي، وسلفمان وبارت يرجحان بأنهم من أصل أثيوبي؛ ومورى لاست الإنجليزي قال: إنهم من البقارة؛ وكذلك موردوك؛ ورجح رأيهم البروفسير يوسف فضل في كتابه: «تاريخ الممالك الإسلامية في السودان» ص ٩٤.

(٥) مولر، يربطهم لغوياً بالنوبة - انظر: «الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، د. حسن=

لقد قال المؤرخون والرحالة والباحثون في تراث الأمم وحضارتهم بكل ذلك. والسؤال الَّذي يتبادر إلى ذهن القارىء هو: ما دلالة كل هذه الاستفهامات؟ والجواب: المسح الشامل، التحري والدقة في التقصي وكثرة الباحثين، طرح كل الاحتمالات والافتراضات؛ وجميع ذلك يشير إلى غاية الاهتمام بتأريخ هذا النوع الإنساني (الفلاتي أو الفلاني).

وهذا أمر بدهي يوحي بعظمة الدور الَّذي قاموا به، ومدى رسوخه وتأصيله في سجل التاريخ.

نعم بكل هذا قال رجال التأريخ الدارسون لتراث الشعوب وحضارتهم، وبخاصة في شمال أفريقيا وغيرها.

وسواء أكان الفلان من البربر أم الموريتانيين[1] أم الطوارق، أو جنساً مستقلاً، فإنه بلا شك قد اختلط البربر بالزنوج في الصحراء وعلى أطرافها غرباً وجنوباً، وامتزجت العادات والتقاليد والدماء، وقويت الصلات المتبادلة وبخاصة بعد قيام (امبراطورية أودغست)[2] وهي امبراطورية إسلامية أقامتها قبيلة: (لمتونة) من البربر، وأبلت بلاءً حسناً في نشر الإسلام بين الزنوج، وقامت بدور كبير بالدعوة إليه قبل قيام حركة ودولة المرابطين؛ وقد بلغت ذروة هذه الامبراطورية خلال القرنين الثالث والرابع

= محمود، ص ٢٥٨؛ والطرازي يؤكد بأنهم هاجروا من صعيد مصر ـ انظر: «انتشار الإسلام في العالم» في ٤٦ دولة آسيوية وأفريقية، ج ١ ص ١٢٦.

(١) هناك اتصال وثيق ونسب بين بعض القبائل الموريتانية والفلاتة وإلى يومنا هذا، وهم قبائل: خمير، والجكنيون، ومسومة، وإبدوعيش، وتندنح، وإيجيجوبا، ولمتونة ـ انظر: «حياة موريتانيا»، ج الثاني السيد مختار بن حامد.

(٢) أودغست: في الجنوب من المغرب، وهي أول مدينة تقف عندها قوافل السودان الواردة من كل ناحية نحو المنحنى الأعلى لنهر النيجر، التي كان يعتبر أعمر بلاد السودان وكانت يوماً ما ضمن مملكة غانا ـ انظر: البكري، ص ١٥٩؛ وإمبراطورية غانة الإسلامية، ص ٢٩ ـ ٤٢ للدكتور/ طرخان.

الهجري (العاشر الميلادي).

والواقع المعاش يؤكد أن علاقة (الفلان أو الفلاتة)[1] بالموريتان، أو الطوارق والقبائل والأجناس سالفة الذكر، وطيدة وحميمة؛ سواء أكان ذلك بمقتضى الجوار أم الاحتكاك، أم المصاهرة وتبادل المصالح، وإذا كان هذا هو الواقع ـ فعلاً ـ فإن علاقتهم بالعرب والعربية لا تقل عن علاقة أولئك بالعرب والعربية؛ فبقدر نسبة هؤلاء للعرب والعربية تكون نسبتهم، وبقدر امتزاج العرب واختلاطهم بهم يكون امتزاجهم واختلاطهم، سواء بالزواج أو النسب، أو التبني والرق، أو تداخل اللهجات واللغات، وما يحدثه المجاورون من احتكاك.

لا جدال في أن الموقع الجغرافي للبربر، والطوارق، والموريتان هو خارج جزيرة العرب، فهم إذن ليسوا عرباً بالموقع، هذا وقد قسم جزيرة العرب إلى خمسة أقسام:

١ ـ الحجاز: وتمتد من أيلة (العقبة) إلى اليمن؛ وسمي حجازاً ـ فيما

---

(١) يقول سير توماس وأرنولد: «الفلبي» اسم أطلقه هذا الشعب على نفسه، ويطلق عليهم جيرانهم أسماء مختلفة تربو على المائة، أشهرها: فلان وفلاني Meyen p. 28 ـ انظر: «الدعوة إلى الإسلام، أرنولد، ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن، د. عبد المجيد عابدين، هامش ص ٣٦٠.

ويقال: الفلان اسم أطلقه عليهم العرب ويعرفون «بالفلبي» و: «البول» وغير ذلك؛ أما كلمة فلاتة الاسم الّذي شاع في السودان النيلي، فقد أطلقه عليهم «الكنوري» وبعض القبائل التي تقطن حول بحيرة: «تشاد» د. بدين، الحلقة الأولى، ص ٤؛ وممن قال: إنهم من البقارة: «موري لاست» Murylazt ـ الإنجليزي في كتابه: «خلافة سكتو» و: «موردوك» في كتابه: «أفريقيا وشعوبها وثقافتها التاريخية» وأيده في ذلك البروفسير يوسف فضل في كتابه: «تاريخ الممالك الإسلامية في السودان» ص ٩٤؛ وممن قال بعلاقتهم الوثنية في الرحم بالزغاوة، والبربر، والكوشيين «بالمر» Plamer؛ راجع كتاب «الفلاتة في السودان» الطيب عبد الرحيم محمد، ص ٢٢ ـ ٢٣ ـ ٢٤.

يقولون ـ لأنها سلسلة جبال تفصل تهامة، وهي الأرض المنخفضة على طول شاطىء البحر الأحمر من نجد.

٢ ـ تهامة.

٣ ـ اليمن.

٤ ـ نجد: وهي الجزء المرتفع الَّذي يمتد من جبال الحجاز، ويسير شرقاً إلى صحراء البحرين.

٥ ـ العروض: وهي تفصل بالبحرين شرقاً وبالحجاز غرباً، وسميت بالعروض لاعتراضها بين اليمن ونجد، وتسمى باليمامة أيضاً(١).

هذه هي الجزيرة العربية جغرافياً في التقسيم المتعارف، وكل من فيها هم عرب بالموقع والمكان، إن لم يكونوا عرباً باللغة.

فهل يستطيع الباحث أو المؤرخ أن يطلق اسم العرب على المورتانيين، والطوارق، والبربر، وغيرهم قبل الهجرات العربية؟ سواء قبل الإسلام أم بعده؟ لا أظن ذلك.

وإذا تسنى له ذلك تجوزاً، ففي أي تقسيم أو طبقة يضعهم؟.

لقد اتفق الرواة ـ أو كادوا يتفقون ـ على تقسيم العرب من حيث النسب إلى قسمين:

١ ـ قحطانية: منازلهم الأولى في اليمن، وهم الأصل.

٢ ـ عدنانية: منازلهم الأولى في الحجاز، وهم الفرع، واتفقوا على أنهم طبقات ثلاث:

---

(١) يرد هذا التقسيم إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنه.
«المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام»، للدكتور جواد ـ وانظر: الكتب التي ألفت في جغرافية جزيرة العرب، وصفتها وخططها، و«تاريخ الحضارة العربية»، والأدب العربي؛ وهي كثيرة.

١ ـ عرب بائدة.

٢ ـ عرب عاربة.

٣ ـ عرب مستعربة.

وأن إسماعيل (عليه السلام) هو الجد الأكبر للعرب المستعربة، فقد صاهر إسماعيل عليه السلام جرهم ـ وكانوا من العرب العاربة ـ وبارك الله في ذرية إسماعيل حتى كان منه عدنان، وتناقلت العرب العدنانية أنسابها، وهو أكثر الأنساب العربية صحة وحفظاً وتداولاً.

وكثر أولاد عدنان، اشتهر منهم معد بن عدنان، ونبغ في أولاده مضر، ونبغ من أولاده فهر بن مالك؛ وسمى أولاد فهر بن مالك: بن النضر: (قريشاً) وغلب هذا الاسم على جميع الأسماء فاشتهرت هذه القبيلة بـ: (قريش) وأقر أهل العرب كلهم بعلو نسب قريش، والسيادة، وفصاحة اللغة، وصناعة البيان، وكرم الأخلاق، والشجاعة، والفتوة؛ وذهب ذلك مثلاً لا يقبل نقاشاً ولا جدالاً[١].

ففي أي تقسيم أو طبقة تضع هؤلاء قبل الهجرات العربية في اسم العرب، وتربطهم بالدم العربي واللغة العربية؟.

نعم يستطيع الباحث أن يحدد ـ بداية ونهاية ـ قوة دفع الهجرات العربية، التي خرجت من الجزيرة إلى شمال الجزيرة وأطراف الهلال الخصيب، فمنها ما اتجه نحو بلاد الرافدين وخاصة نهر الفرات، ومنهم من استقر في فلسطين وسوريا ولبنان، ومن اتجه غرباً نحو طور سيناء والنيل؛ يستطيع الباحث أن يحدد ذلك، سواء أكان ذلك قبل الإسلام مع التجارة والثقافة، أم بعد الإسلام مع الفتح والدعوة[٢] أم في الوقت الحاضر بعد

(١) اقرأ للتفصيل «سيرة ابن هشام»، وكتب السيرة، و«الأنساب».

(٢) كتاب: «الصلات بين العرب والهند» للسيد سليمان الندوي.

ظهور النفط وظهور الهجرات المعاكسة.

كما يستطيع الباحث الإنثربولوجي أن يحدد عمق وأغوار هجرات الدم العربي في الأمم والشعوب غير العربية، الآسيوية والزنجية.

وهجرات الدم غير العربي في الأسر وبعض البيوتات العربية[١] ومدى أثر كل ذلك في الشعر ولون البشرة، أو في اللغات واللهجات والأعراف.

ويأتي الباحث الاجتماعي فيقارن بين العادات، والتقاليد، والسلوك؛ فيهتم بالعلاقة والارتباط على أساس التماثل، والامتزاج التأريخي والاجتماعي، أو في شبه الملامح، والشخصية، والمظهر الذاتي.

وفي ضوء هذه الاستنتاجات الفكرية والتحليلية نتساءل: من هم الفلان أو الفلاتة؟؟.

جاء في (دائرة المعارف الإسلامية)؟:

الفلاتة: (هم الجنس الوحيد الأبيض أو الأحمر في أفريقيا الزنجية).

ويقول (بارث):

«إن اللفظ: (البول) الَّذي أطلق على: (الفلان) من قبائل: (الولف).

يعني: بني فاتح، ويعني ـ أيضاً ـ أحمر اللون».

ويقول: (فهميا لفشن) عن قبائلهم الرعوية: «إنهم يختلفون جسمانياً عن السودانيين ـ بما في ذلك التكرور ـ ويمثلون ملامح غير زنجية».

ويقول (روبن هارتن):

(الفلاني: هم مجموعة تتحدث لغة مادنقو أفريقية، لكنهم قوقاسيون في تكوينهم الجسماني).

---

(١) «الصلات بين العرب والهند، للعلامة سليمان الندوي.

ويقول استنيق:

«هم ـ يعني الفلان ـ صفر البشرة، ذوو شعر سبيبي ناعم، رقاق الأنف والفم، رشيقو القوام».

ووصفهم الرحالة: (ابن بطوطة) و:(جنسون) في كتابه: «الامبراطورية الفلاتية» (وحسن إبراهيم حسن) في كتابه: «أثر الفلاني على انتشار الإسلام في غرب أفريقيا». وصفهم بأنهم قوم شبه بيض سحنتهم عربية، يعتمدون ـ دائماً ـ على أنفسهم ويعملون ـ غالباً ـ بالرعي وعلى الخصوص رعي الأبقار؛ والجهاد تراث من تراثهم الّذي يعتزون به، وأنهم قوم كثيرو الميل لبعضهم البعض عند المحن والشدة والحروب، وإنهم لا يرتبطون بأرض غير مأهولة بالإسلام، بل يعملون لتأهيلها أو الهجرة منها في حالة عجزهم؛ وأنهم يعيشون في السودان لآلاف السنين، وأنهم سريعو الانصهار في المجتمعات التي يعيشون فيها، وفي الغالب ينسون لغتهم... الخ.

ثم يقول الرحالة المشهور: (هنري بارث) عنهم: ـ أعني الفلان أو الفلاتة ـ: ليس هناك أدنى شك في إن كانت هناك قبيلة أفريقية واحدة تستحق اهتمام المتعلمين الأوروبيين فهي قبيلة:

ـ (الفلبي) كما يسميهم المادينقو، أو:

ـ (الفلاني) كما يسميهم الهوسا، أو:

ـ (الفلاتة) كما يسميهم الكنوري وقبائل بحيرة تشاد، وشاركهم سكان سودان وادي النيل في هذه التسمية، أو (الفلان) كما يسميهم العرب.

ويقول (هنري بارث): إنهم يختلفون في مظهرهم، وتأريخهم، ولغتهم اختلافات كثيرة عن بقية القبائل في الأقطار المجاورة، ولا شك أنهم أكثر القبائل الأفريقية ذكاءً على الإطلاق[1].

---

(١) Barth, H. Travels and discoveries in North and Central Africa, Page.

إنني لا أريد أن أنوه وأشيد، أو ألفت الأنظار إلى تلك التقاريظ، أو الشهادات، والتزكيات، والاعترافات..؛ سمها ما شئت: الوثائقية الحضارية، المستندات التأريخية، أو السجلات الدعوية، أو الإسلامية، أو الجهادية، أو الانفتاحية للمجتمعات الإنسانية.

إنها ـ بلا شك ـ شهادات قامت على الدراسة والفحص، لا تعرف التحيز أو التعصب، أو التهم الزائفة والأهواء الجامحة؛ وهي وإن كانت تسمو بشأن الإنسان: (الفلاني أو الفلاتي) وتهز النفوس هزاً رقيقاً، وتشرح القلوب، وترد خلط المخلطين وتهريج المهرجين، وكل من يحاول احتقار العنصر: (الفلاتي) والقبيلة الفلاتية، أو يريد غمط دورهم الحضاري والإنساني[1] سواء في أفريقيا عامة أم في السودان على وجه الخصوص[2].

إن هذه الأوصاف التي تحدد معالم الفلاتة، أو الفلان كما جاء في: (دائرة المعارف)، وما ذكره (فهميا لفشن) وأنهم يمثلون ملامح غير زنجية، أو أنهم صفر البشرة، ذوو شعر سبيبي ناعم، رقاق الأنف والفم، رشيقو القوام، كما جاء في تحديد: (استنيق) أو في وصف: (حسن إبراهيم) لهم بأنهم شبه بيض سحنتهم عربية يعتمدون دائماً على أنفسهم...؛ أو ما قاله: (هنري بارث) وأنهم يمثلون في مظهرهم، وتأريخهم، ولغتهم اختلافات كثيرة عن بقية القبائل في الأقطار المجاورة، ولا شك أنهم أكثر القبائل الأفريقية ذكاءً على الإطلاق...

إن الأوصاف التي ذكرت للفلان من ناحية السحنة واللون تنطبق تماماً على شخصية الجعلي، والدنقلاوي، والشايقي، وبصورة أحوط الدنقلاوي،

---

(١) «أثر الفلاني على انتشار الإسلام في غرب أفريقيا، حسن إبراهيم حسن.

(٢) راجع «تأريخ سلطنة درفور وامتدادها»: «المسبعات» و: «كردفان» والتي وصلت إلى: «سنار».

لأن له رطانة كما للفلاتي؛ بل تكاد تنحصر في الشايقي لما عرف به من الشجاعة والاستبسال في القتال. . ، إلاَّ أن هؤلاء آثروا الأرض والاستقرار والزراعة، والفلاتة آثروا الهجرة والجهاد والدعوة.

فالفلاتي رجل قتالي دعوي.

والشايقي رجل قتال قبلي.

الشايقي أرضه واستقراره كورتي، ومروي، وتخومهما.

والفلاتي أرضه حيث الإسلام، واستقراره حيث تقوم للإسلام دولة[١].

فالمجتمعات عندهم ثلاثة: مجتمع كافر بالأصالة، ومجتمع كافر بالتخليط، ومجتمع المسلمين، وهي الجماعة المسلمة يجب التزامها، والاعتزال عنها ردة[٢].

ومما لا شك فيه أن نمو الدعوة الإسلامية في سلطنة دارفور، واستيطان الإسلام فيها، ثم توسعها شرقاً حتى النيل، وغرباً حتى مملكة ودّاي: (تشاد حالياً) وشمالاً حتى الصحراء الليبية، وجنوباً إلى مستنقعات

---

(١) لقد أقام الفلان دولاً إسلامية في غرب أفريقيا، لعبت دوراً كبيراً في نشر الحضارة الإسلامية، حتى سقطت في أيدي الإنجليز ١٣١٢ هـ - ١٩٠٣م، أي بعد أن قامت بأكثر من مائة عام، حيث قضى الشيخ عثمان على مملكة جبير الوثنية، والتي كانت تقع على مجرى نهر النيجر، وأقام مكانها مملكة: «سكتو» الإسلامية؛ يقول الدكتور محمد ماضي: فقامت هذه المملكة على أساس من الدعوة الدينية الوهابية، ومدت رواقها على جميع الأقطار الواقعة بين تمبكتو وبحيرة تشاد، وبقيت محافظة على استقلالها ووحدتها نحو قرن، حتى استطاع الاستعمار الأوروبي - الإنجليزي - أن يقضي على ما كان عليها من استقلال ووحدة - انظر كتاب «النهضات الحديثة»، ص ٥٠.

(٢) مقارنة بين حركتي الإخوان المسلمين والشيخ عثمان دان فوديو، د. عبد الرحمٰن أحمد عثمان، جامعة أفريقيا العالمية، ص ٩.

بحر الغزال، إنما يرجع الفضل ـ بعد الله ـ إلى قبيلة: (الفور)[1] ـ حُفَّاظ كتاب الله القرآن الكريم ـ وإلى سلاطينهم الَّذين كانوا يشجعون العلماء ويغدقون عليهم العطاء، ويهبونهم الحواكير (إقطاعيات كبيرة من الأراضي) والرقيق، ولا تجبى منهم ضرائب، ويحثونهم على الاستيطان والاستقرار، ويؤكد هذا الرحالة: (ناختيقال) الَّذي ذكر قائلاً: (وسعى أحمد بكر إلى جعل مملكته مملكة إسلامية حقيقة، ففكر في جذب الرجال المتعلمين والفقهاء إلى بلده، وبنى المدارس والمساجد، وأجبر السكان على إظهار بعض الشرائع الإسلامية... ودعى القبائل الأكثر تقدماً من خارج الحدود للاستقرار في بلده، وآمنهم على ممتلكاتهم، ورفع عنهم الضرائب؛ وفي هذه الفترة جاءت هجرات الفلاتة والبلالة في أعداد كبيرة من برنو وباقرمي، وأيضاً هجرات سكان النيل، وجعلت حكمته وكرمه من دارفور محط الأنظار...) ويؤكد هذه الحقيقة (لامين) فيقول: (ونتيجة للحالة المتأخرة عند شعبه، كان يشجع الأجانب المتعلمين ويعفيهم من الضرائب ويعطيهم امتيازات أخرى).

وبهذه العقلية الحضارية المتفتحة لسلاطين الفور، باستقطابهم للعلماء وترحاب شعب (الفور) بهم، احتلت دارفور موقع القيادة والريادة الإسلامية، بل وصلت إلى أوج عظمتها في الوقت الَّذي انحدرت فيه سلطنة الفونج إلى نهايتها[2].

وصارت سلطنة الفور وامتدادها (المسبعات) وكردفان تمثل حضارة الإسلام الوافدة من غرب أفريقيا، التي وصلت بعد إلى سنار.

---

(١) يذكر المؤرخون أنّ [التنجر] مغاربة فروا أمام ضغط قبيلة بني هلال وحلفائها في الشمال الإفريقي، ثم اختلطوا بشعب [الداجو] الذي كان يسكن في هذه المنطقة، ومعنى هذا أنهم حملوا الإسلام إلى دارفور وهم يخترقون [برنو] و[وَدّاي] وأنهم باسم الإسلام كوّنوا مملكة دارفور.

(٢) «تاريخ السودان من أقدم العصور، مندور المهدي، طبعة بخت الرضا، ص ٨٢.

إن قيام دولة باسم الإسلام في غرب السودان: (دارفور) تستمر أكثر من قرنين ونصف قرن من الزمان في حكم متصل ومستمر، ونظام حكومي مستقر واضح لم يعرف له مثيل في تأريخ ممالك الإسلام السودانية: (الفونج) و:(العبدلاب)[1] وغيرهما، وكانت على استعداد لأن تعبر النيل منطلقة إلى: (سنار) بعد أن تم لها إخضاع: (كردفان) نهائياً؛ وامتدت بقوتها المادية والبشرية في ربوع السودان وخارجه.. أدبياً وسياسياً، فاتصلت بالدول الإسلامية[2] الأخرى اتصالاً وثيقاً، وأطلق على سلطانها لقب: (الرشيد) في الأستانة[3] وأنشىء في مصر رواق في الأزهر الشريف عرف باسم: (رواق دارفور) قائم إلى اليوم، كما عمقت الصلة بينها وبين الحجاز فألزمت دولة (دارفور) نفسها بأن تساهم بقدر كبير في ميزانية الحرمين الشريفين مشاركةً منها، وأرسلت بناء على ذلك ما يعرفه المؤرخون بـ(صُرّة الحرمين)[4].

إن مثل هذا العمل الفكري والسياسي والدعوي العظيم، لا يمكن أن يقوم من فراغ، ما لم يكن هناك سند علمي يدعمه، ومنطلق عقدي يخطط ويوجه، وحكومة وسلطة تستوعب النشاط الديني والعلمي الَّذي ينشأ بتشجيعهما، واجتذاب العلماء والفقهاء إليها، وبناء المدارس، وتجنيد الشباب، وبث روح التضحية والفداء والجهاد في سبيل الله.. من أجل تحقيقها؛ وهذا ما قام به علماء (الفلان أو الفلاتة) وسلاطين الفور في دارفور، فقد ازدهر الإسلام ازدهاراً منقطع النظير بفضل تلك الجهود المتضافرة، بخاصة ما قدمه الشيخ علي يوسف الفوتاوي، الَّذي كان على

---

(١) مندور المهدي، تاريخ السودان من أقدم العصور»، طبعت ببخت الرضا، ص ٨٢.

(٢) «دائرة المعارف الإسلامية».

(٣) نعوم شقير، ج ٢، ص ١٢١.

(٤) المرجع السابق ـ ومندور المهدي، «تاريخ السودان من أقدم العصور، ص ٩٠.

اتصال ببلاط السلطان أحمد بكر وببلاط السلطان محمد دورة، حين كان له دور استشاري وكان مقرباً من الحكام؛ لكن الدور الأكبر الَّذي قدر لهذه الأسرة أن تلعبه كان من نصيب ابنه: (مالك) الَّذي أصبح وزيراً للسلطان عبد الرحمن الرشيد. وقل مثل ذلك في الدور الذي قام به الإمام عبد الماجد إبراهيم إمام السلطان علي دينار والموجه والمفتي الديني لسلطنة دارفور.

يقول (التونسي): «والفقيه مالك المذكور أعظم الوزراء من أولاد العرب... ومن أغنى أرباب الدولة، وكان له من الإقطاع ما ينيف على خمسمائة بلد، وذلك غير إقطاع إخوانه» ومات الفقيه مالك الفوتاوي في عهد السلطان محمد فضل (١٨٠٢ ـ ١٨٣٩م) وتذكر الروايات أن ابنه عبد الحميد كان مساعداً له في الإدارة، وأرسل في بعثة دراسية إلى الأزهر، حيث درس وتوفي ودفن في مصر.

ويقال إن ابنه (سلامة) خلفه مباشرة في الوزارة.. إلاَّ أن المصادر تؤكد أنه أصبح نائباً للسلطان محمد الحسين، كما أن حفيد الوزير مالك الفوتاوي: (الفكي أمين عبد الحميد) كان له دور استشاري في بلاط: (السلطان إبراهيم قرض).

ويقول (نعوم شقير): (وكان رؤساء الفلاتة الفلانيين يعتبرون من الأعيان والوجهاء الَّذين يستشارون في القضايا الكبرى؛ ويذكر شقير أن الفقيه سلامة كان من أوائل العلماء الَّذين كتب إليهم الزبير باشا، مستفتياً إياهم في موقف السلطان إبراهيم قرض منه).

ومن أولئك العلماء: (محمد عمر التونسي) والفكي: (القمر الفلاني) و: (الشيخ حسين العماري الأزهري) والشيخ: (عز الدين) الَّذين كانوا ممن هاجروا من سودان وادي النيل و: (الحسين الأحمر الجعلي).

ويتضافر تلك الجهود المتواصلة من عهد السلطان: (أحمد بكر) إلى

عهد السلطان: (رشيد) إلى السلطان: (محمد فضل) بل إلى آخر سلاطين الفور السلطان: (علي دينار) انتفت الوثنية من دارفور تماماً فلا وثنية: (كنسية) ولا وثنية: (طوطمية) بل لا مظاهر تخالف وتعارض عقيدة الإسلام السمحة أو تخالف مذهب الإمام مالك؛ فلا كنائس، ولا قباب، ولا رايات، ولا كجور؛ وبهذا احتلت دارفور مكان الريادة في القضاء على الوثنية على كل ممالك السودان الإسلامية: الفونج، والعبدلاب، وكردفان، فكانت آخر سلطنة إسلامية تقف في وجه الانجليز باسم الإسلام، إذ سقطت عام ١٩١٦م؛ إنها كانت تمثل دور السودان اليوم تماماً: تحرك التأريخ وتشد سمع العالم وأنظاره إليه.

إن نمو الدعوة الإسلامية في دارفور واستيطان الإسلام فيها، ثم توسعها وامتدادها، وبخاصة أثر انحدار سلطنة (الفونج) إنما يرجع الفضل فيه ـ بعد الله ـ إلى (الفور) ـ حُفَّاظ كتاب الله ـ الَّذين استغلوا تلك الكفاءات العلمية، والخبرات السياسية.. والحربية.. والقتالية؛ سواء من البرقو، أو البرنو، أو الباقرما، أو الكنوري، أو الكانم، أو التكارير، أو (الفلان)، والَّذين استقبلوا الفلاتة ومعهم كل القبائل من برتي، وزغاوة، ومدوب، وقمر، ومساليت، وغيرهم.. استقبالاً حضارياً كَوَّن روابط اجتماعية، وشكَّل نوعاً من الوحدة الوطنية الداخلية في مملكة (الفور)، إذ بلغت مملكة دارفور ـ بفضل تلك الوحدة وبخاصة في عهد السلطان (تيراب) ـ مبلغاً كبيراً من السعة، لم تشهده الفور في أي عهد[1] فوثَّقت صلتها بعدة

(١) فقد خرج السلطان: «تيراب» لحرب المسبعات في جيش نظامي عام ١٧٨٥م، وترك ابنه إسحاق خليفة له، ونائباً عنه في العاصمة: «ريل» ولما سمع أتباع سلطان المسبعات: «هاشم المسبعاوي» بقدوم ذلك الجيش العرمرم، تركوه وتفرقوا من حوله، ففر بدوره وحاشيته إلى «سنار» ولاذ بسلطان الفونج فاحتل «الفور» «كردفان» وفي أثناء مطاردته للسلطان «هاشم» تعرض له «العبدلاب» وحالوا بينه وبين عبور النهر، فاشتبك معهم وهزمهم؛ راجع نعوم شقير: ٤٥٠/٤٥٢.

مراكز إسلامية تقع في غربها مثل ودَّاي، وبرنو، وباقرمي، وشرقها مثل: مصر وتركيا والحجاز.

ونعود فنتساءل:

ومن هم الفلان..؟

في ضوء تلك الاستنتاجات الفكرية والتحليلية، سواء أكان ذلك من الرحالة العرب: (ابن بطوطة) أو (حسن إبراهيم) أو البروفسير: (يوسف فضل)، أو الرحالة الإنجليز والفرنسيين وغيرهم: كـ (هنري بارث) و (واستينق) و(روبن هارتن) و(فهميا لفشن)؟ ترى أن الجواب الشافي والسريع ـ وبدون إمعان نظر وتحليل لتلك الدراسات الحضارية، والاستنتاجات الفكرية والعقلية والمعرفة الإنسانية المحدودة غير قطعية الثبوت سواء للرحالة العرب أو للأوروبيين ـ يتمثل في أن:

الفلاتة أو الفلان:

١ ـ ليسوا مجموعة من الأخلاط والدهماء.

٢ ـ ليسوا بالغجر، أو الحلب.

٣ ـ ليس الفلاتي هو كل أفريقي غربي، أو زنجي، أو نَوْبي؛ كما هو ليس بالوثني وإن كان منهم وثنيون.

٤ ـ ليس الفلان هم سكان العشش[1] كما يبدو لبادي الرأي غير المثقف أو غير الدارس المتفحص لخصائص القبائل كجنس، وفرد، ونوع.

(١) العشش مساكن عشوائية في الخرطوم شيدها الفلاتة ثم غادروها إلى الحجاز وبمرور الزمن صارت مأوى للهاربين من العدالة وملاذاً لعصابات السطو على المنازل وسوقاً للاتجار بالممنوعات والمسروقات. راجع هامش صفحة ٢٤٤.

٥ ـ ليسوا بالعرب وإن كانوا صفر البشرة، ذوو شعر سبيبي ناعم، قوقازيين في تكوينهم الجسماني.

٦ ـ وإن الفلاني هم ـ أيضاً ـ ليسوا بالهوسا، ولا الكانم، ولا البرنو، ولا البرقو، ولا الباقرمي.

علماً بأن كل هذه القبائل كانت لها دول وممالك، لها عراقتها، وأمجادها، وتاريخها، وتراثها؛ بل كانت مملكة التكارير الفلاتة هي أول مملكة أفريقية تدخل الإسلام، وكانت لها من الشهرة والمكانة ما جعل الكتاب العرب يطلقون اسم بلاد التكرور على كل أقطار السودان الغربي، التي تشمل شرق النيجر، وكانم، وبلاد البرقو، وباقرمي، وودّاي، وزاد (المقريزي) على ذلك فأطلق نفس التسمية على كل الأقطار الواقعة شرق النيجر حتى الحبشة[1].

إذا كان هذا هو الواقع وثبت بالتحري والدراسة، وتأكدت هجرتهم إلى دارفور، وكان استقبال الفور وملوك الفور لهم بتلك الحفاوة، فإنه ـ بلا شك ـ كانت لهجرات تلك القبائل العريقة ـ في الحكم والسياسة والإسلام إلى السودان ـ أكبر الأثر في ازدهار المجتمع السوداني وتنمية نهضته الاجتماعية والاقتصادية؛ إذ بعد امتداد نفوذ سلطنة الفور إلى الشرق في عهد السلطان: (تيراب) استوطن غالبيتهم أرض الجزيرة، ومناطق النيل الأزرق، والنيل الأبيض، وإلى الرهد.

وكان أكثر القبائل انتشاراً في هذه المناطق هي قبيلة البرقو، ثم البرنو، والهوسا وهم أوائل القبائل التي أسهمت في نجاح الخطة التنموية،

---

(١) مملكة التكاررة أو التكرور قامت في جنوب نهر السنغال وذلك في مطلع القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي وكان ملكها [وارجابي بن رابيس] مات سنة ٤٣٢ هـ/ ١٠٤١م وتولى بعده ابنه [لبي بن وارجابي] الذي حالف أمير المرابطين وحارب إلى جواره ـ راجع المغرب ص ١٦٧ ـ ١٧٢.

ومشاريع القطن، ودفع الحركة العمرانية، والتجارية، والاقتصادية.

يقول الأستاذ محمد سعيد القدال: (عندما نتحدث عن تكارير: (القلابات) فنحن نتحدث عن مجموعة من قبائل عرب أفريقيا، استقرت في منطقة رأس الفيل: (القلابات) في القرن الثامن عشر الميلادي بعد عودتها من مكة).

وبانفتاحهم، وقوة شخصيتهم، وإثبات قدراتهم رغب كثيرون في مصاهرتهم لما لهم من مواهب وخصائص إنسانية وعربية متميزة، فصاهروا جل القبائل التي كانت منتشرة حول ضفاف النيل، سواء أكانوا من الشلك، أو النوير، أو العرب، وكانوا القوة الضاربة في إسقاط مملكتي مقرة وعلوة[1] بقطع النظر عن النظرية القائلة بأن الفونج هم: (البرنو).

وهؤلاء عندما ينسبون إلى الفلان أو الفلاتة، لا يمتعضون ولا يرون في ذلك غضاضة؛ كذلك الفلان أو الفلاتي إذا نسب إلى البرناوي أو البرقاوي، لا يرى في ذلك نقصاً أو تقليلاً من شأنه، أو خدشاً في عرقه؛ إنما يرفض الفلاتي ويستنكر إذا ما نسب إلى الجماعات الوثنية والزنجية غير الإسلامية.

لماذا؟ لأنهم يعرفون تأريخ الشعوب وأصالتهم، ويعرفون ما لتلك السلالات من مكانة تأريخية، ولأنهم ـ أولاً وأخيراً ـ دعاة للإسلام وحملة رايته، تأهلوا لحمل تعاليمه بفضل من الله والطهر الَّذي نشؤوا عليه؛ وهم مستمرون للدفاع عنه ـ في أي وقت وفي أي ظرف ـ برحابة صدر وابتهاج عميق، بكل ما أوتوا من قوة واستعداد؛ هذه القبائل هي التي تشكلت منها السلالات التي تسكن على النيل، ومن قبل قيام دولة سنار وسقوط: (علوة) و: (مقرة) فإطلاق كلمة أولاد بلد يجب أن يطلق ـ إن جاز ـ على هؤلاء بالأصالة ولغيرهم بالتبع، من حيث السبق الإنصهاري أو الاندماجي

---

(١) نعوم شقير، ص ٦٤.

مع سكان أفريقيا الأصليين، الَّذين ينحصرون في أعالي النيل الأبيض والأزرق في بحر الغزال.

إذن نعود فنتساءل:

من هم الفلاتة أو الفلان؟

إنهم فرع من إحدى القبائل غير الزنجية والنوبية من غرب أفريقيا، لها أوصاف، وصفات، وتأريخ، وتراث، وسجايا، أسهموا إسهامات واسعة في نشر الإسلام والدعوة إلى الله، وفي دعم مسيرة الحياة الإنسانية اجتماعياً، واقتصادياً، وسياسياً؛ فيهم العلماء، والقادة، ورجال الحكم والسياسة؛ وحيثما ذكر الإسلام وانتشاره كان لهم دورهم البارز[١].

هذا هو المفهوم للفلاني العام[٢] أو الفلاتي عند رجال الفكر، ورجال التأريخ، والدارسين لحضارات الأمم والشعوب.

والقبائل سالفة الذكر.. وإن كانت لها تأريخ، وتراث، وممالك، ودول، وإسهامات إلاَّ أن هذا التعريف لا يشملها إذا اعتبرنا أن الفلاتة جنس غير مختلط، اللهم إلاَّ باعتبار أن أصولها جاءت من خارج السودان، كما جاء الفلان بقطع النظر عن انصهارهم في السلالات التي قطنت ضفاف النيل، وأنهم تحالفوا مع الفونج، سواء أكانوا من البرنو، أو الشلك، وبعض القبائل؛ وهاجموا دولة علوة المسيحية[٣] وأقاموا دولة أسلامية

---

(١) «أثر الفلاني على انتشار الإسلام في غرب أفريقيا، حسن إبراهيم حسن.

(٢) والمفهوم الخاص لهم، أنهم جماعة لا تعيش إلا في ظل دولة إسلامية، أو تعمل من أجل قيام دولة إسلامية، وإلاَّ هاجرت، إذ لا مهادنة عندهم للكفار ولا موالاة.

(٣) علماً بأن قبيلة الزغاوة قامت ـ من قبل ـ بمناوشة دولة علوة المسيحية وأضعفتها، فكان ذلك تمهيداً للحلف الفونجي العبدلابي ـ انظر: حسن محمود، «الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، ص ٢٩٩.

عاصمتها سنار سنة ١٥٠٤ م؛ فهم أهل لأن يطلق عليهم أولاد بلد، للسبق الإنصهاري، أو السبق في إنجاح خطط التنمية الزراعية ومشاريع القطن؟ وفي تعميق مفاهيم الإسلام وقيمه والحفاظ على لغته وتعاليمه ومكاثرة جماهيره.

هؤلاء ليسوا بالفلان فقط ولا بالعرب فقط، وإنما هم مجموعة شعوب وقبائل لها عراقتها في القدم، وأمجادها التأريخية، وتراثها؛ منهم: الباجرمي، والبرنو، والكانم، والزغاوة.

أما قبائل غرب السودان التي شاركت في تنمية اقتصاد السودان وفي تأصيل حضارتها، واستوطنت أرض الجزيرة فهي كثيرة، منها:

قبائل الفور، والبرتي، والزيادية، والمساليت، والتنجر، والحوازمة، والحمر، والبديرية، والميدوب، والقمر، والجوامعة، والهبانية، والرزيقات، والمحاميد، والمسيرية، والبقارة، والتعايشة، وبنو هلبة، وغيرهم...

إلاً أن هجرة أولئك من (الفلان، والبرنو، والباقرمي، والبرقو، والتكارير، والوداي) كانت بسبب ما اجتاح ممالكهم من انهيار وسقوط، سواء بما كسبت أيديهم، أو بأيدي الاستعمار الفرنسي أو الانجليزي[(١)]. أما هجرة البقارة، والبرتي، والقمر، وجميع قبائل غرب السودان إلى أرض الجزيرة أو أرض النيل، فإنما كانت استجابة لدعوة الإمام المهدي ولخليفته

---

(١) وكان أعظم عامل في هجرة الفلاتة إلى السودان هو العلاقة الوطيدة ما بين الإمام المهدي والشيخ حياتو الفلاتي، أحد أحفاد الشيخ عثمان بن فوديو؛ ودعوته للفلاتة بضرورة الهجرة لمناصرة الإمام المهدي ومبايعته، وجهاده المستميت من أجل الوصول إلى المهدي.

انظر: «رسالة المهدي للشيخ حياتو»، و«الفلاتة في أفريقيا ومساهمتهم الإسلامية»: الطيب عبد الرحيم محمد، ص ١١٧.

من بعده، نصرة للثورة المهدية، وحباً في الجهاد، والموت في سبيل الله؛ فقد أثار العلماء في كل مكان ـ وبخاصة علماء الغرب ـ الحماس للجهاد، والالتفاف حول (المهدي) وقتال (الترك) الَّذين لم يؤمنوا بالمهدية؛ وهكذا ظل المجتمع السوداني، سواء في غربه أو في وسطه، في اتساع وتطور يستقبل الوفود من الغرب، والهجرات المؤمنة بالمهدية والناقمة على الاستعمار الفرنسي والإنجليزي، حتى وصل إلى ما وصل إليه اليوم؛ إن المجتمع السوداني اليوم هو مجتمع العمل الإسلامي، وهذا معلم بارز من معالم ازدهار التأريخ الحضاري للإنسان، والدعوة الشمولية لتعميق القيم الإسلامية.

فهل يستطيع دارس، أو باحث، أو مثقف أن يقول بأن المجتمع السوداني اليوم ـ من حيث تعدد قبائله، وعاداته الاجتماعية، وتطوره الحضاري ـ هو نفس المجتمع السوداني منذ ألف سنة أو حتى منذ مئة سنة؟.

* * *

الفصل الثاني:

مصدر الفهم الخاطىء في تقسيم شعب السودان

إن كل قرن من الزمان يتولد عنه قرن آخر، يحمل من سابقه رواسبه وروافده الاجتماعية، والسياسية، والدينية؛ ويضيف إليها من جيله الجديد أفكاراً ومفاهيم نابعة من غربلة القديم وإضافات الجديد، ويظل ذلك المزج الاجتماعي العجيب متطوراً من جيل إلى جيل، حتى يظهر في قسمات وملامح الحاضر، بشكل متغير تغيراً يبدو كلياً عن شكله القديم، الَّذي كان يظهر به منذ طفولته في التأريخ.

تلك سنة الحياة وسنن الله في كونه، وقانون الدنيا على الناس.

وما الشعب السوداني ـ شماله وجنوبه وغربه ـ إلاَّ واحداً من شعوب الأرض التي تقلبت عليها الحضارات، والقوميات، والديانات؛ بتقاليدها، وعاداتها، وطقوسها؛ يتفاعل معها متطوراً بتطورها.. حيناً بسرعة وأحياناً ببطء، سواء جاءت من جهة الشرق أو الغرب.

وكيفما كان الأمر فالواقع الَّذي لا مرية فيه أن المجتمع السوداني كان في عصر ما وثنياً وفي عصر ما مسيحياً؛ وكان الزنوج يشكلون العنصر الأصلي القديم للشعب السوداني؛ ثم أصبح بعد ذلك مجتمعاً مسلماً يعج بالمسلمين في عصرنا الحاضر، بل أصبح مجتمعاً يتطلع إلى إقامة دولة إسلامية تعيد للمسلمين العزة، والكرامة، والمجد؛ وتحميهم من الهجمات الشرسة التي توجه إلى وجودهم، واستيطانهم الأراضي والأماكن الصالحة للزراعة، والإنتاج، والإعمار، وإلى مقدساتهم، وكثافة تعدادهم.

أعني من كل ما تقدم إبراز خطأ المفهوم الَّذي استقر في اللاشعور

عند كثيرين، بأن القبائل القاطنة على النيل هي أولاد البلد، وأن قبائل شمال السودان التي كانت متصلة بمصر ممتزجة بالمصاهرة منذ أن قامت مملكة (نبته) عام (٧٥٠ ـ ٣٠٠ ق. م) وأنها بهذا الاتصال والمصاهرة صارت ملامحها غير زنجية؛ وأن أفرادها يختلفون جسمانياً عن سكان الجنوب ودارفور، بما في ذلك سكان جبال النوبة، فكانوا صفر البشرة، ذوو شعر سبيبي ناعم، رقاق الأنف والفم، رشيقو القوام؛ إنهم أصحاب الدم الأزرق النبيل، وهم أهل السودان الأصليين أولاد البلد: (الأشراف، والدناقلة، والجعليين أساساً) وأن غيرهم من القبائل والبطون التي نزحت إلى وسط السودان من الغرب واستوطنت أم درمان، أو الجزيرة، أو أطراف الخرطوم؛ إما عبيد، وفلاتة، أو عرب ونوبة، أو حلب، وبقارة؛ لا أحد ينكر خطأ هذا الفهم الَّذي إذا استشرى فسيعود بالسودان إلى عهد القبلية بعد أن انصهرت بالمهدي في بوتقة القومية السودانية، ذلك لأن التفاني والإخلاص للدعوة المهدية قد قضى على كل ولاء قبلي كان يستقر في قلب أي مواطن في السودان.

إذن ما مصدر هذا الفهم وهذا التقسيم؟؟

القبلية مبنية على العصبية متعاملة بينها بالحمية ثم الحزبية.

لا شك أن مصدر هذا الفهم هو العصبية وطلب الحمية القبلية، فقد تولى: (الخليفة عبد الله التعايشي)[1] خلافة المهدي بعد استشهاد الإمام

---

(١) هو أحد خلفاء المهدي الثلاث، ينتمون إلى جماعات مختلفة بعضها لا يرى أنه أهل لتولي رئاسة الدولة، في مقدمتهم الخليفة شريف وأهله. كل السودانيين القاطنين في أرض الجزيرة، والَّذين على ضفاف الحدود الشمالية للبلاد، وهم أصحاب الراية الحمراء؛ أما الراية الخضراء، فهم قبائل ضيغم وكنانة، وزعيمهم الخليفة علي ودحلو؛ فالخليفة عبد الله التعايشي، وهو صاحب الراية الزرقاء، وهو الَّذي أعطاه المهدي في حياته الصلاحيات، وكان بمثابة رئيس الوزراء يحكم ويدير البلاد، وكان=

المهدي. . بمبايعة أهل الحل والعقد، وكبار العلماء والفقهاء، وأصحاب الرايات[1] في مقدمتهم: (الخليفة ودحلو) وكانت مبايعة عامة نال رضا الجميع وكبار رجال الدولة، من بينهم: (الخليفة شريف) الَّذي كان بينه وبين الإمام المهدي صلة قربى.

وكان المتوقع ـ والَّذي يجب أن يكون ـ أن تسود الألفة، وتتكاتف النفوس، وتتقارب القلوب، وتتمتن الوشائج، وتلتحم الصفوف، وتشيع المودة والألفة والرحمة والحب في المجتمع؛ ولكن ـ للأسف ـ الَّذي حدث هو أنه بمجرد استلام الخليفة عبد الله الحكم، شعرت القبائل السودانية التي تسكن على النيل بأن السلطان خرج من أيديها إلى من هو دونها تقدماً ومدنيةً ومالاً؛ ووجدت أنفسها يحكمها رجل لا تُكِنُّ له احتراماً كبيراً، لأنه لا يمتاز عنها بشيء في النسب والجاه، بل تعتبره أقل منها في كل ناحية وخاصة: العلم والرقي؛ ومنذ ذلك الحين انقسم السودانيون إلى قسمين: سكان النيل هم من الأشراف، والدناقلة، والجعليين أساساً؛ أما أهل الغرب فعلى زعامتهم البقارة ثم بقية من ناصروهم)[2]. إننا لسنا في مجال النقد لما أثبته الأستاذ ضرار صالح ضرار وغيره، فما هو إلاَّ مؤرخ أقر واقعاً، ولعل موقفه مما كتبه يماثل موقف الطبري ـ المؤرخ الإسلامي الكبير ـ فقد قال في آخر مقدمة كتابه: (فما يكن في كتابي هذا من خبر يستنكره القارىء من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة، فليعلم أنه لم يؤت من قِبَلِنَا. . وإنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا) وهذا ما نظن أنه موقف الأستاذ ضرار.

= في دستور المهدي أنه هو الَّذي سيتولى الحكم في حالة وفاته، وكان الذين يلتفون حول رايته الزرقاء هم أبناء قبائل غرب السودان ـ نقلاً من تاريخ السودان.

(١) الهامش السابق.

(٢) نقلاً من كتاب «تاريخ السودان الحديث»، ضرار صالح ضرار، ص ١٦٦؛ لاحظ أنه لم يرد لقبيلة الشايقية ذكر، رغم أنها من قبائل سكان النيل.

ورغم أن الجميع وفي مقدمتهم: (الأشراف، والدناقلة، والجعليون أساساً)[1] معترفون بأن الخليفة عبد الله قام بمسؤوليات الخلافة خير قيام، وأنه كان إدارياً ممتازاً بمقاييس تلك الظروف والعصر، وأنه كان وطنياً غيوراً.. سهر على وحدة البلاد واستقلالها، وكرس كل جهده، ووقته، وفكره، ورجاله للحفاظ على الوحدة والاستقلال؛ وقد ناهض الثورات الداخلية والهجمات الخارجية بصبر وجلد طيلة حياته وعند مماته؛ جابه الموت بالطريقة التي كان يرغب فيها كل سوداني على حد مثلهم المشهور: (الموت مع الجماعة عرس).

فللخليفة طموح عظيم، وكفاءة نادرة، وعقيدة راسخة، ووطنية ثائرة؛ ولو واجه غيره تلك المشكلات لانقسمت البلاد على نفسها شيعاً وقبائل، ولالتهمتها الدول الأوروبية في وقت أقصر من ذلك بكثير؛ وبمقاييس الثقافة السودانية الحديثة، فإن مكانته كأحد رواد الوطنية والحرية سامية في تاريخ السودان[2].

ورغم كل هذه الاعترافات وقوتها وصدقها..، بكفاءة الخليفة عبد الله، وسعة أفقه، ورقي فهمه..، فإن بعض الأشراف وأولاد البلد ـ بسبب الدوافع النفسية ـ من القاطنين أرض الجزيرة حتى الحدود الشمالية للبلاد، بعضهم يرى الخليفة عبد الله مغتصباً متسلطاً على الدولة المهدية؛

---

(١) ولعل القارىء يتساءل: لماذا أساساً؟ ولماذا ورد اسم الجعليين والدناقلة بالتخصيص في كل المواقف البارزة، ولم يرد اسم الشايقية؟ ولا أحد ينكر أنهم من قبائل سكان النيل، بل من أعظم القبائل شكيمة، وقوة واستبسالاً؛ أبطال مغاوير، بل في مقدمة القبائل السودانية العربية ـ انظر: نعوم شقير، ص ٥٣، وهو خير من ترجم للشايقية قبل كل قبائل السودان وجعلهم في الصدارة؛ لعل السبب في ذلك يرجع إلى مواقف جميع قبائل شمال السودان العدائية نحوهم، سواء أكان ذلك قبل دخول الحكومة التركية المصرية إلى السودان أم بعده، وإلى عهده الحكم الثنائي ـ انظر: المرجع السابق، ص ٣٣.

(٢) نقلاً من تاريخ السودان الحديث، ص ٢١٢.

وبعضهم يرى فيه سلطة شرعية بايعها جميع الشعب، ولكن الطموح القبلي عرقل سير خلافته. . . وبعضهم يراه أقل منهم في كل ناحية وخاصة العلم والرقي.

فاتهم الخليفة بأنه لم يسترشد بتعاليم المهدي في الخلافة، وأنه يعمل على تغيير أسسها؛ وأنه يخطط لجعل الحكم وراثياً في أهله، وجعل يمهد لأخيه يعقوب ولابنه عثمان، وجعل يوليهما المسؤوليات الكبرى في الدولة وخاصة في قيادة الجيش[1].

وصدق القاضي أبو بكر العربي إذ قال: (والناس إذا لم يجدوا عيباً لأحد وغلبهم الحسد عليه وعداوتهم له، أحدثوا له عيوباً).

وهذا موقف «أولاد البلد»، مما جعل الخليفة يضطر إلى اتخاذ كثير من التدابير الصارمة للحفاظ على حكمه؛ يقول ضرار: (فجعل السيطرة في البلاد لأهله وقبيلته البقارة، لكنه لم يجنح لذلك إلاَّ عندما لمس تألب أفراد القبائل القاطنة على النيل ـ أي أولاد البلد ـ على خلافته، ومحاولتهم مناصرة الخليفة شريف، وتقسيم البلاد)[2].

وبهذا اشتد العداء على الخليفة وعلى أنصاره، وازداد الكراهية له بزج الخليفة شريف ـ زعيم أولاد البلد ـ في السجن، ومن ثم لم يعد للأشراف نفوذ أو زعامة.

وأحسَّ أبناء الغرب الَّذين كانوا يقطنون مدينة أم درمان ـ عاصمة دولة المهدية ويطلق عليها بقعة المهدي ـ بعداء جماهير الخليفة شريف وكراهيتهم لهم، سواء أكانوا من الجعليين، أم الدناقلة، أم من قبائل شمال السودان التي كانت متصلة بمصر، ممتزجة بالمصاهرة منذ أن قامت مملكة نبتة وتغيرت ملامحها بذلك الاتصال وصارت غير زنجية، وشاركها في ذلك

---

(١) المرجع السابق، ص ٢١٢.

(٢) تاريخ السودان الحديث، ضرار صالح ضرار، ص ٢١٢

الحضور، وأولاد الريف، والحلبة؛ وهؤلاء جميعاً يضعهم نعوم شقير في مصاف الأجانب والمولدين[1].

فالقول بالتمايز العرقي أو اللون، والاستعلاء على الآخرين بمظاهر التقدم والمدنية، والشعور بالفوقية.. كل ذلك كان إفرازاً طبيعياً يعكس مشاعر الكراهية ويعبر عن العداء، ويقسم البلاد إلى قسمين: سكان النيل وهم من الأشراف، والدناقلة، والجعليين أساساً؛ والقسم الثاني هم النازحون من الغرب: عبيد، وغرابة، ونوبة، وفور، وفلاتة؛ وهم الَّذين ناصروا المهدي أولاً، ثم خليفته ثانياً، ثم صاروا أخيراً جماهير حزب الأمة، سواء اتحدت قيادياً أم انقسمت[2].

علماً بأن الجميع يعلمون بأن (أم درمان عاصمة دولة المهدية ـ ويطلق عليها بقعة المهدي ـ كانت عاصمة قومية تعج بالسودانيين النازحين من مختلف جهات السودان، وخاصةً من الغرب، حتى قدر عددها بنصف مليون نسمة؛ وكان كثير من هؤلاء منضوين في سلك الجندية من جهادية وملازمين، كما أن كل الأجانب الَّذين أسروا واعتنقوا الإسلام استقروا فيها ووجدوا لأنفسهم أعمالاً انتظموا فيها..)[3].

إن القول بالتمايز العرقي أو اللوني وتقسيم سكان السودان إلى أولاد بلد، وغرابة، أو عبيد، وفلاتة، قول لا يسنده منطق ولا يقره دارس

---

(١) للوقوف على معنى الحضور، وأولاد الريف، والحلبة؛ راجع نعوم شقير، ص ٦٣ ـ ٦٤.

(٢) إن الخلاف بين أهل النيل وأهل الغرب قديم فأهل النيل، يتعالون على أهل الغرب لخشونتهم وجلافتهم ـ انظر: مكي شبيكة: السودان في قرن، ص ٢٤٨ ـ وانظر: «العلاقات بين الخليفة عبد الله التعايشي وقبائل السودان»، عزام أبو بكر علي الطيب، ص ٤٢.

(٣) نقلاً من «تاريخ السودان الحديث»، ضرار صالح ضرار، ص ٢١١.

لحضارات الشعوب وخصائص الأمم، فضلاً عن تناقضه مع تعاليم الإسلام.

إن السودان يوم أن توحد على يد: (الإمام المهدي) في دولة واحدة لا تعرف القبلية ولا العرقية، وكان شعارهم: (ديننا الإسلام ووطننا السودان)[1] تمكن من طرد الاحتلال التركي المصري، وأخذ يشكل ظروف سياسته الداخلية والخارجية، وفقاً لإرادته.

* * *

(١) إن كل الشواهد تؤكد بأن دولة المهدية لم تكن دولة عنصرية أو قومية فقد تبين من سياق الأحداث والدلائل الكثيرة أنها كانت لكل الأقوام والقبائل والأجناس وقد بذلوا في سبيلها ما بلغت به غايتها.

الفصل الثالث:

الحزبية[1]

وجاء الاستعمار الإنجليزي أو الحكم الثنائي (٨ سبتمبر ١٨٩٨) وظهرت الانتفاضات الوطنية، ونشطت الجمعيات الأدبية، وقام الخريجون وطلبة معهد أم درمان العلمي بتعبئة الشعور العام ضد الاستعمار الانجليزي، وانصهرت كل التكتلات القبلية والتيارات الوطنية في حزبين كبيرين:

١ ـ حزب الأمة:

وهو الحزب الَّذي ينادي باستقلال السودان عن مصر، وإن السودان للسودانيين، وظل محافظاً على اسمه وشعاره.

٢ ـ وحزب الأشقاء:

الَّذي عرف ـ أخيراً ـ بالحزب الوطني الاتحادي ١١/ ١٩٥٢م، وهو الحزب الَّذي يطالب بالاتحاد مع مصر بزعامة السيد إسماعيل الأزهري، ورعاية السيد علي المرغني، وجماهير هذا الحزب تمثل الغالبية من المتعلمين والمثقفين، وسكان عواصم أقاليم السودان، وغالبيتهم من قبائل شمال السودان، وهم أكثر حضارةً، ومدنيةً.

---

(١) تكونت الأحزاب السياسية لأول مرة في السودان عام ١٩٤٤م، بقيام حزب الأشقاء؛ وأعقبه حزب الأمة ١٩٤٥م؛ وكان الحزبان ينتميان إلى طائفتي الختمية والأنصار؛ وفي الفترة بين نشأة هذين الحزبين واستقلال السودان عام ١٩٥٦م، قامت عدة أحزاب صغيرة متعددة.

ولما كان حزب الأمة هو الحزب الَّذي يدعمه ويرعاه السيد عبد الرحمن المهدي ابن الإمام محمد أحمد المهدي، صاحب الثورة المهدية، انضمت إلى حزبه كل قبائل غرب السودان، سواء أكانوا في وسط السودان أم شماله؛ وهي جماعات مختلفة الأعراق.. والأصول.. والقبائل، تجمع بينها الجهة، وتربطها العقيدة، وتوجهها تعاليم الإمام، وتقودها إشارته؛ وهي أكثر عدداً، وأكثر تضحية، وأظهر طاعة لقيادتها، وأقل حضارةً.. ومدنيةً.. وثراءً بالنسبة لاحتكار التجارة[1].

وجاء دور المنافسات في الدوائر الانتخابية، وقامت أبواق الدعايات الحزبية، وهنا بدأت تظهر التوترات، والحساسيات، والاتهامات التي توجه لحزب الأمة بصفة خاصة؛ وأن الهدف من إنشائه هو القضاء على مؤتمر الخريجين، ووضع العراقيل أمام كل خطوة وطنية، هي مكافحة الاستعمار البرلماني، وأنه حزب لم يجذب إليه أحداً خارج دائرة الأنصار، غير أصحاب المصالح الشخصية من مشايخ وأعيان، الَّذين انحصر تفكيرهم في مصالحهم ولم يرتفع هدفهم عن مصالحهم الشخصية[2].

ومما لا شك فيه أن لتلك الاتهامات توتراتها وآثارها السلبية في نفوس الأنصار، وفي الكيان القومي، نتيجة للتباين القبلي، والطائفي، والإقليمي، والمبادىء الحزبية؛ ونتج عن ذلك شعور بالتعالي والتميز العرقي، وظهرت الحواجز النفسية، وإفرازات الاستعلائية والدونية في أدبيات القبائل السودانية.

ويظهر هذا جلياً عندما يتدفق جماهير أنصار حزب الأمة إلى داخل العاصمة الخرطوم لأسباب سياسية، فيظهر التعالي من سكان العاصمة، وينظر إليهم باحتقار وازدراء، وأنهم همج، ورعاع، وشماسة، وغوغاء؛

---

(١) في الحقيقة هي من أعظم القبائل ثراء، لأنهم أصحاب إبل وبقر وأغنام.

(٢) راجع «تطور الحركة الوطنية في السودان، د. أحمد إبراهيم دياب، ص ٢٢٩ ـ ٢٣٤.

فترى التحامل الواضح الَّذي يبديه البعض[1] قصداً أو بدافع لا شعوري؛ فتسمع لفظة العبد، والغرَّابة، والفلاتة والعرب؛ وكل لفَظ أو أسلوب يوحي أو يحث على مناهضتهم أو التهجم عليهم، واعتبارهم غوغاء؛ كما تسمع من جانب المحب لهم بأنهم: (الغبش أب مسوح مي) و(العجبوني الليل جو دخلو البلد طمنو) أنصار الإمام؛ ولا شك أن لكل ذلك آثاره السلبية، وترسباته النفسية، وعقده الاجتماعي؛ وبخاصة ما خلفه قصيدة شاعر البطانة الحردلو ـ الشكري[2]:

ناس قباح من الغرب يوم جونا[3] جابوا التصفية ومن البيوت مرقونا[4]
أولاد ناس عزاز مثل الكلاب سوونا يا بابا النقس[5] يا الإنجليز ألقونا[6]

وهناك من يرى أن التعالي للقبائل الحضرية في السودان ليس سببه ادعاءهم بانتمائهم العرقي للعرب ـ حتى لو سلمنا بذلك ـ وإنما سببه وضع اقتصادي متميز لبعض الأسر من تلك القبائل، وهي الأسر التي تعاونت مع الحكم التركي والحكم الثنائي؛ هذا التعاون هو الَّذي أهَّلهم لاحتكار التجارة، وجعل البعض يطلق عليهم: (جلابة) دون تمييز محدد لقبائلهم، والدليل على ذلك أن هذا التعالي يتم بنفس الصورة لأي فرد أو قبيلة خارج نطاق الطبقة التي تضم أسر الجلابة[7].

---

(١) انظر عبد الرحمٰن مختار، خريف الفرح أسرار السودان، وبشير محمد سعيد: من الحكم الثنائي إلى انتفاضة رجب، ج الأول؛ ومحمد عمر: «الحركة الوطنية في السودان».

(٢) انظر: نعوم شقير، ص ١١٣.

(٣) جونا: اللهجة السودانية العامية = جاؤونا.

(٤) مرقونا: أي: أخرجونا (من الديار).

(٥) النقس: ـ المقصود هو النجاشي ملك الحبشة.

(٦) ألقونا: ـ أي إلحقونا (استغاثة).

(٧) «الصادق المهدي وأزمة الديمقراطية في السودان»، د. عبد الله محمد قسم السيد، ص ٦٢ ـ ٦٣.

فكلمة: (عربي) التي ترمز للإنسان البدوي أو الريفي ـ كلمة موازية في محتواها وفي لفظها لكلمة: (عبد) المقصود بها الأسود من البشر. . .

وسواء أكان هذا أو ذاك فإنما هو إفراز ينتج عنه التقسيم والانتماءات العرقية.

وها هو سودان اليوم يماثل سودان الأمس؛ إن المثقف السوداني اليوم، بل الأمة السودانية ـ وفي إطار الدعوة الشمولية ـ مكلفة دينياً، وحضارياً، وعرقياً بتصحيح هذا الفهم الخاطىء، طالما رفعت الدولة راية الدعوة الإسلامية، وأصبح الفرد السوداني مستهدفاً لاستمساكه بالإسلام والعروبة والسودان؛ فإذا كان هناك من يرى غير هذا الرأي، فإنه يكون بمثابة موضوع آخر مستقل خارج عن مفهوم الكلمات الثلاث التي سقتها. . . (الإسلام العروبة، السودان).

هذا ولو قدر للجعليين، والدناقلة، والعبدلاب، والقبائل القاطنة في شمال السودان، وبخاصة قبيلة الشايقية، أن تقوم بالأدوار التي قامت بها قبائل: (الفلان. . الفلاتة) التي تتمركز في التبشير بالإسلام ونشره، وتعميق مفاهيمه، وإقامة دولته؛ لنمت الدعوة الإسلامية في شرق السودان وجنوبه، ولتعمقت مفاهيمه حتى في وسط السودان، ولانتفت الوثنية في جنوب السودان كما انتفت من دارفور تماماً؛ فلا وثنية طوطمية، أو وثنية كنسية، ولا مظاهر عقدية تخالف ـ أو تعارض ـ تعاليم الإسلام.

أو على الأقل لتواصل دور عبد الله جماع وتعاونه مع الفونج لإسقاط دولة علوة المسيحية، ولامتدت سلطنة الفونج أو سلطنة سنار من بلاد الشايقية شمالاً إلى بلاد اللاتوكا، والدينكا، والنوير جنوباً؛ ولقامت بجنوب السودان ممالك إسلامية، كما قامت بشمال السودان ممالك، مثل: مملكة الشايقية، والدناقلة، والرباطاب، والميرفاب، والجعليين، ولقاموا بنفس الدور الَّذي قام به العرب في شمال القارة، وقامت به قبائل الفلاتة أو

الفلان في الغرب، وأرسوا قواعد الإسلام وعمقوا جذوره، ولما وجدت البعثات التبشيرية في جنوب السودان في حماية الحكومة البريطانية، خاصة بعد أن قضت على الثورة المهدية مجالاً لها؛ ولكنها ـ للأسف ـ وجدت عناصر زنجية وثنية لا نعرة عربية ولا تراث إسلامي، فراحوا يخدعونها ويغذونها بوسائل التبشير ـ التعليم، والتطبيب، والإغاثة، وبث الكراهية في نفوسهم ضد العرب عامة وضد الإسلام وضد السودان الشمالي على وجه الخصوص، فكانت مشكلة الجنوب.

والواقع يقرر أنه لو قامت القبائل القاطنة في شمال السودان ـ وبخاصة قبيلة الشايقية ـ لما عرفوا به من الشجاعة، والصلابة، وقوة العزيمة، والاستبسال في القتال. (فقد تخلصوا من سيطرة العبدلاب، بل كانوا كثيراً ما يهاجمون الممالك القريبة منهم التي كانت تابعة لسنار، فقد كانوا يهاجمون الدناقلة شمالاً والجعليين والعبدلاب في المتمة والحلفايا جنوباً، بالرغم من بعد الشقة بين ديارهم وهذه الممالك)[1].

لو قاموا بالدور الَّذي قام به الفلان في غرب أفريقيا، وساروا بالإسلام جنوباً بقيادة الملك جاويش، أو الملك صبير، أو سنجك[2] لنمت الدعوة الإسلامية في شمال السودان، ولاستوطن الإسلام جنوبه كما استقر وتعمق غربه؛ ولكنها العنصرية القاتلة، أو القبلية المدمرة، والخلافات التافهة؛ مما جعل: (الشايقية) يشنون هجماتهم وغاراتهم على القبائل القاطنة في شمال السودان، وخاصةً على الدناقلة والجعليين، مما جعل إسماعيل بن محمد علي باشا يقول ـ مبرراً غزوه للسودان ـ إنه جاء لتخليص الدناقلة ومَنْ جاور الشايقية ثم الجعليين من اعتداءات الشايقية[3]. وهذا هو الفارق الأساسي ما بين دور الفلاتة (الغرَّابة) ودور قبائل شمال السودان.

---

(١) «تاريخ السودان الحديث»، ضرار صالح ضرار، الصفحات: ٢٦ ـ ٢٧ ـ ٢٩.
(٢) السنجك في لغة أو لهجة الشايقية معناه: الملك.
(٣) «تاريخ السودان الحديث، ضرار صالح ضرار.

هذه لمحة عارضة أوردتها بإيجاز، لأؤكد أن الأوصاف التي تحدد وتشخص معالم الفلاتي عند المؤرخين ـ سواء أكانوا من الأجانب أم من مؤرخي العرب ـ لا تنصب إلاً على مواطني شمال السودان من حيث السمات الشخصية؛ وذلك لأن ملامح الفلاتة ملامح غير زنجية، إذ إنهم صفر البشرة، وذوو شعر سبيبي ناعم، رشيقو القوام؛ أو أنهم شبه بيض سحنتهم عربية، يعتمدون ـ دائماً ـ على أنفسهم، وأنهم يعشقون الجهاد؛ وأنهم أكثر القبائل الأفريقية ذكاءً.

ـ وكما سبق ـ فإن هذه السمات والأوصاف[1] تنصب تماماً وتمثل شخصية الجعلي، والميرفابي، والشايقي؛ كما تمثل: الدنقلاوي، لأن له (رطانة): (لغة أو لهجة) كما للفلاتي رطانة أو لهجة؛ وبصورة أدق تمثل الشايقي، لأنه مقاتل مستبسل مغوار، يعشق القتال ويرفض الاحتقار.. والدونية.. والاستسلام. وبصورة أشمل يمثل الجعلي لأنصهارهم في السكان المحليين وتميزهم بالحفاظ على الخصائص العربية واللسان العربي وإقامتهم سلطنات إسلامية وممالك ومشيخات.

إلاً أن هؤلاء آثروا الأرض، والاستقرار، والزراعة؛ والفلاتة آثروا الهجرة، والجهاد، والدعوة.

الفلاتي رجل قتالي، دعوي، رعوي.

الشايقي رجل قتالي، قبلي، زراعي.

الشايقي أرضه كورتي، ومروي، وتخومها؛ واستقراره حيث امتد نفوذه؛ وزراعته النخيل والقمح.

والفلاتي أرضه حيث الإسلام.

واستقراره حيث قامت دولة الإسلام.

وزراعته تصحيح المفاهيم وقلع جذور الوثنية.

---

(١) راجع ص ١٠٤.

الفصل الرابع:

الفلاتي عند الفلان

وعَوْداً نتساءل: من هم (الفلاتة) عند الفلانيين أنفسهم؟.

وما تقدم من تحديد لمفهوم: (الفلان) إنما كان في ضوء الاستنتاجات الفكرية، على أساس الامتزاج الاجتماعي والنوعي، والتشابه في الملامح، والسمات، والمظهر، والسحنة، والاستمساك بالقيم؛ والجهاد بمعناه الشامل للقتال بالسلاح، أو الجهاد بالقول، أو الجهاد بمعنى العمل[1].

فهم يمثلون ملامح غير زنجية.

وإنهم صفر البشرة، ذوو شعر سبيبي ناعم، رقاق الأنف والفم، رشيقو القوام.

وإنهم شبه بيض سحنتهم عربية.

وإنهم يعملون برعي الأبقار، والجهاد تراث من تراثهم.

وإنهم أكثر القبائل الأفريقية ذكاءً على الإطلاق.

هذا هو مفهوم الفلاتي أو الفلاني عند الباحث المتخصص، أو الدارس لحضارات الشعوب، أو المؤرخ لتراث الأمم؛ وهؤلاء المتخصصون كلهم من غير (الفلان):

ألمان، أو إنجليز، أو فرنسيين، أو عرب.

ولولا ربط هذه الأوصاف بجماعة أو قبيلة انطلقت من غرب أفريقيا

---

(١) «الإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا»، د. عبد الرحمٰن زكي، ص ١٠١ ـ ١٠٢.

والمغرب الأقصى، حتى وصلت إلى (أوداغست Audagizt) اتي سميت ـ أخيراً ـ بأرض: (غانا) وكانت أقدم امبراطورية في غرب أفريقيا، أسسها قوم بيض: (الروم العرب) منذ قرون مضت قبل الميلاد؛ وتعني: (غانة) ـ بلغة أهل تلك المنطقة ـ: القيادة العسكرية[1] لولا ربط تلك الأوصاف بشعب قيل هم الفلاتة وزمان ومكان، وجهة هي غرب أفريقيا، لقلت، أو لقال القارىء ـ في ضوء التراث المعاصر، وتلك الاستنتاجات العقلية، والتشابه في الملامح والصفات والمظهر، والاستمساك بالقيم ـ لقال: الفلاتة أو الفلان هم: الشايقية، والدناقلة، والجعليُّون، والميرفاب، وسكان شمال السودان أو جنوب مصر، وبخاصة الدنقلاوي، لأن له (رطانة ـ لهجة) كما للفلاتي؛ وبصورة أدق الشايقي، لقوة عزيمته، ولما عرف به من البسالة، وحب القتال، والتضحية بالنفس من أجل الكرامة والقبيلة[2]. والجعلي لاحتضانه تعاليم الإسلام ولغته.

(فالفلاتي) جنس متميز له خصائصه وتراثه، وله إسهامات في دعم مسيرة الحياة الإنسانية؛ وحيثما ذكر الإسلام وانتشاره كان لهم الوجود والمشاركة أو السبق؛ وهذا لا يمنع الرأي القائل بأنهم جنس خليط من عدة أجناس، حدث بينها امتزاج ومصاهرة أدت إلى تمييز الفلاني كجنس له خصائص مجتمعة من كل جنس داخل في تكوينه.

هذا هو مفهوم (الفلاتة) كما سبق ذكره عند المؤرخين، وكما تؤكده دراساتهم وتحليلاتهم.

إذن من هم الفلاتة من وجهة نظر الفلانيين أنفسهم؟.

لقد أكدت المصادر بأنهم الجنس الوحيد الأبيض ـ أو الأحمر ـ في

---

(١) انظر: د. زاهر رياض: «الممالك الإسلامية لغرب أفريقيا» ص ٢٤٩.

(٢) نعوم شقير: تاريخ جغرافية السودان، ص ٥٣، فقد جعل الشايقية في مقدمة القبائل السودانية العربية على الإطلاق.

أفريقيا، ويمثلون ملامح غير زنجية، وبالتالي فهم ليسوا زنوجاً، إنهم خلاصة اختلاط بين عرب مهاجرين، ومجموعة من السكان المحليين في المناطق الجنوبية لموريتانيا، مع جماعة التروز المتأثرين بالروم والبربر في البداية؛ ثم تحركوا جنوباً وتزاوجوا مع القبائل ذات الملامح الزنجية في حوض السنغال...؛ وهم يقولون عن أنفسهم إنهم عرب قحطانيون ويقدمون الأدلة والروايات، شأنهم شأن القبائل الناتجة من تزاوج العرب والزنوج بنكرانهم للدم الزنجي فيهم وافتخارهم بعروبتهم، وإصرارهم بأنهم عدنانيون أو قحطانيون.

وفي نظري أن الفلاتة والقبائل السودانية التي تدعي العربية ليست صادقة في ذلك الأدعاء، حيث أن الدم الزنجي يجري في كل فرد منها، وإن تفاوت في كميته نتيجة لعوامل وراثية معينة.

نعم: أثبت (استينق) أنهم صفر البشرة، ذوو شعر سبيبي ناعم، رقاق الأنف والفم، رشيقو القوام؛ إلاَّ أن هذه الأوصاف قد تغيرت ـ لحد ما ـ في أماكن وانعدمت تماماً في أماكن أخرى، تبعاً لانفتاحهم إلى المجتمعات الأخرى بالمصاهرة والزواج؛ فالَّذين تزاوجوا فيما بينهم أو مع القبائل ذات الملامح العربية، قد احتفظوا بكثير من هذه الملامح؛ أما الَّذين تزوجوا من قبائل أفريقية واستقروا، فقد فقدوا تلك الأوصاف الجمالية أو (الاستنيقية).

لقد ذكرنا أنهم يقولون عن أنفسهم أنهم قحطانيون ينتمون إلى القائد الفاتح عقبة بن نافع، ابن أخت عمرو بن العاص، فاتح مصر، وغازي شمال أفريقيا، وباني مدينة القيروان، يعود إلى الفرع العربي الَّذي انحدر منه هو (فرع بني عقبة) أحد أفخاذ العرب القحطانيين[١].

ولقد أكد المؤرخ: (ماك مايكل) قحطانيتهم ووجودهم في مصر.

---

(١) وقيل: إنه ابن خالة عمرو بن العاص.

فيقول: (يمكننا القول بأن بني عقبة هؤلاء هم أحفاد القحطانيين الَّذين هاجروا شمالاً واختلطوا بالدماء السورية.. وفيهم دماء الأكراد، والأقباط، والأتراك، والفينقيين، والأرمن... إلخ من هنا جاءت نظرية ربطهم بالسوريين والفينيقيين).

ولقد هاجر جزء من بني عقبة من مصر إلى شمال أفريقيا، ولكن لا نستطيع أن نحدد تاريخاً معيناً لذلك، إلاَّ أنه ربما كان في القرن الثامن أو التاسع الميلادي، بعد ازدهار القيروان، وبعد أن نشطت التجارة المرتبطة بنشر الإسلام في غرب أفريقيا؛ فتذكر المصادر أن الطرق التجارية الموصلة بين المراكز الإسلامية في شمال القارة، وبين البلاد الواقعة فيما وراء الصحراء، كانت هي المسالك الحقيقيه التي تسرب الإسلام عبرها إلى قلب أفريقيا.

وذكر ماك مايكل أن مجموعة من بني عقبة أخبرت أحد المؤرخين: «الدكتور ولين» ـ في عام ١٨٤٨م، وكانوا بقرب العقبة ـ بأنهم انقسموا في بداية الإسلام إلى قسمين: سالم وبني عمر؛ وأنهما تعاركا وأخرجت سالم بني عمرو من المنطقة، فهاجر جزء منهم إلى شمال أفريقيا، وبعضهم اختلط بالفلاحين المصريين.

ويواصل ماك مايكل حديثه عن بني عقبة، فيذكر ما ترجمته: «أولاد عقبة الَّذين جاءوا إلى مصر من الجزيرة العربية، وصل جزء منهم إلى طرابلس واتصلوا بالفلاتة في غرب أفريقيا، ويذكر أن هذا الفرع من أولاد عقبة يعرفون باسم جماعة الشيخ عمر الفوتي وجماعة الشيخ عثمان بن فوديا»[1] ـ وهذا يدل على أن هجرة بني عقبة تواصلت حتى بعد ظهور

---

(١) لقد ذكر عبد الحكيم صاحب كتاب: «فتوح أفريقيا والأندلس» أن عقبة عاش ومعه أصحابه في غرب شمال أفريقيا ٤١ سنة، وذلك ما بين سنة ٢٢ ـ ٦٣، حيث أنجب أسرته التي ينتمي إليها الفلاتا ـ انظر كتاب: «العالم الإسلامي في العصر الأموي» د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف، ص ٢٨٨.

الفلاتة ـ الفلانيين ـ وربما أرادوا الالتحاق بذويهم الَّذينِ هاجروا إلى هناك من قبل ورسخت أقدامهم.

وحيث أكد المؤرخون انتماءهم إلى (عقبة) وأنهم قحطانيون، فإنهم ـ بلا أدنى شك ـ يشتركون مع بعض قبائل النيل الأزرق في جد واحد؛ نذكر من هذه القبائل السودانية على سبيل المثال:

١ ـ الشكرية: وهم من القحطانيين، ويعيشون جهة النيل الأزرق وخاصة في البطانة[1].

٢ ـ الخوالدة: وهم من القبائل القحطانية، ويعيشون في مديرية النيل الأزرق.

٣ ـ العوامرة: ويعيشون على حدود أرتيريا، وهم من القحطانيين.

٤ ـ رفاعة: وهم من القبائل القحطانية، ويعيشون في مديرية النيل الأزرق.

٥ ـ اللحويون: وهم من القبائل القحطانية، ويعيشون في مديرية النيل الأزرق.

٦ ـ فزارة: ويعيشون في المناطق الشرقية من إقليم كردفان، وهم من القحطانيين.

ومنهم المعاليا، والشنابلة، والزيادية، وبنو جراد، والبزغة.

٧ ـ البقارة: وهم من القحطانيين، وينتشرون في كردفان، ودارفور، ويعيشون على شكل قبائل، مثل: الرزيقات، والتعايشة، والهبانية، والحمر؛ ويصل بعضهم إلى إقليم الجزيرة، مثل: المسلمة، والدويحية.

٨ ـ الكبابيش: وموطنهم حول وادي الملك، وهم من القحطانيين.

---

(١) «السودان مواطن الشعوب في أفريقيا»، د. محمود شاكر، ص ٦٦.

أما بقية القبائل السودانية الأخرى فهم إما ينتمون إلى أصل حامي، مثل: البجاة، والنوبة.

أو إلى أصل سامي، مثل: الزغاوة: والفور.

وهناك الجوابرة: وقد جاءت من العراق في القرن الرابع عشر، وعاشت إلى جانب النيل في الشمال.

والزبيدية: وقد جاءت من الحجاز في القرن التاسع عشر؛ وهناك: الهوارة، والكواهلة.

أما الجعليون: فهم ينتسبون إلى القبائل العدنانية، حيث يربطون نسبهم بالعباسيين، فيدعون أن جدهم هو إبراهيم: (جعل) بن سعد بن فضل بن عبد الله بن العباس عم رسول الله ﷺ ويشاركهم في أصل فرعهم: (الفونج) فهم ينتسبون إلى عدنان ويعتبرون أنفسهم من أحفاد الأمويين، ويعيشون في أرض الجزيرة[1].

وكذلك البرنو، والتنجر، والبرقو، كلهم ينتسبون إلى العباس، وأنهم من الجعليين، ويذهب البعض إلى أكثر من هذا، فيؤكدون بأن سلطان (جامع أو أبوه) إنما هما من الجعليين الّذين يعيشون حول نهر النيل بين رافديه: النيل الأزرق وعطبرة؛ وكانت مدينة شندى مركزاً لهم، وهم ينتسبون إلى صالح بن عبد الله بن العباس، وبالتالي فهم: (البرقو، والبرنو) عباسيون يرتبطون بأهل: (شندى) و:(أبو حراز)[2] و:(جامع) هذا عرف من بين سلاطين وداي بالداعية الكبير، لأن الفضل في نشر الإسلام في

---

(١) «السودان مواطن الشعوب في أفريقيا، د. محمود شاكر، ص ٦٦.

(٢) تاريخ وداي، للرحالة الألماني غوستاف ناختيغال؛ نقله من الانجليزية إلى العربية نادياكدكي وهنري كودري، الجزء السابع.

وداي يرجع إليه في عام ١٦١٥م، ومن بعده ابنه عبد الكريم المعروف بمجدد الإسلام[١].

وقد سبق أن ذكرنا أن قبيلة البرقو تعد أكبر قبيلة هاجرت إلى دارفور، لما لها من ارتباط سياسي بدارفور[٢] ثم انتقلت منها واستوطنت وسط السودان، وهم أكثر القبائل اختلاطاً بالسكان المحليين في أرض الجزيرة؛ وهذه الظاهرة ما زالت موجودة وإن اعتراها بعض التغيير.

(أما فيما يتعلق بالرطانة بالنسبة لقوم أصلهم من العرب، فهو أمر ليس بغريب ولا مستبعد، وينطبق على بعض القبائل السودانية ذات الأصول العربية؛ وكمثالين فقط لذلك نذكر الدناقلة في الشمال والفور في الغرب؛ الكلام للدكتور محمد أحمد بدين: فهذه القبائل التي تكون نتاجاً للتزاوج بين القبائل المهاجرة وبين السكان المحليين، تجد نفسها وسط مجموعة كبيرة لا تتحدث اللغة العربية، فأما أن تتحدث بلغة الأم أو أن تستحدث لها لغة جديدة، كما هو الحال للغة الفلاتة؛ وهذا ما ينطبق على الفور والدناقلة.. ولكن تبقى القدرة على التعبير باللغة العربية كامنة في دواخلهم، لا تلبث أن تخرج قوية رصينة نثراً.. وشعراً.. وأسلوب مخاطبة، عندما تتهيأ لها الظروف فيحسنون فيها ويبدعون)[٣].

نعم إنني مع الدكتور بدين: (إن الرطانة لقوم أصلهم من العرب ليس بغريب). لكن هل الدناقلة من أصل (عربي)؟ الواقع يؤكد أن الدناقلة، والمحس، والكنوز من أصل (نوبي) ومن هنا فإن احتفاظ الدناقلة وغيرهم من: (المحس) و: (الكنوز) بلغتهم وتراثهم غير العربي أمر لا غرابة فيه!!.

---

(١) «تاريخ تشاد»، وزارة التربية الوطنية إدارة التعليم العربي، ص ٢٣.

(٢) لقد خضع ملوك وداي في فجر تاريخها إلى سلاطين الفور، خاصة في عهد السلطان محمد فضل ـ انظر: دائرة المعارف الإسلامية، ثيوبولد، ص ٧٠ ـ ٧١.

(٣) نقلاً عن الدكتور بدين، الحلقة الخامسة، ص ١٣.

ويؤكد ما ذهبت إليه الأستاذ مكي شبيكة، إذ يقول: (ومع أن النوبيين بمرور الزمن اندمجوا مع العرب واعتنقوا الدين الإسلامي، إلاَّ أنهم في بعض المناطق احتفظوا بلغاتهم وتقاليدهم في إقليم: (دنقلا) وما جاورها شمالاً من بلاد النوبة)[1].

لكن الغريب في الأمر هو احتفاظ الدناقلة ـ وإلى يومنا هذا رغم التقدم المدني، والانفتاح الحضاري، والتداخل السكاني ـ الاحتفاظ بلغتهم وبعض عاداتهم وموروثاتهم، بينما القبائل المجاورة والمماثلة لهم في الانتماء الحضاري ـ مثل الشايقية ـ تراهم لا يتكلمون إلاَّ بالعربية، مع إدخال تحريفات في بعض الكلمات عن طريق استعمال الإمالة، أو الترخيم، أو الغنَّة، بصورة تحقق الانتماء القبلي من ناحية، ويؤكد المزج العربي والمد الإسلامي من ناحية أخرى.

أما الجعليّون، فلا يتكلمون إلاَّ العربية دون أي إدخال، أو تحريف في الأصل اللغوي العربي؛ مما يؤكد عمق الدم العربي وتأصيل اللغة العربية فيهم.

بينما الفلاتة، قد امتزجوا في القبائل الأخرى الأفريقية أو العربية وتلاشت لغتهم، لحدٍّ ما سواء في البلاد التي فتحوها وأسسوا فيها ممالك إسلامية: (غينيا) و: (السنغال) وبلاد: (الهوسا) أو البلاد التي استوطنوا فيها بحكم الدعوة ونشر تعاليم الإسلام، مثل مملكة (وداي) وبخاصة في عهد سلطان وداي: (عبد الكريم ابن جامع) الَّذي أسس مدينة: (وارة) وجعلها عاصمة لسلطنته، وجمع حوله من أسلم على يده، وبنى مسجداً، ودام حكمه عشرين عاماً في هدوء وسلام؛ كان ذلك بين عام ١٦٣٥ ـ ١٦٥٥[2].

---

(١) «مختصر تاريخ السودان»، مكي شبيكة، ص ١٠.

(٢) تاريخ وداي، فصل من كتاب: «الصحراء والسودان» للرحالة الألماني غوستاف=

وصلة البرقو أو الوداي (بالفلاتة) وبخاصة في مجال نشر الإسلام، ومد رواقه عظيمة جداً، مما دفع بالسلطان محمد شريف إلى مصاهرتهم والزواج منهم، وكان ابنه الّذي يأمل في اعتلاء العرش بعده: (التانتلك محمد) أمه فلاتية أو من قبيلة الفلان؛ وقد هرب مع أتباعه إلى: (سولا) ومن هناك إلى: (دارفور) إثر المكايد المتكررة والمحاولات المستمرة لاستيلائه على السلطنة[1].

ومن تلك البلاد التي استوطنوا فيها بحكم الدعوة سلطنة: (الفور) التي امتدت إلى كردفان وسنار؛ فصاهرُوا الفور، والقمر، والزغاوة، والرزيقات، والتعايشة، والجوامعة، والحمر، والمسيرية؛ فانمحت لغتهم وتغيرت ملامحهم تماماً في مثل منطقة: (كريو) و: (كتال) و: (كوبى) والمناطق المجاورة لدار مساليت وجبل مرة؛ واحتفظ البعض ـ لحد ما ـ بتلك الملامح واللغة في مثل مناطق: (تلس) و: (النهود) و: (البرداب) وضواحي: (شندى) و: النيل الأزرق (الشيخ طلحة).

أما الدناقلة، فلا يزالون مستمسكون بلغتهم.. وبعض عاداتهم.. وموروثاتهم؛ بينما القبائل المجاورة لهم والمماثلة لهم في الأصل والعنصر لا يتكلمون إلاَّ باللغة العربية: الجعليين والشايقية، فلماذا..؟؟ هل من قبيل الاعتزاز بالتراث والحفاظ عليه، وعلى لغة الثدي أم ماذا؟؟ إنها ظاهرة تستحق الدراسة والبحث؛ ولا شك أن هذا يؤكد عدم تأثير الدم العربي من الناحية السلالية في النوبة ولقلة الاختلاط؛ فظل النوبي محتفظاً بلغته الأصلية ولم يتحول عنها، بخلاف المجموعة الجعليّة التي ليس لها لغة أو ثقافة سوى العربية[2].

= ناختيقل، نقله من الانجليزية إلى العربية الأستاذان ناديا كدكي وهنري كودري، ص ٥.

(١) نفس المرجع السابق، ص ١٩ ـ ٢١.

(٢) «تاريخ السودان القديم»، د. محمد بيومي مهران، ص ١٤٠.

الفصل الخامس:

الفلاتة والتشعب القبلي[1]

والفلاتة كقبيلة، فإنها ـ بلا شك ـ تتشعب إلى بطون وأفخاذ، شأن القبائل والبطون العربية...

والَّذي يحدد لنا تشعب هذه القبيلة بعد هجرة العرب من الجزيرة العربية إلى الهند، ثم إلى أفريقيا قبل الإسلام وبعد الإسلام، مع حملات الفاتحين لغرب أفريقيا؛ الَّذي يحدد لنا ذلك في منهجية تاريخية وتعامل مع الرواية، هو المؤرخ: (محمد الكلوي) المتوفي عام ١٨٢٠م في كتاب: (كنز الأولاد في تأريخ الذراري والأجداد) قال: (إن قبيلتي جهينة وتميم قد هاجرتا من الجزيرة العربية إلى الهند عقب فتنة بخت نصر، وذلك ما بين ٢٠٠٠ ـ ٧٥٠ ق. م، وعادتا مرةً أخرى إلى الجزيرة العربية بعد انتهاء الفتنة، ومع تميم الأبقار والسيوف والطاقية ذات اللسانين، ومع جهينة الأغنام؛ ولقلة المراعي، واصلت القبيلتان هجرتهما إلى أفريقيا حيث تتوفر المراعي فسلكت تميم طريق الشام إلى صحراء سيناء، حيث استقرت في طور سيناء فترة من الزمن؛ واستمرت مواصلة هجرتها إلى أن وصلت منطقة ليبى (ليبيا الحالية) وسلكت جهينة طريق اليمن إلى أن وصلت إلى منطقة ليبى، حيث تعيش رفيقة دربها، ولكنها انتشرت جنوباً، في الوقت الَّذي فيه واصلت تميم رحلتها إلى أقصى غرب أفريقيا والمغرب الأقصى، حتى وصلت إلى أوداغست التي سميت أخيراً بأرض غانا القديمة التي تقع ما بين مالي: (موريتانيا الحالية)، وصحراء توات (الجزائر حالياً) الأرض التي

---

(١) الفلاتة في السودان ومساهماتهم الإسلامية والتنموية: الطيب عبد الرحيم محمد، ص ١٦ ـ ٢٠.

كانت تحت تأثير الحكم الروماني، فأطلقوا على هؤلاء العرب ـ الَّذين استقروا هناك ـ اسم الروم.

وقد عادت هذه الأسر من تميم ـ مرةً أخرى ـ إلى وطنها في الجزيرة العربية، فلما ظهر الإسلام، قاد أحفاد هؤلاء العائدين حملة فتح غرب أفريقيا، بقيادة عقبة بن نافع، وبرفقة عقبة بن عامر التميمي، وعقبة الجهني، وعقبة الهندي، وغيرهم من المجاهدين (رضوان الله عليهم وسلامه) فأسلم ملك الروم وهو ملك غانا ويدعى برمندانا، وتزوج عقبة بن نافع من ابنته بج مغ[1] وولدت له خمسة أولاد وبنتاً واحدة، وهم:

١ ـ عثمان تورو. ٢ ـ محمد فلان.

٣ ـ أبو بكر فلات. ٤ ـ عمرو دردو.

٥ ـ علي غردو. ٦ ـ فاطمة شلفو أو شفو.

ولكل هؤلاء أحفاد ينتشرون ما بين فوتا تورو إلى البحر الأحمر، فيسكن أحفاد محمد فلان بأقدس، وتاوا، وبلما، والسودان الشرقي، ونيجيريا، ويطلق عليهم اسم الفلانيين وفلاتة، ويسكن أحفاد أبي بكر الفلاتي بلاد برنو، ودمغرم، وحول حوض تشاد، وجمهورية مالي، والسودان الشرقي، وأريتريا، وجمهورية مصر العربية، ويسكن أحفاد عثمان تورو أرض ماسينا التي تشمل ثلاث جمهوريات، وهي: مالي، بوركينا فاسو، وداهومي؛ وكذلك ينتشرون في نيجيريا ـ ومن أحفادهم الشيخ عثمان بن فوديو ـ والسودان، وأريتريا، وتشاد؛ ويسكن أحفاد عمر دردو حول نهر السنغال، وصحراء ماضي، والسودان، وتشاد، وأريتريا،

(١) «الدعوة الإسلامية في غرب أفريقيا دولة الفولاني»، د. حسن عيسى عبد الظاهر، ص ٥٥.

وتمبكتو، ويسكن أحفاد فاطمة شفو أو شلفو ـ الَّذين هم من أب رومي ـ أرض السودان، وذلك حول مناطق الكبابيش، وأرض الشايقية؛ وكذلك يسكنون الكمرون، وتشاد، وأريتريا.

وقد أنجب عقبة من زوجته صفية بنت جعفر بن أبي طالب خمسة أولاهم:

١ ـ يزيد.

٢ ـ فولو.

٣ ـ فيلا.

٤ ـ غرغاو.

٥ ـ حيدر.

ولكل هؤلاء أحفاد ينتشرون بين المغرب والبحر الأحمر.

وتزوج المجاهدون الَّذين رافقوا جيش عقبة القبائل الأخرى، كما زوجوا بناتهم وأخواتهم إلى قبائل الروم والبربر، فأنجبوا العديد من الأبناء والأحفاد، كوّنوا الكثير من الفروع والقبائل التي انضمت للفلاتة انضمام التزاوج، ومن بين هؤلاء من لا يتحدث إلاَّ اللغة العربية.

استشهد عقبة بن نافع وكثير من المجاهدين معه، وتوفيت بج مغ (مريم) مخلفين وراءهم ذرية نشطة وحركية، ولهم عدة أقسام، وهي:

١ ـ الفلاتيون الأصليون وهم أبناء عقبة من أم رومية[1].

٢ ـ الفلاتة بنو الروم الَّذين صاروا فلاتيين بسبب التزاوج والمصاهرة،

---

(١) المراد بالفلاتة الأصليون، هم أبناء عقبة من صلبه مباشرةً، علماً بأن الكل ينتمي إلى عقبة، سواء من جهة الأبناء أو البنات، كما يشمل أبناء المجاهدين الَّذين رافقوا حملة عقبة، والَّذين تكلموا بلغة الفلاتة.

ومن هؤلاء الشلفيون الَّذين هم من أبناء فاطمة شلفو ابنة عقبة بن نافع.

٣ ـ الفلاتة بنو العرب، وهم أبناء المجاهدين الَّذين رافقوا حملة عقبة ابن نافع إلى أفريقيا، ويعتبرون أخلاطاً من النوبة، والعرب، والزنوج؛ الَّذين تم فتح بلادهم، فاختلط أولادهم بأولاد عقبة، وتكلموا بلغة الفلاتة فصاروا فلاتة.

٤ ـ الفلاتة الجعفريون، كما يسميهم محمد بيلو في كتابه: «إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور» ومحمد سمبو الكلوي في كتابه: «كنز الأولاد في تاريخ الذراري والأجداد» بأنهم من الفلاتة توردبو، انتساباً لجدتهم صفية بنت جعفر بن أبي طالب[١].

ولتكون الصورة واضحة أمام القارىء تجاه هذه الشخصية التي ينتسب إليها الفلاتة، شخصية عقبة بن نافع، الَّذي ولد مسلماً وعاش مؤمناً مجاهداً، ومات شهيداً في سبيل الله فوق السفوح الجنوبية لجبال الأوراس، في معركة تعرف في التأريخ باسم: (معركة تهوذة). فإني أنقل للقارىء نسب هذا القائد الفاتح مع ذكر الأحداث الحاسمة في حياته، والنقاط المضيئة في سيرته[٢].

أما نسبه، فهو عقبة بن نافع بن عبد القيس بن لقيط بن عامر بن أمية[٣] ابن الضرب بن الحارث بن فهر القرشي[٤] وأمه سبية من «عنزة» اسمها النابغة، فهو أخو عمرو بن العاص لأمه[٥].

---

(١) نقلاً من كتاب «الفلاتة في السودان ومساهماتهم الإسلامية والتنموية: الطيب عبد الرحيم محمد ص ١٦ ـ ٢٠.

(٢) انظر: الملحق رقم (٦).

(٣) «أسد الغابة» ٣/ ٤٣٠؛ والإصابة ٥/ ٨١.

(٤) «الاستقصا» ١/ ٦٩، و«جمهرة أنساب العرب» ١٧٦ ـ ١٧٧.

(٥) «جمهرة أنساب العرب» ١٦٣.

وفي رواية أنه ابن خالة عمرو بن العاص[١] وفي رواية أخرى أن عمرو بن العاص خاله[٢] وفي رواية ـ أيضاً ـ أنه ابن أخي العاص بن وائل السهمي لأمه[٣] ويلتقي نسب عقبة بن نافع بنسب عمرو بن العاص من جهة الأم أولاً، ومن جهة الأب ثانياً، في أنهما من قريش.

عاش عقبة بداية حياته والجزيرة العربية تتمخض بالأحداث الجسام، وعرف الصراع بين أعداء الإسلام منذ أن فتح عيونه على الدنيا، فكان في صف المسلمين؛ وتهيأت له الظروف حتى ينهل من مورد الإيمان والإسلام، فعاش في بيئة إسلامية صرفة.

وكانت حياة العرب في الجزيرة تعتمد على الفروسية، أو على القتل والقتال؛ ثم جاء الإسلام فوحد أبناء الجزيرة، وجعل للعرب هدفاً نبيلاً يقاتلون من أجله، فأصبح مناخ الحرب هو المهيمن على بيوتات العرب في الجزيرة كلها؛ وعاش عقبة في هذا المناخ وتفاعل معه، وجعل من الجهاد في سبيل الله حرفة له، فصلب عوده منذ حداثة سنه، وتفتحت فيه إمكانات القيادة المبكرة، شأن قادة المسلمين الأوائل، وكانت الأحداث الحاسمة في حياة عقبة، والنقاط المضيئة في سيرته كثيرة.

فلا غرابة إذا اعتز الفلاتة بقوة شخصيته، ولا سيما أنه قضى بينهم ومعهم ما يربو على ربع قرن من الزمان.

* * *

---

(١) «أسد الغابة» ٣/ ٤٢٠، و«الاستيعاب» ٣/ ١٠٧٥.

(٢) «الإصابة» ٥/ ٨١.

(٣) «سير أعلام النبلاء» ٣/ ٣٤٩.

هل الفلاتة والدناقلة من أصل واحد؟[1]

والخلاصة من كل ما تقدم يتضح للقارىء أن الفلاتي ليس بالنوبي، ولا هو بالزنجي، ولا بالعربي ابتداءً.

وهذا هو الفارق الانتمائي الأول ما بين الفلاتة، والجعليين، والدناقلة، والكنوز، والمحس، وجميع سكان جنوب مصر أو شمال السودان.

لذا أطلق محمد بيلو في كتابه: (إنفاق الميسور في تأريخ بلاد التكرور) اسم النوبة على كل قبائل السودان، عدا قبيلة الفلاتة الَّذين تزاوجوا مع النوبة تزاوجاً غير محدود.

فهم ـ أعني الفلاتة ـ فصيل وجماعة مستقلة، كالموريتان، والطوارق، والصهانج، والبربر؛ ثم جاء دور الانصهار، والانفتاح، والهجرات، والدم العربي، فصاروا عرباً قحطانيين ينتمون إلى عقبة بن نافع، وعقبة بن عامر التميمي، وعقبة الجهيني، وعقبة الهندي.

والفارق الثاني:

أن الجعليين، والدناقلة، والشايقية، والمحس، والكنوز، وإن اشتركوا مع الفلاتة حيث لم يكونوا عرباً ابتداءً، إلاَّ أنهم يختلفون عنهم، إذ لم يجعلهم التأريخ جنساً مستقلاً بذاته من غير سلالة السود أو شبه

---

(١) إن أعظم علاقة بين الدناقلة والفلاتة تراه ماثلاً في أنصهارهم بالمهدي، وزواج الإمام المهدي منهم (فجُلّ الفلاتة في السودان حتى يومنا هذا أنصار يؤمنون بالمهدية، وكذلك الأمر بالنسبة لأبنائهم جيلاً بعد جيل، يدينون بالولاء لبيت المهدي، مما يؤكد هويتهم وعمق ارتباطهم بالسودان ـ انظر: «المنهج التربوي في الدعوة للشيخ عثمان دان فوديو، للأستاذ بابكر حسن، جامعة أفريقيا العالمية الخرطوم.

السود: كالبجة، والهدندوة، مثلاً: (إذ الثابت المقطوع به والمؤيد بالقرائن التأريخية والطبيعية ـ كما يقرره نعوم شقير ـ أن البجة من سلالة غير سلالة السود، وأنها أقدم الشعوب في أفريقيا بعد السود ولم ينشؤوا فيها، بل هاجروا إليها من آسيا عن طريق مصر والبحر الأحمر من عهد بعيد)[١].

فالفلاتة جنس مستقل بذاته، انتقل إلى العربية لوجود التشابه مع العرب في عدد من الصفات المشتركة، من أهمها: الشجاعة، فقد كانوا مقاتلين أشداء، أضف إلى ذلك التكوين الطبيعي؛ كل ذلك كان عاملاً من العوامل التي ساعدت في الاندماج مع العرب وتقبل دينهم، بمثل الحماسة التي حمل فيها العرب لواء الإسلام، فكانوا الصورة المشرقة للقبيلة المسلمة والإنسان المسلم، المرابط، المجاهد في سبيل الله؛ فالجهاد تراث من تراثهم الَّذي يعتزون به[٢].

أما الدناقلة، والجعليون فجنس تولد بالمصاهرة والاحتكاك بالأثيوبيين[٣] والمصريين، وغيرهم، ثم اختلطوا بالعرب وتناسلوا من الأجناس الأصليين، الَّذين انحصروا ـ الآن ـ في أفريقيا الجنوبية، وفي أعالي النيل الأبيض والأزرق؛ ثم جاء الإسلام والهجرات العربية، فصاروا عرباً عدنانيين أو عباسيين، وأسسوا ممالك ودويلات، وصاروا أصحاب (ككر وطاقية) أما القول بأن الجعليين هم عرب خلص فقول لا يتفق بما كان يعمد إليه إبراهيم الجعل بأن يدخل في قبيلته من ليس فيها، إذ يقول لأهل البلاد: جعلناكم منا[٤].

---

(١) نعوم شقير، ص ٤٩ ـ ٥٠.

(٢) حسن إبراهيم حسن، الإسلام في غرب أفريقيا.

(٣) لقد ثبت بأن هناك صلة بين الحبشة، والبرنو ـ والنوبة انظر: «إمبراطورية البرنو الإسلامية»، للدكتور إبراهيم علي طرخان، ص ٥١.

(٤) الأستاذ محمد عوض، «السودان الشمالي»، ص ١٦٦؛ والملاحظ أن الأستاذ محمد عوض ينقد رأي: «ماك ميكل» في قوله باختلاط أنساب الجعليين، بينما الواقع وقول=

وهناك من المؤرخين والجغرافيين من يجعل الفلاتة من النوبة الكوشية ويربطهم بقبائل السودان النوبية؛ فإذا صح هذا. . فإن الفلاتة، والنوبة، وجميع سكان شمال السودان، وجنوب مصر من أصل واحد أو فرع واحد.

وممن جعل العلاقة بين الفلاتة والكوشيين بمنطقة مروي والمناطق المجاورة لها، ابن إسحاق الجغرافي المتوفي عام ٩٥١م في كتابه: (أحكام المرجان) الَّذي حدد فيه بلاد السودان التي تبدأ من المغرب وتنتهي بالبحر الأحمر، رابطاً بين مناطق النوبة، ومملكة غانا، وأودغست أرض الروم، والتكرور، وعلوة، وكوكا.

وبهذا الرأي قال المؤرخ اليعقوبي المتوفي عام ٩٠٣م، وابن حوقل المتوفي عام ٩٩٩م، والبكري المتوفي عام ١٠٦٨م، و(بالمر) في كتابه: «تراجم السودانيين» المجلد الثاني صفحات ٢ و٣؛ الَّذي اتفق فيه مع المؤرخين والجغرافيين على أن الكوشيين مجموعة من القبائل العربية، هاجرت إلى أفريقيا عن طريق باب المندب، وذلك ما بين ٥٠٠٠ ـ ٢٠٠٠ ق. م، واتفق (بالمر) ـ أيضاً ـ مع المؤرخين والجغرافيين على أن الكوشيين أصحاب أبقار، ويسمون البدوين، والفلاتة، والنومنديين، والنوباديين، حسب تسمية الرومان لهم.

وممن أكد ما قرره هؤلاء المتخصصون من علاقة بين قبيلة الفلاتة وقبائل السودان النوبية، الأستاذ شاطر البصيلي، الَّذي قال: (امتدت أرض كوش من الشلال إلى بحيرة الأرواح ـ أرض الجزيرة المروية ـ وسميت بأرض رماة الحدق ـ أي رماة الرمح ـ ثم انتشرت نحو الغرب والشمال

= إبراهيم جعل: «جعلناكم منا» يؤكد التوالد والاختلاط؛ نعم يؤكد الاختلاط، ولكن لا ينفي أنهم ينتسبون إلى أرومة هاشمية، وهذا ما أراد ماك ميكل نفيه حسداً؛ والقاعدة: «إن الناس مصدقون في أنسابهم» قد يكون هذا وجهة نظر، ولكن هو رأينا.

الغربي، حتى وصلت جماعة منهم إلى ساحل أفريقيا المطلة على البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي، ثم انتقلت أعداد منها إلى الجزر الغربية من هذين الساحلين، ويظهر ذلك في التقارب بين اللغة النوبية واللغات التي يستخدمها الشلح والجوشان في المغرب الأقصى، مع تغيير بعض الأحرف حسب مقدرة أهل المنطقة النطق بها أو عدم مقدرتهم؛ ثم رجعت جماعة من هؤلاء المهاجرين إلى حوض وادي النيل الأوسط بسبب الظروف المختلفة، وعرفت هذه المجموعات باسم النوباديين والنوماديين، وقد دخلت سالكة عدة طرق منها المغرب شمال إقليم تشاد ـ كردفان حالياً ـ وذلك حوالي أوائل العهد الهليني، وجاءت مجموعة أخرى حوالي القرن الثالث الميلادي؛ وجاءت المجموعة الأخيرة عن طريق جبال التبستي وأرض الزغاوة إلى دنقلا الحالية)[1].

وكأن الدكتور عون شريف قاسم يميل إلى هذا الرأي إلى حد ما، مبيناً أن ما وصلت إليه البلاد من تقدم حضاري ـ أو ما وصل إليه سودان اليوم ـ إنما يرجع الفضل فيها إلى الجماعات التي تولدت نتيجة الاتصال بالسكان الأصليين؛ فكأنه يبرهن على بطلان ادعاء جماعة بعينها اليوم ـ أو أبناء قبيلة ـ بأنهم أهل البلد وأنهم أصحاب المصلحة الحقيقية؛ أمر لا يقره؛ ولا يعتمد على منطق، ولا يستند إلى مبرر منطقي.

يقول الدكتور عون: (إذن هناك حزام عريض يمتد من شمال ملتقى نهر عطبرة بالنيل إلى مشارف الجنوب في منطقة الجزيرة، حيث تلتقي السافانا بالغابات الاستوائية، وهذا الحزام يضم المساحات الشاسعة الطرية شرق النيل وغربه؛ وبذلك كانت هذه المنطقة مهيأة لأن تلعب أعظم دور في حياة السودان الثقافية والحضارية؛ ومن هنا كان خطر هذه المنطقة في حياة البلاد السياسية والاجتماعية، فمن التقاء هذه العناصر وامتزاجها

---

(١) الشاطر البصيلي، «تاريخ وحضارة السودان» القاهرة، ١٩٧٤، ص ٥٥ ـ ٧٦.

بالسكان الأصليين، نجمت كل التحولات الكبرى التي طبعت المنطقة بطابعها السياسي والثقافي؛ فمملكة الفونج قامت في جنوب هذه المنطقة، وسلطنة العبدلاب ومن تبعهم من الملوك قامت في شمال هذه المنطقة)[1].

وهذا أمر بدهي، فالمعروف أن كل تطور أو حضارة لأمة لا تظهر مكتملة مرة واحدة، ولكنها تأخذ في تشكيل نفسها على عدة مراحل، حسب ظروفها الفكرية، والبشرية، والبيئية التي تكيف مناخها الاجتماعي من الاستجابة، أو المقاومة لها؛ وهي في كل مرحلة من تلك المراحل تظهر لها ملامح جديدة لم تكن ظاهرة عليها من قبل، وإن كانت نابعة - أصلاً - من ذاتها وفقاً لقواعد نموها، مثلها في ذلك مثل الكائن الحي؛ فالإنسان في طفولته يتميز بمقومات يتولد عنها صباه ثم رجولته، وهو في كل طور من هذه الأطوار يذوب بكيانه في المرحلة التي تليها؛ وهكذا المجتمع السوداني المتكون من قبائل وشعوب متعددة، تولدت بالمصاهرة والاحتكاك، وتناسلوا من الأجناس الأصليين ثم العرب تبعاً للنظرية: (النوبة الكوشية) الَّذي يقيم العلاقة بين الفلاتة والكوشيين بمنطقة مروي وكل المناطق المجاورة لمروي؛ فالفلاتة وغيرهم من قبائل الشمال من الجعليين، أو الدناقلة، أو الشايقية؛ أو قبائل الغرب، الفور، أو البرنو، أو الزغاوة؛ سواء في الأصل، وفي الامتزاج بالسكان الأصليين، وفي التحولات الكبرى التي طبعت المنطقة بطابعها السياسي والثقافي.

وهناك نظرية ترى أن الفلاتة كانوا جنساً بذاته من غير سلالة السود كالبجة؛ انتقل إلى العربية بكل مقوماتها لوجود التشابه مع العرب في عدد من الصفات، منها: التكوين الطبعي؛ والَّذي يقضي بعمق الدم العربي في عنصرهم بشكل ميزهم عن كل الجماعات الأفريقية، ويقضي - أيضاً - بتعميق تعاليم الإسلام في نفوسهم بشكل أحالهم إلى مرابطين في سبيل

---

(١) د. عون شريف قاسم، مجلة حروف، المجلد الأول، العدد الرابع، ص ٢٣٠.

الله، يجعلون الجهاد تراثاً لهم يعتزون به.

هذه النظرية ـ بلا شك ـ تؤكدها الوقائع التأريخية الحية، ذلك لأن المد الإسلامي الذي قام به عمرو بن العاص (رضي الله عنه) سنة ٢١هـ بفتح مصر وأمر عقبة بن نافع الفهري القرشي ـ الَّذي ينتسب إليه الفلاتة ـ لفتح أفريقيا ابتداءً من زويلة[١] ثم تواصلت فتوحاته إلى أن غزا الروم، والبربر، وقبائل (لواتة)[٢] إلى أن بلغ (مالبان)[٣] ورأى المحيط الأطلسي في أقصى المغرب، وقال كلمته المشهورة: (يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك؛ ثم قال: اللهم اشهد أني قد بلغت المجهود، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد دونك).

إن هذا الاندفاع القوي والمتواصل بجيوش عربية كثيفة، وقائد قضى ما يزيد على ربع قرن مرابطاً في برقة؛ قائداً لحاميتها، مدافعاً عن المسلمين، عاملاً على ترسيخ دعائم مجتمع جديد، قائم على الحق والعدل والخير للناس، كل الناس؛ لا على أساس التمييز العرقي أو العنصري، وإنما على أساس ما كرم الله به العرب من واجب حمل الرسالة وتعريف الدنيا بها.

---

(١) زويلة ـ مدينة من مدن فزان، تقع في الجنوب الشرقي من مرزوق، ويبعد عن طرابلس بمسافة ٧٧٠ ك.م تقريباً، ويميزها المؤرخون بزويلة السودان للتفريق بينها وبين زويلة أفريقية، الَّتي بناها عبيد الله المهدي قرب تونس ـ انظر «معجم البلدان» ٤/ ٤١٨ ـ ٤١٩؛ و«المسالك والممالك» ص ٣٤؛ و«تاريخ الفتح العربي في ليبيا» ص ٢٤.

(٢) لواتة: من أشهر قبائل البربر، كانت زمن الفتح الإسلامية تسكن برقة، وهي من أكبر بطون البربر: «البشر».
انظر: «تأريخ الفتح العربي في ليبيا»، ص ١١ ـ ص ١٢؛ و«جمهرة أنساب العرب»، ص ٤٩٨.

(٣) مالبان: بلد في أقصى بلاد المغرب ليس وراءه غير البحر المحيط؛ «معجم البلدان ٧/ ٣٦٧».

لا شك هذا الاندفاع وهذا الجهاد المتواصل من أجل إنشاء مجتمع هويته الإسلام.. لا شك عمق الدم في الجنس الفلاتي أو جنس إنسان المغرب العربي، عمق مفهوم الإسلام، وكرس قيمه وأهدافه في الافئدة والنفوس، وأصبح الإسلام ـ بفضل هذه القوة والكثافة وعبقرية القيادة ـ أصبح يحمل طابع الوطنية، وأصبح معنى الإسلام هو الوطن، والوطن هو الإسلام، والأهل هم المسلمون، من تاريخ تولي عقبة بن نافع قيادة جيش للمسلمين، وغزوة الروم، وقبائل لواتة المتمردة في أفريقيا سنة ٤١ هـ/ ٦٦١م، وكان الشيخ عبد الله عبد الرحمن (رحمه الله) هو شاعرهم يومئذٍ، أو يمثل شاعرهم إذ يقول:

فليس سوى الإسلام من وطن لنا ولا غير أهليه أعد صحابا
كفى بقبيل الله جنساً ومذهباً وبالله رباً والكتاب كتابا
وبالمصطفى المختار صفوة خلقه نبياً زكى في العالمين نصابا

فكان عمق الدم العربي ماثلاً في عنصرهم بشكل ميزهم عن كل الجماعات الأفريقية، وتبع ذلك تعميق مفاهيم الإسلام بشكل أحالهم إلى مرابطين في سبيل الله، يعشقون الجهاد ويعدونه تراثاً لهم.

وهذا ما تقرره نظرية: إن قوة المسلمين كانت مرتبطة بقوة العرب في البلاد التي تدخلها؛ فكلما زادت قوتهم ازداد الإسلام قوة ومناعة، وكلما ضعفت شوكتهم انعكس أثر ذلك على الإسلام؛ وهذا لا ينافي أن قوة العرب إنما بالإسلام أولاً وأخيراً.

أما مد الإسلام، والدم العربي، والقيم الإسلامية في شمال السودان، حيث مستقر الجنس النوبي بجميع فروعه الدناقلة والكنوز وغيرهم... فقد كان واقفاً مع مقررات بنود معاهدة البقط سنة ٦٥٢م[1] التي لم تسمع للدم

---

(١) في ولاية عبد الله بن أبي السرح وصل جند الإسلام إلى دنقلا ورميت بالمنجنيق، وانتهى الأمر بمعاهدة صلح يدفع بمقتضاه النوبيون بقطا سنوياً، عماده ثلاث مائة =

العربي بالاستقرار، كما لم تمنعهم العبور[1] وبالتالي كان تغلغل الدم العربي في هذه القبائل (النوبية) بطيئاً، وكان أثر تعاليم الإسلام في سلوكهم وتشربها في نفوسهم أقل بكثير مما هو الحال في أفريقية الشمالية أو المغرب العربي، التي تمتد بطول ألفي (٢٠٠٠) كيلومتر ـ تقريباً ـ من خليج قابس حتى المحيط الأطلسي، وتؤلف الصحراء القسم الجنوبي منها، وهو الّذي يصلها بأفريقية المدارية؛ ويعتبر المغرب العربي ـ طبيعياً ـ منطقة التقاء بين قارتي أفريقية وأوربة عبر البحر المتوسط ومضايقه، كما تعتبر ـ بشرياً ـ منطقة التقاء بين عالم الوطن العربي وبين العالم الأفريقي.

وبداهة... فإنّ قوماً عاشوا في تلك المناطق التي تعتبر خط التماس بين العناصر العربية والبربرية، والشعوب الأفريقية والأوروبية القادمة عبر البحر المتوسط... بداهة ـ أنهم أعظم خبرة، وأعمق حضارة، وأكثر مرونة وتحملاً للمشاكل السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، وتوترات التعصب العرقي؛ فإذا انساحوا أو هاجروا إلى جهات أخرى، جاؤوا ومعهم المرونة والرحابة التي تنأى بهم عن المفهوم الضيق القائم على العرق والدم؛ فكانوا أسرع انفتاحاً، وامتزاجاً، وتجاوباً مع المستوطنين، سواء أكانوا عرباً أو ينتمون إلى أصل غير عربي، يتكلمون باللغة العربية أو إلى جانب العربية يتكلمون بلغة أخرى خاصة بهم.

هؤلاء هم الفلاتة، ومدى قوة الدم العربي في كيانهم، ومدى عمق الإسلام في نفوسهم؛ سواء أكانوا جنساً مستقلاً قائماً بذاته، كالعرب، والطوارق، والبربر، والمورتان، والزنوج، والهدندوة، أو جنساً مختلطاً بين

= وستين رأساً من الرقيق، وأن يسمح للمسلمين باجتياز بلاد النوبة غير مقيمين.. ويحافظ النوبيون على المسجد الّذي بناه المسلمون في دنقلا؛ وهذا ما عرف بمعاهدة «البقط» بين الدولة الإسلامية في مصر ومملكة المقرة في سنة ٦٥٢؛ راجع مكي شبيكة: «مختصر تاريخ السودان» ص ٧ ـ ٨.

(١) د. عوف شريف قاسم، الاستقلال.

مجموعة العرب، والبربر المتأثرين باليهود، والزنوج، وغيرهم.. كالنوبة والقبائل المتولدة التي تولدت من اختلاطها بالقبائل ذات الأصول المستقلة، وهذا الاختلاط كثير جداً في السودان، ولا سيما بين العرب والسود[1].

* * *

الفلاتة قبيلة قائمة بذاتها غير البرنو والهوسا[2]:

نشرت جريدة دارفور الجديدة ـ في عددها الصادر بتاريخ ٣/٤/١٩٩٣م ـ مقالاً بعنوان: (الخطأ الشائع عن الفلاتة) للأستاذ عيسى عبد الله آدم المحامي.

كما نشرت ـ أيضاً ـ في عددها اللاحق تعقيباً على الموضوع ذاته بقلم عبد العزيز محمد موسى.

وتعقيباً على ما ورد ذكره، نود أن نؤكد هنا أن هذه لم تكن المرة الأولى التي يثار فيها هذا الموضوع، سواء في الصحف أو غيرها؛ فقد سبق أن أُثير عدة مرات جاء بينها مقال الأستاذ علي مؤمن الذي نشرته صحيفة السودان الحديث، في عددها الصادر يوم الأحد ٩٢/٩/١٣، تحت عنوان: (الفلاتي ما بين السودان الغربي وسودان وادي النيل) وواضح أن الغرض من إثارة هذا الموضوع وبهذه الصورة هو تصحيح الفهم الخاطىء عن الفلاتة، وإزالة اللبس الَّذي صاحب هذا الفهم، والخلط الَّذي اقترن في ذهن الناس باسم الفلاتة، سواء لدى العامة أو المثقفين.

---

(١) نعوم شقير ص ٤٦.

(٢) هذا التعقيب للأستاذ سليمان يحيى محمد، طالب دكتوراه بمعهد الدراسات الأفرو آسيوية، نقلاً من جريدة دارفور الجديدة، السبت ٢ ذي القعدة ١٤١٣هـ، الموافق ٢٤ أبريل ١٩٩٣م، أثبتناه هنا إعجاباً وتقديراً باعتباره تعقيباً متميزاً، لما فيه من العمق والجدية ودقة التوثيق.

وفي هذا السياق نجد أنه بينما قدم الأستاذ علي مؤمن معلومات قيمة تتعلق بالتاريخ الجهادي للفلاتة داخل وخارج السودان ـ وإن أغفل كثيراً مما كان يمكن ذكره ـ استطاع الأستاذ عيسى عبد الله آدم أن يُعرِّف لنا الفلاتا تعريفاً واضحاً محدداً، تأكيداً للحقيقة التي لا مراء فيها؛ وهي أن كلمة فلاتا تعني قبيلة الفلاني دون غيرهم، وإن الفلاتا بهذا التخصيص لا تعني بأي حال من الأحوال قبائل الهوسا والبرنو، وغيرهم. . كما زعم عبد العزيز موسى، وما أورد ذكره من أقوال مؤرخين محليين، وذلك لأن الفلاتا، والهوسا، والبرنو تشكل كل واحدة منها قبيلة قائمة بذاتها؛ بل ليس هنالك أدنى صلة تجمع بينها في أصولها الشرقية التي انحدرت منها؛ وهذه حقيقة واضحة ومعروفة سواء لدى أبناء هذه القبائل، أو لدى المؤرخين النابهين والدارسين الأذكياء لتاريخ الممالك الأفريقية؛ ونحن نسأل: من منا لا يعلم أو يسمع أو حتى يقرأ عن بلاد الهوسا في نيجيريا؟ وممالك البرنو في وداي؟ وامبراطورية الفلاني الإسلامية في غرب وشمال أفريقيا؟.

إن الشيء الذي يجب تأكيده، هو أن هذه القبائل الثلاث قامت بأدوار عظيمة في منطقة غرب أفريقيا، ونشأت بينها علاقات قوية ومتينة صاغتها جملة أحداث تاريخية هامة عاشوها في القارة الأفريقية، بل ما يزالون يحتفظون بتلك العلاقات حتى يومنا هذا؛ ولمعرفة جذور وأصول هذه القبائل وتاريخها، وما يربط بينها من روابط أزلية متينة، يمكن الرجوع إلى كتاب: (The Northern Tribes of Nigeria) (C. K. Neek) أما في السودان فإن لكل قبيلة من هذه القبائل تاريخها الخاص بها، وسنن حياتها، ووجودها الاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي، والثقافي المميز؛ كما أوضح الأستاذ علي مؤمن بالقدر الَّذي يجعل كلاً منها تعيش مستقلة باسمها، بل تعتز به خاصة في غرب السودان؛ ولمعرفة هذه الحقيقة يمكننا الإطلاع على كتاب: (State and Society in Dar fur)؛ وكلمة فلاتا أطلقها شعب الكانوري على قبيلة الفلاني دون غيرهم كما ورد في كتاب:

(The fu - Lani Empire of Sokoto) H. A. S.

الشيء الَّذي لا يدع مجالاً ولا يعطي سبباً يفرض اسم قبيلة بعينها على أخرى، اللهم إلاَّ إذا كان وراء ذلك بعض المقاصد الخافية علينا؛ هذا من جانب، أما من الجانب الآخر.. فإن تعريف الأستاذين علي مؤمن وعيسى عبد الله للفلاتا بأنها قبيلة عربية من قبائل العرب البقارة، وأن لها داراً معروفة باسمها في جنوب دارفور، وأنها منتشرة في بقاع السودان الأخرى؛ فهذا واقع وتلك حقيقة لا تحتاج منا إلى مغالطة، إذ أن الفلاتا معروف أنهم من رعاة البقر الأصليين في أفريقيا، مثلهم مثل الدينكا والماساي - عبد الغفار محمد أحمد (Some Aspects of pastoral Nomadism in the Sudan)؛ وفي تعريف كلمة بقارة يمكن الرجوع إلى كتاب (The Baggara Arabs) وكذا لمعرفة على من تطلق: «بقارة» فإذا كانت كلمة بقارة هي رعاة البقر، فإن هذا التعريف ينطبق على الفلاتا في غرب وشمال وشرق ووسط السودان، علماً بأن هجرات الفلاتا إلى غرب السودان سبقت الهجرات الأخرى، وهذا هو السبب الَّذي مكن وجودهم في غربي السودان: (كردفان - دارفور) بصورة مؤسسة أكثر مما هو في باقي المناطق الأخرى.

وفي هذا الصدد فإننا ندعو مع الأستاذ عيسى عبد الله أجهزة الإعلام كافة، وكُتَّاب التاريخ، وموثقي التراث الشعبي، والباحثين في مختلف مجالات العلوم الإنسانية عامة، ونخص بالدعوة - كذلك - الكاتب عبد العزيز محمد موسى: (عضو إتحاد المؤرخين العرب) للتأكد من هذه الحقيقة، وإطلاع عامة الناس عليها، بدلاً من محاولة إخفائها والاجتهاد في طمسها كما نلمس في كتابته دائماً؛ ويمكن قبل هذا كله الإطلاع على خريطة مصلحة المساحة رقم ٧٤١ الصادرة في أكتوبر ١٩٤٦، والمصححة في عام ١٩٩٦م، والتي توضح دار كل قبيلة من قبائل السودان ومن بينها الفلاتا؛ وكذلك خريطة في كتاب: (Berhard Streck) باللغة الألمانية، ص

١٢٩، توضح تحركات الرعاة في السودان ومن بينهم الفلاتا في منطقة بحر العرب؛ وأيضاً خريطة بيروت - القاهرة سنة ١٨٤١، في كتاب التونسي؛ وكذلك الجدول الّذي يبين كيفية دار الفور، ووضع منازل القبائل والأعراب المحتفين بها، وتظهر المواقع الموضح عليها كالآتي: (فلان أي فلاتا) جنوب جبل مرة؛ وهناك العديد من الخرائط لدى مصلحة المراعي والعلف محدد فيها مناطق خاصة يرعى فيها الفلاتا، يشار إليها بعبارة: (Fellata grazing area) في المنطقة الواقعة بين نيالا شمالاً وبحر العرب جنوباً.

كما نرجو الإطلاع على كتاب محمد عبد الله أبو سن: (مذكرات أبو سن عن دارفور ص ٥٤ - ٦٥) الّذي يدعم كل ما جاء في مقال الأستاذ عيسى عبد الله عن الفلاتا، إذ يقول أبو سن: تسكن قبيلة الفلاتة جنوب دارفور، ويعتمدون في معيشتهم على الأبقار، وهم قبيلة في السودان منذ مئات السنين، وهم رُحّل وينقسمون إلى فرعين: هم الأكا ويتحدثون باللغة العربية، والإباء ويتحدثون بالرطانة؛ وللفلاتا إدارة خاصة في دارفور وفي جنوب جبل مرة، ولهم نظارة كاملة في دارفور، ويتمتعون بالجنسية السودانية، ولا ينظر لهم كالغرباء مطلقاً؛ وحول ارتباط هجرتهم بالعرب بالبقارة يقول: (O'Fahey Also by the 18th Century, the main Cattle owing tribes were defined namely the Taaisha. Bani Halba, Falata, Habbaniyya and Rizaygat going From West to East across Southren Dar Fur).

يؤكد فيه ما ذهب إليه الأستاذ عيسى عند تعريفه الفلاتا بأنهم إحدى مجموعات العرب البقارة، وقد أكد هذه النقطة مؤرخ كتاب:

(Mac Michael) وجود الفلاتا في تلس بجنوب دارفور كإحدى مجموعات العرب البقارة، حيث قال: إنهم كتاب.

Have been) astablished as a baggara tribe for at least 200 years,

but until recently their assimilation was uneven, on section speaking (Arabic, the other ful Fulde.

وللفلاتة ثلاث نظارات أهلية سابقة في دارفور، إحداها كانت في الفاشر بزعامة تية ولد خليل بك من زمن التركية الأولى؛ والأخرى كانت في منطقة تعرف آنذاك بالشاوابة، حالياً كتال، بزعامة: «أبو بكر أيوب» والثالثة في منطقة سعدون بجنوب دارفور بزعامة: «أبو الحميرة» وبعد مقتل السلطان علي دينار دمجت الثلاث إدارات في نظارة واحدة، فيما يعرف حالياً بدار فلاتا ورئاستها تلس؛ وهذا هو ما أشار إليه أبو سن في مذكراته عن دارفور في الصفحات: (٦٧ ـ ١٠٩) التي ورد فيها: (إن جنوب دارفور ينقسم إلى ست إدارات مختلفة، من بينها نظارة الفلاتا تحت زعامة الناظر عيسى السماني يعاونه سبعة من العمد) علماً بأن الناظر المرحوم عيسى السماني هو أخ الناظر أحمد السماني، ناظر الفلاتا حالياً، وابن الناظر السماني أبشر خلف أبو الحميرة، والَّذي نشرت صورته في كتاب: (سهم العروبة) موضحاً اسمه تحت صورة جماعية معلق عليها زعماء قبائل العرب البقارة بغرب السودان.

وفيما يتعلق باختصار اسم الفلاتا على قبيلة الفلان، فإن هناك أكثر من دليل لعل منها قول محمد التونسي في كتابه: (تشحيذ الأذهان في سيرة بلاد العرب والسودان، ص ٦٢) أورد فيه: (يعرف الفلان في السودان باسم الفلاتا، ولا يقتصر هذا الاسم على الشعبة التي تعيش في جنوب جبل مرة، بل يطلق على جماعة كبيرة منهم انتشرت في جهات السودان ولا سيما شرقه) كما يقول ـ أيضاً ـ في حديث له عن قضية مالك الفوطاوي ابن الإمام علي الفوطاوي: (هو من فوته فوتاجالون، إحدى حلل قبيلة تسمى الفلان، وأهل دارفور يسمونها الفلاتة وفلاتا بالألف؛ في الآخر أصح) وحول انتمائهم للعرب يقول: (الفقيه مالك المذكور أعظم الوزراء من أولاد العرب).

وحول تاريخ دخول الفلاتا للسودان، فخلافاً لرأي الأستاذ علي مؤمن الَّذي أرخ له بدولة الفنج، فإن أولى هجراتهم قد سبقت ذلك بكثير، إذ إنها بدأت منذ مملكة الداجو: (القرن ١٢م ـ ١٤م) وهي تعد من أول الهجرات العربية التي تدفقت إلى السودان عن طريق البوابة الغربية، وتبعتها هجرات لاحقة خاصة عند ظهور الحركة المهدية: (١٨٨٢م) وسقوط امبراطورية سكتو: (١٩٠٣م) الشيء الَّذي يتأكد معه أن هجرة الفلاتا للسودان لم تكن فردية أو بغرض الحج فقط، كما زعم كثيرون ممن تناولوا هذه القضية؛ كما أن هجرة الفلاتا للسودان لم تكن بالصورة الفوضوية كما يذكر كثيراً، بل جاءت مؤسسة وجماعية في أغلب الأحيان؛ وهذا ما تطرق له التونسي عندما أوضح أن غالبية الفلاتا هاجرت إلى السودان منذ زمن بعيد، وأن أكبر هجرة لهم كانت زمن السلطان أحمد بكر في أواخر القرن السابع عشر الميلادي، مع تركيزه على أنهم يتكلمون اللغة العربية، ويعيشون على نسق الحياة الَّذي اعتادوها في غرب أفريقيا.

وقد أشار الأستاذ محمد عبد الرحيم إلى بعض مناطقهم في غرب السودان وشرقه، في المحاضرة التي ألقاها في القاهرة بتاريخ ٢١/٢/١٩٣٥، بعنوان: (العروبة في السودان) جاء فيها: (فلاتة بادية بقارة وحضر؛ فالبادية تقيم في بلدة سعدون في الطريق بين نيالا وبرام بدرافور وفي الرهد، أما الحضر منهم فينتشرون في كثير من البلاد، ويوجد منهم بالفاشر في دارفور، والأبيض بكردفان، وفي جبال الكجاجة برشاد، وحلة أم جبو ببارا ويامدرمان، وحلة مايرنو، وحلة طلحة في سنار، والقضارف، وطوكر وغيرها) ثم يؤكد انتماءهم إلى العرب بقوله: (فإن قال قائل إن الفلاتا ليسوا من العرب كما يتوهم بعضهم، فنقول له: إنهم من خلاصة العرب، وأنهم يرجعون في نسبتهم إلى عقبة بن نافع الصحابي الجليل المشهور؛ أما والدتهم فمن البربر الَّذين هم من الفرس، وأنهم ينقسمون

إلى فرعين: إيكا وإيبا ويتكلمون العربية، والإيبا هم الَّذين يتكلمون العجمية، ويقال أصلهم من كنانة هاجروا إلى مصر ومنها إلى تونس، ثم ساروا إلى ملي ومنها إلى سكتو أخضعوا سكانه، ثم إلى كانو وساكنوا الزنج ادماوه؛ ففسدت لغتهم ثم ذهبت بعد أن أكثروا التسري بالزنجيات وتناسلوا منهم، حتى كثر فيهم الجنس الخلاسي وتلاشت منهم سمات العرب) يطابق هذا القول ما جاء في كتاب: (سهم العروبة ـ حول التاريخ وقبائل العرب في السودان، ص ١٧) لكاتبه عثمان حمد الله؛ وهو عبارة عن قصيدة طويلة استطرد فيها في مناقب وأصول ومقاطن عرب السودان، وخص الفلاتا بأطول مقطع في القصيدة؛ ويقول في بعض أبياتها في مكان آخر:

أعلم أن لغة عرب السودانِ

عربية عدا ما نذكره بالداني

سبعة وفي لغتها عجمية اختلاطِ

سبعة وفي لغتها عجمية اختلاطِ

لسكونها بالجيرة والشواطيء

دناقلة ومحس وحلنقا كالنوراب

أم أرأر وفلاتة والفنج بن الباب

فكل قبيلة حرفت لغة الأجداد

أسبابها العشرة والجوار والأمداد

فالطفل إن شب على البيئات

قد يخالط العادات واللغات

وفي ذلك تعليل واضح لأسباب فقدان بعض الفلاتا للغتهم العربية وتحدثهم بالرطانة؛ وقد أكد هذه الحقيقة بارث كما جاء في: (Barth Travels in Nigeria) إذ جاء على حد قوله: (إن أكثر النظريات قبولاً هي

القائلة بأن الفلاني يرجعون في أصلهم إلى أواسط شرق وشمال أفريقيا، وشقوا طريقهم داخل القارة حتى استقروا في إقليم سينيقامبيا، واستقر بعضهم هناك منذ زمن بعيد، مما جعلهم يكتسبون لغتهم الحالية) ويدعم هذا القول ـ أيضاً ـ ما أورده الشريف المرتضي الزبيدي في كتابه: (تاج العروس في باب النون) إن فلاتاً تعني ناحية متسعة في المغرب وهم الفلان، وبنو فلان بطن من العرب.

نلخص مما سبق ذكره أن الفلاتا هم الفلاني دون غيرهم، والفلاتا قبيلة عربية تعيش ضمن قبائل العرب البقارة بجنوب دارفور، وتنتشر مجموعات كبيرة منها في بقاع السودان الأخرى؛ وإن هجرة الفلاتا للسودان تبدأ بهجرتهم إلى دارفور وكردفان منذ سلطنة الداجو، وإن هجرتهم جاءت أما في صورة علماء وأسرهم بدعوة من سلاطين وملوك دارفور وكردفان، وملّكوهم الحواكير، والخلاوي والمراكز الدينية؛ أو في شكل مجموعات رعوية ضمن الرعاة الّذين قدموا من غرب ووسط أفريقيا؛ أو كمجاهدين في صفوف المهدية وثائرين ضد الاستعمار البريطاني.

* * *

الفلاتة وقبائل الفور:

هذا هو واقع الفلاتة وما قاله الباحثون وسجله التاريخ. . .

فما موقف الفور منهم والقبائل الأخرى بداخل ولايات دارفور. . .؟.

بالأمس القريب في مؤتمر أبناء البرتي ـ المنعقد في الفترة من ١٧ يوليو ١٩٩٥م حتى ٢٠ يوليو ١٩٩٥، بمدينة مليط ـ استمعنا للإشادة بالفلاتة تعميماً وتخصيصاً. . تعميماً في كلمة السيد آدم علي جارا؛ وقد جاء المؤتمر لوحة تأريخية. . . وقد حمل اسمه فقط كلمة: «برتي» ولكن ـ للحقيقة والتأريخ ـ كان مؤتمر قبائل مليط، فالزغاوة، والدناقلة، والفلاتة

والكنوز، والبني عامر، والفور، والميدوب؛ وقد أسهموا ـ جميعاً ـ بالمال، والرأي، والوجود الدائم في ميدان العمل والعطاء، وتألفت منهم لجان المؤتمر[١].

وتخصيصاً.. فقد ذكر الأستاذ التيجاني سراج الحاج أحمد في ورقة التأريخ والتراث لقبيلة البرتي ما نصه: (كان الناس يجولون في هذا المكان من أهل الغرب.. فمن تونس جاؤوا عبر الصحراء وذهبوا إلى مملكة تكرور، وإلى مملكة برنو، وإلى مالي وسنغال؛ بعدها رجعوا إلى هنا؛ والَّذين عادوا إلى هنا اختلطوا مع قبائل الفور، والتنجور، والبرتي، والفلاتة؛ وكانوا هم العلماء ونشروا العلم)[٢].

هذا ما قاله البرتي أو قبائل دارفور.. فماذا قال (الفور)..؟

إليك هذا المستند الوثائقي، والتأريخي، والرسمي بعنوان: (هوية الفلاتة بولاية دارفور)[٣].

هوية الفلاتة بولاية دارفور:

دخل الإسلام دارفور منذ زمن بعيد ـ أي منذ سلطنة الداجو وسلطنة التنجر ـ وازدهر في عصر سلطنة الفور الكيرا ١٤٤٥م ـ ١٨٧٥م؛ فالسلطان سليمان صلونق ـ مؤسس دولة الكيرا ـ اهتم ببناء المساجد وتعمير الخلاوي بجبل مرة؛ وكذلك واصل السلف؛ فالسلطان أحمد بكر ـ الَّذي حكم دارفور في الفترة (١٧٢٦ ـ ١٧٤٦م) ـ اشتهر ـ أيضاً ـ ببناء المساجد

---

(١) ماذا عن مؤتمر البرتي، ص ٤.

(٢) ماذا عن مؤتمر أبناء البرتي، ص ٦٣.

(٣) المقال لسعادة العقيد أحمد عبد القادر أرباب، نائب حاكم دارفور والحاكم المكلف ـ سابقاً ـ وهو من قادة أبناء الفور ـ انظر: جريدة دارفور الجديدة، السبت ٢٤ ذو القعدة ١٤١٣ هـ، الموافق ١٥ مايو ١٩٩٣م، صفحة رقم ٤.

وإعداد الخلاوي بالمدن والقرى، وشجع هجرة علماء الدين الإسلامي للعمل بدارفور، فأرسل المندوبين للدول الإسلامية المجاورة وغيرها..، خاصة غرب أفريقيا، وشمال أفريقيا، والحجاز، والسودان؛ فوفد لدارفور نفر كريم من العلماء، بناءً على دعوة القائمين على أمر البلاد في ذلك العهد.

فحضروا من تمبكتو، ومن سلطنة برنو، ودار شنقيط، والمغرب العربي، وسلطنة باقرمي، ومصر، وتونس، وفزان، والحجاز، والسودان؛ وقد دخلوا دارفور في فترات متعاقبة واستقروا في البلاد لأداء مهمتهم الجليلة؛ فوجدوا من السلاطين والرعية الاحترام.. والتقدير.. والتكريم؛ ومنحوا الحواكير، والمال الوفير، والخدم لراحتهم.. اعترافاً برسالتهم المقدسة؛ فاستقروا بدارفور ونشطت مدارسهم وظهر نتاج عملهم في فترة وجيزة، وازدهر العلم وقوي الإسلام؛ وهناك بعض السلاطين اهتموا بأمر تعليم علوم الدين الإسلامي.

الفلاتة في دارفور:

كان من بين العلماء الوافدين لدارفور علماء من قبيلة الفولاني، جاؤوا من غرب أفريقيا من فوتا جالون في القرن الثامن عشر، ثم لحقت بهم أعداد أخرى من البدو، أتوا بماشيتهم واستقروا في الجزء الجنوبي الغربي لجبل مرة، حيث جودة المرعى، حيث الماء الوفير والطقس الجميل؛ ثم تنقلت هذه المجموعة في ربوع دارفور كما سنرى.

العلماء الذين دخلوا درافور من غرب أفريقيا نذكر منهم: العالم مالك الفوتاوي حفيد العالم عثمان دان فوديو، والعالم التمرو الفولاني من شمال غرب أفريقيا، وأبو سلامي؛ والفقيه سراج؛ كان لهؤلاء العلماء دور كبير قاموا به في نشر الثقافة الإسلامية بدارفور، فلهم الفضل في تعليم مذهب

الإمام مالك، والكتابة به بخط ورش في الخلاوي بدل الخط العمري، وأيضاً قراءة الحزب وزخرفة الشرافة، والاحتفال بختمة القرآن بالنسبة لحفظة القرآن؛ كل هذه الكيفيات جاءت لدارفور من المغرب وغرب أفريقيا على أيدي هؤلاء العلماء.

الفلاتة ولقب البكاوية:

في عهد التركية والَّذي دام سبع سنوات فقط بدارفور، أنعم على زعماء الفلاتة المذكورين بعد لقب بيك، وأسندت لهم مهام إدارية وهم:

١ ـ جار النبي بيك:

وقد أسندت له إدارة منطقة سعدون، وجداد، وشرقاً إلى ماينق دار البرقد ودارا.

٢ ـ تيه خليل بيك:

كان مسؤولاً في منطقة البقارة غرباً، لكنه وجد صعوبة في التعامل مع قبائل تلك المنطقة، خاصة قبيلة بني هلبا، فحصلت له مشاكل كثيرة معهم.

٣ ـ عباس بيك: كان مسؤولاً عن منطقة: «لي» بشمال دارفور.

٤ ـ جلال الدين بيك: في منطقة الفلاتة جنوب دارفور.

مصاهرة الفلاتة لزعماء الفور:

الشيخ محمد إبراهيم عيش عاصر السلطان محمد الفضل: (١٨٠١ ـ ١٨٣٩) وكان من الشخصيات الهامة لدى مجلس السلطان ومن الأعيان المقربين، فأكرمه السلطان محمد الفضل وزوجه ابنته الميرم: «أما» لتوطيد العلاقة بينهما ـ وهذا شأن السلاطين وتعاملهم مع الرعية المقربين ـ فولدت «أما» ابناً لمحمد إبراهيم عيش، أطلق عليه اسم: إدريس الشنه؛ وقد صار

إدريس وزيراً في عهد خاله السلطان محمد الحسين: (١٨٣٩ ـ ١٨٧٤) وكان إدريس صديقاً حميماً للوزير أحمد شطه الفوراوي، الّذي قتله الزبير باشا في معركة شكا.

ونجد ـ أيضاً ـ أن جلال الدين محمد إبراهيم عيش تزوج بنت السلطان محمد الحسين، وأنجب منها بنتاً أسماها الميرم مهدية؛ ومحمد إبراهيم عيش الّذي صاهر السلطان محمد الفضل له تسعة أولاد.

عندما اضطربت الأمور بشمال دارفور، رحل محمد إبراهيم عيش، بكامل أسرته إلى جنوب دارفور واستقر بهم في قرية سعدون، التي أصبحت ـ فيما بعد ـ عاصمة الفلاتة أولاد عيش؛ ولكن بعض أهله فضلوا الرحيل إلى منطقة دجاج التي تقع غرب سعدون، وانضم لهم عدد آخر من بقية الفلاتة، واحترفوا الزراعة في تلك البلاد التي اشتهرت بخصوبة أراضيها.

أما الفلاتة بشمال دارفور، فانتشروا في منطقة أبو حمرة شرق الملم، وحوالي جبال عفارة، وتقالو، ومقالو، وشداد، وجاعور جنوب جبل حريز؛ أما أسرة الإمام مالك الفوتاوي، فاستقرت بالفاشر، وكريو، وقرية بركة غرب الفاشر، والشرفة، وكتال، وخزان جديد رأس الفيل، ومسره جنوب بروش؛ وكريو تعتبر حاضرة الفلاتة منذ القدم وكانت منارة للعلم، تعلم فيها الفلاتة وأحفادهم[1].

أما حاضرة الفلاتة اليوم فهي مدينة: «تلس» بجنوب دارفور، حيث نجد نظارة عموم الفلاتة بزعامة الناظر أحمد السماني البشير، يساعده عمد الفلاتة المنتشرون في ربوع دار الفلاتة بريفي تلس.

---

(١) ولا تزال مدرسة الشيخ التيجاني عبد الماجد إبراهيم بالفاشر [ولاية شمال دارفور] تُعَدُّ امتداداً لدور أسرة الإمام مالك الفوتاوي.

وبلاد الفلاتة تحدها من الشرق دار الهبانية ودار مسالات، ومن الشمال الشرقي بدار المراريت، ومن الغرب بدار التعايشة، ومن الشمال تحد بدار القمر وبني هلبا، ومن الجنوب بجار أبو درق الّذين ينضمون لمحافظة ووادي أبرة، يخترقها ويصب في بحر العرب.

يطلق على قبيلة الفلاتة بجنوب دارفور: الفلاتة العروبية، وهم بقارة يتواجدون في وسط منطقة البقارة، ويرتحلون بماشيتهم إلى الشمال في الصيف، فيصلون الملم مارين بمرزوقة الشديدة، ويارا، ومرشينق، إلى أن يصلوا منحدرات جبل مرة، ثم يعرجون في وادي داوس، وخروع، وكاس، ومموارية جنفى، ووادي بلبل؛ وفي الصيف يتحركون جنوباً صوب بحر العرب لمناطق العمود الأخضر، وسنقو، وحفرة النحاس، وشاويش مهدي، وقوزدنقو، والردوم، والفيفي؛ وأحياناً يعرجون لقوز ساسلفو، والتردة ومندوة، ووادي الخضيرة في الحدود مع أفريقيا الوسطى بحثاً عن المرعى والماء.

لقبائل الفلاتة ثروة حيوانية ضخمة، تتمثل في الأبقار والضأن، ساعدت في التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وقد تميزوا بتربية نوع معين من الأبقار وهي الأبقار التي لونها أبيض، مع العلم أن الرزيقات يحبون الأبقار التي لونها أحمر، ولهم أشعار جميلة في وصف هذه الأبقار ولونها المتميز.

وقد اشتهر الفلاتة ـ أيضاً بتربية الخيول الأصيلة منذ القدم، ويعرف عنهم أنهم يحتفظون بإناث الخيل ولا يبيعونها أبداً؛ وقد اشتهرت خيولهم في السباقات التي تقام من وقت لآخر بدارفور وخارجها، وقد أحرزت جوائز كثيرة.

وللفلاتة تراثهم الخاص وتقاليدهم وعاداتهم، وقد حافظوا عليها، فنجدهم لا يتزوجون من القبائل الأخرى كقبيلة: (الشنابلة) ولا يزوجون

بناتهم لغير الفلاتة إلاّ ما ندر؛ لكن هناك قبائل اندمجت معهم كفروع قبائل، فنجد فيهم التعايشة ـ وأيضاً ـ الجعافرة، وهم في الأصل عرب انصهروا وسط الفلاتة ويطلق عليهم اليوم: فلاتة.

قبائل الفلاتة الرئيسية بجنوب دارفور:

- إيكا: يتفرع منها الآتي: ـ ولغتهم اللغة العربية فقط ـ

١ ـ أم عثمانة.

٢ ـ جوبا.

٣ ـ فطومة.

٤ ـ أولاد يحيى.

٥ ـ حجاج.

٦ ـ نقرة.

٧ ـ كيسو.

٨ ـ أولاد الشيخ.

٩ ـ أولاد عيش.

١٠ ـ جعافرة أولاد همام.

- إيبا: يتفرع منها الآتي:

١ ـ لوى.

٢ ـ كانمو.

٣ ـ إبائن.

٤ ـ أسوجي.

٥ ـ واره.

٦ ـ قلة هليجي.

٧ ـ برورة.

هذه الفروع تتحدث بلغة الفلاني ويطلق عليها الفلاتة الرطانة، وهي مستقرة بدار فلاتة بجنوب دارفور، وهم بقارة هويتهم الاعتماد على تربية الماشية، ويحبون الترحال كأهلهم البقارة، إذ نجدهم متجولين على مدار السنة وسلاحهم الشخصي (النشاب) لحماية أنفسهم وماشيتهم، و ـ أيضاً ـ يستعملونه للصيد؛ وهذه المجموعة يطغى عليها المجتمع الرعوي المتنقل من بادية لأخرى.

منطقة الفلاتة الحالية قبل أن يستقر بها الفلاتة كانت معروفة بدار: (سواوموا) وهم قبيلة من الفور استوطنوا بها منذ القدم.

نزح الفلاتة من أرضهم التي كانت في منحدرات جنوب غرب جبل مرة، فوصلوا أرض التبب ثم تحركوا واستوطنوا في أرضهم الحالية؛ فنزح الفور: (سوا وموا) إلى بلاد أخرى، فمنهم من نزح إلى دار الهبانيا وأصبح من الهبّانيا، وأخرون دخلوا مع المراريت وأصبحوا مراريت، والجزء الأكبر ذهب لأهلهم الفور في منطقة الصافية أم قد بالجامع أبو عجورة، تحت زعامة العمدة بخيت يوسف كايمبي، أمد الله في عمره.

عمودية الفلاتة بجنوب دارفور:

١ ـ العمدة مرجى داوود: ـ مقره قرية رجاج.

٢ ـ العمدة عبد الجبار صالح كبس: ـ مقره قرية سرقيلة.

٣ ـ العمدة موسى محمد: ـ أبو صباح: ـ مقره قرية الرونقه.

٤ ـ العمدة يعقوب آدم: ـ مقره مسلى.

٥ ـ العمدة إسحاق أبكر: ـ مقره سعدون.

٦ ـ العمدة مصطفى آدم: ـ مقره سعدون.

٧ ـ العمدة مرجان: ـ مقره جداد.

أرجو أن أوضح بأن القبائل المذكورة أدناه ليست لها أية علاقة قبليّة مع قبيلة الفلاتة التي ورد ذكرها، بل هي قبائل قائمة بذاتها، لها كياناتها وخصائصها، لكن ربما ضم بعضها الوطن فقط؛ وإن شاء الله سنورد لكل منها بحثاً كاملاً للعلم والمعرفة وهم:

١ ـ الهوسا.

٢ ـ البرنو.

٣ ـ البلالة.

٤ ـ الكتاكو.

٥ ـ الباقرمي.

٦ ـ كانمبو.

٧ ـ رونقه.

خلاصة هذا البحث: إن لقبيلة الفلاتة وجوداً بدارفور منذ أن كانت دارفور دولة مستقلة: (١٤٤٥ ـ ١٨٧٥م) وهم سكان دارفور في الماضي والحاضر.

الفصل الخامس:

الفلاتة والثورات

أ ـ الفلاتة والثورة المهدية:

عندما قامت الثورة المهدية لم يلب الدعوة من: «البيهوات» الأربعة إلاّ جار النبي محمد إبراهيم، الّذي كانت له سابق معرفة وصداقة مع عبد الله تورشين قبل قيام المهدية، وجار النبي هذا قبل قيام المهدية، ذهب لجبل الكبيش بدار الهبانيا، حيث يوجد به كجور الفرتيت يملك نحاساً كبيراً يضرب في المناسبات، فهجم جار النبي على الكجور وقتله وأخذ نحاسه، وأسر ابنته التي تسمى: حبسة وتزوجها وولد منها ولداً؛ وكان في صحبة جار النبي في هذه الحملة صديقه أبكر ناقة سلطان البيقو آنذاك.

ذهب جار النبي للرهد أبو دكنة وقابل الإمام المهدي وبايعه، واشترك مع الأنصار في واقعة شيكان والأبيض، واستأذن الإمام ورجع لدارفور، لأنه علم أن شخصاً يدعى: (ساتي حمد) مر بالبلد وأخذ نحاسه، فبحث جلال الدين عن ساتي فوجده وقتله وأخذ منه النحاس ورجع لبلده.

بعد وفاة الإمام المهدي أرسل خليفة المهدي لجار النبي بأن يعود فوراً لمواصلة الجهاد ولنيل: (الشهادة) فقدم جار النبي لأم درمان واشترك في موقعة كررى، واستشهد في أم دبيكرات مع خليفة المهدي؛ فقام بشارة سيد الدور الّذي برفقته، فأخذ عائلة عمه جار النبي ورجع بها للفاشر، ثم غادرها لسعدون واستقر بها هناك.

بعد موقعة كررى التي انهزم فيها جيش المهدية، عاد علي دينار وبصحبته زعماء قبائل دارفور إلى الفاشر، وقد سبق أن عينه الزعماء ـ في الطريق ـ سلطاناً على عموم دارفور، وهو بدوره عيّن زعماء القبائل وسلمهم

فورمات تعيينهم، وطلب منهم أن يعينوه في إدارة حكم السلطنة كل في موقعه، أن يتعاونوا معه لتقدم ورفاهية البلاد؛ فكان من ضمن الزعماء الَّذين عينهم السلطان: علي بشارة سيد الدور، ناظراً للفلاتة يساعده أحمد حامد أبو الحميرة نائباً للنظارة، وعين أبكر قيقر ناظراً لفلاتة إيبا على أن يبقى بالفاشر؛ هذه هي بداية نظارة الفلاتة في عهد السلطان علي دينار الَّذي عاد لدارفور استقلالها عن السودان: (١٨٨٩ - ١٩١٦م).

بعد أن استقرت الأوضاع بدارفور، ظهرت إشاعة بأن الوزير آدم رجال سيقوم بحركة ضد السلطان علي دينار، ويسانده في هذه الحركة بعض زعماء العشائر، ومن ضمنهم ورد اسم بشارة سيد الدور ناظر الفلاتة؛ فأمر علي دينار باعتقال الوزير آدم رجال، وبعد التحقيق زج به في سجن الفاشر؛ وأحضر ناظر الفلاتة بشارة سيد الدور وخلع منه النظارة وأدخله السجن أيضاً، وعيّن نائبه أحمد حامد أبو الحميرة ناظراً للفلاتة؛ بقي بشارة سيد الدور بالسجن إلى أن أفرج عنه الإنجليز سنة ١٩١٦ بعد فتح دارفور، اهتم الإنجليز بأمر بشارة سيد الدور، فعينوه عمدة في سعدون تحت نظارة نائبه السابق أبو الحميرة.

ب ـ الفلاتة وثورة السحيني ١٩٢١:

عندما قامت ثورة السحيني بجنوب دارفور، كان أحمد أبو الحميرة ناظراً للفلاتة، واشترك جزء من أهله الفلاتة في هذه الثورة، نذكر منهم: الشهيد أندوحه الَّذي اعدم شنقاً مع رفاقه أمام مركز نيالا الحالي؛ وهناك مقبرة بِجوار أشغال نيالا تضم رفات الإنجليز والموظفين الَّذين قتلهم أنصار الشهيد السحيني، والسحيني نفسه قُتل وأُحرق بالنار أحرقه الإنجليز.

بعد عشر سنوات من قيام ثورة السحيني، خلع الإنجليز الناظر أبو الحميرة في سنة ١٩٣١م، وعين بدلاً عنه الفكي السماني أبشر، ناظراً

لعموم قبائل الفلاتة بدارفور؛ وقد توفي الناظر السماني سنة ١٩٤٤ بنيالا مسموماً، فخلفه ابنه المرحوم الناظر عيسى السماني أبشر، ثم الناظر الحالي أحمد السماني أبشر، وهو من أم عثمان، أمد الله في عمره.

أحمد حامد أبو الحميرة: ـ من أولاد جوبا.

بشارة سيد الدور: ـ من أولاد عيش.

تيه خليل بيك: ـ من أولاد الشيخ.

العمدة مرجان: ـ من أولاد نقرة.

العمدة أبو القامس عبد الجبار: من أولاد يحيى.

العمدة داوود إسماعيل: من أولاد جيبا.

الباب الثالث

الفلاتة ودورهم

في تشكيل الهويات

الفصل الأول ـ دور الفلاتة في تشكيل هوية سودان القارة

الفصل الثاني ـ دور الفلاتة في تشكيل هوية سودان وادي النيل

الفصل الأول:

دور الفلاتة في تشكيل هوية سودان القارة

هوية سودان القارة:

لست أعني الهوية السودانية، أو الشخصية السودانية التجنس للأوطان في ضوء الضوابط القانونية والدستورية، دون مراعاة لعلاقات الجوار، واللغة، والتقاليد، والأعراف[1].

ولست أعني بالهوية السودانية التجنس بمقتضى السبق الزمني بالاستقرار في المكان، فكل الأوطان إذا حققت تجد أنها كانت في الماضي السحيق من الأيام لغير أصحابها الحاليين؛ وإن الجنس العربي في السودان لم يكن الأسبق في الاستقرار من الجنس الكوشي، والنوبي، والزنجي، والفوراوي، والبجاوي، وإنما أعني بالهوية السودانية الإلتحام التلقائي والارتباط العفوي، الَّذي نشأ نشأة ذاتية من طبيعة المجتمع بدون عقد أو توترات، وامتزجت بالنسب والمصاهرة، واصطبغت بصبغة البيئة مع التداخل والمشاركة في الأهداف والغايات، فأوجدت رباطاً ثقافياً وروحياً، ووحدة في الحس والشعور، وفي الهدف والمثل، هذه الظاهرة ما زالت موجودة في كثير من أنحاء السودان وخاصة في المناطق الحدودية، وإن اعتراها بعض التغيير بسبب الدوافع النفسية أو الحرارة الانفعالية، وأحياناً بسبب التحامل والرأي الخاطىء الَّذي يستند إلى مفاهيم نقاء الأرومة، وأصالة العروبة، وامتياز العنصر على العنصر.

---

(١) لقد نص القانون بأن السوداني هو الَّذي جاء أسلافه قبل عام ١٨٩٨؛ أو ولد بالسودان، وعُدِّل القانون إبّان نميري، وذلك عام ١٩٧٣م، ويقرأ التعديل: بأن السوداني قانوناً هو الَّذي وصل أسلافه قبل عام ١٩٢٥م، أو ولد بالسودان.

أما الهوية في ضوء الضوابط الإدارية والقانونية، ودون مراعاة لعلاقات الجوار، واللغة، والتقاليد، فقد استحقها الفلاتة كما استحقها الأرمن، والهنود، والأتراك، والأقباط، والحضارمة، والمصريون، والشوام، واليمنيون، والمكادة، واليونانيون، والأكراد، وغيرهم.. كما أن الهوية بمقتضى ـ السبق الزمني على المكان ـ فقد استحقها الفلاتة قبل عهد الفونج وبعده، فقد استوطنوا منطقة الخرطوم منذ أربعين قرناً أو يزيد، أي عام ٤٠٠٠ قبل الميلاد، مع الجنسيات الأفريقية الأخرى كما زعم. م باربر[١] واستقروا بدارفور منذ سلطنة الداجو وسلطنة التنجر[٢] وظهر وجودهم في عهد سلطنة الكيرا (الفور) سنة ١٤٤٥ ـ ١٨٧٥م، وفي عهد السلطان سليمان صولون الَّذي اهتم ببناء المساجد، وتعمير الخلاوي، ونشر العلم، وازدهر وجودهم وازداد بصورة منقطعة النظير، وخاصة في عهد السلطان أحمد بكر الَّذي حكم دارفور من فترة ١٧٢٦ ـ ١٧٤٦م[٣] إنهم استحقوا الهوية السودانية بمقتضى السبق المكاني فعلاً، كما استحقها الحضور الَّذين استوطنوا منطقة الخندق، وشندى، ومسلمية، وغيرها من مدن النيل، واشتغلوا بالتجارة، واشتهروا بالوداعة، ولين الجانب، وحب السلام[٤].

إن مثل هاتين الهويتين اللتين ارتبطتا بالسبق الزمني على المكان، وبالنظام السياسي والإداري، وإن كانت لهما الاعتبار القانوني والاجتماعي،

---

(١) سكان السودان ك. م. باربر، أستاذ الجغرافيا بجامعة لندن وبجامعة الخرطوم سابقاً من ص ١٠ ـ ١١، ترجمة هنري رياض وآخرون، دار الثقافة ـ بيروت: مكتبة النهضة السودانية.

(٢) انظر: دارفور الجديدة ـ السبت ٢٤ ذو القعدة ١٤١٣ هـ، مايو ١٩٩٣م، مقال حاكم دارفور المكلف، العقيد معاش أحمد عبد القادر أرباب.

(٣) المرجع السابق.

(٤) نعوم شقير ـ «تاريخ جغرافية السودان»، ص ٦٣.

إلاّ أن علاقتهما الحسية والوجدانية تضعف أمام الهوية التي نشأت نشأة ذاتية وعفوية، وامتزجت بالزواج والمصاهرة التلقائيين نتيجة للاختلاط الملتحم، سواء كان ذلك بسبب المجاورة أو وحدة اللغة، والاشتراك في الأهداف، أو بسبب الاحتكاك بين القبائل في المرعى والهجرات، التي تمت بصورة سلمية ولا زالت موجودة وإن اعتراها بعض التوترات في بعض الجهات، بسبب تعالي بعض الجنسيات التي آثرت الإقامة في المدن[1] واعتزازهم بنسبة الدم العربي فيهم، أو لتميزهم الطبقي تبعاً لتحسن وضعهم الاقتصادي وعلاقتهم الاجتماعية المستجدة، هذه الهوية التلقائية أو الجنسية التي نشأت نشأة ذاتية هي الهوية التي قام الفلاتة بإرساء قواعدها وتشكيل عناصرها بالنسب والمصاهرة، وبالهجرة والمجاورة، وبالتعليم والثقافة، أضف إلى ذلك اصطباغها بصبغة الإسلام والعروبة.

إن وجود هوية بهذا المعنى الانصهاري للقبليات الَّذي يربط الفرد بالمجتمع والمجتمع بالفرد، ربطاً روحياً، وحسياً، وفكرياً، يقوم على نكران الذات وعلى التضامن ومراعاة القيم الإنسانية، مثل: حق الجوار، والنجدة، والمروءة، وعدم الغدر، هي الهوية التي سادت في دول وامبراطوريات غرب أفريقيا، مثل: كانم، برنو، هوسا، صنغي، مالي، وداي، ماسينا، فوتاتور، فوتا السنغالية وفوتاجالون، وفي منطقة هنبر في أعالي نهر فولتا، ثم مملكة سكتو.

(لقد كان دعاة الفلاتة يمتزجون بالزنوج بالمصاهرة والاختلاط، ويذوبون في المجتمع الأفريقي دون قهر أو ضغط، ولذلك تقبل الجميع الإسلام وقاموا بدورهم بنشره بين مواطنيهم، ومثل ذلك فعل دعاة الماندنجو الَّذين انبثوا في جميع بلاد غرب أفريقيا)[2] ولا تزال هذه الروح

---

(١) انظر: «موجز تاريخ نيجيريا: «قاموس صغير» آدم عبد الله الألوري، ص ١٢٧، طبعة ١٩٦٢.

(٢) انظر: «دولة مالي الإسلامية»، د. علي إبراهيم طرخان، ص ٥٨.

القومية سائدةً في جميع أنحاء القارة، وقد ظهرت في السودان في عهد قيام مملكة الفونج، وتغلغلت في سلطنة دارفور، وقويت بظهور الثورة المهدية التي صاغت الشخصية السودانية، وأعطتها بعدها الديني والحضاري في أتم صورة، تمسكاً بتعاليم الإسلام، وجهاداً في سبيله، ورفعاً لرايته، منصهراً بالدم العربي وأصالته وممتزجاً بالمشاعر الأفريقية وسماحتها، هذا هو الدور الَّذي قام به الفلاتة في تشكيل الهوية السودانية التي نعنيها إبّان ظهور المهدي وفي عهد خليفته، والتي سادت في دارفور.

ليس هذا كلاماً نقوله إنشاءً، ونرسله زعماً وادعاء، ونكرره شموخاً وإطراءً. . لا، وإنما هو الواقع الَّذي أثبتته مضامين الكتابات الأجنبية، وصاغتها أقلام غربية بعيدة عن الإسلام والعرب والأفارقة كل البعد، ونقلها إلى العربية أساتذة متخصصون، ومعترف لهم في مجامع البحوث العلمية والدراسات الإنسانية.

قال السير توماس. وارنولد[١]: (ولكن تاريخ الدعوة الإسلامية في أفريقيا إبان القرن السابع عشر والثامن عشر ضئيل جداً، بل لا أهمية له إطلاقاً إذا ما قارناه بالنهضة العظيمة في نشاط الدعوة خلال القرن الحاضر، وكان مسلمو أفريقية في حاجة إلى مؤثر قوي يوقظ عزائمهم الخاملة، فقد كانت حالتهم في القرن الثامن عشر ـ فيما يظهر ـ حالة فتور ديني تقريباً، وكانت نهضتهم الروحية راجعة إلى تأثير الحركة الوهابية في أواخر القرن الثامن عشر، ومن هنا جاء ما نصادفه في الأزمان الحديثة من بعض الأخبار التي تتعلق بحركات نشر تعليم الدعوة بين الزنوج، تلك الأخبار التي لم تبلغ من التفاهة والضآلة ما بلغته الأخبار التي سردناها من قبل، ولكنها

---

(١) «الدعوة إلى الإسلام» بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية، ترجمة حسن إبراهيم حسن، والدكتور عبد المجيد عابدين، والدكتور إسماعيل النحراوي، مطبعة النهضة المصرية ١٩٧٠، ط ٣، ص ٣٦٠ ـ ٣٦٢.

تمدنا بتفصيلات شافية عن ظهور عدة أعمال هامة في الدعوة وتقدمها).

دنفديو[١]: وحول نهاية القرن الثامن عشر، ظهر من بين جماعة الفلاني[٢] رجل معروف يدعى الشيخ عثمان دنفديو[٣] عرف بأنه مصلح ديني وداعية محارب؛ وقد ذهب من السودان إلى مكة لأداء فريضة الحج[٤] فعاد من هناك مليئاً بالحماسة والغيرة من أجل الإصلاح والدعوة الإسلامية، وتأثر بمبادىء الوهابيين، الَّذين كانت قوتهم آخذة في النماء في الوقت الَّذي زار فيه مكة، فأنكر الصلاة على روح الميت وتعظيم من مات من الأولياء، واستنكر المبالغة في تمجيد محمد نفسه، وهاجم - في نفس الوقت - رذيلتين كانتا منتشرتين في السودان، وهما: شرب الخمر، وفساد الخلق.

وحتى ذلك الوقت كانت جماعة الفلاني تتألف من عدة قبائل صغيرة متناثرة، تحيا حياة رعوية، وقد دانت هذه الجماعة بالإسلام في وقت

---

(١) دان معناها الابن وفوديو أو فودي معناه الفقيه، انظر: ضبط الملتقطات للوزير جنيد مخطوط ص ١٢، وتكتب دانفودي ودانفوديو ودنفديو حسب المراجع المختلفة.

(٢) الفلبي مفردها «بول» اسم أطلقه هذا الشعب على نفسه، ويطلق عليهم جيرانهم أسماء مختلفة تربو على المائة، أشهرها: فلا وفلاني Meyer, p. 28.

(٣) Oppel, p. 292. MEYER, PP36 - 7 WESTERMAN, PP 621 - 30.

(٤) البحوث التأريخية تؤكد أنه لم يذهب إلى مكة ولم يحج، وقد أثر بهذا الرأي الكثيرون من رجال التأريخ الإسلامي ج ٦/٢٢٦؛ والواقع كما يقول الدكتور عبد الرحمٰن بارود - أستاذ الحضارة الإسلامية في جامعة الملك عبد العزيز - إنه لم يحج، وقد أكد لي عالم جليل من علماء نيجيريا هو الشيخ محمد المتقي، وقد ناقش النص الَّذي أورده الدكتور أحمد شلبي نقلاً من كتاب: «الورقات» تأليف عبد الله بن فودي، فيقول: إني حصلت على هذا الكتاب وقرأته مراراً وتكراراً، فلم أجد مطلقاً فيه أي نص يبين أن: عثمان دانفودي ذهب إلى الحجاز. الكتاب فيه قصيدة لعثمان يعبر فيها عن شوقه إلى المدينة المنورة، وهذا شيء آخر، ثم يقول إن عثمان دان فودي وجماعته صوفيون قادريون أتباع الشيخ الجيلاني انظر: نص الدراسة في الملحق رقم (٧).

مبكر، وكانت لا تزال حتى ذلك الحين قانعة بتأليف مستعمرات من الرعاة والمزارع في مختلف بقاع السودان؛ وإن ما لدينا من أخبارهم في مستهل القرن الثامن عشر، ليصورهم لنا في صورة إناس مسالمين، نشيطين في أعمالهم، ويتحدث عنهم أحد الَّذين زاروا[١] موطنهم على نهر الجمبيا سنة ١٧٣١، فيقول: (في كل دولة أو بلد على كل من جانبي النهر توجد جماعة ذات بشرة سمراء، يدعون الفولز: (أي الفلاني) وهم يشبهون العرب ومعظمهم يتكلم العربية، لأنهم يتعلمونها في مدارسهم، ولأن القرآن - وهو أيضاً شريعتهم - مكتوب بهذه اللغة؛ وإلمامهم على وجه العموم أكثر بالعربية من إلمام أهل أوربا باللاتينية، إذ أن معظمهم يتكلمها مع أن لهم لغة غير مهذبة تسمى: فولي؛ ويعيشون قبائل أو عشائر، ويبنون لأنفسهم مدناً، ولا يخضعون لأي ملك من ملوك البلاد التي يقيمون فيها، مع أنهم يعيشون في أراضي هؤلاء الملوك، وذلك لأنهم كانوا إذا أسيء إليهم - في قوم هم يعيشون بين ظهرانيهم - هدموا مدنهم وارتحلوا إلى قوم آخرين؛ ولهم رؤساء من أنفسهم يحكمونهم حكماً معتدلاً، إلى حد أن كل عمل تقوم به الحكومة يبدو كأنه عمل الشعب أكثر من أن يكون عمل فرد من الأفراد؛ وهذا النوع من الحكومات يدار دولاً به في سهولة ويسر، لأن الأهالي أصحاب طبيعة هادئة، ولأنهم تعلموا جيداً ما هو عدل وما هو حق، حتى أن من يقترف الشر منهم يكون موضعاً لكره الجميع.

وهذه الجماعة على جانب كبير من النشاط والاقتصاد، يزرعون من القمح والقطن أكثر مما يفي بحاجتهم، ويبيعونه بسعر معتدل؛ ويشتهرون بالكرم إلى حد أن مواطنيهم يعتبرون أن من نعم الله عليهم أن تكون بجانبهم بلد من بلاد فولي؛ فوق هذا أكسبهم سلوكهم حداً من الشهرة يجعل من العار أن يعاملهم أحد معاملة غير كريمة؛ ومع أن إنسانيتهم تعم

---

(١) Francis Moore, pp. 76 - 7.

جميع الناس، فشفقتهم بأبناء جنسهم مضاعفة، وإذا علموا أن أي فرد من جماعتهم قد أُخذ رقيقاً اتحد الفلاني جميعاً وحرروه؛ ولوفرة الغذاء عندهم لا يدعون أبداً واحداً منهم يقاسي الحاجة، بل إنهم يعولون المسن، والأعمى، والأعرج؛ ويساوون بينهم وبين الآخرين.

وقلما يغضبون، ولم أسمع ـ مطلقاً ـ واحداً منهم يسب الآخر، ومع هذا فلم تكن وداعتهم صادرة عن حاجة إلى الشجاعة، إذ أنهم شجعان كأي شعب في أفريقية، وهم مهرة جداً في استعمال أسلحتهم، وكانوا يستخدمون أسلحة تتكون من الزغايات والطغانات القصيرة، والقوس والنشاب، بل يستخدمون البنادق في بعض الأحيان؛ وهم مسلمون متمسكون بدينهم، ومن النادر أن يشرب أحدهم الخمر أو أي مشروب أقوى تأثيراً من الماء.

وقد وجد دنفديو هذه الجماعات المنفصلة، المتناثرة في شتى أقاليم الحوصا، وجعل منهم جماعة قوية؛ وفي سنة ١٨٠٢ حدثت أول ثورة من مملكة جوبر التي كانت لا تزال على الوثنية، والتي بسطت نفوذها على أقصى الشمال من بلاد الحوصا؛ وقد حاول ملك جوبر أن يعوق قوة الفلاني المتزايدة في بلاده، فأدى ذلك إلى أن رفع دنفديو علم الثورة، وسرعان ما وجد نفسه على رأس جيش قوي، لم يتعرض به للقبائل الوثنية وحدها ويفرض عليها الإسلام، بل تعرض ـ أيضاً ـ لولايات الحوصا الإسلامية، فسقطت هذه الولايات واحدة بعد أخرى، وأصبحت كل أراضي الحوصا تحت حكم دنفديو قبل وفاته سنة ١٨١٦، ولا يزال قبره في سوكوتو Sokoto مثابة تعظمها جموع كثيرة من الزائرين.

وقد قسم دنفديو مملكته بين ولديه اللذين زادا كذلك في توسيع حدود بلاد الفلاني ومدينة أدماوا، التي أسست سنة ١٨٣٧ على أنقاض عدة ممالك وثنية، تعتبر حداً لفتوحاتهم نحو الجنوب الشرقي؛ وكانت

مدينة إلورن: (Ilorin) في بلاد اليوروبا: (Yoruba) التي تأسست في عهد دنفديو، هي الحد الجنوبي الغربي لإمبراطورية بول: (pul)، وقد ظلت السيطرة على هذه البلاد طوال القرن التاسع عشر في أيدي الفلاني، على تفاوت في التوفيق والنجاح في الحكم، وظهروا بمظهر القسوة والتعصب في الدعوة إلى الإسلام، حتى قيام الحكم البريطاني في نيجيريا سنة ١٩٠٠م.

هذا ما نقله توماس أرنولد[١] وترجمه الأساتذة المتخصصون عن الفلاتة ودورهم في السودان:

- إنهم في كل بلد أو دولة يظهرون ببشرتهم السمراء.
- يشبهون العرب ومعظمهم يتكلمون العربية.
- لهم مدارس يتعلمون منها اللغة العربية والقرآن.
- القرآن يعد شريعتهم ودستورهم.
- إلمامهم باللغة العربية أكثر من إلمام أهل أوربا باللغة اللاتينية.
- يبنون مدناً ويعيشون عشائر وقبائل.
- يعشقون الحرية، ولا يخضعون لأي ملك من ملوك البلاد التي يقيمون فيها.
- ينتخبون لهم رؤساء من أنفسهم يحكمونهم.
- حكومتهم حكومة عادلة، إذ كل تصرفاتها تبدو وكأنها عمل شعبي.
- أمة راقية، تعلموا جيداً ما هو عدل وما هو حق.
- إنهم على جانب كبير من النشاط الاقتصادي والزراعي.

---

(١) انظر: صفحة ٢٠١، الّذي قام بهذا هو فرانسيس.

ـ ليسوا بإقطاعيين أو احتكاريين، يبيعون منتجاتهم بأسعار معتدلة لجيرانهم.

ـ إنهم على جانب كبير من الكرم، يرغب الجميع، بل يتمنى كل أهل البلاد مجاورتهم، بل يعد ذلك من نعم الله عليهم.

ـ هم في غاية من الاستقامة، من يرتكب جريمة أو يقترف الشر يكون موضعاً لكره الجميع.

ـ إنهم في قمة الحضارة والسلوك الإنساني، بحيث لا يستطيع أحد أن يعاملهم معاملة غير كريمة.

ـ على غاية من الشفقة بالإنسان وشفقتهم ببني جنسهم مضاعفة.

ـ إنهم يفكون الأسير ويحررون الرقيق، ويعولون المسن والأعمى والأعرج، ويطعمون الجائع، ولا يدعون أبداً واحداً منهم يقاسي الحاجة.

ـ لا يعرفون المهاترات والسباب، ولم أسمع واحداً منهم يسب الآخر.

ـ مغاوير حرب، وأحلاس خيل، وأصحاب جلادة وشجاعة؛ كأي شعب في أفريقيا يستخدمون الأسلحة، والبنادق، والقوس، والنشاب.

ـ إنهم مسلمون متمسكون بدينهم، ومن النادر أن يشرب أحدهم الخمر، أو أي مشروب أقوى تأثيراً من الماء.

قل لي ـ بربك ـ: أي شعب أعظم من هذا الشعب؟ وأية أمة في سودان القارة ـ أو في غيرها ـ يضاهي هذا الشعب في مثل هذه السيرة الحضارية والإسلامية تفهماً لتعاليم الإسلام، وارتباطاً بتوجيهاته في مسار الحكم، والسياسة، والاقتصاد، والاجتماع؟ أي شعب أعظم من هذا؟ صاهروا كل الأجناس، وخالطوا كل القبائل دون افتخار أو اعتزاز أو غرور بالمناصب التنفيذية والرئاسية، في مراكز الدول التي أسسوها، أو التي

استولوا على نظام الحكم فيها؛ فحصل بينهم وبين الآخرين الانصهار القومي الممتزج بالنسب، ووحدة المشاعر التي نجمت تلقائياً، ونشأت نشأة ذاتية مصطبغة بصبغة العروبة والإسلام، أو بصبغة القومية المشتركة؛ فكانوا سودانيين على مستوى القارة، سواء بالأصالة، والسبق الزمني، والاستيلاء على المكان واستصلاحه؛ أم بمبدأ الأحقية التي كانت مشاعة - وقتها - لجميع الناس دون استثناء، تبعاً لتواجدهم المشارك في المواطنة والانتماء لمواطني الدول التي عاشوا معهم وخالطوهم، فكان للفلاتة الوجود الفعال والمؤثر في كل دول أفريقيا والحجاز، ابتداءً من موريتانيا، ومروراً بالسودان، وانتهاءً ببيت الله الحرام.

موريتانيا:

كان الفلاتة - ولا يزالون - جنباً إلى جنب مع قبائل صنهاجة التي تسكن أفرادها ديار الصحراء الممتدة من شنقيط موريتانيا إلى جبال: (حجار) وإلى الجنوب حتى حدود السودان الغربي؛ وقد سبق أن أشرنا إلى علاقتهم الرحمية مع قبيلة: (لمتونة) الصنهاجة.

مالي:

كان الفلاتة في مالي إلى جانب قبائل الماندیغ، والصنغاي، والبرنو، والتوكولو، والمشع، والسنيوفو، والماركاكا، والدوجون، والطوارق الملثمين.

نيجيريا:

في نجيريا التي توجد فيها عدة شعوب تضم مجموعات قبلية تزيد عن ٣٠٠ قبيلة، اتحدت في بعضها وشكلت جمهورية نجيريا الاتحادية، تراهم الفلاتة إلى جانب اليوروبا، والإيبو، والهوسا، والكانوري.

فولتا العليا (بوركينا فاسو):

وفي فولتا العليا تراهم إلى جانب قبائل الموسى، وقبائل منطقة: (درورى) متعاونين مع علماء السنغال، والهوسا، والزعماء الوطنيين المسلمين في صد المحاولات المبذولة لنشر المسيحية.

السنغال:

وفي السنغال الَّذي تتكون سكانها من مجموعة شعوب، تعتبر نسبة الفلاتة نسبة مرتفعة إلى جانب قبائل الولوف الَّذين يشكلون ثلث السكان، إضافةً إلى التوكولو، والمنادي، والديولا، وسراكوليا، وسيرير، والسوريين، واللبنانيين، الَّذين هاجروا إلى السنغال في أواخر القرن الثاني عشر الهجري، ويعمل ٩٥٪ منهم في التجارة، وقل مثل ذلك في جمهورية: (غينيا) وجمهورية: (جامبيا) وجمهورية: (الكمرون) فإن نسبة الفلاتة في هذه الجمهوريات نسبة مرتفعة جداً[١].

أفريقيا الوسطى:

تجدهم في منطقة الكوتو مع قبائل الباندا، وفي منطقة موبومو مع قبائل الأزاندي، وفي منطقة بانقي العاصمة تراهم جنباً إلى جنب مع قبائل الباقرمي، والبرنو، والهوسا.

غامبيا: وفي غامبيا التي تقع في غرب القارة الأفريقية، ويطل جزء منها على المحيط الأطلسي وعاصمتها: (باخورست) ينتمي سكانها إلى شعبين، هما: قبيلة الفلاتة وقبيلة المادينق؛ وقد قسمت معاهدة التسوية التي عقدت ما بين إنجلترا وفرنسا في سنة ١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م، كل من

---

(١) «الإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا»، د. عبد الرحمٰن زكي، ص ١١٦ ـ ١٢٢.

هاتين القبيلتين إلى قسمين: قسم يعيش في غامبيا، وقسم آخر يعيش في سنغال.

سيراليون:

وسيراليون التي عاصمتها فريتاون، يتألف سكانها من قبائل كثيرة يزيد عددها على ٣٠ قبيلة، أهمها قبيلة: (التمني) وقبيلة: (الماندي) وقبيلة: (الفلاتة) ثم يأتي قبيلة: (الكوربول) وقبيلة: (السوسو).

الحجاز:

والمراد بالحجاز مكة المكرمة والمدينة المنورة، حرم الله وحرم رسوله ﷺ فقد كان لكل جنس ـ فضلاً عن الفلاتة ـ الشغف أن يكون لهم بهما قرار.

والفلاتة تبعاً لسبقهم شعوب القارة في الإسلام، عرفوا قدر مكة مبعث الرسالة ومولد النور، كما عرفوا فضل المدينة المنورة دار الهجرة، ومنطلق الدعوة، ومثوى الرسول ﷺ.

وتبعاً لحبهم للجهاد في سبيل الله، ونشر تعاليم الإسلام، وإقامة دولته؛ جعل أئمتهم يقررون مبدأ استمرارية الهجرة وعدم البقاء بأرض الكفار؛ فالمسلم بين أمرين لا ثالث لهما: إما تغيير الحكومة الدنيوية بحكومة دينية، وإما الهجرة؛ فمن شقت عليه الهجرة فعليه التغيير؛ وقد تنبأ الشيخ الإمام عثمان دانفوديو لأصحابه باستيلاء الكفار على ديارهم وظهور المهدي في سودان وادي النيل، وأمرهم بالهجرة إليه حين يحدث ذلك.. ومضى إلى القول إنه لا تكون مراعاة حقوق القرابة والزوجية عذراً لأحد في ترك الهجرة؛ ثم قسم البلاد التي ينبغي أن يهاجر منها إلى ثلاثة أصناف:

القسم الأول:

قسم غلب عليه الكفر وكان الإسلام فيها نادراً، كبلد: (موشى) وبلد: (غرم) وبلد: (بس) وبلد: (يدع) وبلد: (برن) إلى آخر ما ذكر؛ ثم يقول وهذه كلها بلاد كفر بلا شك، إذ الحكم للغالب وسلاطين هذا القسم كلهم كفار.

والقسم الثاني:

قسم غلب فيه الإسلام وكان الكفر فيه نادراً، كبلد: (برنو) وبلد: (كن) وبلد: (كشن) وبلد: (صنغي) وبلد: (ملي).

وقال:

(وهذه ـ أيضاً ـ: بلاد كفر بلا شك، إذ الإسلام المستفيض فيها من غير سلاطينها، أما سلاطينها فكفار ـ كالقسم الأول ـ وإن كانوا يدينون بدين الإسلام، لأنهم أهل شرك وصد عن سبيل الله، وإعلاء راية ملك الدنيا على راية الإسلام؛ وذلك كله كفر على الإجماع؛ لا خلاف أنه يجب على المسلمين خلع إمامهم إذا كان كافراً، وإنما يجب قيامهم عليه إذا تخيلوا القدرة عليه، وإن تحققوا العجز عنه لم يجب القيام عليه، وإنما يجب على كل مسلم في أرضه الهجرة منها إلى غيرها).

والقسم الثالث:

ليس من بلاد الكفار باعتبار السلاطين، بل من بلاد الإسلام مطلقاً[1].

---

(١) بيان وجوب الهجرة على العباد للشيخ عثمان دان فوديو، دار جامعة الخرطوم للنشر، سنة ١٩٧٧، ص ١٣.

وبهذا الفهم تم تحديد العلاقة بين شعب الفلاتة الحاكم والمحكوم، وتحديد العلاقة بين الأمة الإسلامية من جانب مع غيرها من أهل الملل والنحل غير الإسلامية من جانب آخر[1] فكانت هجرتهم إلى الحجاز وخاصة بعد أن عجزوا عن مقاومة الغزاة الغربيين من فرنسيين، وإنكليز، وبلجيك في ميدان الجهاد، تبعاً لتفوق الغربيين عليهم بالسلاح باستخدام البنادق والمدافع؛ وصار لا حول لهم ولا طول إلاّ الهجرة إلى حيث ظهور المهدي، أو إلى مكة المكرمة أرض الإسلام ودار المسلمين[2]، لا ولاية فيها لكافر أو مشرك: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

وصار شعار كل فلاتي يومها قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الإسراء: ٨٠].

فلجأوا إلى الإكثار من صلاة النافلة، والتهجد، والذكر، والدعاء، وقراءة القرآن. . .، مسترشدين بقول الله (تعالى) في تسلية نبيه حين تآمر عليه أهل مكة باستفزازه من الأرض: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ

---

(١) مقارنة بين حركتي الإخوان المسلمين والشيخ عثمان دان فوديو، د. عبد الرحمٰن أحمد عثمان، ص ١٤ و١٥.

(٢) لقد ابتدأ ارتباط الفلاتة بالحجاز منذ قيام دولة المرابطين، وخاصّة بعد قيام دولة: «مالي» أما الهجرات الواسعة فظهرت في منتصف القرن الخامس عشر بدخول البرتغال، وازداد في القرن السادس عشر عندما بدأ الإنجليز والفرنسيون يفدون إلى المنطقة.

﴿نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾
[الإسراء: ٧٣ ـ ٨٠].

فالذين كانوا يستفزونه من الأرض هم أهل مكة، ولذا توعدهم الله تعالى فلم يلبثوا إلاّ قليلاً حتى جاءهم القتل يوم بدر، ثم طلب الله تعالى من نبيه ﷺ أن يقبل على العبادة وينشغل بها من صلاة وتهجد... كما طلب منه أن يدعو بهذا الدعاء: ﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق...﴾ فكان خروج النبي ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة ليس بفعل كفارها وإنما بأمر الله تعالى[١].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة فنزلت عليه: ﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً﴾ رواه أحمد والترمذي والحاكم وصححاه والبيهقي وغيرهم[٢].

وقد ورد هذا المعنى عن عدد من التابعين من أئمة التفسير، كقتادة، والحسن البصري، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.. وهو الأصح في تفسير هذه الآية، والله أعلم[٣].

وهكذا توالت الهجرات نحو الشرق كالجراد المنتشر، فساحوا في الأرض حيث استقر كل جماعة منهم، وقد كان غالبية علمائهم، وذوو اليسار منهم، والزاهدون في الحياة الدنيا، والمسنون من الرجال والنساء، قصدوا مباشرةً أرض الحرمين الشريفين: (الحجاز) مكة والمدينة المنورة.

---

(١) انظر: «تفسير الطبري»: ١٥: ١٠١.
(٢) «مسند أحمد» (١ : ٢٢٣) و«سنن الترمذي»، كتاب «تفسير القرآن»، باب ومن سورة بني إسرائيل، رقم ٣١٣٩، وانظر: «تفسير الطبري» ١٥ : ١٠٠.
(٣) انظر: «ابن كثير»: ٣: ٥٩، و«البحر المحيط» ٦: ٧٣.

الشيخ الإمام ابن محمد العمري:

وكان في مقدمة أولئك العلماء: (الشيخ الإمام ابن محمد العمري الشهير بالفلاني) الَّذي دخل أرض الحجاز سنة ١١٨٧ هـ، واتخذ من المدينة المنورة إقامةً وسكناً، إلى أن توفاه الله (سبحانه وتعالى) فيها[١].

ومنهم محمد بن مورد الفلاني، ومحمد بن هاشم الفلاني، وهما من تلاميذ الشيخ الإمام ابن محمد العمري.

تلاميذه المنتفعون به:

منهم الشيخ الحافظ محمد عابد السندي الأنصاري، مؤلف كتاب: «حصر الشارد» وهو أشهر محدثي الحجاز، وعالم مكة ومسندها عمر بن عبد الرسول العطار، وخطيب مكة الشيخ عمر بن عبد الكريم بن عبد الرسول الشافعي، ومسند مصر علي بن عبد البر الونائي، والشيخ عبد الرحمن بن أحمد الشنقيطي، ومفتي المدينة إسماعيل بن زيد العابدين البرزنجي، والعارف الأديب أبو الفيض حمدون بن الحاج الفاسي، وإسماعيل بن إدريس الرومي المدني، والعارف أبو الحسن علي بن محمد الباعلوي، ومحمد صالح جمل الليل، ومحمد بن مورد الفلاني، ومحمد أمين بن حسن الزيله لي المدني أحد شيوخ أبي حامد، ومحمد بن صالح الشعاب المدني، ومحمد بن هاشم الفلاني، وأديب الشام أحمد بن عبد اللطيف البربير، ويس المرغني المكي، وقاضي مكة عبد الحفيظ العجمي المكي، والبركة الشيخ علي الرئيسي الزمزمي المكي الزبيدي، ومفتي الشام الشمس ابن عابدين الدمشقي، وأحمد بن حسن الحنبلي، والشهاب أحمد بن محمد الكردي الاسطنبولي الحنفي، ومسند المدينة زين

---

(١) «فهرس الفهارس والإثبات»، للشيخ عبد الحي الكتاني، نقلاً من مقدمة إيقاظ همم أولي الأبصار.

العابدين بن جمل الليل الباعلوي المدني، وعلي البيتي الباعلوي المكي، ومحمد صالح بن إبراهيم الرئيسي الزمزمي المكي، وغير هؤلاء الأعلام، فإن المترجم له حصل على شهرة في عصره قل أن تخلو بلدة من بلاد الإسلام في وقته، إلاّ وله فيها عدة من التلاميذ، كما يعلم ذلك من عني بالإثبات ومطالعة طبقات الرجال.

ثم جاء أفواج الشيخ إلف هاشم، والشيخ محمد طاهر بنو، والشيخ الزمخشري، والشيخ يوسف البساطي، والشيخ الأنصاري؛ وبعد توحيد المملكة وجدوا من الملك عبد العزيز طيب الله ثراه كل إكرام، وترحيب واحترام، وتقدير.

حقاً لقد كان للفلاتة وجودهم المشارك، والمؤثر، والمؤسس في تشكيل شعب السودان القارة أو القاري، سواء بالتعليم والتربية، أم الجوار والمصاهرة، أم الجهاد والهجرة، أم العقيدة والدعوة، أم البيئة واللغة.

فكانوا ـ بحق ـ زعماء قياديين، ودعاة مصلحين، وقادة اجتماعيين، ورؤساء موجهين ودينيين، وعلماء مرموقين، وشعراء، وأدباء وكتاب، ألفوا في العقيدة، والسياسة الشرعية، والعبادة، والتأريخ، والاجتماع، والأدب، والشعر، والتربية، وتوجيه الشباب وإعدادهم لحمل المسؤولية؛ فكان إلى جانب كتاباتهم في اللغة والأدب تجد مؤلفاتهم في العقيدة، والشريعة، والجهاد، مثل:

١ ـ كتاب أصول الدين.

٢ ـ عقد عقيدة العوام.

٣ ـ الفرق بين ولايات أهل الإسلام وولايات أهل الكفر.

هذا بعض ما للإمام الشيخ عثمان دانفوديو.

كما تجد:

١ ـ كتاب ضياء التأويل في معاني التنزيل.

٢ ـ كتاب الفرائد الجليلة في علوم القرآن وبعض آدابه من الأحكام.

٣ ـ كتاب ألفية الأصول وبناء الفروع عليها.

وهذا ـ أيضاً ـ بعض ما للشيخ عبد الله دانفوديو شقيق الشيخ الإمام عثمان دانفوديو، وتجد:

١ ـ كتاب إنفاق الميسور في تأريخ بلاد تكرور.

٢ ـ تنبيه الصاحب على أحكام المكاسب.

٣ ـ قدح الزناد في أمر هذا الجهاد.

للشيخ محمد بيلو بن عثمان دان فوديو. إلى جانب هذه الكتب ألفوا في التربية، والتعليم، والتوجيه، والإرشاد، والتنظير، فجاءت كتابات الشيخ عثمان دانفوديو في هذا الجانب بشكل عكس مدى اهتمامه بالشباب، فكان كتاب:

١ ـ تنبيه الإخوان على أحوال أرض السودان[1].

٢ ـ سراج الإخوان في أهم ما يحتاج إليه أهل هذا الزمان.

٣ ـ نجم الإخوان يهتدون به في هذا الزمان.

٤ ـ وثيقة الإخوان لتبيين دلائل وجوب اتباع الكتاب والسنة.

٥ ـ إرشاد الإخوان إلى أحكام خروج النسوان.

٦ ـ تعليم الإخوان الأمور التي كفَّرنا بها ملوك السودان.

إنهم وضعوا أسس المواطنة وإنها تقوم على أساس:

---

(١) وقد قيل: إن الشيخ حسن البنا سمى جماعته بالإخوان المسلمين، استرشاداً بهذه الرسائل ومضامينها التربوية، والتوجيهية، والتعليمية، والإرشادية.

١ ـ العقيدة والهجرة.

٢ ـ المصاهرة والبيئة.

٣ ـ الجوار واللغة المشتركة.

وهكذا شارك الفلاتة في جميع أنحاء القارة في إيجاد القومية المشتركة لسكان موريتانيا، ومالي، ونيجيريا، وفولتا العليا، والسنغال، وأفريقيا الوسطى، وغامبيا، وسيراليون.

وتأكد لدى الجميع أن الشخصية أو الهوية أو الجنسية لم تشكلها قبيلة واحدة مهما ادعت من عراقة، ومجد، وعز، وسؤدد.

وهكذا كان الحال في جنى، وتمبكتو، وغانه، وصنغي، ومثلها في برنو، وكانم، وباقرمي، ومنطقة حوض تشاد.

فكان الثابت في جميع هذه البلاد إزاء التحولات السياسية والدعوات العنصرية هو الإسلام، وصدق القائل: (إنه بواسطة الإسلام بدأ العصر التأريخي للشعوب الأفريقية السوداء).

الجعليون شعب عظيم:

لقد قال الأستاذ محمد عوض[١]:

(إن المجموعات العربية الوافدة إلى السودان تقاسمتها ثلاث مجموعات قبلية كبرى:

أولها مجموعة الجعليين[٢] وهي مجموعة عدنانية الأصل، وهي أكثر المجموعات العربية نفوذاً وأوفرها عدداً.. هذه المجموعة القبلية حين

---

(١) «السودان الشمالي»، ص ١٦٦ ـ وانظر: «الإسلام والثقافة العربية»، د. حسن أحمد محمود، ص ٢٠٣.

(٢) اقتصرت على هذه المجموعة لأنها أكبر المجموعات وأعظمها دوراً.

دخلت السودان واتخذته مستقراً ومقاماً، تركزت على النيل الأزرق والأبيض جنوب الخرطوم، تخلف بعض منهم في بلاد النوبة، وسار بعضهم مغرباً نحو كردفان، وكلما زادت أعداد هذه الجماعة تعددت بطونها وعشائرها وقبائلها) فقد كان الجعليّون ـ إذن ـ شعباً عظيماً).

فإذا استحقت قبيلة الجعليين بسبب توسعهم القطري أو الإقليمي، ومشاركتهم للقبائل السابقة لهم أو الأصيلة في أحداثهم الاجتماعية والقومية، التي أدت إلى إسقاط مملكة علوة المسيحية[1]، وقيام ممالك العبدلاب التي اتخذت: (قرى) حاضرة لها، ثم انتقلت إلى الحلفاية وشاركت الفونج في السيطرة على القسم الشمالي من السلطنة، وأصبحوا حكاماً إقليميين في ظل رئاسة فونجية لهم السلطة التامة ـ أو المحدودة ـ على القبائل التي تنزل الشطر الشمالي من مملكة سنار؛ وتوارثوا الملك وجبوا الضرائب وامتد ملكهم من مصب دندر إلى بلاد دنقلة، ثم استقلوا عن الفونج سنة ١٧٧٠م، حينما ضعفوا وغلب عليهم الهمج[2].

إذا استحقت قبيلة الجعليين بهذا التوسع المحدود والإقليمي، بأن توصف: (بأنها قبيلة عظيمة وشعبها شعب عظيم) وأقول حقاً إنه شعب عظيم، فبم توصف قبيلة الفلاتة التي امتد توسعها عمودياً وأفقياً، قارياً وقطرياً، وأقامت دولاً وأزالت ممالك مستقلة برجالها وعتادها دون حليف أو شريك، ثم بذلت جهوداً مضنية في سبيل نشر الإسلام، والحفاظ على تعاليمه وحكومته، وازدهار حضارته، وما زالت آثارها باقية في القارة، ابتداءً من موريتانيا ومروراً بسكتو، ودارفور، ودولة سنار، ومستقراً بالحجاز، لا شك أنهم شعب عظيم بكل مقياس.

---

(١) تعد غارات الزغاوة المتلاحقة على هذه المملكة هو العامل الأساس في إسقاطها وقيام هذه المملكة.

(٢) «التربية في السودان والأسس النفسية والاجتماعية التي قامت عليها»، د. عبد المجيد عابدين، ج ١، ص ٣٨.

فلا غرو أن احتلوا مكان الصدارة، والاحترام، والتقدير من العامة والخاصة في جميع الأقطار التي شاركوا في دعم إنمائها، وإقامة حضارتها، والدفاع عن مقدساتها؛ لا كدخلاء أو مهاجرين، وإنما شركاء مؤسسين، فترى فيهم كما ينقل سير توماس، وارنولد: العزة، والإباء، والنجدة، والنخوة، والشهامة، والكرم، وحب الإنسانية، والعدل، ورفض الغطرسة، والشموخ، والاستعلاء، كانوا إذا أسيء إليهم في قوم هم يعيشون بين ظهرانيهم، هدموا مدنهم وارتحلوا إلى قوم آخرين.

هذا ما قاله الرحّالة الغربيون فيهم ونقله المترجمون العرب عنهم.

فماذا قال الجعلي المجذوبي عنهم، بعد أن عرفهم عن كثب وعاشرهم بشرف، وعاش تراثهم وما خلفوه من كتب في العلم، والأدب، والنثر، والشعر، وألف فيهم وكتب؟[1].

يقول الأستاذ البروفسور الدكتور عبد الله الطيب ـ عميد الأدب ـ معلقاً على: (كتاب التماسة عزاء بين الشعراء) للسلطان محمد بيلو:

(ويبدو أن حب التفاخر والشعور بالعزة، والإباء، والشمم متأصل في الفلاتة).

ولا شك أن هذه الخصال هي أخص خصائص العربي: الشجاعة، والفتوة، والشهامة، والنجدة، وعزة النفس، والكرم، والمغامرة، والتضحية.

يقول الدكتور عبد الله الطيب:

فلنستمع إلى السلطان محمد بيلو في الفخر من قصيدة طويلة، نقتبس منها هذه الأبيات:

---

(١) انظر: «بين النير والنور» للدكتور عبد الله الطيب: بيروت، ١٩٧٠م ـ الطبعة الأولى.

أصحبي بلغوا عني الجوابا　　إلى العزال قولاً مستطاباً
بأني لا أزال إلى المعالي　　أرقى لست من يهوى الربابا
وإني ماجِدٌ سَمْحٌ حَيِيٌّ　　وضرغام إذا سمت الضرابا

فإذا جاء من يصفهم بأنهم من الدهماء، أو الرجرجة، أو الغجر، أو من المتخلفين حضارياً، وأنهم من سكان العشش، أو ينفي معقولية نسبتهم إلى العرب والعربية قبل، وبعدما بَصَّر أستاذ الأدب جيل العصر المثقف بمثل هذه الإضاءات الثقافية والحضارية. . .

ماذا يقال له؟! أو يوصف به؟ سوى الجهل الثقافي والتخلف الحضاري. إن المواطن العامي قد يكون معذوراً، أما هذا المثقف الّذي يتجاهل أصول العلاقات الاجتماعية والثقافية بين الشعوب، ويتناسى مواريث الأجيال وتراث الأجداد، فيعمد إلى تفخيم قبيلته والتفاخر بها بإقصاء الآخرين وانتقاصهم، ومحاولة طمس دورهم الحضاري والدعوي، إنما يساهم بشكل أو بآخر في تعميق هوة الخلافات بين الشعوب والقبائل، وتوسيع دائرة المفاهيم الخاطئة، وليس في ذلك إلاّ إرضاءً لجهات لا تسرها الإشادة بتأريخ شعوب، ودول اصطدمت بالاستعمار اصطداماً طويلاً ومريراً، كما وقع لإمبراطورية البرنو، والفلاتة، والهوسا، والوداي: (البرقو) والفور، وكلها شعوب لها مواقفها وبطولاتها، سواء في مواجهة الاستعمار، أو في مقاومة الوثنية، والشرك، ونشر الإسلام.

هذه القبائل تشكل كل واحدة منهم قبيلة قائمة بذاتها، بل ليست هناك أدنى صلة تجمع بينها في أصولها الشرقية التي انحدرت منها؛ إنهم جميعاً قاموا بأدوار عظيمة في منطقة غرب أفريقيا، ونشأت بينهم علاقات قوية ومتينة وصارت أرحاماً؛ إنهم سودانيون بالسبق الزمني على المكان، أو بالقرار السياسي، أو بالمصاهرة والنشأة الذاتية، أو الجوار والمشاركة في

العقيدة والهجرة. فهل صحيح ما قيل بأن شعب الخرطوم لا يعرف من الشعوب المجاورة له سوى مصر والحبشة والشعب اليمني.

من مفكرة الأمين العام للجامعة الإسلامية:

لقد ذهبت إلى السودان في وفد لمهمة عام ١٣٨٤هـ برئاسة الشيخ محمد العبود أمين عام الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة وكان وصولنا إلى الخرطوم في مساء يوم الأربعاء.

وفي صباح يوم الخميس قمنا بالاتصال بالجهات الرسمية التي تسهل لنا مهمتنا فكانت زيارتنا لديوان قاضي القضاة الذي استقبلنا بحرارة وحفاوة وفي معيته بعض كبار رجال القضاء وعلى ما أذكر: أن قاضي القضاة يومها كان فضيلة الشيخ حسين القاضي وكان المفتي هو الشيخ حسن المفتي.

وبعد تقديم التحايا ابتدأنا بالتعارف كمدخل لإنجاز مهمتنا فابتدأ رئيس الوفد بتقديم نفسه وأعقبه فضيلة الشيخ أبو بكر الجزائري بتعريف شخصيته ثم جاء دوري لتقديم نفسي فقلت[١]:

بسم الله الرحمن الرحيم

أخوكم في الله عمر محمد فلاتة المدرس بالجامعة الإسلامية ومدير دار الحديث بالمدينة المنورة.

؟؟؟ نقلاً من المفكرة: لصاحب الفضيلة الشيخ عمر محمد فلاتة الأمين العام للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سابقاً.

(١) نلفت نظر القارىء بأن هؤلاء العلماء كلهم أحياء يرزقون إلى يومنا هذا.

وعندما سمع كلمة (فلاتة) قال لي صاحب الفضيلة الشيخ حسين القاضي - سلامة الاسم - يعني بذلك إكرام اسم عمر من أن يسمى فلاتي به فدهشت، واستغربت واستغرب من معي من الزملاء.

فقلت للشيخ: لماذا سلامة الاسم، فكان رده لي أن الفلاتة عندنا هنا سمعتهم في الحضيض وقد اشتهروا عندنا بارتكاب الجرائم والموبقات وكل ما يخل بالأمن وينشر الفساد، وأكد قوله هذا بقوله: مساكنهم بجوار الخرطوم تعرف بـ (عشش فلاتة) تعتبر بؤرة للفساد معروفة ومشهورة لدى الخاص والعام. فذهلت وتصببت عرقاً من الحيرة لما فوجئت به فالكلام أشبه بتقرير رسمي من رجل عالم ومسؤول: قاضي قضاة السودان.

فماذا أقول؟ وماذا يكون موقفي غير الوجوم والصمت المطبق؟ وقد شعرت بإحراج شديد وكنت جالساً معهم بشخصي فقط، فقد سيطر على جوانحي مشاعر الإحباط وصرت أتحدث مع نفسي أقول: ما الذي دهى الفلاتة في السودان على وجه الخصوص حتى انسلخوا من أخص خصائصهم التي عرفوا بها على طول التاريخ وفي جميع الأقطار الإفريقية؟ - الاستقامة مع الالتزام بتعاليم الإسلام وتطبيق أحكامه؟ ثم أسئل نفسي مرة ثانية وثالثة: ما المسخ الذي حدث لهذه القبيلة؟ أليس فيهم رجل رشيد؟... وهكذا كنت جالساً معهم والأفكار تتعارض وتنساب ومشاعر الاكتئاب قد سيطرت عليَّ تماماً وكأن زملائي والحاضرين قد شعروا بذلك. ثم زرنا عقب ذلك فضيلة المفتي في مكتبه وجرى التعريف كذلك وكان موقف فضيلة المفتي كموقف فضيلة رئيس القضاء.

ولقد قررت في تلك اللحظة أن أذهب صباح يوم الجمعة إلى عشش الفلاتة لمقابلة شيخ القبيلة لأتحدث معه في هذا الشأن وأنتهز فرصة صلاة الجمعة لأسدي لهم بعض النصائح والتوجيهات. هذا وقد انفض الاجتماع الأول وودعنا بمثل ما استقبلنا به من حفاوة وتكريم على أن نستأنف اللقاء

يوم السبت وقد خرجنا تواً إلى الفندق، وعندما وصلنا اتجه كل منا إلى غرفته للاستجمام ولكن أي استجمام لي؟ وكلي قلق وأرق واعتمال وتفكير والحديث مع النفس يتكرر أقول: الفلاتة في السودان وصلوا إلى هذا الدرك من الحضيض والانحطاط السلوكي ولماذا؟! وهكذا قضيت يوم الخميس وليلة الجمعة وكانت أطول ليلة في الدنيا لأني كنت متشوقاً إلى فجر الجمعة لأهرول إلى عشش الفلاتة لأتثبت مما ذكر، ولما أشرقت شمس الجمعة وفي تمام الساعة العاشرة ركبت التاكسي طالباً من السائق أن يوصلني إلى عشش الفلاتة، فقال: أي مكان تريد في العشش فقلت له: أريد النزول في العشش في أي مكان.

فأوصلني المنطقة. وأنا في اتجاهي صوب المنازل رأيت رجلاً جالساً على باب داره يبيع البرسيم فسلمت عليه وفوراً رد عليَّ التحية بقوله: السلام عليكم يا أهل الحجاز. فقلت له: كيف عرفتني من أهل الحجاز؟ فقال لي: وأنت من أهل المدينة، فازددت عجباً وحصل لي بعض الارتياح ودخل الرجل بيته وجاء بكرسي وقال: تفضل، فجلست وقلت له: كيف عرفتني من أهل المدينة، فقال لي: أنا كنت في المدينة عشت فيها أكثر من تسع سنوات وكنت سائقاً لأمير المدينة الشيخ عبد العزيز بن إبراهيم. فحصل لي الاطمئنان النفسي. فطلبت منه أن يدلني على منزل شيخ الفلاتة: فتعجب الرجل من هذا الطلب وقال لي: لماذا قلت له: إني أريد شيخ الفلاتة لأتعرف عليه. فقال لي: انظر إلى العشش الممتدة مع امتداد البصر ما فيها فلاتياً واحداً، وشيخ العشش الآن ليس فلاتياً وإنما هو من قبيلة (البرقو) ثم استطرد قائلاً: إن الفلاتة سكنوا هذه المنطقة من قديم الزمان كمحطة لهم وهم في طريقهم إلى الحجاز ثم سافروا وتركوا بها بعض المنازل سكنها الوافدون من بعدهم من كل الجنسيات وكل القبائل الإفريقية ومع مرور الزمن تحوَّل مركزاً للاتجار بالمسروقات والممنوعات وصار ملاذاً آمناً للهاربين من العدالة ووكراً للشيوعيين يختفون فيها ويطبعون

منشوراتهم وصار ملجأ للنساء الهاربات من أولياء أمورهن بسبب ما ارتكبن من أخطاء.

قلت له: كيف يُنسَب كل هذا إلى الفلاتة؟! فقال لي: يا شيخ إن ناس الخرطوم لا يعرفون من الشعوب المجاورة لهم إلا الأحباش والمصريين واليمنيين، أما بقية الشعوب وكل ما كان أسود اللون سواء من الصومال أو أرتيريا أو أوغندا أو من النوبة أو من الفور فعندهم: غرباوي أو فلاتي أو عبد[1].

فقلت: هذا أمر عجيب، وقد أبديت له أني أريد أن أصلي الجمعة في مسجدهم لأتكلم بعد صلاة الجمعة، فقال لي: ارجع يا شيخ وصلِّ الجمعة في الخرطوم. وقد حمدت الله كثيراً وحصل لي ارتياح كثير وذهبت إلى الفندق ونفسيتي عالية وقد شرحت لرفاقي ما توصلت إليه وتأكد لنا جميعاً أن كثيراً من المثقفين في السودان لا يعرفون واقع الشعوب الإفريقية المجاورة لهم، وفي يوم السبت جئتهم وفي جعبتي الكثير. وكما يقال: الحديث ذو شجون ذكرت لهم أني ذهبت إلى العشش لأصلي الجمعة وبعد البحث تأكد لي أنه لم يكن فيها بيت واحد لأحد من الفلاتة، وقلت لهم: علمت أن شيخ العشش لم يكن من الفلاتة وإنما هو من البرقو، وابتسم الجميع وأختزل الحديث وتكلم أحد القضاة وذكر لي أنه كان بنيجيريا وذكر الكثير من محاسن الفلاتة وكأن مولانا قاضي القضاة أدرك أنه تسرَّع في الحكم، وقد انتهت مهمتنا والحمد لله. لكني اقتنعت بأن كثيراً من المثقفين في السودان لا يعرفون واقع الشعوب المجاورة لهم.

هذا وقد دعانا أحد السودانيين الأفاضل لزيارة منزله ولتناول طعام الغداء والرجل الداعي على ما أذكر اسمه الحاج حسين وعلمنا أن ابنه يعمل

---

(١) لقد خرج شعب السودان مهاجراً ومغترباً، والتقى بكل الشعوب والجنسيات الأفريقية والأسيوية والعربية وقد عرف الكثير وعرف واقعه وواقع الشعوب الأخرى.

سكرتيراً للرئيس إسماعيل الأزهري وفي يوم الدعوة حضر جمع كبير من الأعيان كما حضر السيد إسماعيل الأزهري وبعد التعرف وخاصة بعد أن علم بأني فلاتي تكلم كلاماً تاريخياً جيداً عن الشيخ عثمان دانفوديو بشكل أذهل جميع الحاضرين وقال: إن دعوة عثمان دانفودي وقيام دولته هي التي حمت ظهر السودان من تسرب الوثنية والمسيحية إلينا من الغرب وعمّق مفاهيم الإسلام في دارفور وتشاد وإلاّ لكان غرب السودان جنوباً ثانياً فتعجبت كثيراً. وقلت: هل عرف هذا الرجل ما حدث من كلام قاضي القضاة؟ وكيف عرف ما يجيش بخاطري من أسئلة واستفهامات؟ فخرجنا واستيقنا بأنه فعلاً زعيم وقائد وأنه صاحب أُفق واسع وثقافة ممتازة.

ومثل ذلك حدث للأستاذ محمد تكر المدني عندما زار السودان موفداً من وزارة البرق والبريد والهاتف بالمملكة العربية السعودية للتعاقد مع بعض الفنيين بالسودان.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

في عام ١٣٩٥هـ أوفدتني وزارة البرق والبريد والهاتف (المواصلات سابقاً) إلى السودان للتعاقد مع بعض الفنيين ممن لديهم خبرات في مجال الخدمات البرقية والتلكسية التي تزايد الطلب عليها بشكل بالغ نتيجة للنهضة الشاملة التي كانت تعيشها بلادنا الحبيبة في إطار خطط التنمية الاقتصادية الطموحة. وبالفعل تم التعاقد مع عشرين من خيرة الفنيين يوم السبت ٦/ ٣/ ١٣٩٥هـ الموافق ٦/ ٣/ ١٩٧٥م أذكر منهم:

١ ـ شرف الدين سيد أحمد.

٢ ـ بكري عبد الله موسى.

٣ ـ عمر محمد شمت.

٤ ـ عبد الوهاب محمد أسد الله.

٥ ـ حسن أبو سنينه الذي توفي بعد ذلك في حادث سيارة خلال طريقه لأداء مناسك العمرة ولقد أكرم وفادتي وسهل مهمتي كل من:

١ ـ م. مصطفى علام وكيل الوزارة للشؤون السلكية واللاسلكية.

٢ ـ الأستاذ حسن إبراهيم بشير ويعمل حالياً مديراً لمعهد البريد العربي بالعاصمة السورية وأثناء قيامي بالمقابلات الشخصية وإنهاء إجراءات التعاقد الرسمية طلبت من الأستاذ الطيب الأسد مسؤول العلاقات العامة بوزارة المواصلات السودانية الذي كان مرافقاً لي طلبت منه دلالتي على الفلاتة المقيمين في العاصمة المثلثة (الخرطوم ـ الخرطوم بحري ـ أم درمان) إلاّ أنني لاحظت تجاهله لهذا الطلب المتكرر رغم تفانيه جزاه الله خيراً في تلبية جميع رغباتي وطلباتي وإزاء إلحاحي ما كان منه إلاّ أن ذهب بي في إحدى الأمسيات إلى مكان قريب مما يسمى بالعشش وأشار إلى العشش المقامة بشكل عشوائي وقال لي: هذه حلة الفلاتة إذا أردت الذهاب إليهم فالسائق والسيارة في خدمتك في أي وقت لتحقيق رغبتك وأضاف أما أنا فلن أذهب إلى هناك مطلقاً بأي حال من الأحوال وعندما أمعنت النظر وتفرست في وجوه وملامح وهيئات الغادين والرائحين للعشش أدركت بأنهم ليسوا من الفلاتة قطعاً وأن في الأمر لبساً وحاولت إقناعه والسائق بأن هؤلاء ما هم فلاتة ولا أدري هل نجحت في إقناعهما وإزالة اللبس أم لا فتأكد لي بأن صوره الفلاته الحقيقين مشوهه ومعكوسة وتغاير الواقع بالسودان الشقيق.

* * *

الفصل الثاني:

دور الفلاتة في تشكيل هوية سودان وادي النيل

هوية سودان وادي النيل:

لا شك أن الفلاتي عنصر يعتز به كل عربي قح، وكل مسلم غيور على مبادىء الإسلام، وكل أفريقي مثقف، وكل جنس متولد أو مختلط، وكل أوربي باحث، وكل دارس لحياة الشعوب وتراث الأمم. فضلاً عن أن كل فلاتي أصيل يعتمد في ثبوت صحة نسبه على الرواية وضبط النقل مع التواتر والتثبت[(١)] فإذا قيل: إنهم جنس مستقل له خصائصه وذاتيته المستقلة، أو قيل إنهم جنس متولد، أو خليط من عدة أجناس حدث بينهم امتزاج ومصاهرة، أدت إلى تمييز الفلاتي كجنس له خصائص مجتمعة من كل جنس داخل تكوينه[(٢)] فإن هذا كله يؤكد بأن الفلاتة ليسوا أقل من النوبة أصالة ولا من الزنج أرومة، وفي نفس الوقت لا يعارض القول بأنهم: «عرب أباً وروم أماً» وأنهم ينتمون إلى عقبة بن نافع؛ فقد تواترت الروايات التاريخية مع الاستفاضة، بأن عقبة بن نافع قد أوغل في بلاد السودان وفتح بلاد التكرور، وغانة[(٣)].

ويؤكد ذلك ما ذكره أبو عبيد البكري، من أن بني أمية قد أنفذوا جيشاً في صدر الإسلام لفتح غانا؛ وما ذكرته الروايات المحلية السودانية، أنه كان لغانا جالية مسلمة وعدد من المساجد منذ سنة ٦٠ هجرية؛ وما

---

(١) انظر: صفحة ١٩ و٢٠.

(٢) انظر: صفحة ١٢.

(٣) المغرب، في فكر بلاد أفريقية والمغرب، أبو عبيد البكري، ص ١٧٩ - وانظر: الدكتور حسن محمود، «قيام دولة المرابطين»، ص ٦١.

ذكره ابن خلدون من أن سكان غانا أسلموا أول الفتح[1]، كل هذا يؤكد ما ذكرناه آنفاً من غزارة الدم العربي في الجنس الفلاتي، ومدى تغلغل الإسلام في كيانهم وأنهم يختلفون في مظهرهم، وتاريخهم، ولغتهم اختلافاً كبيراً عن بقية القبائل في الأقطار المجاورة لهم، وعن النوبة، سكان جنوب مصر؛ لماذا؟ لأنهم أخذوا الإسلام بقوة وحرارة، وامتزج الدم العربي فيهم بتدفق وغزارة؛ لأن النوبة وسكان شمال السودان قد منعوا ـ بشجاعتهم ـ الزحف العربي برماة الحدق، وأوقفوا المد الإسلامي بمعاهدة البقط؛ ومن ثم كان الدم العربي في عنصر الفلاتة وسكان شمال أفريقيا أغور، وكان تقبلهم لتعاليم الإسلام وتجاوبهم مع أحكامه وتشريعاته. . كان أسرع وأشمل؛ ولا أحد ينكر أن قيام دولة تكرور[2] الإسلامية ودولة غانا، كانتا أسبق بكثير من قيام ممالك السودان الإسلامية؟[3].

كما لا ينكر أحد بأن: «الفاطميين» بعد أن نجحوا في هزيمة القرامطة في عهد الخليفة الفاطمي العزيز بالله: (٣٦٥ إلى ٣٨٦هـ) دفعوا عرب بني هلال لغزو أفريقيا بقوة وشراسة، مما أثر في هجرة القبائل البربرية جنوباً، وكان لهذه القبائل البربرية المهاجرة ـ بعد أن حسن إسلامها ـ دور كبير في نشر الإسلام في السودان الغربي والدم العربي، نتيجة لاحتكاكها بشعوبه[4].

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٥، ص ٢٨٤ ـ انظر المغرب، ص ١٧٩.

(٢) كلمة تكرور أساساً تطلق على سكان جنوب نهر السنغال وعلى الفلاتة الذين أقاموا أول دولة أفريقية إسلامية وكان ذلك في مطلع القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي.

(٣) انظر: إمبراطورية غانا الإسلامية، ص ١٥، د. إبراهيم طرخان ـ انظر: مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي، د. يوسف فضل حسن.

(٤) المغرب الإسلامي، ج ٢، ص ١٢٣؛ «الإسلام والثقافة العربية، ص ١٦٢، د. حسن أحمد محمود.

فالقول بعروبة الفلاتة، وعمق إسلامهم، وقوة اتصالهم بشعب السودان: (القارة) سواء كانت الشعوب والقبائل التي تسكن على النيل قبل قيام سلطنة الفونج، أم قبائل سكان دارفور قبل قيام سلطنة الفور وبعده، قول يؤكده الواقع وتثبته الوثائق التاريخية. والفلاتة منذ قيام دولة تكرور في مطلع القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي[١]، كانوا على ارتباط واتصال بسودان وادي النيل، سواء كان الاتصال لمجرد الهجرة للدعوة، أو قصداً لحج بيت الله الحرام، أو بدعوة من السلاطين[٢].

فالفلاتة بعد أن اعتنقوا الإسلام قد تغيرت أنظمتهم، وحياتهم الاجتماعية، وتقاليدهم القومية؛ وكان من آثار ذلك أن زالت الفوارق العرقية واللونية والطبقية بينهم، وبين قبائل المنطقة ممن اعتنقوا الإسلام وممن بقوا على وثنيتهم؛ فخالطوا جميع القبائل.. فتزوج بعض العرب الوافدين منهم، كما تزوج الفلاتة منهم وخاصة من دارفور، لحب سلاطين دارفور في مصاهرتهم[٣] فتخلص الفلاتة من: (الفلتنة) بالأسلمة، ومن الاعتزاز بالجنس، والاغترار بالدم، والشموخ بالسلطة إلى الالتزام بالأخلاق الكريمة، والتعايش السلمي، تنفيذاً لتعاليم الإسلام، وحرصاً على سمعة القبيلة، وصدق القائل أياً كان جنسه: (ليس هناك أدنى شك في أن كانت هناك قبيلة أفريقية واحدة تستحق اهتمام المتعلمين الأوروبيين، فهي قبيلة الفلاتة).

فلا شك أن هذا الجنس المتميز في دمه وعنصره، وفي مدى تمسكه بعقيدته وإسلامه، يشرف كل أفريقي أن ينطلق من محوره، وأن يفلتن شخصيته بهويته، وخاصةً بعد أن تخلصوا بالإسلام من ترسبات الجاهلية،

---

(١) البكري: «المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب»، ص ١٧٢؛ فقد أسلم الفلاتة على يد ملكهم: وارجامي بن رابيس.
وانظر: «أثر الفلاني على انتشار الإسلام في أفريقيا»، د. حسن إبراهيم حسن.

(٢) انظر السودان المأزق التاريخي محمد ابو القاسم حاج حمد ص ١٤٨ وص ١٥٧ وص ١٦١.

(٣) انظر: «مصاهرة الفلاتة لسلاطين الفور»، بقلم عميد متقاعد أحمد عبد القادر أرباب.

وعقد القبلية، والتعالي، والارستقراطية، تبعاً للشعور بالتميز المحلي، فصارت لهم إسهامات واسعة في نشر الإسلام بالمصاهرة، والاختلاط، والتعليم، والجهاد، والهجرة، والمجاورة، ويكفي فخراً أنه حيثما ذكر الإسلام وانتشار حضارته.. كان للفلاتي دوره البارز، وسبقه الزمني والجهادي والدعوي.

فلا غرابة إذن في اعتزاز الإمام المهدي بهم، والزواج من قبيلتهم، وإعطاء زوجته منهم من سائر زوجاته لقب: (أم المؤمنين) وقوله صراحة في الفلاتة: (الفلاتة ردائي وإزاري، شعاري ودثاري، شمسي في النهار وقمري في الليالي) ثم جاء قول ابنه الإمام عبد الرحمن المهدي في الإشادة والاعتزاز بالفلاتة: (الفلاتة جنس يعتز به، هم لنا عصب، لهم بالمهدي نسب ومع الأنصار حسب). وقول السيد حسن المرغني [أبناء ديني وجلدتي أنا وهم من شجرة واحدة].

لقد كنت أعتبر هذا القول المنسوب إلى الإمام عبد الرحمن المهدي من قبيل تطييب الخواطر، ومجاملة القبائل، وحفز الفلاتة لتقديم المزيد من التضحية، باعتبار أن غالبيتهم من الأنصار؛ كما كنت أعتبر قول السيد الصديق ـ حفيد الإمام المهدي في خطابه عند أول زيارة له إلى دارفور[1] متفقداً قبائل الأنصار، وموجهاً لنشاطهم، ومخططاً لتنظيماتهم، إعداداً لهم لمواجهة التيارات الحزبية المعارضة يومها لنيل السودان الحكم الذاتي كنت أعتبر قوله في مخاطبة الفلاتة بأنهم: أهل الصفاء والوفاء، لهم عند الإمام المهدي قربى ومكانة وزلفى، من قبيل التدابير الانتخابية، والمناورات السياسية، وكسب القبيلة؛ ولكن بعد إطلاعي على تاريخ الإسلام، ووقوفي على الدور الذي قامت به قبيلة الفلاتة في نشر الإسلام وإقامة دولته، وقراءتي كتاب: (الدعوة إلى الإسلام ـ بحث في تاريخ نشر العقيدة

---

(١) كان ذلك في سنة ١٩٥٣.

الإسلامية)[1] وكتاب: (أثر الفلاني على انتشار الإسلام في أفريقيا)[2].
أيقنت بأن ما أرسلوه من عبارات، وتلفظوا به من كلمات في شأن الفلاتة وأوصافهم، وأنهم أهل الصدق، والوفاء، والإخلاص لدين الله؛ إنما هو قول حق وشهادة صدق وتقرير للواقع، بعيداً كل البعد عن المناورات والمزايدات السياسية، والتدابير الحزبية، وعن تحريك العواطف كسباً لتأييد القبيلة.. وأيقنت ـ أيضاً ـ بسعة إطلاعهم على تاريخ الشعوب المجاورة للسودان، ومدى أثرهم في المنطقة، واستعدادهم الفطري لتقبل الأفكار والمبادىء والدفاع عنها.

ولما كلفت بطباعة كتاب: «العبادات» للإمام المهدي سنة ١٩٥٩م، وما تبع ذلك من قراءة لمنشورات الإمام المهدي ورسائله وأسس ثورته، وقفت على متانة الصلة بين الفلاتة والإمام المهدي، ومواصلة السيد عبد الرحمن المهدي للحفاظ على استمرارية هذه العلاقة، بشكل جعل له الوجود الحركي والفكري في كل من نجيريا، وأداماوا، وكانو.

والفضل يرجع في هذا للدور الَّذي قام به الفلاتة المقيمون في جزيرة أبا وكوستي، وعلى ضفاف النيل الأزرق[3].

ولكي يقف القارىء على قوة صلة الفلاتة بالمهدية والإمام المهدي والسيد عبد الرحمن المهدي، واستمرارية هذه الصلة وارتباطهم بشعب النيل، ومدى حبهم للجهاد تحت راية الإسلام، وخوف الاستعمار الإنجليزي منهم ومن تزايد نفوذ السيد عبد الرحمن المهدي بهم في دارفور ونجيريا، بل سودان القارة؛ فإني أنقل للقارىء تقرير المندوب الإنجليزي ح

---

(١) سير توماس وأرنولد، ترجمة، د. حسن إبراهيم حسن، د. عبد المجيد عابدين؛ مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٠.

(٢) د. حسن إبراهيم حسن، مطبعة النهضة المصرية سنة ١٩٦٤.

(٣) السودان المأزق التاريخي وآفاق المستقبل محمد ابو القاسم حاج محمد ص ١٨٢.

ح. ليتام، بعيداً عن النسمة الفلاتية للوقوف على الماضي القريب لهذه القبيلة، وارتباطها الديني والسياسي بوادي النيل[1].

جاء في التقرير: (وفي سنة ١٩٣٦ ـ أضحى السيد عبد الرحمن المهدي وفق كل المعايير ـ رجلاً ثرياً، وذا نفوذ سياسي بالغ الأثر). وفي الوقت ذاته، اضطرد نشاط أنصار المهدي في كردفان، ودارفور، والفونج، وظهرت أول نسخ مطبوعة من الراتب سنة ١٩٢١؛ أما الطبعة الثانية منه التي كانت تحمل عبارة: «المهدي عليه السلام» ـ وهي العبارة التي كان غير مسموح استخدامها حتى ذلك التاريخ ـ فقد ظهرت سنة ١٩٢٤؛ وتضاعف عدد الحجيج الزائرين للجزيرة أبا، كما تضاعف عدد المهاجرين إليها أو المستوطنين فيها؛ وكانت الزكاة تجمع بواسطة وكلاء السيد وتسلم له؛ وبلغت شعبيته شأواً بعيداً، لدرجة أن حوالي ١٥٠٠٠ شخصاً تجمعوا في أبا سنة ١٩٢٣ للاحتفال بالعيد هناك؛ ومن الطبيعي أن أصيبت الحكومة بالذعر وأخذت جانب الحذر، خاصةً وأن الانتفاضة التي قام بها عبد الله الصحيني[2] ـ في نيالا سنة ١٩٢١ ـ قد جعلت الموقف أكثر إزعاجاً.

كان عبد الله الصحيني قد نادى بأنه النبي عيسى في جنوب دارفور، وذلك سنة ١٩٢١؛ وقاد أتباعه للهجوم على مركز نيالا، فقتل الضباط البريطانيين هناك، فضلاً عن أربعة من المدنيين؛ واحتل المهاجرون مباني المركز، وأشعلوا فيها النيران؛ بيد أن الجنود والبوليس بقيادة بلال رزق استطاعوا استعادة المباني وطرد المهاجرين، وقتل مئات من المتمردين، في حين أنه لم يقتل من الجنود ورجال البوليس غير ٣٧ شخصاً، ووقع

---

(١) انظر تاريخ الحركة الوطنية في السودان الباب الثامن (المهدية الجديدة) ص ١٨٦ ـ البروفسير محمد بشير عمر.

(٢) أحياناً يكتب السحيني «بالسين».

عبد الله الصحيني في الأسر وأعدم شنقاً حتى الموت، ونسب هذا التمرد، بل ألقى اللوم في شأنه على أنصار المهدية[1].

ومن ثم طلب من السيد عبد الرحمن المهدي، أن يسحب وكلاءه من مديريات كردفان، والنيل الأبيض؛ كما طلب منه أن يمتنع عن جمع الزكاة، وأن يمنع الهجرة إلى جزيرة أبا، ومنع ـ أيضاً ـ من الذهاب إلى جزيرة أبا خلال الأعياد والاحتفالات الكبرى[2]، ولم يكن اهتمام الحكومة بتعاظم حركة المهدية قاصراً على هذه الأحداث التي وقعت في السودان، ذلك أن الإدارة البريطانية في نيجيريا كانت قد قلقت بسبب تطور الحركة في نيجيريا واحتمال تأثيرها عليها؛ وكان للحركة المهدية منذ عهدها الباكر اتصالات بالحركة القومية في نيجريا وتشاد، وغيرهما من البلدان المجاورة؛ وكانت برنو ـ في وقت من الأوقات ـ خاضعة لنفوذ المهدية عن طريق رابح الزبير السوداني جنسية، والقائد الفولاني الجنسية حياتو، وظل النيجيريون ـ الَّذين تأثروا بالمهدية وهاجروا إلى السودان في سنة ١٩٠٠ ـ على اعتقاد ببعث المهدية.

إن وجود جالية كبيرة في السودان من الأتباع النيجيريين الموالين لحركة المهدية، وإمكانية الدعوة لنشرها بواسطتهم أو بواسطة أولئك الَّذين كانوا على اتصال بهم في نيجيريا، كان سبباً إضافياً لإزعاج الإدارة البريطانية في نيجيريا، وإثارة اهتمامها؛ وكان الحجيج العائدون إلى أراضيهم يحملون الأخبار عن تزايد نفوذ السيد عبد الرحمن، كما حملوا معهم المؤلفات والآثار العقائدية عن حركة المهدية؛ ودارت القصص حول السيد عبد الرحمن في شمال نيجريا وعن كراماته، حتى غدا الأهالي ـ هناك ـ يعتقدون أنه: عيسى وفي سنة ١٩٢٢ وجدت رسائل بحوزة بعض أنصار المهدية

---

(١) Note On Recent History, op. Cit.

(٢) On Mahdism, op. Cit.

بنيجريا، يقال: إنّ عبد الرحمن المهدي قد بعث بها إليهم؛ وفي سنة ١٩٢٣ اعتقل أكبر زعيم لحركة المهدية في نيجريا وأُبعد من برنو، وأرسل مندوب من الإدارة النيجرية هو ح ح. ليتام في ١٩٢٤ إلى كل من السودان، وجدة، ومصر، للتحقق من مدى تزايد وانتشار الحركة الفكرية المهدية، ومدى أثرها على نيجريا[١] وقد توصل (ليتام) في عام ١٩١٥ إلى أن عدداً قليلاً من النيجريين كانوا يعتنقون عقائد الدعوة المهدية، ولكن كان عدد المتعصبين كبيراً، كما دلت على ذلك المساهمة الفعالة في الانتفاضة الضئيلة، وفي نشر الدعوة.

على أن عددهم تزايد في عام ١٩٢٢ نظراً إلى تزايد نفوذ السيد عبد الرحمن، واعتقاداً أنه أضحى محل ثقة في دوائر الحكومة.

كتب ليتام يقول: «إن نفوذه كان لدرجة أن الأشخاص الّذين كانت تساء معاملتهم من قبل الحكومة، أو الّذين كانت لديهم مظالم محددة، يجدون أنه من الطبيعي أن يلجأوا إليه كيما يبذل مساعيه لرفع الظلم عنهم؛ وطالما أن الأمر كذلك.. فإنني أفهم أن يجد عبد الرحمن أو أي زعيم ديني آخر في السودان أذناً صاغية من المخابرات، عندما يتحدث في شأن مثل هذه المظالم؛ وبالنسبة للمتعصبين من أنصاره يعزى نفوذه لقوى ووسائل غيبية[٢]».

والاعتقاد في سلطان عبد الرحمن، سواء كان علمانياً أو يعزى إلى وسائل خارقة للطبيعة؛ كان في نظر ليتام أداة قوية لمضاعفة عدد أتباعه بين صفوف التكارير والأهالي معاً؛ وما كانت أسفاره والطريقة التي تتم بها لتخفف التأثير على الحجاج القادمين من الغرب[٣].

---

(١) S. G. A\ Tomlinson and G. T. Letham History of Islamic Propaganda in Nigeria. London. 1927 Ibid.

(٢) Ibid.

(٣) Ibid.

وكتب ليتام التقرير التالي عن مسؤولية السيد عبد الرحمن في إعادة بعث الدعوة المهدية: (إن انتشار الدعاية للمهدية باسم السيد عبد الرحمن في نيجريا، يبدو أنه لا يعدو أن يكون امتداداً للدعاية التي انتشرت في دارفور وكردفان، بواسطة وكلائه الموثوق بهم، والَّذين يعملون في أحيان كثيرة تحت سمع وبصر المخابرات؛ ومسؤولية عبد الرحمن عن مظاهر أعمال التخريب السياسية لدعوة المهدية في نيجريا أو في مديريات الغرب، لا يوجد عليها دليل يمكن الحصول عليه.

والمسؤولية الخاصة ببث روح التعصب من جانبه وتنظيمه المباشر؛ فيبدو أنه من المستحيل إنكارها، ومن ثم اعتباره مسؤولاً عن كل ما يحدث في نيجريا من هذا القبيل؛ أما مسؤوليته فيما يتعلق بما يحدث في نيجريا فإنها شبيهة بنظيرتها في غرب السودان، ولا تختلف عنها إلاَّ في القدر نسبة لبُعد الشقة، وعدم استخدام وكلاء من الأعراب.

وبإفصاحي عن هذا الرأي، فإني أقر بأن آراء الأغلبية العظمىٰ من الضباط السودانيين، الَّذين كانوا على صلة شخصية بدعوة المهدية في مديريات الغرب ـ صحيحة لا جدال فيها، وهي تقول: بأن السيد عبد الرحمن وحوارييه المقربين كانوا ـ بوجه عام ـ مسؤولين عن الوضع الصعب الناشىء هناك، ومع ذلك فإنه لا يمكن أن يعزى إلى السيد عبد الرحمن وقوع بعض الحوادث الفردية المتطرفة، سواء كان ذلك في المضمار السياسي أو الديني، وذلك رغماً عن سياسة الاعتدال التي انتهجها عبد الرحمن المهدي نفسه.

والمسألة الجوهرية هي أن تنظيماً لدعوة المهدية قد أسس، وذلك رغماً من معارضة الحكومة لهذا الأمر، وأن إعادة نشر الدعوة بين قبائل الغرب كان عن وعي وإدراك، وبصفة مستمرة.

ودعوة المهدية التي كانت تقوم في شكل إنتفاضات معزولة سرعان ما

كان يتم القضاء عليها، قد غدت حركة ذات ثقل مرموق في النظام الاجتماعي بأسره، وذات أثر كبير على إدارة شؤون قبائل الغرب.

ولا أرى لزاماً عليّ التعليق على الآراء السابق ذكرها، إلاَّ القول: بأن كل ما رأيته وسمعته في السودان أقنعني بصحة تلك الآراء، ومهما يكن من أمر فإنه يتعين عليَّ القول بادىء ذي بدء بأن ما توصلت إليه من تحرياتي، يؤكد أن دعاية متصلة نشطة لدعوة المهدية في نيجريا وأداماوا، وكانو؛ قام بتنفيذها أنصار الدعوة من التكارير، كانت إقامتهم الرئيسية في أبا، وكوستى، وعلى ضفاف النيل الأزرق؛ كما يتعين عليَّ القول بأنه من غير المعقول أن عبد الرحمن نفسه كان يجهلها، أو أنه لم يكن يشجع نشاطها.

والغرض الأول كان ساطع الوضوح بالنسبة لي، عندما كنت أقوم بتحرياتي في أوساط الفلاتة أنفسهم؛ واستناداً إلى استنتاجاتي من إطلاعي على الرسائل التي وجدتها في نيجريا.

أما الغرض الثاني، فهو مجرد وجهة نظر سوف أسوق لها الأدلة والبراهين؛ إن هذه المجموعة من التكارير التي كانت تتركز في أبا، كانت تقوم بدعايتها للدعوة المهدية عن طريق الدعاية العامة للعقيدة المهدية، بإرسال الكتب الخاصة بالدعوة، وتداولها عن طريق الرسائل الخاصة، التي قام الأفراد بإرسالها، أو الرسائل التي أرسلت باسم عبد الرحمن، وعن طريق الإثارة الشفوية للحماس للتبشير بين الحجيج العائدين من الحج.

أما عن نشاط هذه المجموعة، فلا بد من أن نورد مثالاً جلياً تؤيده بعض الرسائل التي عثر عليها في نيجريا: وهو مثل يختص برجل من البرنو، كان قد كتب للمربي الديني في برنو في سنة ١٩١٩ و١٩٢١ و١٩٢٢، أصالة عن نفسه ونيابة عن عبد الرحمن؛ وكان هذا الكاتب لا يزال موجوداً بأبا خلال زيارتي في ١٩٢٥ سنة، وكان لا يزال يتحرى عن مصير رسائله لبرنو؛ كما سمعت عن منشئين لرسائل مماثلة وبصفة خاصة

عن اثنين منهما، أحدهما الدقيرا والآخر فلاتي؛ ومرة أخرى تبعاً لمعلومات استقيتها بالقرب من أبا، فإن الرؤيا الكاذبة المتعلقة: «بالفاهاشم» مصدرها أحد المتعصبين للمهدية، كان يعيش في تلك المنطقة.

والرسائل الفردية التي قام بإرسالها أفراد من التكارير في الحجيج إلى أصدقائهم في نيجريا، أو بعثت تحت تأثير أداء فريضة الحج، كانت أمراً عادياً؛ وكان فحوى الرسائل التعبير عن الخلاص والانعتاق الّذي وجده مُحْرِّرو الرسائل في عقيدة المهدية، والطمأنينة التي وجدها الكاتب في سكنى الجزيرة في كنف ابن المهدي والشعور بوجوب الحج إليها.

وبعد عام ١٩١٧ ببضع سنوات، وعندما أخذت الدعاية لدعوة المهدية تمتد إلى الغرب، أضحى كثير من الحجيج العائدين دعاة نشيطين لحركة المهدية.

ومن مناقشة تكارير كوستي والجزيرة أبا ـ أيضاً ـ برز إلى الوجود تنظيم أتباع المهدية كدعوة للتآخي فيما بينهم، وكان الدافع الأساسي للدعوة هو الإخلاص والولاء الشخصي لعبد الرحمن، وكان الاعتقاد السائد أن الدعاية لدعوة المهدية بشكلها القديم، يتطابق مع مصالح ورغبات: «السيد».

والمهدية سواء كانت تدعو إلى الاعتقاد في عبد الرحمن المهدي أو لا، تمثل الجانب الديني لأي حركة سياسية في بلاد السودان؛ والأمر كذلك سواء استغله واستثمره مناهضو الوجود الأوروبي أم لم يستثمروه؛ وهذا يلاحظ لدى رجال القبائل في غرب السودان في المساليت، والباقيرمي، والفلاتة.

وكان ذلك واضحاً حتى في المؤامرات الصغيرة بين البرنو في سنة ١٩٢٣، عندما كان الجو مشحوناً بروح دعوة المهدية، وهذا هو الجانب المهم للوضع في المسألة كلها، وأكثر أهمية من التفاصيل التي تعلقت بحياة

عبد الرحمن، لأنها تؤثر في منطقة تتعدى بكثير حدود السودان الإنجليزي ـ المصري؛ ولا ريب في أن أعداء النظام الرأسمالي يجدون في ذلك الوضع أرضاً خصبة لمؤامراتهم).

وأنهى ليتام تقريره بأن أشار إلى تزايد نمو المهدية في السودان لا يحتاج إلى تأكيد، واستطرد يقول: (إن هذه الحقيقة معروفة لكل امرىء له دراية ومعرفة بالسودان، على أنه يجب أن يعترف بأنها قد غدت بالفعل قوة سياسية ذات أهمية قصوى، سواء اتخذت صورة التعصب بين رجال القبائل أو المستنيرين من السودانيين، والجانب الديني من الحركة الوطنية.

أما في نيجريا، فإن أهميتها يجب ألاً تحد بالمدى الَّذي ضاقت أو اتسعت فيه محلياً ومن وقت لآخر، ذلك لأن قوة جاذبية الحركة الإسلامية في نيجريا قد تتعاظم خلال السنوات القادمة، إذ إنه من الممكن أن تكون الجانب الديني للحركات السياسية من النيل حتى النيجر، وأن مستقبل الحركة ربما يعتمد على السياسة التي تنتهجها حيالها حكومة السودان، والمعلومات الموثوق بها المتعلقة بالتطورات والمراحل المختلفة للحركات الدينية في السودان، والطريقة التي تواجهها بها حكومة السودان ستكون ـ دائماً ـ ذات أهمية قصوى بالنسبة للإدارة البريطانية في نيجريا.

ويجدر القول بأن الوضع الراهن في سنتي: (١٩٢٥ ـ ١٩٢٦) كان غير مطمئن البتة، إذ أن الحركة بشكلها آنذاك ـ وإن كانت لا تمنع في الأساس قيام إدارة ذات كفاءة ـ تبدو للكاتب مجافية للتطور السياسي المعتدل للمجتمعات المحلية في بعض الأجزاء الهامة من السودان.

وقد تابعت الإدارة ـ بالمزيد من الاهتمام ـ هذه الحركة في السنوات الأخيرة، ولكن الخطوات التي اتخذت حيالها تبدو كما لو أملتها الانتهازية.

ولم يعالج الأمر بصورة جذرية، وبطبيعة الحال بدا الأمر صعباً للغاية، ولكن من العسير أن نصدق أن معالجته على نحو أكثر إيجابية غير

ممكن، وخاصة أن الأمر حاز على اهتمام كبير، وتمت دراسته من زوايا متعددة[1].

وقد تم التوصل إلى حقائق جديدة دعت إلى القلق، وحفزت حكومة السودان إلى تصعيد مجهوداتها لمحاربة المهدية داخل وخارج السودان) انتهى.

لا شك أن هذا التقرير قد سلط الأضواء على جانب كبير من حياة وتاريخ كفاح هذه القبيلة، ومدى فعاليتها وتأثيرها في أحداث المنطقة السياسية والاجتماعية، وبخاصة في حركات انتفاضة الشعوب الدينية، سواء في سودان القارة أم سودان وادي النيل، مما أزعج الإنجليز؛ فقد أثبت تقرير (ليتام) أن دور الفلاتة في مساندة المهدية قديماً لا يحتاج إلى دليل، وأن بعثها من جديد بزعامة السيد عبد الرحمن يعزى إليه أيضاً وأن الَّذين قاموا بذلك هم الفلاتة الَّذين كانت إقامتهم الرئيسة في أبا، وكوستي، وعلى ضفاف النيل الأزرق، وإلى الرسائل الفردية التي قام بإرسالها أفراد منهم إلى أصدقائهم في نيجريا، وإلى الدعاة النشطين منهم العائدين من الحج، وبذلك أصبح الجو مشحوناً بروح المهدية، وهذا هو الجانب المهم للوضع في المسألة كما يقول ليتام، لأنها تؤثر في منطقة تتعدى بكثير حدود السودان الإنجليزي ـ المصري.

وأنهى ليتام تقريره بقوله: إن تزايد نمو المهدية في السودان لا يحتاج إلى تأكيد، بل صارت حقيقة معروفة لكل امرىء له دراية ومعرفة بالسودان، على أنه يجب أن يعترف بأنها قد غدت بالفعل قوة سياسية ذات أهمية قصوى، سواء اتخذت صورة التعصب بين رجال القبائل أو المستنيرين من السودانيين، والجانب الديني من الحركة الوطنية.

---

(١) Ibid.

هذا هو دور الفلاتة وارتباطهم الفكري، والثقافي، والسياسي بالسودان، ومدى صلتهم بالمهدي والمهدية وبخاصة بالسيد عبد الرحمن، وتزايد نفوذه بهم، سواء في وسط السودان أم غربه، أم في نيجريا.. فلا غرابة إذن لو قال فيهم: (إنهم جنس يُعتز به، هم لنا عصب، لهم بالمهدي نسب، وبالأنصار حسب).

فالقول بعروبة الفلاتة، وعمق إسلامهم، وقوة اتصالهم بالقبائل السودانية؛ سواء أكانت القبائل التي تسكن على النيل أم سكان دارفور؛ قول يؤكده الواقع وتثبته الوثائق التاريخية، وكل ذلك له تأثير مباشر في تشكيل الهوية.

بقي لنا أن نضيف بعض الحقائق الأخرى الهامة التي تعكس لنا المآثر الوطنية الخالصة للفلاتة، ومساهماتهم في بناء السودان وما قدموه من بطولات وتضحيات في سبيل استقلاله وتأسيس دعائم الحكم الوطني فيه، ومشاركة أهله في كل كبيرة وصغيرة، وذلك عبر سلسلة من الحوادث التاريخية الهامة[١]:

١ - يرجع الفضل لهم في إعلان الإمام محمد أحمد المهدي بأنه المهدي المنتظر، ومن ثم التف أهل السودان حوله وبصورة حاسمة بقبيلة الفلاتة، وذلك على ضوء اللقاء الَّذي تم بينه وبين أحد أبنائها البررة، الذي نشأ وترعرع في أحضان أخواله من التعايشة، وهو الخليفة عبد الله بن محمد آدم تور الشيل في خلاوي المسلمية، عرف فيما بعد بالخليفة

(١) نقلاً من مقال بعنوان: «أصالة الفلاتة في السودان» تعليقاً على مقال حاكم دارفور المكلف العقيد معاش أحمد عبد القادر أرباب، بقلم الأستاذ سليمان يحيى محمد، طالب دكتوراه بمعهد الدراسات الأفريقية، الدراسة أكاديمية مجودة وموثقة، قد غطى الموضوع تغطية وافية، فكان لا بد من إثباتها والإشادة بها، والشكر مجدداً وموصولاً للأستاذ سليمان يحيى سليمان، لسلامة منهجه وطول نفسه.

عبد الله التعايشي عند توليه الخلافة بعد موت الإمام محمد أحمد المهدي؛ ودكتور مصطفى محمد سعد أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد بجامعة أم درمان الإسلامية: «الإسلام وحركات الفلان الإصلاحية في غرب أفريقية» مجلة جامعة أم درمان الإسلامية العام الأول ١٩٨٦، ص ١٤٥ ـ ١٤٦، كذلك: هنري رياض: (حق العمل في السودان) وكذلك الكاتبان: سابوري بيو باكو، ومحمد الحاج في كتابهما ـ باللغة الإنجليزية ـ: (المهدية في السودان وإقليم تشاد أو التنجر؛ ص ٤٢٦ ـ ٤٣٢) وكذلك كتاب م هولت ـ باللغة الإنجليزية ـ: (دولة المهدية في السودان) ص ٥١، ٥٢؛ وأيضاً كتاب الطيب عبد الرحيم: (الفلاتة في السودان ومساهماتهم الإسلامية والتنموية، ص ٣٨).

٢ ـ أورد نعوم شقير في: (جغرافية وتاريخ السودان، ص ٩٤٠) أن الإمام محمد أحمد المهدي، لكي يوحد أهل السودان تزوج من أكبر أربع قبائل، كان من بينها قبيلة الفلاتة؛ إذ تزوج ابنتها عائشة بنت إدريس أم المؤمنين التي قادت بعد وفاته حركة مقاومة سرية ضد الإنجليز، امتد أثرها من مدينة أم درمان حتى ضواحي سنجه في جنوب النيل الأزرق؛ وما ورد عنها في مدونات الاستعمار يعكس نشاطها وترصد تحركاتها وسط المواطنين؛ كما أورد شقير ـ أيضاً ـ ص ١٣١٦، أن قبيلة الفلاتة كانت تتولى مهمة القيادة العسكرية لجيوش المهدية، وذلك بإسناد أمانة الجبخانة لأمين الفوتاوي الفلاتي، وهو الشخص الَّذي تتلمذ وتربى على يده محمد ابن عمر التونسي كما ذكر في كتابه: (تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان).

٣ ـ تولى كل من آدم الأعيسر وحامد الفيض أمانة بيت المال في المهدية، كما هو مسجل أمام اسميهما في متحف الخليفة، وهما من الفلاتة.

٤ ـ لقد ركز الإمام محمد أحمد المهدي سلطة القضاء في يد العلماء من رجال قبيلة الفلاتة، كما هو مسجل بمتحف الخليفة، نذكر منهم:

١ ـ القاضي أحمد عمر أبو حوه بالشمالية.

٢ ـ القاضي أحمد السنوسي مدني الفلاتي بدارفور.

٣ ـ القاضي يس أبو أم دلال.

٤ ـ القاضي أحمد عمر الإمام.

٥ ـ إن أولى خطابات مبايعة للمهدي كان منها خطاب الشيخ حسن جمعه يوسف، زعيم الفلاتة وشيخهم بدارفور، بتاريخ ٢٩ ربيع الثاني ١٣٠٠هـ، الموافق ١٨٨٠م، هنالك نص للخطاب ورد في مقال الدكتور محمد الأمين حول العلاقات السودانية النيجيرية في إطار المهدية، ص ٦٤ ـ ٦٥، مجلة دراسات أفريقية ـ جامعة أفريقيا العالمية، العدد الثامن ١٢/ ١٩٩١م؛ وكان الخطاب رداً للخطاب المرسل له من الإمام محمد أحمد المهدي، وذلك لما يتمتع به من نفوذ واسع بين قبيلته والقبائل المجاورة لها في دارفور.

٦ ـ في موقعة الغار الشهيرة بالجزيرة أبا، ليلة السابع عشر من شهر رمضان ١٣٠١هـ، الموافق ١٢/٨/ ١٨٨١م، فقد استشهد من بين الإثني عشر مجاهداً مع الإمام المهدي، سبعة من رجال قبيلة الفلاتة، وكما هو مكتوب في داخل الغار أن أول من حمل المهدي على ظهر حصانه ثلاثة من رجال الفلاتة، وهم: آدم الأعيسر، وحسين جمعه، وعبد الله ولد نافع.

٧ ـ أعدم الأتراك الشهيد عبد الباسط أبو جنزير حفيد الشيخ عاشور محمد لادن شنقاً حتى الموت، بعد أن قاد حركة مقاومة ضدهم عام ١٨٨٢، وقبره الآن مسمى عليه ميدان أبي جنزير في الخرطوم.

٨ ـ ومن حملة رايات المهدية وأمرائها، هؤلاء الرجال من قبيلة الفلاتة، علماً بأن أسماءهم مسجلة بمتحف الخليفة بأم درمان، وكذلك غار الإمام المهدي غرب الجزيرة أبا (راجع ملحقات وثائق ماجستير.. في دار فلاتة بجنوب دارفور سليمان يحيى، ص ١٩٠ ـ ١٩٤).

وهم: الأمير الطيب سالم عمر.

الأمير النخلي ود عبد الله.

الأمير أحمد ود اللحو، المكنى بالحمى.

الأمير موسى ود إدريس.

الأمير الضو ود الخواجه.

الأمير أبو البشير أبو سم.

الأمير سالم الكوكاب.

الأمير الشيخ ود الحاج إمام.

الأمير المنوفلي، المكنى بأبي ظروف.

الأمير أحمد شطه.

الأمير بشارة ود سيد الدور.

الأمير همة الدركة آدم الدلا.

الأمير حماد الكلعوت.

٩ ـ أما كررى التي شهدت أعظم وأشرف معركة خاضها الشعب السوداني ضد الطغاة، فكانت تقع خلفها من الجهة الجنوبية الغربية حظائر قطعان بعض أسر الفلاتة، وعند اندلاع المعركة كانوا في قلبها، واستشهد الكثيرون منهم، نخص منهم بالذكر: الإمام أبارو الَّذي عثر على جثمانه وهو قابض على سيفه المحتفظ به حتى الآن لدى أحفاده بالعباسية، وكذلك الإمام أحمد قدح العشا، الملقب بقدح الدم مؤسس أول جامع في مدينة أم درمان حي العباسية.

١٠ ـ لقد استشهد جمع غفير من أبناء الفلاتة في واقعة شيكان التي كانت مركزاً من مراكزهم الإدارية بكردفان، مثلها مثل أم دبيكرات في النيل الأبيض.

١١ ـ لقد عظم دور الفلاتة الوطني عندما توجوا حماسهم للثورة المهدية، والَّذي عرفوا به من السودان حتى غرب أفريقيا بحسمهم للخلاف الَّذي كاد أن يمزق وحدة أهل السودان ويفرق شملهم بعد موت الإمام المهدي، عندما اشتد الصراع حول لمن تؤول الخلافة من الخلفاء الأربعة؟ وحينها برز الشيخ عبد الله الداداري الفلاتي، وواجه الأطراف المتصارعة بقوله: (من كان يعبد الإمام المهدي فإن المهدي قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت) وأمسك بيد الخليفة عبد الله اليمني وأجلسه على كرسي الخلافة، وألبسه جبة وطاقية الخلافة، وتمت مبايعته خليفة للمهدي (راجع ب م هولت: دولة المهدية في السودان ـ عهد الخليفة عبد الله ١٨٨٥ ـ ١٨٨٩م، ص ١٢٥ ـ ١٦٩) هنري رياض والجنيد علي عمر، وآخرين..

١٢ ـ لقد كان أكثر جنود الدرويش الثائر عبد الله السحيني من الفلاتة، والمساليت، والقمر؛ عندما أعلن الثورة ضد الإنجليز في عام ١٩٢١م، وقد لعب ـ حينها ـ بشارة سيد الدور الفلاتي دوراً كبيراً في

تضليل جيش الإنجليز، وذلك عكس ما أورده شيخ الدين الجنيد في كتابه: «قوة دفاع السودان» من أنه كان يتحرك لصالح الإنجليز، وقد أعدم بعد فشل الحركة العديد من الثوار الَّذين كان من بينهم رجلان من الفلاتة، وهما: إندجه ود أبو الراكي، الَّذي انقض على القائد الإنجليزي إكليم ونحره وأخفى مسدسه؛ وهبه الدوكة، ومعهما الملك دود ملك المساليت، وجميعهم قتلوا رمياً بالرصاص في الساحة الواقعة في منتصف سوق نيالا القديم.

١٣ ـ وفي الفترة ما بين ١٩٠٠ إلى ١٩٤٨ لعب الفلاتا أدواراً بارزة في دفع حركة المقاومة الوطنية وتصعيدها وتنظيمها ضد المستعمر البريطاني، من شواهدها على سبيل المثال وليس الحصر:

١ ـ انتفاضة عطبرة سنة ١٩١٤ بقيادة العالم أبو بكر الفلاتي، التي قتل فيها الكولونيل بل كوربيه.

٢ ـ معركة قدير بقيادة العالم أحمد دمي الفلاتي، عام ١٩١٥م.

٣ ـ حركة الفكي محمد نور عيسى الفلاتي في أم درمان، وقد تم القبض عليه بعد مقاومة عنيفة ونفي إلى وادي حلفا سنة ١٩١٦م.

٤ ـ مطاردة المستعمر البريطاني العديد من رجالات الفلاتة الَّذين نشطت حركتهم الفكرية ضدهم، مما أقلق مضاجعهم؛ وكانت لهم جمعية سرية شبيهة بجمعية اللواء الأبيض تمركزت حركتها في أم درمان، وانطلقت إلى أنحاء السودان الأخرى بقيادة العالم محمد سنين الفلاتي، والعالم محمد نجم الدين الفلاتي؛ وهنالك العديد من الحركات الأخرى قادها الفلاتة ضد الإنجليز، امتد أثرها حتى العراق، والسعودية، وتركيا؛ ورد ذكرها في تقارير المخابرات البريطانية لوزير خارجيتها، لمعرفة حركة الفلاتة

في السودان ومؤيدي الإمام المهدي بتاريخ ١٧/ ٥/ ١٩٢٧م، وكتب التقرير الكاتبان في المخابرات البريطانية، وهم Tom hanson الملقب Mr. C.E: LE- HEM، الملقب بـ Mr. G.L، كذلك كتابهما بعنوان: History of Islamic (propaganda in Nigeria).

١٤ ـ عند قيام مؤتمر الخريجين انضم إليه المثقفون من أبناء الفلاتة، وكان من بينهم الأستاذ عباس محمد أحمد قدح الدم (أمد الله في عمره) وكان أحد رؤسائه وأميناً للدار.

١٥ ـ كان السادة يوسف محمد نور بهيئة توفير المياه حالياً بالفاشر ـ وأبو القاسم حاج محمد بالثقافة والإعلام من أبناء قبيلة الفلاتة[١] قد شاركا في تأسيس فرع لمؤتمر الخريجين بدارفور، عندما كانا يدرسان في الأزهر الشريف، وكانا من ضمن الَّذين قاموا بحرق العلم البريطاني في مدينة الفاشر. . وهو أول علم يتم إنزاله وحرقه في السودان، وذلك بعد أن قاموا بحركة جماهيرية عارمة شغلت حتى الجنود الوطنيين آنذاك (شريط رقم م ١١٥ ـ ٢١١٤ أرشيف معهد الدراسات الأفريقية والأسيوية).

ـ كذلك أيضاً التقويم الميلادي لعام ١٩٧٣م إصدار شركة باتا ـ سابقاً ـ احتفالاً بعيد الاستقلال الَّذي شمل في مؤخرة كل صفحة، ملخصاً لأحد الأحداث الوطنية في السودان.

---

(١) وفيهم السيد محمود التيجاني عبد الماجد، والسيد محمد معروف شايب وعباس محمد النور عالم والد عالم عباس الأديب والشاعر، وصديق صالح محمد؛ وعبد الله جدو، ومصطفى منقة. وكان محرك هذه الانتفاضة العارمة الشيخ الوقور محمد أبو اليمن، جد الأستاذ الأمين صالح المدرس بجامعة أم القرى حالياً أنظر الفلاتة والفلاتيون في السودان د. بدين ص ٥٣.

١٦ ـ إن أعظم فخر لقبيلة الفلاتة أنها أنجبت للسودان أول رئيس وزراء لأول حكومة وطنية، وهو الزعيم إسماعيل الأزهري طيب الله ثراه؛ عبد الرحمن أحمد محمد: (تنصير قبيلة الفولاني في غرب أفريقيا، مقال منشور بمجلة الأمة ـ العدد ٥٦ فبراير ١٩٨٥م، الكويت ـ ص ٢٩).

١٧ ـ شاركت قبيلة الفلاتة في أول تمثيل برلماني وطني، عام ١٩٥٤ بنائبين، هما: يعقوب حامد بابكر حامد الفيض عن دائرة النيل الأزرق، وهو النائب الَّذي ثنى اقتراح استقلال السودان من داخل البرلمان؛ وقد رافق السيد الزعيم الوطني إسماعيل الأزهري إلى مؤتمر باندونق والصين، للمطالبة بحق تقرير المصير، وكان رئيس وفد البرلمان، وهو الذي نادى بإزالة تمثال كتشنر من واجهة الخرطوم، وشاركه في ذلك النائب الثاني أحمد أمين الفلاتي عن دائرة الفاشر بالتزكية؛ ووقف إلى جانبهم الفكي عبد الرحيم محمد أدم الفلاتي، الَّذي استشهد في أرض الحبشة عام ١٩٧٤، بعد ضربة الجزيرة أبا، وكان في صحبة الإمام الهادي المهدي: (الطيب عبد الرحيم، الفلاتة في السودان، ص ٤٩).

١٨ ـ كما شاركت قبيلة الفلاتا في برلمان ثورة أكتوبر ١٩٦٤، بكل من النائبين يعقوب حامد بابكر، وأحمد أمين.

١٩ ـ وفي مجلس الشعب الأول في عام ١٩٧٤، فاز من أبناء قبيلة الفلاتة أدم السماني البشر، وحامد هبة يوسف، ضمن سبعة أخرين في دائرة جغرافية مفتوحة في جنوب دارفور.

٢٠ ـ أما في مجلس الشعب الثاني عام ١٩٧٨م، فقد شاركت قبيلة الفلاتة بأبنائها أبو بكر عرابي، ومصطفى محمد من النيل الأزرق، وعبد الحميد أحمد أمين عن دائرة مدينة الفاشر، وعبد الماجد أحمد أمين

عن دوائر المهنيين بدارفور.

٢١ ـ لقد عُين الدكتور عبد الحميد التيجاني وزيراً للمالية في أول حكومة إقليمية في دارفور، وهو من أبناء قبيلة الفلاتة.

٢٢ ـ وفي انتفاضة أبريل ـ رجب المجيدة عام ١٩٨٥م، كان من أبناء الفلاتة الدكتور محمد أحمد ياجي وزيراً لوزارة السلام.

٢٣ ـ وفي مجلس الإنقاذ الوطني، عين الأستاذ مالك الزاكي صالح حفيد الإمام الفقيه مالك الفوتاوي عضواً، وكثير غيره من أبناء الفلاتة الذين ضمهم المجلس.

٢٤ ـ والأستاذة عائشة سالم عمر، رئيسة اتحاد عام المرأة السودانية بولاية الخرطوم.

٢٥ ـ لم تقتصر قبيلة الفلاتة في نشاطها على الجانب السياسي فقط، وإنما شمل عطاؤها مجالات أخرى، يأتي في مقدمتها إرساء قواعد الوعي الديني وتمكين العقيدة الإسلامية؛ فهنالك فيض من العلماء والأئمة والوعاظ، الَّذين ملؤوا ساحة الحياة علماً غزيراً وفيضاً منيراً، منهم على سبيل المثال:

الشيخ ود محمد أبو زمام، وكان كبير خلفاء الشيخ إسماعيل الولي، وهو مدفون معه في قبته.

الشيخ علي البليل، وكان خليفة الشيخ إسماعيل الولي.

الشيخ محمد الثاني، أحد أساتذة الشيخ إسماعيل الولي، ومدفون بخور طقت بالأبيض.

الشيخ الإمام بكر، وضريحه بحجر الطير.

الشيخ محمد أدم جبو، الَّذي توفي بكوستى، وتسمى مقبرة كاملة باسمه.

الشيخ النور الجريفابي الفلاتي.

الشيخ أبو القاسم هاشم جد الهاشماب.

الشيخ أبو النور.

الشيخ إدريس الفلاتي مؤسس خلوة قشيش مركز سنجة.

الشيخ طلحة حسين، الَّذي ورد ذكر خلوته في طبقات ود ضيف الله، وهو والد الشيخ محمد التوم طلحة، أحد العلماء الأفذاذ، وكانت لدى والده شجرة نسبة قبيلة القريات كما ورد في كتاب: (تاريخ القريات من رواياتهم الشفاهية ـ معهد الدراسات الأفريقية والأسيوية).

الشيخ ود عمر الفلاتي، له خلوة مشهورة في ديار الشايقية، وينسب إليه الفلاتية، وهم أكبر فروع قبيلة الشايقية، وغيرهم كثر...

هذا بالإضافة إلى المجالات الحيوية الأخرى الاجتماعية، والاقتصادية، والعسكرية، والثقافية، وغيرها... (انتهى).

آمل أن يكون في هذا البيان تصحيح لبعض المفاهيم الخاطئة عن هذه القبيلة العظيمة؛ وعلى حملة الأقلام التنويه بتاريخها، وإنصافها بإبراز كفاحها وتراثها، إذ أنهم أصل لأي كفاحٍ لاحق سواء بالدراسة والتحليل، أم بالمقارنة والتنظير، تأريخاً بتأريخ، وتراثاً بتراث، وتضحيات وبطولات

بتضحيات وبطولات، وعلماء وقيادات بعلماء وقيادات؛ إسلاماً وسبقاً وهجرة ونصرة.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

* * *

الباب الرابع

دور سكان النيل
في تشكيل الهوية السودانية

الفصل الأول:

الجعليون[1]

أصل الجعليين:

لا شك أن الجماعات ـ أو القبائل ـ التي استقرت على ضفاف النيل، التي كونت حلفاً ضد البقارة أو الغرّابة في عهد خليفة المهدي، هم أهل البحر بزعامة الأشراف؛ لا شك أن هؤلاء ـ جميعاً ـ يعترفون بأصالة الجعليّ ومتانة عروبته، وأنه في مقدمة المجموعات العربية الكبرى التي وفدت إلى السودان.

هذا الاعتراف يعني أن الجعليّ شعب وفد إلى السودان أرض السود أو الزنوج من الخارج، وأنه استحق الهوية السودانية أو الجنسية السودانية [بالزمكنة] أي السبق الزمني والاستيطان المكاني؛ إن صح هذا فلا فرق إذن بينهم وبين الزغاوة، والبرنو، والكانم، والفلاتة، كلهم قبائل وافدة لا فرق في الإجمال بين وافد ووافد.

فقد عاشت قبيلة الزغاوة مع أشقائها على الحافة الجنوبية بالصحراء الكبرى، حيث اختلطت كغيرها بالزنوج والسود المقيمين في وديان برنو، جنوب غربي بحيرة تشاد واندمجت فيهم؛ كما أن أقرباءها من البربر قد تحكموا في وداي شرقي تشاد، ثم ما لبثت الزغاوة أن بسطت سلطانها ونفوذهاعلى منطقة تشاد كما فعل الفلانيون البدو بعد ذلك بعدة قرون؛

---

(١) اخترت من سكان النيل هذه القبيلة، باعتبارها أكبر قبيلة تأصل فيها الدم العربي، وأن لها وجودها المتميز وامتدادها الاجتماعي والعرقي في شتى قبائل سكان النيل، وأنها قامت بدور كبير في نشر اللغة العربية والحضارة الإسلامية، ومن هنا يجيء وجه الشبه بينها وبين قبيلة «الفلاتة».

وكَوَّن الزغاوة طبقة حاكمة ـ أو ارستقراطية ـ شمل نفوذهم مساحات كبيرة خلال القرنين السابع والثامن الميلادي، بحيث امتد هذا النفوذ من دارفور شرقاً إلى تشاد وكاوارا غرباً؛ والمعروف عن قبيلة الزغاوة أنها وفدت أصلاً من الشرق كغيرها من كثير من القبائل التي نزحت نحو الغرب، واندمجت مع الوطنيين في غربي أفريقيا. وكان الأصل الشرقي أهم ما تمسكت به هذه القبيلة، التي سادت في بلاد السودان الأوسط والغربي[(١)]، فاستقر هؤلاء الزغاوة في شمال دارفور أخيراً، وكونوا بها ـ لهم ـ سلطنات ومشيخات وإمارات، مثل: سلطنة طينة، وأمبرو، وكارنوي القلعة، ومزبد، وارتاج، وأنكا، وكانتا، ودور، كما استقر الجعليّون وكوَّنوا لهم ممالك ومشيخات في شمال السودان وشرقه، مثل[(٢)]:

١ ـ مشيخة خشم البحر.

٢ ـ مشيخة الحمدة.

٣ ـ مملكة الجموعية.

٤ ـ مملكة الجعليين ومركزها شندى.

٥ ـ مملكة الميرفاب وعاصمتها بربر.

٦ ـ مملكة الرباطاب وعاصمتها أبو حمد.

٧ ـ مملكة المناصير وعاصمتها سلامات.

٨ ـ مملكة الشايقية وعاصمتها مروى.

٩ ـ مملكة العبدلاب وعاصمتها أربجي[(٣)].

---

(١) انظر: «إمبراطورية البرنو الإسلامية»، د. إبراهيم علي طرخان، ص ٤٦ ـ ٤٨.

(٢) انظر: صفحة ٦٢.

(٣) تاريخ الممالك الإسلامية في شرق السودان، د. يوسف فضل حسن، ص ٤٤٠.

ومثل ما فعل الجعليّون قام الفلاتة بنفس الدور، فقد استقروا بدارفور منذ عهد السلطان موسى ١٦٧٠ ـ ١٦٨٢م، وكوّنوا لهم بها مناطق إدارية، وقد استمر توسعهم في عهد السلطان أحمد بكر ١٦٨٢ ـ ١٧٢٢م، حتى شمل معظم دارفور؛ وازداد هذا التوسع في عهد كل من السلطان حسين محمد فضل، والسلطان عبد الرحمن الرشيد سنة ١٧٨٧م؛ حتى عم جميع أنحاء السودان: (كردفان، وسنار، ومايرنو) إلاَّ أن وجودهم البارز تراه في دارفور، حيث كوَّنوا لهم نظارة، ومحاكم، وعموديات، مثل:

١ ـ تلس، نظارة عاصمة الفلاتة، بها محكمة وسطى، ومحكمة شعبية عمودية؛ عمر آدم محمد.

٢ ـ كتال، محكمة العمدة حسين محمد إبراهيم شمين الفاشر.

٣ ـ جداد، محكمة العمدة مختار قمر الدين.

٤ ـ رجاج، محكمة العمدة عبد الرحمن مرجي داود.

٥ ـ سرقيلا، محكمة العمدة عبد الجبار صالح كيس.

٦ ـ دمسو، محكمة العمدة هارون.

٧ ـ سعدون، محكمة العمدة أحمد آدم بشارة، وحامد أبو الحمير.

٨ ـ دنابل، محكمة العمدة آدم حمري.

٩ ـ نخارة سنهاية، محكمة عمودية خميس أبو أمين.

إذن: ما الفارق بين وافد ووافد، سواء من الجعليين، أم من الزغاوة، أم من الفلاتة وغيرهم من البرنو، أم الغرَّابة؟ هؤلاء قدموا إلى أرض السودان ـ كما سبق أن ذكرنا ـ من جهة الشرق ومن جنوب مصر، والزغاوة، والفلاتة، والبرنو قدموا إلى أرض السودان من جهة الشمال ومن شرق وداي؛ فادعاء سكان النيل من الأشراف، والدناقلة، والجعليين بأنهم

أولاد بلد[1] وأنهم أصحاب الوزن الحقيقي، وأن غيرهم من الغرَّابة، أو البقارة، أو الفلاتة هم غرباء[2] وأنهم أقل منهم مدنيةً وحضارة[3] وأنهم سكان العشش[4] قول لا يمت إلى الحقيقة بصلة، إن لم يكن إخفاء للحقيقة التي تصل إلى حد التجاوزات، التي لا تتفق مع ما يقرره التاريخ، ولا مع الواقع السوداني متعدد القبائل، ومختلف الأعراق[5].

نعم للجعليّ أن يعتز بعروبته وأصالته، وإلى أبعد حد؛ وأنه من المكوك: «المانجل أو المانجلك» وأنهم أصحاب الككر والطاقية، وأنهم الأشراف، وأن جدهم الشيخ جماع المشهور بالقرين، وأنه كان وزيراً لملك الفنج، وكان رئيساً لعموم قبائل العرب بالسودان، وأنه جمع جميع قبائل فحول العرب على حرب ملوك سوبا العنج، بالتعاون مع الملك عمارة

---

(١) انظر: «مختصر تاريخ السودان الحديث، مكي شبيكة، ص ٩٠

(٢) انظر: «تاريخ الحركة الوطنية في السودان»، بروفسور محمد عمر بشير، ص ٢٥.

(٣) انظر: «تاريخ السودان الحديث»، ضرار صالح ضرار، ص ٢٦٧.

(٤) مساكن عشوائية شيدها الفلاتة ثم غادروها إلى الحجاز، وتركوها قائمة بمثابة رباط ودار ضيافة لإخوانهم الَّذين يقيمون إقامة مؤقتة، ثم يواصلون السفر إلى بيت الله الحرام، وبمرور الزمن ومغادرة «الفلاتة» لها نهائياً، حيث تنوعت وتعددت طرق المواصلات، تحولت إلى مجمع سكن لكل الأجناس، بل صارت مأوى للهاربين من العدالة حتى من أبناء الخرطوم أنفسهم، وملاذاً لعصابات السطو على المنازل، سوماً للإتجار بالممنوعات؛ فكان كل ما يحدث من اعتداءات وقتل وسرقة في العاصمة تنسب إلى سكانها، وكل ما ذكر اسم الفلاتي بادر إلى ذهن بادي الرأي، أنه من سكان العشش، ورغم محاربة كل الحكومات لإزالتها نظراً لوضعها وبتلك الصور العشوائية، وفي قلب العاصمة، إلاَّ أنها منيت بالفشل، وأخيراً استطاعت حكومة الإنقاذ من إزالتها وإقامة مساكن حديثة في مكانها.

(٥) لقد وصف البروفسير عبد الله الطيب كتاب: «إنفاق الميسور في تاريخ بلاد تكرور» لمؤلفه السلطان محمد بيلو بن عثمان دانفودي، بأنه من محاسن العربية النفيسات في بابها من أوائل إنتاج القرن الماضي، في وقت كان الجهل ضارباً بجرانه في أواسط بلاد السودان وغيرها.

دنقس الأموي[1]، وأنهم ـ بالمشاركة ـ أسقطوا علوة بعد أن أنهكتها مناوشة الزغاوة؛ لهم أن يفتخروا بكل ذلك، وأن يعتزوا بمكانتهم وتاريخهم وعروبتهم، ربطاً للقبيلة بمقوماتها الذاتية، وتقوية للوشائج الاجتماعية، وتوطيداً لأواصر القرابة والرحم، ودعماً لأواصر التآخي والتعاون، وإذكاء لروح النفير والدفاع عن كرامة القبيلة، وتخليداً لذكرى المك نمر، الَّذي أحرق إسماعيل بن محمد علي في شندى[2] سنة ١٨٢١م، وذكرى حسن ود رجب، وأرباب دفع الله، وعجيب في العبدلاب[3].

أما أن يتعدى الافتخار إلى حد المعارضة لقبيلة مماثلة لها في العراقة، والهجرة، وفي العروبة، وفي الإسلام، وفي الدعوة إلى الله، والاستيطان إلى حد الاستخفاف والتعالي بسبب الإدعاء بغزارة الدم العربي في عروقه، أو العلم والتقدم في المدنيّة والحضارة، أو لارتباطه بمن تولى المناصب التنفيذية في مراكز الدولة، واعتبار غيرهم من قبائل الغرب أو الغرّابة جماعات متخلفة دونهم تقدماً ومالاً، بل أقل منهم في كل ناحية، وخاصة العلم والرقي، وأنهم في حجمهم لا يعدو أن يكونوا «شماسة»[4] فهذا أمر يثير الدهشة، بل يولد الكراهية، ويورث البغضاء، ويكرس الخلافات العرقية، ولا يتماشى بحال من الأحوال مع تعاليم الإسلام والقيم

---

(١) انظر: مقدمة في «تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي»، د. يوسف فضل حسن، ص ٣٤ ـ ٤٤.

(٢) «السودان»، محمود شاكر، ص ١٤.

(٣) «تاريخ الحركة الوطنية في السودان»، بروفسور حسن عمر بشير، ص ١٧.

(٤) الشماسة اسم يطلق على الفئة التي ليست لها دخل منتظم، ولم تلق تعليماً منتظماً، وفي غالب الأمر الفئة غير المرغوب في وجودها في المدن الكبيرة، لأنها في نظر سكان المدن المرفهين سبب عدم الأمن، وسبب الضغط على الخدمات، وفي نظر الحكومات هي: الفئة غير المنتجة، أو ذات الإنتاج الطفيلي الَّذي يؤدي إلى تضخم الأسعار وانتشار السوق الأسود ـ انظر: الصادق المهدي وأزمة الديمقراطية في السودان، د. عبد الله حسن قسم السيد، ص ٤٤.

الحضارية، نعم الجعليّ عربي؛ ولكن من قال بأن الجعليّ عربي قح؟ وأصيل في العروبة «أعني: أماً وأباً» بحيث يمتاز في عروبته عن الفلاتي، أو الزغاوي، أو البرناوي؛ لا، ما قال بهذا عالم أو باحث غير الأستاذ حسن عوض[1].

من قديم.. الناس تتفاخر بما يميزهم عن غيرهم، سواء أكان هذا الشيء أصلاً، أم نسباً، أم لوناً، أم سكناً، أم حضارة؛ وسواء أكان ما يفخرون به حقيقة أم باطلاً.

فقدماء المصريين كانوا يرون أن الإنسان المصري هو الإنسان الكامل، وأن دونه درجات يقف عندها الإنسان اليوناني؟ وفي العصر الحديث تردد أن الإنجليز هم السادة، وأن الفرنسيين هم معدن الحضارة، وأن الطليان يرون أن أمم الشمال همجية وبرابرة، والروس يرون أن عليهم إصلاح العالم كله من خلال مفاهيمهم الخاصة بالمادية الجدلية. فالفخر بالأجناس قديم لم تخل منه أمة أو قبيلة، فما من جيل من الناس إلاّ وله فضائل يدعيها ومناصب يرتفع بها أحياناً إلى أعظم القديسين، فضلاً عن المناصب والصفات التي لا شريك له فيها من أجيال الأرض أجمعين؛ ولا غرابة في هذه الدعاوي، إذا سوغتها ظواهر الأمة، وساندتها القوة والثروة والكلمة العالية، ولكن الغريب أن تشيع هذه الدعاوي بين أمم لا قوة لها، ولا مال، ولا غلبة، وأنها ربما كانت في هذه الأمم أكبر مزعماً وأشد غروراً مما تكون في غيرها، كأنما هي عوض عما فقدته الأمة من دواعي الفخر الصحيح وعزاء تصبو إليه من العزة والكرامة.

وهكذا يكون الأمر كما قال الجاحظ: (إنها ليس على ظهرها إلاّ فخور) وإذا كان الأمر كذلك، فللفلاتي نسبه، وعروبته، وأصالته، له أن يفاخر بها ويعتز، كما للزغاوي، والبرناوي، والبرقاوي مثل ذلك؛ وله في

---

(١) «السودان الشمالي»، حسن عوض، ص ٥٦.

ضوء المستندات التاريخية، والوثائق العلمية، والدراسات الجامعية من الأدلة والبراهين ما يجعله يعارض الجعليّ في عروبته[1]. فالعرب كانوا يرون من عداهم أعاجم، يقلون عنهم في الحسب والمروءة، ومع أن الإسلام قد غيرّ من نظرتهم إلى الاعراق الاجناس، فإن هذه النظرة المترفعة لم تمت عندهم تماماً[2].

قال أبو حيان التوحيدي: (الأمم عند العلماء أربع: «الروم، والعرب، وفارس، والهند» وثلاث من هؤلاء عجم، وصعب أن يقال العرب وحدها أفضل من هؤلاء الثلاثة، مع جوامع ما لها وتفاريق؛ ثم يقول: اعتبار الفضل والشرف موقوف على شيئين أحدهما:

ما خص به قوم دون قوم أيام النشأة بالاختيار الجيد والرديء، والرأي الصائب والقائل، والنظر الأول والآخر، وإذا وقف الأمر على هذا فلكل أمة فضائل ورذائل، ولكل قوم محاسن ومساوىء، ولكل طائفة من الناس في صناعتها وحلها وعقدها كمال وتقصير؛ وهذا ينفي بأن الخيرات، والفضائل، والشرور، والنقائص مفاضة على جميع الخلق مفضوضة بينهم كلهم، ثم أن هذه الفضائل في هذه الأمم المشهورة ليس لكل واحد من

---

(١) الفلاة: فرع من الفريجة، من الزولة، من عترة؛ «معجم قبائل العرب القديمة والحديثة»، ج ٣، لعمر رضا كحالة، ص ٩٢٦.

فلات: بطن من العرب، «تاج العروس» للزبيدي؛ ج ٩، ص ٣٠٢.

الفلاتة: فخذ من عشائر الشام، «عشائر الشام» لوصفي زكريا؛ ج ٢، ص ٢٥.

الفلتة: من عشائر العراق، «عشائر العراق للغزوات»، ص ٢٨٢.

الفلتة: عشيرة من النفعة، من برقة، من قبيلة عتيبة التي تمتد منازلها من الشرق حتى الوشم والقصيم، قلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة، ص ١٨١.

فليتة: وهي فخذ من مالك من زغبة من بني هلال بن عامر من العدنانية؛ كتاب الجزائر للمدني، ص ١٣٢.

(٢) «الأغاني»: ج ٥، ص ١٨٤.

أفرادها، بل هي شائعة بينها)[1].

ليس الجعلي عربياً قحاً:

ونعود لنتساءل: من قال إن الجعليّ عربي قح؟ يقول ك. م. باربر[2] [ويقطن الجعليون في المنطقة الواقعة في مصب نهر عطبرة حتى شلال السبلوكة، وترجع أصول هذه القبيلة إلى الفور، رغم أنهم يدعون أنهم أشراف العرب].

ويقول الأستاذ يوسف فضل[3]: «وتجمع الروايات السودانية عامة ـ ومعظمها من وضع النسابة السودانيين ـ أن الفونج من سلالة بني أمية الَّذين هربوا من نير الدولة العباسية بعد أن سقطت دولتهم؛ وترجح الروايات أنهم دخلوا السودان عن طريق الحبشة، ولا يختلف الفونج في تمثلهم للنسب العربي عن سائر المجموعات السودانية المستعربة التي اعتنقت الدين الإسلامي».

ويقول نعوم شقير[4]: «فما من أسرة حاكمة ظهرت في السودان إلاَّ ادعت لنفسها نسباً عربياً يتصل بآل البيت».

ويقول الدكتور أحمد شلبي: «ليس هناك تاريخ محقق عن أصل الفونج، وأنهم بقايا الأمويين الَّذين فروا عقب سقوط دولتهم وقيام دولة بني

---

(1) «الامتاع والمؤانسة»، ص ١٠٧.

(2) أستاذ الجغرافيا بجامعة لندن وبجامعة الخرطوم سابقاً، انظر: «سكان السودان»، ترجمة هنري رياض وكرم شفيق الخبير علي عمر، فتح رياض، الناشرون دار الثقافة بيروت، ص ١٩.

(3) مقدمة في تاريخ الممالك السودانية الشرقي، ص ٥١.

(4) «تاريخ السودان»، ج ٢، ص ٩٢ ـ انظر: «الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، د. حسن أحمد محمود، ص ٣١٨.

العباس، حتى وصلت أفواج منهم إلى الحبشة والسودان في القرن الخامس عشر الميلادي، وموطن الشك في هذه الرواية، هو الفترة الطويلة بين سقوط الأمويين سنة ٧٥٠م، وقيام الفونج سنة ١٥٠٥م[١].

إن كل ما قيل في عروبة الفونج والجعليين، وانتساب العبدلاب إلى الأشراف، أو أنهم من القواسمة بطن من رفاعة، وأن رفاعة تكون واحدة من المجموعة الجهنية وقضاعة، إلى آخر ما قيل؛ كل هذا لا يثبت أن الجعلي عربي قح خالص، إنه جنس خليط تولد من أب عربي وأم سودانية أو زنجية؛ وهذا لا ينافي أنه شريف هاشمي آباؤهم عرب دخلوا البلاد، وخالطوا المواطنين وصاهروهم، وعن طريق الوراثة استطاعوا أن يبلغوا مواطن السلطة ويكونوا عدداً من الزعامات، وهذا ما تؤكده رواية الفقيه أحمد بن الفقيه معروف، من أن ذرية عمرو بن سليمان الأموي تصاهرت مع سكان لولوه من بلاد الهمج، حتى صارت مثلهم في جميع الأحوال، وتضيف رواية للسمرقندي، أن ذرية أنس وداود تكاثرت بين السودان أو السود، حتى صارت من العسير التفريق بينهم.

وينفي بروس ادعاء ملك الفونج النسب إلى الدوحة العربية الشريفة، قائلاً: إن تجعيد شعره، وفرطحة قسمات وجهه، وسواده يدلان على أنه من الشلك[٢].

كما ينفي مايكل انتساب الجعليين إلى جد أكبر اسمه: إبراهيم ولقبه الجعل، وتنسبه الروايات إلى سعد بن فضل بن عبد الله بن العباس، عم الرسول ﷺ ويؤيد هذا الرأي بقوة الدكتور حسن أحمد محمود[٣] إذ يقول: «ولست أدري لماذا يميل أستاذنا الدكتور محمد عوض إلى تأييد هذه

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي، د. أحمد شلبي، ج ٦، ص ٣٠٥.

(٢) مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي، د. يوسف فضل، ص ٥٢.

(٣) انظر: «الثقافة العربية في أفريقيا»، ص ٣٠٢.

النسبة، مخطئاً رأي ماكمايكل، علماً بأن مسألة الانتساب إلى العرب دخلها الانتحال منذ القرن الثاني الهجري، فما بالنا بالقرن العاشر الهجري؟ ولا يبعد أن يكون الجعليّون هؤلاء خليطاً من عدة قبائل تنتسب إلى عدنان حقاً، ولكنها لا تنتمي إلى جد مشترك؛ لهذا لا نؤمن بخرافة انتساب مثل هذه المجموعة إلى أب مشترك هو إبراهيم؛ ومن الغريب أن أستاذنا الدكتور محمد عوض يعترف بما كان يعمد إليه هذا الزعيم الجد، بأن يدخل في قبيلته ما ليس فيها؛ إذ يقول لأهل البلاد: جعلناكم منا[1]. فكيف نعيب على ماكمايكل ادعاءه باختلاف أنسابهم؟».

أضف إلى كل ذلك ما يقال: بأن الهمج الَّذين يمثلون بقايا الشعوب الأصلية، التي تسكن جنوب الجزيرة العربية عند قيام مملكة الفونج، أنهم خليط من النوبة والعرب، بينما تحدد بعض الروايات صلتهم بالعوضية الجعليين[2] ومما يؤكد القول بأن الجعليين جنس متولد من التزاوج الَّذي حصل بين المهاجرين العرب الأصليين وقبائل النوبة والزنوج، ما ذكره الدكتور جمال زكريا[3]:

(ومن المتفق عليه بين كثير من الباحثين، أن الهجرات العربية هي التي كونت معظم القبائل السودانية، وقد توافدت هذه الهجرات العربية عن طريق مصر، والبحر الأحمر، وشمال غرب أفريقيا؛ والجدير بالذكر أن التزاوج الَّذي حدث بين المهاجرين العرب وقبائل النوبة، هو الَّذي كون هذه المجموعات الجعليّة التي تميزت في خصائصها العربية وثقافاتها الإسلامية).

---

(١) السودان الشمالي حسن عوض، ص ١٦٦.

(٢) «مقدمة في تاريخ الممالك في السودان الشرقي، د. يوسف فضل حسن، ٧٩.

(٣) «الأصول التاريخية للعلاقات العربية ـ الأفريقية ـ المنظمة للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، سنة ١٩٧٥م، ص ١٤٠ ـ ١٤١.

إذن الجعليّ ليس عربياً محضاً، إنهم من الفور[1] أو جنس متولد من أب عربي وأم نوبية، أو زنجية: (سودانية) إلاَّ أنه الجنس الوحيد الَّذي تميز بالحفاظ على الخصائص العربية واللسان العربي بين سائر القبائل المنضوية تحت لواء الجعليين، امتداداً من بلاد النوبة حتى جنوب أم درمان.

إنني لا أريد بهذا السرد التاريخي التقليل من شأن قبائل السودان الشمالية العريقة وبخاصة الجعليين، فلولاهم لما قامت سلطنات إسلامية، مثل: سلطنة سنار؛ ولا ممالك ومشيخات في شرق السودان وشماله؛ ولولاهم لما قامت لتعاليم الإسلام معاهد ومراكز، وبهم وبالجهود المتضافرة المتعاونة وصل السودان إلى ما وصل إليه اليوم.

وأحسن مثل للجهود التي بذلت في هذا السبيل، الدور الَّذي اضطلع به الجعليّون في حياة السودان، خصوصاً عشيرة المجذوبين التي تنسب إلى الفقيه حامد المجذوب؛ هذه العشيرة كانت ذات أثر واضح في نشر الثقافة العربية في البلاد، وكان كثير من أبنائها يرحلون إلى القاهرة أو مكة طلباً للعلم، ثم يعودون إلى السودان لمتابعة رسالتهم، وبناء المساجد، ونشر الزوايا؛ لتصبح مدارس ومعاهد للتعليم، يفد إليها الطلاب من كافة الآفاق؛ هذه العشيرة أنشأت مدينة دامر، فأصبحت حاضرة روحية للجعليين[2]؛ بل للسودان كله؛ وقد زارها بركهارت سنة ١٨١٤م، ورأى فيها جواً من التقوى، والصلاح، والعلم، وسبب ذلك أن الرئاسة في الدامر كانت لرجال الدين من الجعليين[3] إنهم قاموا بنفس الدور الَّذي قام به الإمام مالك الفوتي وقبيلته في دارفور ومدينة: «كريو»[4] وما قام به قبائل البرنو،

(١) انظر سكان السودان ص ١٦ ك. م بابر أستاذ الجغرافية بجامعة لندن والخرطوم ترجمة هنري رياض وآخرون.
(٢) «تاريخ الحركة الوطنية في السودان، بروفسور محمد عمر بشير، ص ١٢.
(٣) انظر: حسن أحمد محمود، «الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، ص ٣٠٩ ـ ٣١٠.
(٤) تقع جنوب الفاشر، أسسها الشيخ السني المدني، وهو مقر الفقيه مالك الفوتي حفيد =

والفلاتة، والصنهاجة في غرب أفريقيا؛ هذه القبائل كلها قبائل مختلطة وأنها عربية، فالاختلاط لا ينفي العروبة، ولكن ينفي الأصالة في العروبة.

فالجعليّون بلا شك عرب من المجموعة العباسية، ينتسبون إلى أرومة هاشمية؛ ومن العبث الحقير أن يحاول بعض الكتاب كما فعل ماكمايكل الزراية بهذا النسب الشريف، وعلى أية حال فهناك فرع من الأرومة الهاشمية من أبناء سيدنا الإمام جعفر الصادق حفيد الإمام الحسين بن علي ابن أبي طالب، والسيدة فاطمة الزهراء بنت سيدنا ومولانا وجدنا محمد رسول الله ﷺ في السودان، وقد نزح هذا الفرع الشريف من الحجاز، وسكنوا في المنطقة فيما بين قوص وأسوان، وخاصة في مراكز أدفو، وكوم أمبو، ودراوة، وأسوان؛ وقد نزح فريق منهم إلى السودان[1]. وهذا يُشرف كل سوداني، وكل زغاوي، وفلاتي، وبرناوي وأفريقي (أعني سكان القارة).

= الشيخ عثمان دانفودي، وعمدتها الشيخ حسين محمد إبراهيم شمين، وقد كان مناراً من منارات العلم في دارفور، تم ذلك في القرن الرابع عشر الميلادي.

انظر: تشحيذ الأذهان في أخبار بلاد العرب والسودان للتونسي.

(١) نقلاً من «تاريخ السودان القديم»، د. محمد بيومي مهران، ص ١٤١.

الفصل الثاني:

التجمعات القبلية والتفاخر بالقبيلة

التفاخر بالقبيلة:

إذا حدث التفاخر بالقبائل والعشائر إلى حد معارضة قبيلة بقبيلة، والخوض في تفخيم القبيلة والتفاخر بها بإقصاء الآخرين وانتقاصهم، والتي هي سمة من سمات التخلف والتناحر، وملؤوا أفواههم فخراً بعصبياتهم القبلية ونزعاتهم العنصرية، ونسوا أو تناسوا أن الإسلام محا كل هذه الدعاوي وطمس معالم الجاهلية؛ فإذا وصل الأمر إلى هذه الدرجة في المبالغة في الاستخفاف بالأصول، والاستهانة بالأعراق، وإخفاء دور المجاهدين إلى التقريع، والتشنيع، والتجاهل عن قصد، بحيث يكتب مؤلف سوداني أكاديمي[1] كتاباً عن دارفور السياسي، ويتعرض إلى قبائل دارفور جميعها، ولا يشير إلى الفلاتة من قريب أو بعيد، في حين أنه أثبتهم في خريطة دارفور في آخر الكتاب، في حيز أصغر بكثير مما يحتلونه؛ كما يقول الدكتور بدين؛ ويواصل نقده لهذا الكتاب في إبراز الدور السلبي للكاتب، فيقول: (إما أن تكون الفلاتة قبيلة سودانية يكتب عنها لأنها موجودة على الخريطة، أو تكون غير سودانية فيحذفها من الخريطة) ويقول: (إن هذا التقريع والتشنيع لم يقتصر على الفلاتة وحدهم، بل شمل قبائل سودانية أصلية في الغرب والجنوب وبصفات نعف.. عنها).

لكننا نتساءل أين هي الأمانة العلمية التي تفرض التجرد وعدم التأثر

---

(١) موسى المبارك الحسن، صاحب كتاب «تاريخ دارفور السياسي».

بالرأي العام والفهم السائد؟ فالمؤرخ قاضٍ ترجى منه الحيدة والعدل، وإزهاق الباطل، والإنصاف، فكيف إن صار هو الخصم والحكم[1]؟!.

فإذا وصل الأمر إلى هذا الدرك، فإن الباحث في تراث الشعوب وتاريخ القبائل في دراسته وبحثه، سيعرض بلا شك كل الآراء التي طرحت أو افترضت، وتحصلت ـ تأصلت ـ أو تفصلت، بغرض التمحيص والتحليل المنطقي في تاريخ حياة القبائل، ومدّ هجراتها وأصولها وأرض أجدادها، ومنطلق تحركاتها، ومدى قوة دمها في العروبة، وعراقة أنسابها وصلتها بالعربي والعربية، والعجم والزنجية، وبالتالي يحصل الجنوح إلى المفاخرة وحب التكاثر، فترتفع الشعارات العنصرية والنداءات القبلية يا للأنصار، ويا للمهاجرين! وتلك دعوى الجاهلية، قال الكلبي في سبب نزول سورة التكاثر: (إنها نزلت في حيين من قريش: بني عبد مناف، وبني سهم، تعادوا وتكاثروا بالسيادة والأشراف في الإسلام؛ فقال كل حي منهم: نحن أكثر سيداً، وأعز عزيزاً، وأعظم نفراً، وأكثر قائداً؛ فكاثر بنو عبد مناف بني سهم، ثم تكاثروا بالأموال فكثرتهم بهم، فنزلت: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾.

وقال مقاتل وقتادة، وغيرهما: نزلت في اليهود حين قالوا: نحن أكثر من بني فلان، وبنو فلان أكثر من بني فلان.. فألهاهم ذلك حتى ماتوا. وقيل: نزلت في حيين من الأنصار، وقيل: إنهم كانوا يزورون المقابر فيقولون: هذا قبر فلان وهذا قبر فلان. يفتخرون بذلك؛ والمهم من كل ذلك أن السورة في جملتها تؤكد أن المفاخرة من الخصال المذمومة: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾.

---

(١) انظر: مقال دعوة إلى الحوار الهوية السودانية ٢ ـ ٢ وموقع الفلاتة ـ الفلانيين فيها من الأعراب، د. محمد أحمد بدين، جريدة الخرطوم.

المؤتمرات القبلية:

قلنا عن القبلية إنها قبيحة من أي جهة صدرت، ونؤكد أنها منتنة، ولا يمكن أن تكون كالياسمين بأي حال من الأحوال، ما دام نبي الإسلام الَّذي لا ينطق عن الهوى وسمها بالنتن وقال: (دعوها فإنها منتنة).. (تزيد مصائب الوطن العزيز) وإن حاجتنا إلى جمع شمل القبائل وتأكيد التعايش السلمي بين القبيلة والقبائل الأخرى، واحتضان أبناء القبائل الأخرى، من مبدأ المشاركة في الماء، والنار، والكلأ، وحسن الجوار.. من منطلق فطرة الانتماء إلى رابطة الدم، ونبذ التعصب العرقي والاستعلاء[1].. لا يجعلنا بحال من الأحوال أن نسميها ياسمينية، أو نحاول فلسفة الكلمات والعبارات بشتى الأساليب والمماحكات، لنؤكد ياسمينيه القبلية.

يمكن أن نسمي القبيلة بالقبيلة المثالية، والمؤتمر بالمؤتمر المثالي، لحاجتنا إلى جمع شمل القبيلة لتأمين المارة وإيقاف عملية النهب المسلح، وتحديد المسؤولية وتحديد سلوكيات القبيلة من الانفلات، وإلزام عضوية القبائل بالأخلاق الإسلامية الفاضلة[2] كعملية اضطرارية ملحة في حفظ النفس والمال، أو لدفع الضرر العام، ولا شك أن الاضطرار يبيح المحظورات، كما أنه يباح ارتكاب أخف الضررين لاتقاء أشدهما، ولا شك أن من المقاصد الإسلامية دفع المضار، وأنه مقدم على جلب المنافع، ولذا جاء في الحديث: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم».

---

(١) انظر: ورقة الرؤى المستقبلية لقبيلة البرتي في مؤتمر أبناء البرتي، ص ١٥، المنعقد بمليط في الفترة ١٧ ـ ٢٠ يوليو، ١٩٩٥م.

(٢) انظر: خطاب الفريق الركن عمر حسن البشير ـ رئيس الجمهورية ـ في الجلسة الافتتاحية لمؤتمر أبناء البرتي بمليط يوليو ١٩٩٥.

الدعوة إلى التجمعات القبلية عملية اضطرارية:

ومعنى هذا أنه لا يصح لنا تمجيد القبلية بتنشيط مدها ولا تحسينها مهما كانت الحاجة إليها بتغيير أصل حكمها، وجعلها حلالاً مباحاً، فالميتة ميتة ومحرمة، ولكن للمضطر أكلها، وكشف العورة محرمة، ولكن إذا اقتضى العلاج عملية جراحية تعين كشفها؛ وتناول النجس محرم، ولكن إذا كان دواء واضطر إليه جاز، ونحن مضطرون ـ بلا شك ـ إلى جمع شمل القبائل كعلاج وقائي، أو عملية اضطرارية لحسم النهب المسلح، وتحديد المسؤولية، وتأمين المارة، وجعل القبائل على أهبة الاستعداد للدفاع عن دينها وعرضها ووطنها تحت راية: (امتازوا لنرى اليوم بلاء كل حي) راية رفعها رسول الله ﷺ في معركة الخندق، فضم المهاجرين إلى المهاجرين، والأوس إلى الأوس، والخزرج إلى الخزرج. ورفعها أيضاً في فتح مكة كما رفعها خالد بن الوليد رضي الله عنه في حروب الردة.

امتازوا جميعاً: مضى المهاجرون تحت رايتهم والأنصار تحت رايتهم، وكل بني أب على رايتهم[1].

إنها ليست دعوة للقبلية أو تحزب للعرقية لا؛ إنها ظرف خاص، وحالة استثنائية، وضرورة ملحة؛ إنها لا تصلح ولا تستخدم إلاً في تلك الظروف والأحوال الاستثنائية القسرية للضرورة (والضرورات تقدر بقدرها) وفي سبيل حفظ الضرورات أبيحت المحظورات بقصد كفالة ما هو ضروري للناس بإيجاده وحفظه وحمايته؛ وهذا ما تراه بكل دلالته وموحياته ماثلاً في خطاب الفريق الركن عمر حسن البشير ـ رئيس الجمهورية ـ في الجلسة الافتتاحية لمؤتمر البرتي بمليط:

---

(١) رجال حول الرسول ﷺ خالد محمد خالد، ص ٣٦٩.

«حقيقة كما تحدثنا ـ دائماً . . أبداً ـ ولفترة طويلة سمعنا وظللنا نسمع الأدب الَّذي يتحدث عن مساوىء القبلية، وهذه فترة من تاريخ السودان، حاول الناس أن يطمسوا فيها القيم، والمثل، والأخلاق الكريمة عن الشعب السوداني، لذا ركزوا على القبلية لأن الحقيقة القبلية وكما تحدثت اليوم هي واحدة من الأشياء التي تفرض على الإنسان أن يسلك سلوكاً قويماً، لأن الإنسان الَّذي ينتمي إلى جهة ويعتز بها دائماً يكون حريصاً على سمعتها، ودائماً يكون حريصاً بأن يأتي من الأقوال والأفعال ما يضاف كرصيد لهذه الجهة التي ينتمي إليها؛ ولأن الناس كانوا قد استهدفوا أخلاقيات الناس وفي فترات من التيه والغفلة، حينما طفا الشيوعيون على السطح وحاولوا التغلغل في المجتمع، فاصطدموا بالقيم الموجودة في المجتمع، فحاولوا هدم هذه القيم، لأنه بوجود هذه القيم لن تكون للشيوعية قائمة، لذا ركزوا على القبلية.

ونحن لا نقول: إن لكل شيء محاسن، لكن لكل شيء محاسنه وعيوبه؛ لكنهم حاولوا أن يركزوا ويضخموا من عيوب القبلية، ويظهروا القبلية كأنها ردة، كأنها تخلف، كأنها عصبية، كأنها تفتيت بالأمة، وإذا كانت كذلك لما ذكرها القرآن إنها هي للتعارف والتعايش بين الناس، لأن الناس إذا لم يتعارفوا لا يتعايشون، والإنسان لا يمكن أن يعيش فرداً، ولولا أهمية القبلية لما أوصى الرسول ﷺ بأن تعرف الناس أرحامها، تعرف أنسابها لتصل أرحامها؛ فكل هذه قيم حاول الناس هدمها فترسخت في أذهان كثير من الناس، لأن هناك فترة طويلة أخذ الضرب على القبلية، وأصبحت كثرة النقرة ـ كما يقول أهلنا ـ تكسر الحجر، بذلك أثرت في كثير من الأجيال؛ وأن القبلية كلها مساوىء، نحن نعلم أن الأمر غير ذلك، ولكننا نعلم أن هناك خطورة في إحياء العصبية القبلية وجعلها مجالاً للاختصام، والافتعال، والاحتراب؛ الأمر الَّذي حدث في دارفور، هنا. . إلى أن يقول: ونحن نشيد بهذا المؤتمر وبمثل هذه المؤتمرات، وسنظل

نرعاها لنقيم المثال الحي للقبلية التي ننشدها، والقبلية التي يريدها الإسلام والدولة[1] الإسلامية، نحن نريد أن نخلق المجتمع المسلم الَّذي يتولى فيه الإنسان في موقع القيادة»[2].

فالخطاب ـ كما ترى ـ أكد بأن لكل شيء محاسن ومساوىء، والشيوعيون استغلوا مساوىء القبلية فكان الإفراط، ولا شك أن الخطورة تكمن في إحياء العصبية القبلية، وجعلها مجالاً للخصام والاقتتال؛ الأمر الَّذي حدث فعلاً في دارفور (كما قال الفريق الركن عمر حسن البشير) وحدث أيضاً في الأندلس، إذ دخل العرب بالإسلام أرض الأندلس، فلما جحدوه وتذكروا عروبتهم، ونبضت عروق الجاهلية في سيرتهم، طُردوا من هذه الأرض شر طردة، وأفقرت منهم مغانٍ طالما عمرت بشيبهم وشبابهم[3].

فالقبلية حالة اضطرارية طالما اعترفنا بمساوئها وحصل النهي عنها، قد تستدعيها ظروف استثنائية تحت شعار: امتازوا لنرى اليوم بلاء كل حي بلا إفراط ولا تفريط، بلا مبالغة في المساوىء فيحصل الإفراط، ولا في المحاسن فيحصل التفريط، إنها مثل: (الكول) والفسيخ، والمصران، والتركين، كريهي الرائحة، ولكن أحياناً تستسيغها النفس في حالات انعدام الشهية، كمقبلات أو لمجرد التغيير.

أخرج البخاري ومسلم، وغيرهما، عن جابر بن عبد الله قال: «كنا مع النبي ﷺ في غزاة ـ قال سفيان: يرون أنها غزوة بني المصطلق ـ فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال المهاجري يا للمهاجرين؛ وقال الأنصاري: يا للأنصار؛ فسمع ذلك النبي ﷺ فقال: (ما بال دعوى

---

(١) حصاد الغرور، الشيخ محمد الغزالي، ص ١٦٩.

(٢) انظر: نص الخطاب بكامله: ماذا عن مؤتمر البرتي؟ الفترة من ١٧ يوليو ١٩٩٥م إلى ٢٠ يوليو ١٩٩٥م، بمليط.

(٣) حصاد الغرور، الشيخ محمد الغزالي، ص ١٦٩.

الجاهلية)؟ قالوا: رجل من المهاجرين كسع رجلاً من الأنصار؛ فقال النبي ﷺ: (دعوها فإنها منتنة)».

لم يعد في الإمكان تصنيف الشعب السوداني إلى غرابة وأولاد بلد:

إن النزعات العنصرية والقبلية برغم تجدد الحياة والزمن، وانتقال أحوال البشر جميعاً من طور إلى طور؛ لا تزال باقية ذات أثر بارز في الحياة، وهي تتحكم بشعور الفرد إلى حد بعيد في سلوكه الاجتماعي والشخصي، تحكماً ظاهراً، وهذا الّذي جعل الفريق الركن يقول: (إن القبيلة المربوطة مع بعضها يسهل ضبطها، وإذا ضبطت القبيلة تضبط سلوكياتها، وإذا ضبطت سلوكياتها من الإنفلات معناه التعايش السلمي مع بقية القبائل.. ولكن حالة الإنفلات في بعض المواقع ضيعت هذه القيم، الأمر الّذي حدث في دارفور)..

الإنفلات حالة من حالات المحاذير، مما يجعل الإشادة بالقبلية تعد من المحظورات، وإن اللجوء إليها يعد من قبيل الضرورات، لأن العربي أو الأفريقي مهما كان متصفاً بالعلم والتحرر لا يمكنه أن يتغلب على نزعته القبلية، مهما كان ضالعاً في العلم والثقافة، وخاصة عندما يجد الجد، لأنها نزعة.. والنزعات جميعها عند الإنسان الراقي، والمتأخر، والبدوي، والمتحضر، سواء بسواء، لأن مصدرها النفساني في منبعها الأصلي (عاطفة).

أضف إلى ذلك المؤثرات التاريخية والاجتماعية المتوارثة على مر الأجيال، كم لها من الأهمية في تكوين عقل الإنسان.

إن الأوروبي الّذي جاء يستعمر ويستثمر، والعربي المهاجر الّذي جاء يفيد ويثري، قد ألقيا على الأسود أو على المواطنين الأصليين دروساً بليغة في الحياة الحديثة، في الوطنية والحرية، في النهضة والحضارة، في حياة الرفاهية والخروج عن الحياة الفطرية والتقليدية غير المكلفة.

وفي ميدان الصراع، وتشابك المصالح، وحب الذات، والأنانية المفرطة، يحدث (الكسع) فينادي المهاجري يا للمهاجرين، والأنصاري يا للأنصار؛ فكان لا بد من ربط القبلية ربطاً محكماً بالإسلام وبمبادئه، كالمساواة، والعدل، والشورى، وعلاقات السلطات، وهذا ما فعله المجاهد الكبير الإمام الشيخ عثمان دان فوديو، وطبقه الإمام المهدي في السودان؛ فكان لثورتهما النجاح والتقدم في سودان القارة وسودان وادي النيل، ولعل هذا ما فهمته من خطاب الفريق الركن حينما قال: (نحن نشيد بهذا المؤتمر وبمثل هذه المؤتمرات، وسنظل نرعاها لنقيم المثال الحي للقبلية التي ننشدها، وللقبلية التي يريدها الإسلام والدولة الإسلامية، نحن نريد أن نخلق المجتمع المسلم الَّذي يتولى فيه الإنسان في موقع واجباته ومهامه، ونحن نريد من القيادات الأهلية في المرحلة الجديدة أن يكون لها دور جديد.. نريد إدارة القدوة والمثال الحي للإدارة (الأهلية) التي تمثل القيم والأخلاق، الإدارة الداعية الراعية، الإدارة التي تقود إدارة قبيلتها إلى الجنة إن شاء الله).

* * *

الفصل الثالث:

ضرورة إعادة كتابة تاريخ السودان

اسمحوا لي أن أقول بأنَّ الأمر يحتم على القادة الَّذين يصدرون القرارات أن يعيدوا النظر بخططهم وأساليبهم، وأن يجعلوا في مقدمة الأساليب العمل الإيجابي والفوري، لإعادة كتابة تاريخ السودان، ليخففوا على الأقل من المشاعر المعادية التي تكرس الإحن والضغائن بين الشعب الواحد.. على مدى التاريخ، طالما صار كتاباً يدرس.. إنه لم يعد في الإمكان قبول تصنيف أمتنا في المعجمية السياسية السودانية المعاصرة، بحيث توصف بعضها: (بالغرَّابة) وهم سكان الغرب الَّذين يسكنون في غرب السودان، وعلى زعامتهم البقارة، وإلى سكان النيل وزعمائهم من الأشراف، والدناقلة، والجعليين.

وبعد:

التاريخ وما أدراك ما التاريخ؟![(١)].

هل التاريخ علم له أهدافه وغاياته؟!.

وهل التاريخ محكمة عادلة..؟!.

وهل المؤرخ قاضٍ نزيه..؟!.

نعم: (إنه ما من أمة أو دولة إلاَّ ولها تاريخ يرجعون إليه ويعولون عليه، ينقله خلفها عن سلفها وحاضرها عن غابرها؛ تقيد به شوارد الأيام

---

(١) انظر: «الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ»، للحافظ المؤرخ شمس الدين السخاوي، ص ٦٦.

وتنصب به معالم الأعلام؛ ولولا ذلك لانقطع الوصل، وجهلت الدول، ومات في الأيام الأواخر ذكر الأوائل.. إلخ)[1].

وقال الكمال جعفر الأدفوي في مقدمة: (الطالع السعيد):

[هو فن يحتاج إليه وتشديد الضنانة عليه، إذ به يعرف الخلف أحوال السلف، ويميزوا منهم من يستحق التعظيم والتبجيل ممن هو أهون من النقير وأحقر من الفتيل، ومن وسم منهم بالجرح أو التعديل..؛ وهو - أيضاً - من أقوى الأسباب في حفظ الأنساب أن تنساب..] قيل في علم التاريخ هذا.

وقيل فيه أيضاً: [الغالب على التأريخ جمع الغث والسمين، والواهي والمتين، والتكرار الخالي من الفوائد، والفرائد التي يعجز عن جمعها الفرائد].

وقال التاج السبكي في كتابه: (معيد النعم): [وهم - أي المؤرخون - وعلى شفا جرف هار، لأنهم يتسلطون على أعراض الناس، وربما نقلوا مجرد ما يبلغهم من كاذب أو صادق، فلا بد أن يكون المؤرخ عالماً، عادلاً، عارفاً بحال من يترجمه؛ ليس بينه وبينه من الصداقة ما قد يحمله على التعصب له، ولا من العداوة ما قد يحمله على الغض منه؛ وربما كان الباعث له على الغض من قوله مخالفة العقيدة؛ فيأتي إلى من يبغضه فينقل جميع ما ذكر من مذامه، ويحذف كثيراً مما يراه من ممادحه، ويعكس الحال فيمن يحبه...].

وقال التاج السبكي في ترجمة أحمد بن صالح المصري في: (طبقاته الكبرى): [أهل التاريخ ربما وضعوا من أناس أو رفعوا أناساً؛ إما لتعصب أو جهل، أو لمجرد اعتماد على نقل من لا يوثق به، أو لغير ذلك من

---

(١) هذا النص ينسب إلى العماد محمد بن محمد بن حامد الأصبهاني الشافعي الكاتب.. من كتبه «وفيات الأعيان»، «الطبقات الكبرى»، «مفتاح السعادة».

الأسباب] قال: [والجهل في المؤرخين أكثر منه في أهل الجرح والتعديل، وكذلك التعصب؛ قلَّ أن رأيت تاريخاً خالياً منه... وأما تاريخ شيخنا الذهبي (غفر الله له ولا آخذه) فإنه على حسنه وجمعه مشحون بالتعصب المفرط، فلقد أكثر الوقيعة في أهل الدين.. أعني الفقراء الّذين هم صفوة الخلق، واستطال بلسانه على كثيرين من أئمة الشافعية والحنفية][1].

فإذا كان هذا ما قيل في الإمام الذهبي وتاريخه العظيم، فماذا تقول في نعوم شقير اللبناني الجنسية، الّذي يعمل في المخابرات الإنجليزية[2] وفي كتابه عن تاريخ وجغرافية السودان الّذي يعد أول مرجع لتأريخ السودان؟ ثم ماذا تقول فيه وفي ك. م. بابر، أستاذ الجغرافية بجامعة لندن وبجامعة الخرطوم ـ سابقاً ـ في كتابه: (سكان السودان)؟.

[لقد اشترط المؤرخون في المؤرخ العدالة مع الضبط التام الناشىء عنه، مزيد الاتقان والتحري].

[وأن يكون عالماً بطريق النقل، حتى لا يجزم إلاّ بما تحققه، فإن لم يحصل له مستند معتمد في الرواية لم يجز له النقل].

[وألاّ يكتفي بالنقل الشائع، خصوصاً إذا ما ترتب على ذلك مفسدة من الطعن في حق أحد..].

[وأن يجتنب التعريض للوقائع المنقصة..].

[وأن يكون عارفاً بمقادير الناس، وبأحوالهم، ومنازلهم؛ فلا يرفع الوضيع ولا يضع الرفيع].

---

(١) انظر: كتاب «الإعلان بالتوبيخ»، ص ٩٠ ـ ٩١، للحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن عبد الرحمٰن السخاوي.

(٢) ضرار صالح ضرار، «تاريخ السودان الحديث»، ص ٢٠٥.

[وأن يتجنب المحاباة المفضية للعصبية ومن الغرض والهوى].

قالوا: (ويشترط في المؤرخ مصاحبة الورع والتقوى، بحيث لا يأخذ بالتوهم والقرائن التي تختلف خوفاً من الدخول تحت قوله ﷺ: [إياكم والظن فإن الظن من أكذب الحديث][1]. ومتى لم يكن ورعاً ـ كونه معروفاً بالعلم ـ اشتد البلاء به بخلاف العكس؛ فالورع والتقوى يحجزه ويوجب له الفحص والاجتهاد، وترك المجازفة. .)[2].

من يقول بأن واحداً من هذه الشروط كان متوفراً في نعوم شقير أو في ك. م. باير، وغيرهما؟.

إن تأريخاً يسجل بأن الشايقية ـ وهم من أعظم القبائل السودانية شجاعة واستبسالاً ـ بأنهم عملاء، وأنهم من أعمدة الحكم التركي المصري في البلاد، وأنهم على كثير من عدم الوفاق مع عدد من القبائل، منها: الدناقلة، والجعليين، والعبدلاب؛ كما كانوا من جباة الضرائب لحكومة الأتراك المصرية، وأنهم ساعدوا. . بل شاركوا مع الجيش التركي في إحراق كثير من القرى، وبوجه خاص المتمة، والحلفاية، وتوتي، والعيلفون[3] وأنهم يدخلون في عداد من وصفهم محمد الشريف ـ أستاذ المهدي ـ في قصيدة يناوىء بها المهدي بإيعاز من الحكمدار عبد القادر باشا، ويحاول أن يذم المهدي ويبطل دعواه المهدية[4] بقوله في طريقة جباية الضرائب:

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب «الوصايا» ومسلم في «كتاب البر».

(٢) انظر: «الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ» ٩٠.

(٣) «تاريخ الحركة الوطنية في السودان»، بروفسور محمد عمر بشير، ص ١٧.

(٤) «تاريخ السودان الحديث» ضرار صالح ضرار، ص ١١٢ ـ ١١٣.

يقول: ولهذا السبب فإن الشايقية دخلوا الطريقة المرغنية بسبب قربهم من الطبقة الحاكمة.

بـضـرب شـديـد ثـم كـف مـؤلـم ومـن بـعـده الإلـقـاء فـي الـشـمـس
وأوتاد ذي الأوتاد من بعض فعلهم وأشنـع مـن ذاك كـلـه عـمـل الـهـر

مثل هذا التاريخ يجب أن يعاد النظر فيه لما فيه من التحامل، سواء على الشايقية، أو على الشيخ محمد الشريف نفسه؛ كيف مثله يكون أداة وبوقاً يهاجم المهدية بإيعاز من الحكمدار عبد القادر؟ كيف يصح إثبات مثل هذه العبارة. . والقصيدة كلها في تمجيد المهدي والإعجاب به؟.

يـروم الـصـراط الـمـسـتـقـيـم عـلـى يـدي
فـبـايـعـتـه عـهـداً عـلـى الـنـهـي والأمـر
قام على نهج الهداية مخلصاً على يدي
وقـد لازم الأفـكـار فـي الـسـر والـجـهـر
وكم قام وكم صلى؟ وكم صام وكم تلى
مـن الله مـا زالـت مـدامـعـه تـجـري
وكـم بـوضـوء الـلـيـل كـبـر لـلـصـبـح
وكـم خـتـم الـقـرآن فـي سـنـة الـوتـر
لـذاك سـقـى مـن مـنـهـل الـقـوم شـربـة
بـهـا كـان مـحـبـوبـاً لـدى الـنـاس فـي الـبـر

إن القصيدة أظهرت إعجاب الشيخ بتلميذه، ومحبته له، والإشارة به؛ بل ودعوة الناس للالتفاف حول هذا التلميذ الَّذي سقاه الله من منهل القوم؛ وضرورة مبايعته طالما بايعه أستاذه عهداً على الأمر والنهي.

كيف يتسق هذا وينسجم مع عبارة: إن القصيدة ألفها الأستاذ محمد الشريف ليناوىء بها المهدي، وأنها بإيعاز من الحكمدار عبد القادر باشا، وأنه حاول فيها ذم المهدي وإبطال دعواه المهدية، وأنه كان من الموالين للحكم المصري.

إن مثل هذه العبارات يجب أن لا نكتفي في إثباتها على النقل الشائع، خصوصاً إذا ترتب على ذلك مفسدة من طعن في حق أحد.. إذ إنه يتعين على المؤرخ المسلم أن يجتنب التعريض للوقائع المنقصة.

إن التاريخ الَّذي يسجل على الجعليين بقيادة أميرهم عبد الله ود سعد، أنهم خانوا الثورة المهدية والحكومة الإسلامية الوطنية، والاتفاق مع رجال قبيلته على العصيان مهما كانت النتائج ـ كما فعل من قبل المك نمر ـ وبلغ بهم الحماس الجعليّ أشده، ثم اتصلوا بجيش كتشنر الإنجليزي الكافر المستعمر ليمدهم بالسلاح ولبى طلبهم[1] لهدم دولة الإسلام واستعمار الأوطان؛ وبينما كان الجعليون يعدون المفاجأة لمحمود ود أحمد وجيشه إذ هجم عليهم، ونزلت بهم مجزرة عظيمة لا تقل بشاعة عن مجزرة الدفتر دار بعد مقتل إسماعيل باشا؛ وتم القضاء على المقاومة الجعليّة تماماً، واحتل الأنصار المدينة ينتظرون جيش كتشنر بيقظة وحماس[2].

إن التاريخ الَّذي يسجل هذه الأحداث بهذا الأسلوب، كما يوصف الجعليين بأنهم تجار الرقيق، وأنه لما عمدت الحكومة المصرية إلى إلغاء تجارة الرقيق ثم الإلحاح في هذا الإلغاء، ساءهم ذلك وزادهم إساءة إعفاء الشايقية من الضرائب دون سائر القبائل، فكان أمراً شديد الوقع على الجعليين، يرون فيه مذلة وهوانا؛ فكان تأييدهم للمهدي لا عن وطنية وعقيدة، وإنما نكاية في الشايقية ثم في الحكومة التي احتضنت الشايقية؛ لذلك كان هؤلاء الجعليّون ممن أيدوا المهدي وساروا في ركابه وآثروه، لا عن وطنية صادقة أو إيمان وعقيدة، إنهم كانوا يقولون:

---

(١) «تاريخ السودان الحديث، ضرار صالح ضرار، ص ٢٠٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٠٠.

[يا نعم العباسية... والله ما في رزية غنيمة الشايقية][1].

إن مثل هذه الأحداث يجب التحوط في نقلها وإثباتها، فالامر لا يخلو من المجازفة والغرض.

وقل مثل ذلك في الكتابات التاريخية التي تحاول إضعاف مكانة الدناقلة والتقليل من شأنهم، وإنهم يمارسون الطبخ والخدمة في المنازل، والمقاهي، والفنادق؛ ويوصفون بالأمانة والاعتدال؛ ويأتي مهطرق آخر - لا أظنه إلاَّ فاجراً - فيسجل (إن الدناقلة أكثر الناس ميلاً إلى الغش والتدليس من بين شعوب الأرض أجمعين، وهم يفضلون الموت على قول الحق في أية مسألة تتعلق بمصالحهم)[2].

إن مثل هذه الاتهامات الدنيئة والحقيرة لا تصدر إلاَّ من حاقد، يجب أن يعلق عليه وأن يصحح بما يطابق الواقع، بعيداً عن مثل هذا التحامل المشحون بالحقد المفرط على هذه القبيلة، ووصفهم بالجبن والاستسلام، بينما معاهدة البقط أثبتت شجاعتهم وقوة عزيمتهم، واستبسالهم في الدفاع عن أوطانهم وعقيدتهم.

إن التاريخ الَّذي يعتبر أولئك الَّذين ساندوا المهدي ووقفوا معه في جهاده، هم لصوص وقطاع طرق، وأن خليفة المهدي طاغية متعطش للدماء؛ مثل هذا التاريخ يجب أن يصحح[3].

إن التاريخ الَّذي يصف ملك العبدلاب بالجبن والخور، وأنه لم

---

(١) نعوم شقير، ج ٢، ص ١١٢ - انظر: «الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا»، د. حسن أحمد محمود.

(٢) ك. م باربر: «سكان السودان»، ص ١٦ - ١٧.
وقد كان أستاذ الجغرافيا بجامعة الخرطوم - سابقاً - وهذا الكتاب قام بترجمته هنري رياض، وكرم شفيق، والخبير علي عمر، وفتح الله رياض؛ كلهم جماعة معروفة في الخرطوم؛ الناشرون: مكتبة النهضة السودانية الخرطوم.

(٣) رأي شقير وشكري، انظر: ضرار صالح ضرار، ص ١٢١، محمد عمر بشير، ص ٢٦.

يحاول أن يهجم على جيش إسماعيل وهو يعبر النيل بالقرب من حلفايا، وهو أضعف ما يكون عسكرياً، وكان من السهولة بمكان الفتك بهم في غارة ليلية واحدة كما يقول: (كايو)[1].

إن مثل هذا التاريخ الَّذي يشتمل على كل هذه الأغلاظ والسخرية يجب أن يُحرر من تلك الاتهامات والحقائق غير المؤكدة إذا صح تسميتها حقائق، لأنها ليست فيها قيم تاريخية.

إن التاريخ الَّذي يصنف الشعب الواحد والأمة الواحدة إلى غرّابة، وهم الفلاتة، والبقارة، وأولاد بلد، وهم القبائل القاطنة على النيل[2]، ويقسم أولاد البلد إلى جعليين، ودناقلة، وعبدلاب في مجابهة مع الشايقية؛ بل كل القبائل القاطنة في شمال السودان كانت ـ جميعها ـ تشكو من الإغارات التي كان يقوم بها الشايقية، بل وصل الأمر إلى ما يقرره المؤرخ السوداني فيقول: [ومن الحقائق المعروفة أن إسماعيل ـ في أول أمره ـ كان يقول للدناقلة ومن جاور الشايقية ثم للجعليين، بأنه إنما جاء ليخلصهم من اعتداءات الشايقية][3].

إن التاريخ الَّذي يصف أهل دارفور، وسكان جبال النوبة، والانقسانا بأنهم من الأجناس الأقل أهمية بالنسبة لقبائل السودان الأخرى، وأن البشاريين هم أهل غدر وخديعة[4]. وإن الفور قبيلة مجهولة الاصل[5] مع اتهم والدناقلة من اصل واحد (التنجر)[6].

---

(١) كايو ـ الرحالة الَّذي كان يرافق الحملة، وكان يتمنى أن يحاول ملك العبدلاب الهجوم على إسماعيل باشا، إلاَّ أن ملك العبدلاب كان يقول له: إن الأتراك لم يبقوا في البلاد طويلاً ـ انظر: ضرار صالح ضرار، ص ٣٤.

(٢) ضرار صالح ضرار، ص ٢١٣.

(٣) ضرار صالح ضرار، «تاريخ السودان» الحديث، ص ٣٣.

(٤) «تاريخ الحركة الوطنية في السودان»، محمد بشير عمر، ص ٦ و١٢.

(٥) السودان المأزق التاريخي محمد أبو القاسم حاج محمد ص ٤٨.

(٦) راجع ص ٥٩ من نفس الكتاب.

[وإن طلبة كلية غردون حتى عام ١٩٠٦ غالبيتهم من السودانيين السود من سلالات عهد الاسترقاق، وإن الانجليز استقطبوهم لهذه الكلية اعتقاداً بان ابناء سلالات الرقيق بحكم وضعهم التاريخي والاجتماعي سيكونون اكثر ولاءاً للبريطانيين...][١].

وأن الغزو التركي المصري يعتبر - من وجهة النظر التاريخية - الخطوة الأولى التي استهدفت خلق السودان الحديث[٢].

وأن السودان قبل فتح محمد علي باشا كان مجرد فراغ، يحق لمحمد علي أن يفتحه ويتملكه حسب نظرية الخلو.. وأن السودان ظل يعيش في بربرية بغير نظام أو هدف حتى جاء الحكم الثنائي؛ وفي اعتبار آخرين أن هذه البلاد مفتوحة في شكل حق لغزو حاكم قوي في مصر[٣].

إن مثل هذا التاريخ أو مثل هذه الكتابات التي تتجاهل مقادير الناس، وأحوالهم، ومنازلهم، وأقدارهم، وتحاول إخفاء الحقائق، وتتحامل بالمحاباة المثيرة للعصبية والقبلية؛ يجب أن يصحح، وأن يعاد النظر في صياغتها وعلى وجه السرعة.

إنني من هنا أناشد المسؤولين الغيورين على مصلحة شعبنا السوداني، وفي مقدمته وزير التعليم العالي، أن يولي هذا النداء عين عناية دعوية، وأن يخصص له الميزانية اللازمة؛ ولا أظن أن أقسام التأريخ بجامعتنا تتأخر عن القيام بدورها (الأكاديمي) الاستقصائي والثبوتي وفق المناهج الحديثة.

والله أسأل السداد في القول والعمل، وهو من وراء القصد، إنه هو العليم الخبير وهو المستعان

* * *

---

(١) محمد ابو القاسم حاج محمد. السودان المأزق التاريخي ص ١٨٤ - ١٨٥.

(٢) المرجع السابق، ص ١٦.

(٣) الشخصية السودانية، محمد إبراهيم أبو سليم.

الملاحق

الفلاتة والمسح الأكاديمي والدراسات الجامعية المتخصصة أصلاً وجهاداً وهجرةً

ملحق رقم (١): الآراء والنظريات حول أصل الفلاتة ـ د. حسن عيسى عبد الظاهر.

ملحق رقم (٢): الفلاتة ومبدأ الصراع الجهادي ـ د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ.

ملحق رقم (٣): الفلاتة والهجرة إلى حيث التمكن من إقامة الدين ـ تحقيق د. الأمين أبو منقة.

ملحق رقم (٤): الفلاتة والتكرور والقبائل العربية في السودان الشمالي ـ أستاذ الطيب عبد الرحيم.

ملحق رقم (٥): دخول الفلاتة ـ الفلانيين إلى السودان ـ د. محمد أحمد بدين.

ملحق رقم (٦): تاريخ عقبة بن نافع في جدول ـ للأستاذ بسام.

ملحق رقم (٧): ترجمة الشيخ عثمان دان فوديو ـ الدكتور عبد الرحمن بارود.

ملحق رقم (١)

الآراء والنظريات حول أصل الفلاتة[١]

الفولاني[٢]:

اسم لشعب كبير يعيش منتشراً في غرب أفريقية من قديم، وله دور هام هناك قديماً وحديثاً؛ ولالتماس نسب لهذا الاسم، فهناك عدة احتمالات: فالفولانيون ينسبون أنفسهم إلى (العيض بن إسحاق) ومن أبناء العيض هذا: (فلان بن العيض) فيحتمل إذا صح هذا النسب أن يكونوا قد سموا باسم جدهم الأول فلان بن العيض هذا.

---

(١) هذا الدراسة للدكتور حسن عيسى عبد الظاهر، نقلاً من كتابه: «الدعوة الإسلامية في غرب أفريقيا وقيام دولة الفلاني» من مطبوعات المجلس العلمي لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١م.

(٢) اسم الفولاني يظهر في المصادر والمراجع، وتنطق به ألسنة الناس هناك في صور كثيرة مختلفة ومتقاربة، حسب اللهجات واختلافها، والكتاب وتباينهم؛ أما هم فيطلقون على أنفسهم اسم: «الفلاني ـ فوله ـ الفوله ـ فلبي ـ الفولبي ـ ومفردها، وينطقه جيرانهم بصور شتى تربو على المائة: فيطلق عليهم الزنوج: فلا؛ والهوسا في نيجيريا بعامة ينطقونه: «فولاني أو الفولاني» والبامبارا يسمونهم: «فولا» والكانوري يسمونهم: «فلاتا» وبورنو العرب ووادي النيل يسمونهم: «الفلاتة» وفي مجموعة اللغات الأفريقية الغربية: «فوليه، فول بيل» وفي الكتابات الأوروبية وبخاصة الفرنسية: «الفولز» انظر: «إنفاق الميسور» وتزيين الورقات وضبط الملتقطات، في عدة مواضع؛ والدعوة إلى الإسلام، ص ٣٦٠؛ والجغرافيا التاريخية الإسلامية، ص ٦٦؛ وحاضر العالم الإسلامي، لشكيب أرسلان، ج ٣؛ وجونستون، ص ٣٢.

ويرى بعض الباحثين أن تسميتهم بـ: (الفلاتة أو الفولاني) تسمية عربية[1]، قد[2] يكون مصدرها: (الإفلات) من الحدود، إذ هم شعب رحل ينتشرون من حوض السنغال إلى حوض النيل.

والفلاتة ـ بتشديد اللام وبالتاء ـ ناحية متسعة بالمغرب؛ وهناك من يرجع أصلهم إلى هذا المكان، وأنهم تسموا به أو تسمى بهم؛ ومن عاداتهم التسمية باسم المكان، أو تسمية المكان باسم ساكنه؛ كما ذكروا أن معظم أسماء مدنهم سميت باسم أول من سكنها، مثل: كاتسنا، وزاريا، إلخ.. ولعل هذا مما يرجح قبول هذا الاحتمال الأخير.

أصل الفولاني:

تعددت الآراء والنظريات في تحديد أصل الفولاني، ومعظمها حدسي أو استنتاجي، كما تباينت الأصول التي بنيت عليها هذه الآراء والنظريات؛ فمنها ما كانت اللغة هي المركز الذي استند عليه في تحديد أصلهم؛ ومنها ما استند على (اللون) أساساً لبناء نظريته، ومنها ما اعتمد على الموطن؛

(١) صلة هذا الاسم باللغة العربية مكانها في مادة: «فلان» و«فلت» أما: «فلان وفلاتة» فيكنى بهما عن العلم العاقل عن اسم مسمى به: «المحدث عنه» خاص غالب؛ فإذا نسبت قلت: «فلان الفلاني» لأن كل اسم ينسب إليه فإن الياء التي تلحقه تصيره، وبالألف واللام يصير معرفة في كل شيء، وبنو فلان بطن من العرب، «وعمران بن فلان بن العيش بن إسحاق»، ويقال: إنه محرف لفظ، «الفلاح» أما عن مادة: «فلت» فقد وردت بتصرفاتها: «أفلت وتفلت» إلخ والتفلت والإفلات التخلص من الشيء فجأة من غير تمكث، والفلتان إلى الشر وقيل: السريع النشيط الجريء ـ انظر: «لسان العرب»، ج ١٧، ص ٢٠١، مادة فلن، وفلت، و«القاموس» مادة فلن و«تاج العروس»؛ و«حسن المحاضرة» للسيوطي؛ وحشيمة، ص ٧٢.

(٢) انظر: «توطين العناصر الأفريقية الغربية بالسودان» للدكتور شريف محمد شريف حولية، مجلة كلية الآداب، المجلد الرابع والعشرون، ج ٢، ص ٦٩، ديسمبر ١٩٦٢م.

وجماع هذه الآراء والنظريات تكاد تنحصر في مجموعتين لكل منهما مستنده ودليله.

١ ـ مجموعة تذهب إلى أنهم جنس مستقل له خصائصه، مع اختلاف هذه المجموعة ـ أيضاً ـ في تحديد هذا الجنس، هل هم زنوج؟ أم هي حاميون؟[١].

٢ ـ ومجموعة تذهب إلى أنهم شعب خليط من عدة أجناس حيث بينها امتزاج ومصاهرة، أدت إلى تميز (الفولاني) كجنس له خصائص مجتمعة من كل جنس داخل في تكوينه.

وإزاء الآراء والنظريات الكثيرة، كان لا بد من اتخاذ مقياس يختار على أساسه الرأي الراجح، فما هو هذا المقياس؟.

هل هو تميز الشكل الجسماني بعامة؟ نعم يجوز، وهو مقياس وارد أخذ به كثير من العلماء عندما لاحظوا اختلاف الفولانيين عن جيرانهم في صفاتهم الجسمية، حتى عن جيرانهم الَّذين يتكلمون نفس لغتهم.

ومقياس آخر اعتبره كثير من العلماء وهو: (اللغة) ومن المعروف أن لغة الفولاني تنتمي إلى ما يعرف بالمجموعات (الحامية) (أو الآفروأسيوية) فمثلهم مثل الهوسا، نتاج تزاوج بين الجنس الزنجي وأجناس شمال أفريقية؛ وبناء على مقياس اللغة.. فإما أن يكون أصل الفولانيين من أقصى الركن الغربي مثل السودان، أو أنهم خلال الإقامة الطويلة هناك قد هجروا لغتهم الأولى، وأخذوا اللغة التي يتكلمون بها الآن.

---

(١) انظر: «السلالات البشرية في أفريقية» لسلجمان؛ و«الشعوب والسلالات الأفريقية» لمحمد عوض، و«الأجناس البشرية» و«إنفاق الميسور» لمحمد بلو، و«تزيين الورقات» لعبد الله بن فودي؛ و«ضبط الملتقطات» للوزير جنيد، و«دائرة المعارف الإسلامية» و«دراسة المقومات القارة».

وبما أنهم مالوا إلى تغيير لغتهم، فإن الاحتمال الثاني هو الأكثر ترجيحاً، وأن أكثر النظريات قبولاً هي أن الفولانيين قدموا أصلاً من الشرق أو من شمال أفريقية، وشقوا طريقهم تدريجياً حتى وصلوا إلى (حوض السنغال) ويعتقد أنهم أقاموا هناك إقامة طويلة، وأخذوا اللغة اتي يتكلمون بها الآن.

بل ولا يزال بعضهم يقيم في هذا المكان حتى الآن، ولكن في أوقات مختلفة وظروف قاسية، بدأت أغلبيتهم تتحرك ببطء نحو الشرق عبر ممر السودان العظيم.

ولكن ماذا عن رأيهم هم ووجهة نظرهم في نسبهم؟ المتتبع لهذه المسألة عندهم يلاحظ أنهم في حديثهم عن الشعب الهوسوي ـ وغيره من سكان البلاد ـ يعبرون عنهم بـ: (السودانيين أو النوبيين[1]) الأمر الَّذي يتضمن أنهم هم الفولانيون ينتمون إلى مجموعة أخرى مختلفة.

وليست هذه الملاحظة عنهم في منطقة البحث فقط، بل قد لوحظت عليهم[2] في حوض السنغال، عندما يتكلمون عن شعوب مختلفة هناك فإنهم غالباً ما يضعون أنفسهم بين الشعوب البيضاء.

وكعادة الشعوب الأفريقية ـ بل والقبلية ـ في الانتساب، فإن الفولانيين هم بصدد بيان نسبهم، فإنهم يحفظون روايات وتاريخاً، بل أساطير حول أصولهم في صور متشابهة.

التوردب والفولاني[3]:

ولعل أهم مصدر لبيان ذلك هو ما كتبه عالمان كبيران من أئمتهم

(١) «إنفاق الميسور، ص ٣٩، ٤٤.

(٢) لاحظها الرّحالة: «منجو بارك» وانظر: جونستون، ص ٣٠.

(٣) «التورديب صيغة جمع في لغة الفولاني، وعلامة الجمع فيه: «الباء المشددة الممالة»، =

وحكامهم، هما: الوزير الشيخ عبد الله بن فودي، والأمير محمد بلو بن الشيخ عثمان، في عدة مواضيع من تأليفهما، أحياناً قصداً، وأحياناً عرضاً.

وتابعهما بعد ذلك بعض علمائهم المحدثين[1] مقتفين أثرهما ونسجاً على منوالهما؛ وهنا ملاحظة نحب أن نؤكدها أولاً، وهي أن مصادر السابقين: (عبد الله وبلو) هي الرواية، والسماع المتواتر، عن أسلافهم علماء ونسابة؛ وهذا أمر طبيعي في بيئة لم تعتمد على التدوين في تسجيل تاريخها وأحداثها، فلم يبق لديهم إلاَّ ما تتناقله الرواة ويستنتجه الباحثون.

تكاد تجمع الروايات عن أصل: (التوردب والفلاني): على رد نسبهما إلى أصول شرقية سامية عربية وغير عربية أو حامية؛ وهذا أمر معهود بل ومألوف عند كثير من شعوب السودان كله، قديماً وحديثاً، وكما رأينا - سالفاً - في الحديث عن الهوسا.

وكتاب الفولاني وعلماؤهم يبعدون النجعة ويعمقون أصول نسبهم، ضاربين في أغوار التاريخ حتى يصلوا نسبهم بخليل الرحمن أبي الأنبياء إبراهيم (عليه الصلاة والسلام).

فلما جاء الفتح الإسلامي للشمال الأفريقي وامتد به الصحابي الجليل: (عقبة بن نافع) الفهري القرشي (رضي الله عنه) إلى المغرب، ثم عطف على ساحل المحيط الأطلسي وانتهى إلى بلاد: (آسفي)[2] وأجاز إلى بلاد: (السوسي) وأشرف على المنطقة التي بها: (التوردب) في جنوب المغرب، أسلموا على يديه وتزوج ابنة ملكهم واسمها: (بج مغ) وولد له

= انظر: «تمرين الأذهان في لغة الفولان» للوزير جنيد، وهي كذلك صيغة نسب والتوردب في لغة الفولاني هم: «التنورنكاوا» في لغة الهوسا - وانظر: ضبط الملتقطات مخطوط للوزير جنيد، ص ٧.

(١) مثل العالم ألفا هاشم، والعالم الوزير جنيد وزير صكتو وعالمها.

(٢) «الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوي - وانظر: «تعريف العشائر»، ص ٩.

منها أربعة أولاد، إليهم ترجع كل قبائل الفلان، ثم تزوجوا وأنجبوا وتكاثروا، فكان ذراريهم الفلان.

ولما كثر هذا القبيل ساروا واستوطنوا: (فويت فلغ) وظلوا وأخوالهم (التوردب) ينتشرون في حوض السنغال من أعلاه إلى أدناه، وتقلبت بهم الأحداث والفتن، وتقاتلوا فيما بينهم وبين غيرهم طويلاً.

ومعلوم أن: (عقبة) لم يتخلف هناك مقيماً، كما أنه من المؤكد أنه أنجب أبناء من أفريقية، وهذا يعني:

١ ـ أن التوردب أخوال الفلانيين وأنهم ـ أيضاً ـ إخوة للعرب، فإسحاق أبوهم هو أخو إسماعيل (عليهما الصلاة والسلام).

ب ـ وأن الفولانيين من أولاد عقبة بن نافع من زوجه: (بج مغ)[1] ابنة أمير: (التوردب) فهم إذاً عرب (أباً) وروم (أماً).

تلك هي جماع ما قاله علماء الفولان، وقد نظمه الوزير عبد الله بن فودي في أبيات يقول فيها[2]:

فتوردب أخوال الفولانيين
أخوة لعرب فمن روم بن عيض تفرعوا
وعقبة جد للفولانيين من عرب
ومن (تور) كانت أمهم بج مغ ع

ويقول عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾[3] أي جعل الله ـ أو

(١) هذه الأم الصلب الفولاني، والتي تزوجت من عقبة غالباً، وتوصف بأنها أتت من فلسطين، وهذا يدعم وجهة النظر القائلة: بأن الفولاني بالرغم من أن الغزو العربي قد لحقهم في شمال أفريقيا إلاَّ أن أصولهم تمتد إلى حد ما إلى الشرق.

(٢) «تزيين الورقات»، ص ٥٤.

(٣) الآيات ٢٦، ٢٧، ٢٨، من سورة الزخرف.

إبراهيم ـ كلمة التوحيد باقية في عقبه ـ أي في ذريته ـ فلا يزال فيهم من يوحد الله ويدعو إلى توحيده، والحمد لله الَّذي جعلنا من ذريته على ما نسمع من نساب سلفنا[1].

ويعيد تأكيد رد رأيهم في نسبهم إلى مصدره، فيقول: هذا ما تواتر عندنا، وأخذناه عن الثقاة الَّذين يخرجون من بلاد: (فوت) أعني العلماء.

وللشيخ الحاج عمر[2] ـ الأمير المجاهد في بلاد (مالي) ـ قصيدة يذكر فيها أن بني (طور) الـ (فوتيين) من إسماعيل بن إبراهيم (عليهما السلام).

مواطن استقرار الفولاني والتوردب وانتشارهم:

١ ـ انتهت الروايات إلى أن أصول: (التوردب والفولاني) أتوا من الشرق واستوطن أخلافهم جنوب المغرب في حوض السنغال ظاعنين ومستقرين، وإن: عقبة (رضي الله عنه) تزوج بابنة أمير التوردب، وأنجب منها أربعة أبناء، وأن ذرية هؤلاء الأبناء الأربعة هم الَّذين حملوا اسم: (الفولاني) وبذلك يكون: (التوردب) أخوال الفولانيين، وأن كثيراً من التوردب والفولاني قد دخلوا الإسلام مبكراً، وفي القرن الأول الهجري بحكم صلتهم بعقبة[3].

---

(١) كتاب «ضياء التأويل في معاني التنزيل»، للشيخ عبد الله بن فودي عند تفسيره هذه الآيات الكريمات ـ وانظر ـ كذلك ـ «تعريف العشائر»، ص ٩.

(٢) هو عمر بن سعيد الفوتي، صاحب جهاد ودولة عاصرت المرحلة الثانية من دولة الفولاني في غربها.

(٣) انظر: «تزيين الورقات»، ص ٣١، ٥٤؛ و«إنفاق الميسور»، ص ٢٢٦؛ و«ضبط الملتقطات»، ص ٨ مخطوط.

٢ ـ وهم في جنوب المغرب في حوض السنغال لم يكونوا مستقرين في مكان واحد، وكانت مناطق: (فوت)[١] بمثابة مركز التجمع والانتشار لهم، إذ كانت أول موطن لهم عرفوا به من قديم من أوائل التاريخ الميلادي، ومن المرجح أنهم قاموا فيها طويلاً، وكانوا ينتشرون فيما حولهم ببطء وفي أعداد كبيرة.

ومع كثرة الروايات عن أصلهم ومواطنهم التي جاؤوا منها أولاً، مما لا يمكن معه القطع على وجه اليقين بذلك، إلاَّ أنه[٢] لا يوجد شك في أنهم لأكثر من ألف سنة خلت قد تركزوا وانتشروا في السودان الغربي، غير بعيد عن شواطىء المحيط الأطلسي، فمنهم من خالط شعوب المنطقة من: (التكرور، والولوف، والسيرر) ومنهم من أمتد جنوباً إلى: (غانة) وامتزجوا بالماندنجو؛ ومنهم من أبعد إلى الشرق حتى منحنى النيجر؛ وهم خلال ذلك كله يتوزعون بين ممالك حاكمين وبين رعاة متجولين؛ بين مسلمين متمسكين ومجاهدين، وبين وثنيين شاردين في مناطق الزنوج؛ بين مسالمين أينما استقروا وبين عدوانيين يوقدون الحروب والفتن.

وهم بين هذا وذاك انتشروا قبائل وبطوناً وأفخاذاً يتقاربون ويتباعدون يحملون اسم: (الفولاني) و: (التوردب).

٣ ـ وفي عهد إمبراطورية: (مالي الإسلامية) انتشروا في أرجائها، وكانوا من أهم عناصر شعبها المعمر لأراضيها وبلادها[٣].

٤ ـ ولما اشتدت بينهم الحروب والفتن، افترق الفولاني ثلاث فرق: فرقة اتحدت مع: (التوردب) وتطاوعوا؛ وفرقة رجعوا إلى: (فوت) وسكنوا

---

(١) هي: «فوت تور، وفوت جللو، وفوت مللو»، وتمثل عواصم الفولانيين ـ انظر: مخطوطة ملحقة بـ «إنفاق الميسور»، ص ٢٣٣.

(٢) جونستون، ص ٣٧.

(٣) «إنفاق الميسور»، ص ٢٢٥.

هناك؛ وفرقة عزموا على المسير إلى الشرق ليدخلوا مع قبائل آبائهم العرب، ومضوا حتى وصلوا إلى حيث وصلوا في بلاد الهوسا، وواصل بعضهم المسير، وتخلف البعض في بلاد الهوسا، وكان من أمرهم ما كان في هذه البلاد.

وكان سير قبيلة الشيخ: (التوردب) من: (فوت) إلى بلاد الهوسا بعد انتشار الفلان بقليل، وأنهم سبقوا الفلان إليها كما سيأتي.

٥ ـ ومع أن علماء الفولاني ومؤرخيهم المحدثين من أمثال الشيخ عبد الله، ومحمد بلو؛ يصرون على شرف انتساب الفولاني إلى: عقبة بن نافع (رضي الله عنه) ويفخرون بزواجه من: (التوردب) وبقدمهم في الإسلام، فإن الكثير منهم ـ كذلك ـ حين ينتسبون، فإنما يحددون نسبهم بالتوردب على أساس أنهم الأصل.

ومن التوردب أسرة الشيخ عثمان، فيقول أخوة الشيخ الوزير عبد الله[١]: توردب، هم أصل قبيلة الفلان.

ومعنى هذا أن بطون: (التوردب) ظلت متميزة ومعروفة عن أبناء أختهم أولاد عقبة المسمين: (الفولاني) بل ويستفاد من نصوصهم أن هذا التميز ظل قائماً حتى دخولهم (بلاد الهوسا) في القرن الثالث عشر م[٢] فيقول[٣] الشيخ عبد الله عن أول مجيئهم لبلاد الهوسا: (موسى هذا ـ أحد أجدادهم ورؤسائهم ـ هو الَّذي جاء مع قبيلتنا من أرض الغرب التي هي: (فوت تور) فيما نسمع، وهو من رؤسائهم حتى وصل بهم إلى أرض: (كن) وهم أول من عمرها قبل أهل: (جوس) والتوارك حتى انتشروا في

---

(١) «تزيين الورقات»، ص ٣١، و«إيداع النسوخ»، ص ١، وكلاهما للشيخ عبد الله.

(٢) من مخطوط ملحق بـ «إنفاق الميسور» في ص ٢٣٣.

(٣) «إيداع النسوخ»، ص ١.

أرض: (جوس) بعد، وهم أصل قبيلة الفلان، ولغتهم هي لغة الفلان، سبقوا الفلانيين إلى: (جوس) بسبع سنين فيما نسمع.

والتقت الأصول والفروع على أرض الهوسا، واختلطوا ليس ببعضهم فقط، بل بأهل البلاد من الهوسا، وإن كانت وجدت وظلت بعض الخصائص والمميزات الاجتماعية.

أوائل من جاء إلى بلاد الهوسا:

موسى جكل: في القرن الثالث عشر م[1] السابع هـ، وقعت ثورة عظيمة بمناطق عواصم الفولاني، فافترقوا فهاجر أحد زعماء التوردب والفولاني وهو (موسى جكل) بجماعته متجهين صوب الشرق قصد الهجرة إلى الحجاز، لكن انتهوا إلى أن أقاموا في بلاد الهوسا واختلطوا بهم حتى ظهر بينهم (الشيخ عثمان) وكان (موسى) ـ هذا المهاجر الأول ـ هو الجد الحادي عشر للشيخ عثمان؛ وواصل بعضهم الهجرة حتى وصلوا برنو، ودارفور، انتهى (موسى) بقبيلته إلى منطقة: (آدار) إلى الغرب من بلاد الهوسا، وأقام في أرض (كُنّ)[2] وساكنوا أهلها من أول دخولهم بلاد الهوسا مدة طويلة، ولقد كان منهم البدو الرحل المشتغلون بالرعي، وكان منهم الحضر المستقرون بالعلم كبيت (عال).

---

(١) من مخطوط ملحق بـ «إنفاق الميسور»، ص ٢٣٣، والكاتبون من الغربيين يجهلون بأول من وصل من الفولاني إلى بلاد الهوسا، لكن وجدت في هذا المخطوط تحديد اسم من وصل والقرن الّذي وصل فيه، ويعتبر دخولهم بلاد الهوسا من مراحل تاريخهم المدون والمؤكد؛ كذلك ويقدر بعض المؤرخون قدومه في منتصف القرن الخامس م «جونستون، ص ٢١، ٢٥، ٧٢» والصحيح ما ورد في «إنفاق الميسور».

(٢) «كن» بضم الكاف وتشديد النون، قرية جيل من السودانيين، يقال: إنّ أباهم غويري وأمهم من مماليك التوردب؛ «إنفاق الميسور»، ص ١٠١، وهي مدينة في مقاطعة آدار «جونستون»، ص ٧٢».

ولقد عاصروا في بلاد الهوسا أحداث غزو (صنغي) لها أيام (أسكيا) الكبير، وأخضاعه لغرب هذه البلاد، كما عاصروا قيام إمبراطورية: (كانتا في كبي) ثم تدهورها وأحداث: (كوارارفا مملكة الجكن الوثنية في الجنوب) وما فعلته في كاتسنا وتدمير زنفرا.

وظلوا مقيمين في برنن (كُنّ) إلى ما قبل تحرك أهل: (آهير) أمام زحف الطوارق لأسفل من مقاطعة: (آهير) في الأقاليم المجاورة لها والتي تسمى: (غوبر) ومن المحتمل أن يكون هذا التحرك قد حدث في أواخر القرن السادس عشر.

وقد[1] تفرع بنو موسى إلى خمسة فروع أكبرها بيت ١ ـ (عال) وهو أكبر (بني موسى) وهو بيت الشيخ (عثمان) واشتهر بالصلاح والخير، وعرف بحفظ القرآن الكريم، والعلم، وظل هذا فيهم يتوارثونه جيلاً بعد جيل حتى ظهر فيهم الشيخ عثمان، إذ أبوه وأمه من بيت عال[2].

٢ ـ بيت كع   ٣ ـ بيت بير   ٤ ـ بيت زنبر   ٥ ـ بيت برنع

ثم[3] تسلط عليهم أمير: (كُنّ) محمد دَمْك ـ بفتح الدال وإسكان الميم ـ فأغار عليهم غدراً، وذبح من القراء والعلماء نحو أربعين نفساً في مساجدهم، وأسر الذراري ونهب الأموال. فجلا بسبب ذلك الرجل الصالح: (محمد بن سعد) مع من التحق به، ونزل بـ (سَمَرتّ) بفتح الميم والراء وتشديد التاء ـ في بلد (غَلْم) ـ بفتح الغين وإسكان اللام ـ ووالى أمير (غوبر) ونزل (بنو عال) و(قُلُب) ـ بضم القاف واللام ـ والتحق (بنو تَحْنُد) ـ بفتح التاء وإسكان الحاء وضم النون ـ مع من معهم بأرض (زنفر) واستوطنوا (تواغام) ـ بفتح التاء والواو والعين ـ وتخلف آخرون في غرب

---

(١) ضبط الملتقطات ـ مخطوط، ص ١١، للوزير جنيد.

(٢) «تزيين الورقات»، ص ٣٢، و«ضبط الملتقطات»، ص ١٢.

(٣) «إنفاق الميسور»، ص ١٠١.

(آدار) وحلوا أرض: (كُنّ).

وهكذا حل الفولانيين وانتشروا بأرض الهوسا، ولم تخل ولاية هوسوية[1] منهم، وتزوجوا من (هوسويات) وتكلموا لغة الهوسا، واشتغلوا بالتجارة، والرعي، والعلم، والحكم؛ وتركزوا في مناطق معينة من أهلها (غوبر) حيث اتخذوا موطناً لهم؛ وفي (كانو) في الشمال، وفي منطقة الضفة الجنوبية لنهر (بينوى) في الجنوب، وفي الهضاب الشرقية المؤدية إلى (الكمرون) حيث تمتد مجموعات عديدة منهم؛ وكان بعضهم ينزع إلى سكنى المدن والاختلاط، وبعضهم الآخر يعيش عيشة البدو في محلات للرعاة.

أما عن انتشارهم العام فيمتد في النطاق الواسع بين السنغال والنيل، إذ هم كجماعات أكثر انتشاراً من الهوسا، ويبلغون أهمية كبرى في إقليم: (السفانا) المكشوفة، حيث يمثلون ثلث السكان في هضبة باوتشي، وأكثر من الخمس في (أداماوا) وكانو وزاريا، وظلوا كذلك، حتى أظلتهم راية دولة الفولاني الإسلامية، في مطلع القرن التاسع عشر.

لغة الفولاني:

هذا، وقد كانت تكتب وتدون بأحرف عربية قبل عهد الاستعمار، فقد دونها بها الأفريقيون أنفسهم، دونوا لفلفيلد، والهوسا، والطوارق بالأحرف العربية؛ ويعد[2] هذا التدوين بالحروف العربية دليل على الذكاء الفطري، والطاقة العقلية عند الشعوب السوداء في القارة الأفريقية.

---

(١) «السنوات الثورية في غرب أفريقيا»، ص ٣، ٤.

(٢) انظر: تقريراً عن مشروع اليونسكو لتدوين اللغات الأفريقية وتوحيد أبجديتها، للدكتور عبد العزيز عبد الحق مخطوط «ملخص من عدة فقرات من التقرير» وانظر: «دراسة لمقومات القارة»، ص ٤٠٩.

دون الفولاني والهوسا بالحروف العربية، ورسموا أصوات لغاتهم بها، واطمأنوا إلى كفاية أدائها وتداولها عهداً طويلاً، فيما سطروه بها من المخطوطات المختلفة بهذه اللغات، فضلاً عما دونوه فيها باللغة العربية.

ولم تعمل للآن دراسة مفصلة للهجات الخاصة بلغة الفولاني؛ ويمكن تقسيم هذه اللهجات على أساس جغرافي، حيث يتميز كل إقليم بلهجة معينة من لهجاتهم، وهي ظاهرة مشتركة بين لغات غرب أفريقية، حيث تتفرع اللغة الواحدة إلى مجموعة من اللهجات، واللهجات إلى لهجات أخرى.

وقد قام المبشرون ـ في عهد الاستعمار ـ بتدوينها ضمن ما دونوا من اللغات الأفريقية بالأحرف اللاتينية، بدلاً من الحروف العربية، وحذفوا منها الألفاظ العربية الدخيلة في كثير من الأحيان للقضاء على مؤثرات الثقافة العربية في أفريقية.

ديانة الفولاني[1]:

ظهرت الوثنية قديماً في الفولاني، وانتشرت بها جماعات منهم في أرجاء السودان، حتى أنهم في القرن العاشر م أنشؤوا دولة: (فوتاجالون) الوثنية، ثم ظهر فيهم الإسلام وهؤلاء الَّذين ظلوا منهم في (السنغال) بعد أن دخلوا الإسلام، هم الَّذين اضطروا للهجرة في اتجاه الشرق من نهر النيجز، وقد ظل فيهم الإسلام، لكن بقيت الوثنية في كثير من الفولاني حتى في بلاد الهوسا، وبصور شتى حتى قامت حركة التجديد الإسلامي التي قادها الشيخ عثمان، وجاهد فيها الوثنية في قومه ووطنه، حتى قامت دولة الإسلام على يديه.

---

(١) «الدعوة إلى الإسلام»، ص ٣٦٠، ٣٦١ ـ وانظر: «إنفاق الميسور»، ص ٢٢٦، و«تزيين الورقات» ص ١١، ٥٢.

ملحق رقم (٢)

الفلاتة ومبدأ الصراع الجهادي

علاقة سلطنة برنو بحركة جهاد الفولاني

في أوائل القرن التاسع عشر[١]:

مقدمة:

شهدت منطقة بحيرة تشاد منذ مطلع القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) دولة إسلامية أخذت في العروبة بسبب، وكان لها شأن وحضارة، واستمرار تاريخي حتى مطلع القرن العشرين؛ تلك هي دولة برنو التي يمكن تحديد موقعها تحديداً تقريبياً، من خلال الوحدات السياسية القائمة ـ فعلاً ـ هذه الأيام: (١٩٨٠) في شمال شرق نيجيريا، وجنوب غرب تشاد، وجنوب شرق النيجر، وجانب من شمال الكمرون؛ على أن الجزء الأساسي لهذه الدولة الإسلامية ـ والتي أخذت في العروبة بسبب ونسب ـ ما زال في شمال نيجيريا وما زال يحمل نفس الاسم، ذي الدلالة التاريخية والحضارية التليدة.

ودولة برنو بهذا التحديد تدخل في نطاق ما يسمى: التكرور، وهي

---

(١) هذا البحث للدكتور عبد الرحمٰن عبد الله الشيخ، من ضمن بحوث في التأريخ الحديث، نقلاً من كتاب دول الإسلام وحضارته في أفريقيا، الطبعة الأولى، ص ٨٣ ـ ١٠٢.

التي يحددها محمد بلو صاحب: «إنفاق الميسور في تاريخ ب
بقوله: «التكرور علم على الإقليم الغربي من الجنوب السود
الاسم في الحرمين، ومصر، والحبشة؛ ومندرس في محله، حتى
أهل هذه البلاد أصلاً. . . وأول هذه البلاد من جهة المشرق، بلد ال
ويليه من جهة الغرب وادي وبلد باغرم. . وأما ما حاذى هذه البلاد م
جهة الشمال فقفار ورمال معاطيش، لا يعمرها إلاً الرعاة في فصل الربيع
من البرابرة والعرب؛ وأما ما والاها من جهة الجنوب فبلاد كثيرة. . لم
ينتشر فيها الإسلام» (بلو: ص ٢٧ ـ ٢٩).

وترجع أصول شعب البرنو إلى الهجرات التي امتدت في الفترة من سنة ١٢٥٠، وكانت هذه الهجرات قوامها البربر والزغاوة، الَّذين امتدوا في منطقة واسعة من دارفور شرقاً حتى بحيرة تشاد وما جاورها غرباً: (عبد الجليل: ص ٣٥٦) وفي نهاية القرن الحادي عشر تعرضت المنطقة لهجرة أرستقراطية بربرية تملك مصادر القوة والنفوذ، ومن هذه الهجرة الأرستقراطية ظهرت أول أسرة حاكمة سيطرت على شرقي بحيرة تشاد، وأسست سلطنة كانم، ثم مدت نفوذها إلى غرب البحيرة، وهي الأسرة السيفية؛ ويعتبر السلطان علي غازي السيفي: (١٤٧٢ ـ ١٥٠٢) هو المؤسس الحقيقي لإمبراطورية البرنو، إذ وحد كانم وبرنو في كيان واحد: (أبو شعيشع: ص ٣ ـ ٦)، وقد مدت برنو سلطانها على الإمارات الحوصوية المجاورة لها غرباً، وهي: كانو، ورانو، وزرية، ودورا، وكتسينه، وجوبير: (Burns: pp. 64 - 47).

وتتابع سلاطين الأسرة السيفية على برنو وتوابعها ـ إمارات الحوصة ـ بدون مشارك لهم في الحكم حتى سنة ١٨١٤، ذلك أن برنو قد تعرضت لأخطار حقيقية منذ مطلع القرن التاسع عشر من جانب الفولة، مما أعطى فرصة لمحمد الأمين الكانمي ـ وهو من خارج الأسرة السيفية الحاكمة ـ أن يهيمن على دفة الأمور في برنو، ويكون هو الحاكم الفعلي تحت ظلال

ُسرة السيفية، ثم تصبح الأسرة الكانمية في
اتخذ أفراد الأسرة الكانمية لقب شيخ بدلاً

بحث هو تبيان الصراع بين برنو
طابعاً «وطنياً» استقلالياً من جانب
ـ جانب الفولانيين ـ أو الفلاتة ـ الَّذين كانوا
ـدين مما علق به من شوائب.

برنو وتوابعها في مطلع القرن التاسع عشر:

كانت برنو في مطلع القرن التاسع عشر تحت حكم السلطان السيفي أحمد بن علي: (١٧٩٣ ـ ١٨١٠) ورغم عوامل الضعف والتفكك ـ خاصة في مجال القوات المسلحة ـ «إلاَّ أن برنو عاشت في ظل أمجادها السابقة، وظلت محتفظة بالسيطرة على الدول التابعة لها Vassal States ولكن برنو كانت تتعرض ـ دائماً ـ لتهديدات من الشمال، إذ كانت عرضة للتسرب السلمي لجماعات بدو الصحراء، وجماعات الفولاني، والهجوم العسكري أحياناً؛ أما من جهة الجنوب فقد كانت عرضة لهجوم القبائل الوثنية، التي كان البرنويون ينظرون لهم ـ على حد تعبير أحد الباحثين الإنجليز ـ على أنهم مخزون رقيق. .Slave reservoir (Crowder: p. 68)

ولقد ارتفع شأن التعليم والثقافة في برنو طوال النصف الثاني من القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر؛ وكان السلاطين: «المايات والمفرد ماي) يعتزون بمكانتهم العلمية كرجال الدين .(Crowder: p. 78) ويتكلم أهل برنو عدة لغات، أشهرها: الكنوري، وإن كانت اللغة الرسمية هي العربية التي أزاحتها لغة الكنوري بالتدريج عن مكان الصدارة: (يوفر: ص ٥٨٢) ورغم اهتمام السلاطين بالتعليم الديني خاصة، إلاَّ أنهم بدؤوا

يهملون صلاحياتهم السياسية، مما حدا برجال البلاط الأذكياء إلى السيطرة عليهم.

وفي نهاية القرن الثامن عشر، عانى جيش برنو من الاضطرابات عندما تعرضت برنو لتهديدات الفولاني، وأتاحت هذه الظروف لرجل دين - هو محمد الأمين الكانمي - فرصة السيطرة على برنو، وراح يراسل الفولانيين في محاولة منه لحل المشاكل بين برنو والفولانيين بطريق سلمي؛ وهذه المراسلات الضافية بين محمد بلو والكانمي، والتي تعج بالمسائل الفقهية والعقائدية، تبين لنا مدى إلمام القوم باللغة العربية والدين الإسلامي، ومدى ما وصل إليه الإسلام والثقافة العربية في هذه البقاع من علو شأن ورسوخ قدم؛ ولقد نشر محمد بلو في كتابه: «إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور» معظم هذه الرسائل: (بلو: ١٥٥ - ٢٠٤).

وقد كان الكنوري يشكلون غالبية السكان، وهم جنس مخلط نتج من التزاوج بين العرب، والبربر، والزنوج، وإن كان العنصر البربري فيهم أوضح؛ والمكري - بفتح الميم وتشديد الكاف - ويقطنون جنوب السلطنة، وهم زراع وصيادو سمك؛ والعرب.. وقد قاموا في هجرات من جهة الشرق في بداية القرن السادس عشر؛ وبالإضافة لهذا هناك قبائل بعضها من الطوارق، وهناك الحوصة الَّذين اختلطوا بالكنوري، وهناك - أيضاً - الجماعات الفولانية.

وكان يتراوح عدد سكان سلطنة برنو في مطلع القرن التاسع عشر بين أربعة ملايين، وأربعة ملايين ونصف نسمة.

وقد مدت برنو سلطانها على الإمارات الحوصوية المجاورة لها غرباً، وهي: كانو، ورانو، ودورا، وكتسينة، وزمفرة، وجوبير: (Burns: pp: 46 - 47) أما محمد بلو - وهو كاتب معاصر للأحداث - فيصف بلاد الحوصة بقوله: «وغربي برنو بلد حوس وهو سبعة أقاليم، لسانهم واحد، وعلى كل

إقليم أمير نظير للآخر ـ قبل الجهاد ـ وأوسطها زكزك، وأجدبها غوبر، وأبركها كنوا. . . يعمرها السودانيون من مماليك البربر من أهل برنو، الفلانيون والتواركيون»: (بلو: ص: ٤٤ ـ ٤٥).

ويذكر ـ أيضاً ـ أن «ودّاي وباغرم كانت قبل هذا ـ يقصد هذا الجهاد ـ تحت سلطان برنو. . . ثم ضعفت شوكتهم»: (بلو: ص ٣٣).

وبدأ الضعف يتسرب إلى برنو في القرن السابع عشر، بسبب سلسلة السلاطين المرفهين، الّذين تركوا رعاياهم نهباً للصوص وقطاع الطرق، مما أدى في النهاية إلى عدم وقوف السلطنة أمام التسرب الفعلي لجماعات الفولاني، وعدم قدرتهم على صد غارات هذه الجماعات في مطلع القرن التاسع عشر: (يوفر: ٥٨٨) ووقعت هذه الغارات في عهد السلطان أحمد بن علي: (١٧٩٣ ـ ١٨١٠): (يوفر: ٥٨٨).

السلطان أحمد بن علي (١٧٩٣ ـ ١٨١٠) وظهور الكانمي:

وأخضع الفولانيون أقاليم الحوصة التابعة لبرنو، وعقدوا تحالفاً مع بني جلدتهم من الفولانيين، الّذين استقروا ـ منذ القرن السادس عشر ـ في بلاد برنو، وقاموا بغزو البلاد؛ وحاول السلطان أحمد بن علي (١٧٩٣ ـ ١٨١٠) صدهم، ولكن جيشه تشتت بالقرب من قصر أكمو، ونجا السلطان بصعوبة، وخرج من أحد أبواب المدينة خلسة، ثم نقل معسكره إلى كُرَنْوَه (بضم الكاف، وفتح الراء، وتسكين النون) سنة ١٨٠٨؛ وقد قام الفولانيون بتخريب قصر أكمو، بعد أن أصبحوا أصحاب السيادة في المدينة: (يوفر: ٥٨٨).

وقد رفض الشيخ لامينو: (الكانمي) أن ينسحب عندما هاجم الفولانيون، وجهز فرقة من الكانميين، وعاق تقدم الفولانيين عند شرق بحيرة تشاد، ونجح في إجلائهم عن الجزء الشرقي من برنو بعد انتصاره في

وقعة عند نكرنو؛ وقام الكانمي بإعادة السلطان أحمد بن علي إلى عاصمة ملكه، وقام السلطان تقديراً لخدمات الكانمي بتعيينه قائداً للجيش (يوفر: ص ٥٨٨).

لم تتوقف - إذن - حركة الجهاد عند حدود أمارات الحوصة التي كانت بمثابة دول تابعة لبرنو، أو تدور في فلكها؛ وإنما حاول الفولانيون إسقاط برنو سنة ١٨٠٨، ولكن القوم فشلوا في النهاية في ضم البرنو، وذلك يرجع إلى القيادة الدينية في برنو، والتي كانت معقودة لمحمد بن الأمين الكانمي، الّذي كان قادراً على بعث الروح الدينية المناوئة للفولاني، تلك الدعوة التي كانت ترمي إلى القول بأن الفولانيين - أو رجال الدين الفولانيين - ليس لهم حق احتكار الإفتاء في مجال الدين: (Fage: pp. 150 - 151 وهكذا انتهت أيام السلطان أحمد بن علي عام ١٨١٠، والحرب عوان بين قوات برنو وقوات الفولاني، تميل مرة لصالح هؤلاء ومرة لصالح أولئك.

دونمه بن السلطان أحمد بن علي (١٨١٠ - ١٨١٨):

حاول دونمه أن يستمر في حرب الفولانيين لكنه لم يفلح، فاستعان بالشيخ الكانمي، كما استعان به والده من قبل؛ ونجح الكانمي في صد الفولانيين. ونظير جهوده منحه السلطان دونمه نصف الأراضي التي استعادها؛ ومنذ ذلك الوقت كان الشيخ الكانمي هو الحاكم الفعلي لبرنو، بينما كان السلطان مجرد رمز، خاصة منذ أسس الكانمي مدينة كوكه عام ١٨١٤ (يوفر: ٥٨٩) على أية حال ففي سنة ١٨١٢ طردت جيوش الكانمي الفولانيين، وفي غضون الاثني عشر عاماً التالية، قام الكانمي ومشايعوه بتبادل الرسائل مع بلو، وكانت هذه الرسائل تتسم بالحيوية والخصوبة، إذ كانت تحوي مناقشات دينية عن مدى حق الفولانيين المسلمين في غزو البرنويين المسلمين أيضاً: .(Fage: pp. 150 - 151)

السلطان إبراهيم بن السلطان أحمد بن علي (١٨١٨ ـ ١٨٤٦):

توفي الشيخ الكانمي سنة ١٨٣٩، وخلفه ابنه الشيخ عمر: (١٨٣٥ ـ ١٨٨١) وحاول عمر أن يكتفي بلقب الشيخ، وأن يحكم في ظل الأسرة السيفية كما كان يفعل والده، ولكنه اضطر في النهاية للقضاء على الأسرة السيفية، وأصبح هو الحاكم فعلاً واسماً (يوفر: ٥٩٠).

وهكذا يمكن القول بأن محاولة الفولانيين السيطرة على برنو، هي التي أدت إلى سقوط الأسرة السيفية والتمكين للأسرة الكانمية، فلولا هذه الحروب ما استعان السيفيون بالكانمي.

ورغم الإحباط الَّذي مُنِيَ به الفولانيون على عتبات برنو، إذ لم يحققوا انتصاراً حاسماً عليها، إلاَّ أنه من المؤكد أن التأثيرات الثقافية الدينية التي كان ينادي بها الفلانيون، قد اتخذت طريقها إلى برنو، من حيث بعث السلفية، وتجريد المعتقد الديني الإسلامي مما كان يحيق به من خزعبلات، بل إن الفولانيين قد حققوا نجاحاً كبيراً وتقدماً تجاه الجنوب الشرقي ـ فيما يعرف الآن بشمال الكمرون ـ حيث استقر هناك عدد كبير من الفولانيين، نجحوا في النهاية في تأسيس إمارة هي إمارة أداماوا، سنة ١٨٤٠، وسميت هذه الإمارة باسم مؤسسها: .(Fage: p. 151)

التسلسل السلمي للفولاني في إمارات الحوصة وبرنو:

استقر الفولانيون في بلاد الحوصة حوالي أربعة قرون، ولم يكونوا جميعاً مسلمين، ولكن الرابطة العنصرية كانت بينهم قوية: (Fage: p. 149) بدليل أنه عندما قامت حركة جهاد الفولاني بدءاً من سنة ١٨٠٤ ضد إمارات الحوصة وبرنو، هب الفولانيون المقيمون في هذه الإمارات ـ من المسلمين والوثنيين ـ لنجدة أبناء جلدتهم، وانضم فولانيو الداخل مع فولانيي الخارج، وتحالفا في سبيل إسقاط الحكومات القائمة؛ وكان

الفولانيون يتمركزون في المدن أساساً، وكان أئمتهم يتوارثون تعاليمهم الدينية وفقههم من الجماعات الإسلامية الحضرية في حزام النيجر، خلال الحقبة الزمنية العظيمة لإمبراطوريتي مالي وسننغي Mali and Songhai Empires.

ولقد كان الفولانيون في هذه المجتمعات قادة وذوي مراكز اجتماعية مرموقة، وكان علاقتهم بالملوك ـ أو الأمراء ـ تختلف وفقاً لعلاقة هؤلاء الملوك ـ أو الأمراء ـ بالإسلام، وصلتهم به، وباستثناء برنو، فقد كان الفولانيون في إمارات شمال نيجيريا الحالية، قلة في محيط وثني: (أرواحي Animist at base) وفي نهاية القرن الثامن عشر ومطلع التاسع عشر، أحرزوا نفوذاً سياسياً واقتصادياً فائقاً في دول الحوصة، مما أقلق الحكام، خاصة عندما شكلوا طبقة طليعية في حركات الإصلاح الديني والفكري: (Cowder: p. 08) ومما زاد العلاقة سوءاً بين الجماعات الإسلامية ـ وعمادها الفولانيون ـ وبين حكومات الحوصة، أن عثمان دان فوديو اتهمهم بالتقصير في نشر الإسلام، بدليل أن بعضهم ملوك مسلمون لشعوب غالبيتها وثنية: (Trimingham: pp. 199 - 200).

الأسس التاريخية لدعوة الفولاني الجهادية:

في القرن الثامن عشر، طورت بعض شعوب السودان الغربي جماعة دينية هامة، عرفت باللغة المحلية باسم توررودبي: (Torodbe) وهي مشتقة من الطريقة التجانية التي كانت لها مراكز هامة في مراكش سنة ١٧١٨؛ ولقد جنحت التجانية نحو الكفاح المسلح في نشر الدعوة والإصلاح؛ وهذه الفكرة ـ فكرة الكفاح المسلح لنشر الدعوة ـ تعتبر أهم ما يميز التجانية عن القادرية، التي سادت أفكارها في القرن السادس عشر وطوال القرن السابع عشر، ولم تختف تماماً بعد ذلك.

ولقد كانت القادرية بمريديها وتنظيمها الدقيق، المكون من سلسلة من المريدين والأتباع، تنتهي إلى المؤسس نفسه، تساعد أتباعها على اعتناق أفكار نقية عن الإسلام، والتزام صارم بأحكام الدين؛ والمبدأ الأساسي في الدعوة القادرية هو الانتشار السلمي؛ لذا فقد انتشرت القادرية بيسر وهدوء في المدن، على طول الطرق التجارية في السودان الغربي، وقد نتج عن هذا الانتشار تأسيس العديد من الكتاتيب، وتطوير حركة دعوة منظمة، مما نتج عن ذلك تحول الناس إلى الأسلوب الإسلامي في الحياة في مناطق شاسعة من السودان الغربي: .(Fage: p. 148)

نحن إذن أمام أسلوبين في الدعوة: **أحدهما**: يركز على النشر السلمي المعتمد أساساً على حركة تعليمية، وهو أسلوب القادرية؛ **وثانيهما**: أسلوب يعتمد الجهاد أو الحرب المقدسة، وهو الملمح الأساسي لأسلوب التجانية، خاصة عند أولئك الَّذين تبنوا طريقة التورودبي: (Torodbe).

ولقد أحرز الأسلوب الجهادي الَّذي اتبعه حركة التورودبي: (Torodbe) أول انتصار حاسم له في أقليم فوتا: (Futa) ففي سنة ١٧٧٠، وبعد نصف قرن من الكفاح نجح التورودبي في إحلال أئمة المسلمين محل الحكام الأرواحيين، هؤلاء الأئمة الَّذين كانوا يحكمون كخلفاء لله على الأرض؛ ومن هنا كانوا يطالبون بأن يكون لهم الولاء المطلق: (absolute allegience) سياسياً وروحياً: .(Fage: 148)

ولقد تأثر الفولانيون تأثراً كبيراً بأسلوب التورودبي في الفوتا جالون (Futa Jalon)؛ وحدث ارتباط هام بينهم، مما أدى إلى ربط السودان الغربي بالأوسط: (Fage: p. 148) وإذا كانت حركة جهاد الفولاني قد تبنت أسلوب الجهاد الَّذي تحبذه التجانية، فمن الحق القول أن القائمين على حركة جهاد الفولاني كانوا على درجة عالية من الثقافة الدينية، بحيث لا

يمكن تفريغ حركتهم من مضمونها التثقيفي والتعليمي، فلم تنقطع الروابط الثقافية والاقتصادية يوماً بين السودان الغربي والشمال الأفريقي، فقد كان اقتصاد بلاد الحوصة وبرنو مرتبط بالصحراء ارتباطاً وثيقاً: (Crowder: p. 78).

الطور السلمي لدعوة الفولاني ١٧٧٥ ـ ١٨٠٣:

حوالي سنة ١٧٧٥، بدى عثمان دان فوديو القائد الفولاني، المولود في مارتا: (Marta) بجوبير (Gobir) والَّذي كان متأثراً بالحركات الإسلامية ـ السابقة ـ في السودان الغربي، كما كان متأثراً بالحركات الإسلامية ـ السلفية خاصة ـ في العالم الإسلامي؛ وتثقف بالثقافة التقليدية لرجال الدين المسلمين، إذ درس النحو العربي، والشريعة، والبلاغة، والعروض، وأصول الدين، والقرآن الكريم وتفسيره؛ بدأ يحس بأن الإسلام في بلاده اختلطت به الخرافة؛ ولقد تعلم الشيخ عثمان في أغادس: (Agads) على يد معلم شهير هو المعلم جبريل، وعندما أتم تعليمه عاد إلى قرية ديجل: (Degel) في جوبير، حيث أصبح معلماً: (Crowder: pp. 80 - 8) وحركة عثمان دان فوديو، قد تأثرت بالحركة الوهابية في الجزيرة العربية، وهي حلقة من سلسلة الحركات الإصلاحية في العالم الإسلامي، المتمثلة في حركة ابن عبد الوهاب في الجزيرة العربية، وحركة محمد بن علي السنوسي في برقة (Cyrenaica) وحركة الشيخ أحمد والحاج عمر بن سعيد في السودان الغربي، وحركة محمد أحمد بن عبد الله المهدي في السودان المصري ـ سابقاً ـ.

ورغم وجود خلاف في التفاصيل بين هذه الحركات، إلاَّ أنها جميعاً دعوات سلفية، تطالب بعودة الإسلام إلى منابعه الأولى: (الكتاب والسنة) وبناء الدولة على أسس إسلامية كما تصورها في عهد الرسول والخلفاء

الراشدين الأربعة حيث العدالة الاجتماعية، والحكم بالشريعة: (Crowder: p. 149).

لقد بدأ الشيخ ـ إذن ـ يقتنع أن الإسلام السائد بين ملوك الحوصة، ومن اعتنق الإسلام من رعاياهم ليس هو الإسلام الصحيح؛ ودعا عثمان دان فوديو إلى إصلاح هذا الدين، والعودة به إلى أصوله السلفية: (Fage: p. 149) واتخذ عثمان في هذه المرحلة أسلوب الدعوة الهادئة، فقد كان ملوك السودان في صراع بين واجباتهم كمسلمين من ناحية، والتزامهم كرؤوساء لمجتمعات تدين بالأرواحية (Animist Communities) وعبادة الأجداد من ناحية أخرى؛ ومن هنا لم يكن غريباً إن كان إسلام هؤلاء الملوك لا يتعدى القشور: .(Fage: 147)

وقد استطاع الشيخ عثمان أن يكسب احترام نافاتا (Nafata) ملك جوبير، فاصطفاه ليكون مشرفاً على تربية أولاده وتعليمهم؛ وحقق الشيخ عثمان نفوذاً كبيراً نتيجة هذه الثقة الملكية، وأصبح بمثابة مستشار للملك، ومقرباً لدى النبلاء؛ وفي السنة ١٨٠٢ مات نافاتا وورث العرش ابنه يونفا: (Yunfa) ولقد كان يونفا تلميذاً للشيخ عثمان، ولكن التلميذ لم يكن ودوداً لأستاذه، فقد كان ممتعضاً من نفوذه الكبير في البلاد والبلاط، كما كان معادياً لأفكار أستاذه الإصلاحية والتحررية؛ وقد اتخذ يونفا إجراءات حاسمة لمنع المزيد من التحول للإسلام، ومنع النساء من ارتداء الحجاب، والرجال من ارتداء العمامة (Turban)؛ ولقد حلل أحد المتخصصين في تاريخ المنطقة وهو: م. هسكت: (Hiskett) هذه الإجراءات على أنها سياسية في المقام الأول أكثر من كونها معادية للإسلام، إذ كان المقصود بها منع ظهور المسلمين بمظهر متميز، مما يدفعهم للترابط والتماسك؛ كما أن يونفا كان يقصد منع ظهور حزب الشيوخ كمناوىء مواجه للأسرة الحاكمة، فقد كان امتعاض حكام الحوصة وخوفهم، مثاره سياسي أكثر من

كونه ديني؛ فقد كان التغلغل الإسلاميـــة في دولتهم غير جديد ولم يقلقهم.

أما الآن: (مطلع القرن التاسع عشر) فإن الحركة الإسلامية بدأت تأخذ أبعاداً سياسية تهدد حكوماتهم وأسرهم الحاكمة، خاصة بعد أن تحدث الشيخ عثمان عن الضرائب غير الشرعية التي يفرضونها؛ ومما ضاعف من خوف ملوك الحوصة، وجود عدد كبير من المسلمين بين صفوف قواتهم المسلحة: (Crowder: p. 82) ونتيجة النزاع بين الشيخ عثمان ويونفا رحل الشيخ إلى ديجل: (Degel) ولما تابعه رجال يونفا رحل هو وأنصاره إلى جودو: (Gudu) ودعا أتباعه إلى الخروج من «دار الكفر إلى دار الهجرة» وبهذه الهجرة انتهى الدور السلمي في حركة عثمان دان فوديو، ودخلت طورها المسلح أو الجهادي.

وقد بين لنا محمد بلو ابن الشيخ عثمان طريقة دعوة والده السلمية، إذ يذكر أن والده كان يخرج في كل ليلة جمعة يعظ الناس، ويحضر مجلسه خلق كثير... ويخرج في سائر الليالي بعد العشاء لبث العلوم، والإجادة بالغرائب؛ وكان يخرج بعد صلاة العصر للتدريس، يفسر القرآن، ويدرس الحديث، والفقه، والتصوف؛ وكان يخرج للآفاق والبلدان للإفادة والوعظ، ثم يعود لمحله في دغل: (بلو: ٩٤ ـ ٩٥).

ويبدو أن عوامل كثيرة قد تكالبت على إسلام السودان الغربي ساعية لتشويهه، ومن ذلك ما يرويه محمد بلو وهو كاتب معاصر للأحداث ـ أن ما لعب بإخواننا ـ يعني أشراف سجلماسة ـ إلاَّ رجل جاءهم بالبلد، واتسم باسم الصلاح، ووقع الإقبال عليه؛ وكان يأتيه الرجل فيعده بأن يبلغه إلى مكة ويحج به في طرفة عين.. ثم قام نفر من الأشراف واتفقوا على اختباره، فكمنوا قريباً منه وتقدم إليه أحدهم وعنده خمسون مثقالاً ذهباً، فقال له: يا سيدي إن هذه الصلاة تثقل على نفسي عسى أن ترفعها عني؛

وأفرغ تلك الدراهم بين يديه، وكأنه هش لذلك؛ فبادره الآخرون... وأوجعوه ضرباً وطردوه؛ ثم بعد مدة سافر بعضهم إلى ناحية المغرب، فمر بعين ماء هناك، فإذا الرجل عندها، وإذا به يهودي معروفاً هناك: (بلو: ٧٠ ـ ٧١).

ومن العادات، والممارسات، والتشريعات التي أبطلتها حركة عثمان دان فوديو، أن طائفة من أهل السودان الغربي كانوا لا يتوارثون على مقتضى الكتاب والسنة، وإنما يرث عندهم ابن الأخت: (بلو: ص ٤٢).

الطور الجهادي المسلح للحركة منذ فبراير سنة ١٨٠٤ وسقوط إمارات الحوصة:

لقد اقتنع عثمان دان فوديو والَّذين معه، أن أسلوب الدعوة السلمية غير كافٍ، فمالوا إلى أسلوب الكفاح المسلح؛ فلقد تحولت حركتهم الإصلاحية إلى ثورة عارمة بغير حدود منذ سنة ١٨٠٤، وأعلن الشيخ عثمان حركة الجهاد ضد ملوك الحوصة بعد خروجه من جوبير.

وبمجرد بداية الكفاح المسلح، اتضح أن النصر الساحق الَّذي حققته هذه الحركة لم يكن لبواعث دينية فحسب، وإنما كانت تكمن خلفه أسباب اقتصادية وسياسية غير منكورة؛ ولقد اتضح أن الحركة لم تكن مجرد ثورة لقلة من أتقياء الفولاني المسلمين، وإنما آزرهم زملاؤهم الفولانيون في كل مكان، لعصبية قبلية، ولضيقهم من بعض المظالم التي كانت تحيق بهم في دول الحوصة؛ وآزر الحركة ـ أيضاً ـ أعداد كبيرة جداً من رعاة الماشية وصياديها، وآزر الثورة الفلاحون الحوصويون الَّذين رأوا في حركة جهاد الفولاني خلاصاً لهم من الضرائب الباهظة، التي أثقل ملوك الحوصة كواهلهم بها: (Fage: P. 149).

ويرى كرودر: (Crowder) أن هذه الحرب كانت في جانب من

جوانبها حرباً بين المهاجرين الفولانيين، وبين الأسرات الحاكمة الأصلية؛ كما يرى أن الطابع السياسي للحركة قد تبلور، بحيث يمكن تقسيم حركة جهاد الفولاني إلى مراحل ثلاث:

١ ـ تجميع قوى الفولاني في بلاد الحوصة، وتأسيس إمبراطورية الفولاني.

٢ ـ الهجوم على برنو.

٣ ـ توسع الامبراطورية صوب الجنوب: (Crowder: P. 84- 85).

ولقد فشل ملك جوبير ـ وهو أول من تعرض لهجوم عثمان دان فوديو ـ في قمع الحركة في مراحلها الأولى، كما فشل في احتوائها؛ وأدى هذا الفشل إلى النمو المتزايد للحركة، وتصاعد الثورات ضد ملوك الحوصة، والأرستقراطيات الموجودة في المنطقة؛ ولقد فشلت هذه الارستقراطيات في أن تتعاون معاً ضد الثورة الإسلامية؛ وبحلول عام ١٨٠٩ كانت كل مناطق دول الحوصة تحت الحكم الفولاني، وخلعت ولاءها الاسمي والتزاماتها المالية تجاه برنو: (Fage: P. 149).

وقد حقق عثمان دان فوديو نجاحاً ساحقاً، وأسلم على يديه كثيرون، مما أزعج ملوك الحوصة وأمرائها، لأنهم لم يفرغوا دعوته من مضمونها السياسي؛ ومنذ سنة ١٧٩٥ كانت العلاقة بين الشيخ والحكام علاقة حرب وصراع، إلاَّ أن حركة الشيخ بدأت تتسم بالخطورة منذ ٢٣ فبراير سنة ١٨٠٤، حيث هاجر هو وأتباعه إلى أطراف الصحراء، وبدأ يستعد عسكرياً؛ وفي ٢١ يونيو سنة ١٨٠٤ انتصرت جيوش الشيخ عثمان على جيوش ملك جوبير، وأسقطت كبي وزاريا سنة ١٨٠٥، وكتسينه ودورا سنة ١٨٠٧؛ وفي سنة ١٨١٠ كانت كل أمارات الحوصة تابعة للشيخ عثمان؛ وبذلك فقدت برنو مورداً هائلاً بفقدها تبعية هذه الإمارات الحوصية لها: (أبو شعيشع: ص ١٣ ـ ١٦).

ويهمنا أن نتوقف لنورد الأحداث من وجهة نظر ابن الشيخ: (محمد بلو) ثم نحللها؛ يقول بلو: «لما استقر المقام بعثمان والَّذين معه في دار الهجرة، في حفر خندق وأخذ البيعة، فأول من بايعه أخوه الوزير عبد الله ثم بايعته ـ أي ابنه محمد بلو ـ ثم بايعه الكافة؛ ثم أنه لما أصبحنا عقدت الرايات ونفذنا إلى حفر الخندق، ونحن نتمثل بقوله:

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

.... إلخ.

حتى حفرنا قدر استطاعتنا.. وأنفذنا جيشنا إلى أطراف بلادهم (يقصد جوبير) فلقينا نصراً: (بلو: ١٠٠ ـ ١٠١) وقد أعان الشيخ في هجرته باغال التاركي صاحب الشيخ، وندب أهله لمعاونة الشيخ في الهجرة وحمايته مما يتوقع مع أعدائه؛ ولما عزم الشيخ على الهجرة استعان بأتباعه وولده محمد بلو، فبثوا الوثائق ونادوا الجموع؛ وقد أعانهم على الهجرة قائد جيوش جوبير».

ويذكر لنا (بلو) حال بعض المهاجرين وما تعرضوا له فيقول: «فلم نزل هكذا يلحق بنا طائفة مع عيالهم وأموالهم، وطائفة بعيالهم دون أموالهم، وطائفة بأنفسهم دون عيال وأموال»: (بلو: ٩٨).

«ولما خلف يونفا أباه نافاتا، غزا قرية عظيمة من قرى الإسلام على حين غفلة من أهلها، فقتلوا ما شاء الله من قرائها وفقهائها في نهار رمضان وهم صائمون، ونهبوا أموالهم، وأسروا ذراريهم، وجعلوا يفترشون الكتب والمصاحف، ويحتطبون الألواح فيوقدون فيها النار، ويستهزئون بأهل الإسلام، ثم جعلوا يعرضون لقرية الشيخ عثمان»: (بلو: ٩٧).

أما عن واقعة (كتو) فيصفها محمد بلو بأنها الواقعة الفاصلة في تاريخ المنطقة في هذه الفترة وأنها: «بمثابة يوم الفرقان يوم التقى الجمعان» وقد

كتب ملك جوبير يطلب النجدة من إخوانه ملوك الحوصة، فكتب إلى أمير كاشنة، وأمير كنو، وأمير زكزك، وأمير دور، وأمير أزبن، فأجابوه كلهم بما التمس منهم من مساعدته على كل من انتسب للشيخ، وأخذ كل واحد منهم يتأهب لغزو كل من انتسب للشيخ عثمان في بلده، وأرسلوا إليه ـ أي إلى ملك جوبير ـ مدداً، وتقدم ملك جوبير بجنود لا يحصي عددها إلاّ الله، فعسكرت جماعة عثمان ـ بقيادة عبد الله أخو الشيخ عثمان ـ بالقرب من مقر هجرتهم، ثم تحركوا نحو كتو ـ وهو اسم ماء ـ بعد أن كانت أعراب الصحراء قد اقتتلت مع جيوش الحوصة، بسبب نزولهم بأرضهم؛ ثم تلاحمت جيوش الشيخ عثمان بجيوش ملوك الحوصة، وتخالط الصفان فهزم الله الكفار، فولوا هاربين، وحل المسلمون على أكتافهم يقتلون وينهبون، فقتل منهم ما لا يحصيه إلاّ الله (تعالى) فهرب أميرهم. . : (بلو ١٠٤ ـ ١٠٥).

ولا بد أن نتوقف هنا لنلقي نظرة تحليلية أمام تحركات الشيخ وتصرفاته؛ إنه وعظ بالحسنى، ثم هاجر، ثم حفر خندقاً، ثم هوجم وتعرّض لحصار اقتصادي، ثم هو يسمي حروبه غزوات؛ لقد كان الشيخ عثمان ـ إذن ـ يحاول أن يتمثل تمثلاً حرفياً بأحداث السيرة النبوية، بدليل أن أعوانه كانوا ينشدون نفس النشيد الَّذي رددت كتب السيرة أن أتباع الرسول ﷺ كانوا ينشدونه عند حفرهم الخندق، وبدليل أن هذا الخندق لم يكن له أهمية استراتيجية كبيرة، فلم يذكر لنا محمد بلو بن عثمان أن هذا الخندق صد جيشاً، أو منع فرساناً.

على أية حال لقد استكان الشيخ عثمان وقسم إمبراطوريته بين ابنه محمد بلو: (Bello) الَّذي كان من نصيبه الشطر الشرقي ـ وهو ما يهمنا في حديثنا عن سلطنة برنو؛ وأخيه عبد الله الَّذي أقام في جواندو: (Gwandu): (الشيخ ص ١٠ ـ ١٢).

على أية حال، فبعد أن أسقط الفولانيون إمارات الحوصة التابعة لبرنو، بدأوا في شن الهجوم على برنو ذاتها، في آخر أيام السلطان البرنوي أحمد علي: (١٧٩٣ ـ ١٨١٠): (Meek: P. 95) ولما كان الأساس الَّذي قامت عليه حركة جهاد الفولاني، أساساً دينياً صرفاً، لذلك كانوا مضطرين لتبرير موقفهم إزاء غزو برنو، وهي سلطنة إسلامية عريقة؛ فقد كانت برنو تتبع الشريعة الإسلامية قبل حركة جهاد الفولاني، إلاَّ أن المعتقد الإسلامي فيها كان مختلطاً ببعض العادات الوثنية، التي لم ترق للفولانيين الَّذين قامت حركتهم على أساس ديني خالص، مؤداه تنقية العقيدة الإسلامية مما شابها من طقوس وثنية، وإشراك ـ غير مقصود ـ بالله.

إلاَّ أن الفولانيين انتهزوا فرصة وجود هذه الخرافات وهددوا في مطلع القرن التاسع عشر بغزو برنو، إلاَّ أن محمد الأمين الكانمي الَّذي حكم برنو من سنة ١٨١٤ حتى ١٨٣٧ تحت السيادة الاسمية للأسرة السيفية الحاكمة في برنو، كان ذا نزعة توفيقية، أو كان رجل سياسة قبل أن يكون رجل دين؛ لذا فقد رأى أن وجود هذه الخرافات غير كاف لإخراج برنو من حظيرة الإسلام؛ ففي خطاب أرسله لعثمان دان فوديو بَيَّنَ أنهم في برنو يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويحجون البيت إن استطاعوا إليه سبيلاً، ولا يشركون بالله؛ ولكنه ذكر أن قيام ملك برنو وآخرين غيره ببعض العادات الوثنية ـ كالتقرب بالأضحيات عند بعض الأحجار ـ مسألة لا تعني الشرك؛ وذكر أنه في دمياط ـ وهي واقعة بين مصر وسوريا ـ (كذا) يقوم عامة المسلمين بالتقرب إلى شجرة ولم يقم الفقهاء بنهبهم (كذا) أو اتهامهم في إسلامهم، أو حربهم: (Ifemesia: PP. 289 - 92).

ويذخر كتاب: «إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور» ـ الَّذي ألفه محمد بلو ابن الشيخ عثمان دان فوديو ـ بكثير من التفاصيل عن الانحراف الديني في برنو، ورغم كون سكان برنو مسلمين ـ كما يعترف محمد بلو بن عثمان دان فوديو ـ إلاَّ أن لسلاطينهم وأمرائهم مواطن يركبون إليها ويذبحون

بها، ويرشون بالدماء على أبواب قريتهم؛ ولهم بيوت معظمة فيها حيات وأشياء يذبحون لها؛ ويفعلون للبحر كما كانت تفعل القبط للنيل أيام الجاهلية؛ ولهم ـ في ذلك ـ أعياد يجتمعون فيها هم وأقراؤهم، وسلاطينهم، وعامتهم، ولا يحضرها غيرهم؛ ويسمون ذلك عادة البلد، ويزعمون أن ذلك صدقات يستعينون بها على جلب المصالح، ودرء المفاسد؛ فإذا لم تفعل تلك العادة بطلت معايشهم، وقلت أرزاقهم، وضعفت شوكتهم؛ وتوارثوا هذه العوائد كابراً عن كابر: (بلو: ص ٣٤).

ثم يستمر محمد بلو في وصف حال معتقداتهم لائماً رجال الدين فيهم، فيذكر أنه: «لم يبلغنا عن أحد من سلاطينهم وعلمائهم ـ بالغاً ما بلغوا ـ أنهم أبطلوا تلك العوائد، إلاَّ ما كان من الموفقين ممن لا يشاركهم في أمورهم من العرب والفلاتة، فإنهم لم يزالوا ينكرون عليهم فعلها ويكفرونهم، ولا شك في كفرهم، وإن كان علماؤهم يدعون أنهم لا يريدون بذلك الإشراك، ولا يعتقدون التأثير؛ فهم كفار لأن هذه الأصنام من الأشجار، والمياه، والأماكن التي يذبحون لها، كانت أصنام أجدادهم الَّذين لم يسلموا قبل؛ فهم في ذلك مقلدون لهم، وإن تظاهروا بالإسلام والخير بعد ذلك... وإذا فهمت ما قررناه علمت أنهم لا يعذرون بما أظهروا من مقاصد أخرى، كمن سجد لصنم بمائة ألف درهم، وإن كانوا ينطقون بالشهادتين، ويصلون ويصومون، ويحجون، ويعملون أعمال البر، لأن واحدة من خصال الكفر تحبط ألفاً من خصال الإيمان إجماعاً»: (بلو ص ٣٤ ـ ٣٥).

ومن كتاب الكانمي الَّذي وجهه لمحمد بلو ابن عثمان، ذكر بعد اعترافه بحرمة كثير من التصرفات التي يأتيها أهل برنو وملوكهم، أن «كل ذلك من الكبائر التي نهى الله عنها، ولكن لا يكفر أحد بعد أن استقر إيمانه بذنب، فلو أمرتم بالمعروف ونهيتم واعتزلتم الناس حين ينتهوا، لكان أحسن من هذا القتل»: (بلو: ١٥٩).

وقد رد بلو على هذا الخطاب بوصف الكانمي بالجهل والالتواء وقال: «واعلم أيها الكانمي ـ أولاً ـ أنَّا ما حاربنا الناس بما أجابوك أصلاً، وإنما حاربناهم دفعاً على أنفسنا، وديننا، وأهلنا لما آذونا» ثم يبدأ محمد بلو بالرد على أفكار الكانمي الدينية فيتناول: كيف لا يكفر أحد من أهل القبلة بذنب؟.

* * *

ملحق رقم (٣)

الفلاتة والهجرة إلى حيث التمكن من إقامة الدين[1]

في مارس سنة ١٩٠٣ سقطت خلافة سكتو: (شمال نيجيريا) في أيدي الإنجليز، وكان أمير المؤمنين ـ حينئذٍ ـ هو الطاهر بن أبي بكر عتيق ابن الشيخ عثمان بن فودي؛ فخرج الطاهر على رأس جماعة في هجرته المشهورة، فاراً بدينه إلى أرض الله الواسعة، إلى أن استشهد في معركة برمي: (على بعد ٤٠ كلم شمال شرقي قمبي الحالية) في الأطراف الشرقية للخلافة في يوليو من نفس العام.

بعد حوالي ٨٥ عاماً، وبالتحديد في سنة ١٩٨٧، وقعت في أيدينا مخطوطة بعنوان: «رسالة ونصيحة إلى المعاصرين المعتنين بما يدخلهم في زمرة المسلمين الناجين»، يفصل فيها كاتبها ـ الّذي لم يمهرها باسمه ـ

---

(١) هذه الدراسة للدكتور/الأمين أبو منقة، نشرت في مجلة دراسات نصف سنوية، يصدرها المركز الإسلامي الأفريقي، شعبة البحوث، المجلد الخامس ربيع الأول ١٤١٠ هـ، أكتوبر ١٩٨٩م، بعنوان: «الأسس الفقهية لهجرة أمير المؤمنين الطاهر الأول من سكتو».

انظر: مقارنة بين حركتي الإخوان المسلمين والشيخ عثمان دان فوديو، ص ١٤ ـ ١٧، الدكتور عبد الرحمٰن أحمد عثمان، جامعة أفريقيا العالمية، مركز البحوث والترجمة.

الأدلة الفقهية لوجوب هجرة المسلمين من خلافة سكتو، بعد احتلالها من قبل الإنجليز، ويدحض فيها حجج من كان - من الفقهاء ورجال الدولة - يرى جواز بقائهم تحت حكم النصارى؛ فعلى الرغم من شيوع الوثائق التي تؤيد الرأي الثاني مما مكن من دراستها دراسة وافية، فقد ظلت هذه الوثيقة في طي الكتمان.

لفت انتباهنا إلى هذه المخطوطة الشاب الأمريكي المسلم محمد شريف: (٢٨) سنة، وعلمنا منه أنها بحوزة المواطن بيلو عبد الرزاق: (٥٥ سنة) بمايرنو؛ وقد تفضل بيلو عبد الرزاق.بإطلاعنا عليها ضمن مجموعة كتب من نفس الطراز، ورثها من والده الشيخ عبد الرزاق، الإمام الأسبق لمسجد ما يرنو العتيق.

فالغرض من هذا البحث هو التعريف بهذه المخطوطة التي ظلت منذ أن كتبت مجهولة لدى المؤرخين، رغم أهميتها القصوى بالنسبة لتاريخ الخلافة السكتية؛ وسنحاول - أيضاً - استعراض الظروف التاريخية والفكرية التي سبقت وصاحبت هجرة الطاهر بن أحمد من سكتو - موضوع المخطوطة - ثم نوضح على ضوء هذه المخطوطة ما أهمل المؤرخون ذكره من دوافع تلك الهجرة، في الجزء التالي من هذا البحث، وسنشير إلى هذه المخطوطة - أيضاً - بـ : «الرسالة» أو: «رسالة ونصيحة».

مشكلة التعرف على الرسالة:

من الغريب أن هذه الرسالة، رغم مكانتها كأهم مستند فقهي لهجرة الطاهر، إلاّ أنها - كما ذكرنا - ظلت مجهولة تماماً لدى المهتمين بتاريخ خلافة سكتو؛ فليس لها أي أثر في دور الوثائق بشمال نيجيريا، إذ لم تجد مكاناً في فهرست المخطوطات العربية: مشروع بحث تاريخ شمال نيجيريا، الَّذي يحوي ١١١١ عملاً في مختلف فنون العلم وضروبه؛ وكذلك لم

تضمن في مجموعة كتابات: (مؤلفات) علماء خلافة سكتو البالغ عددها ٣٧٩ مؤلفاً: (أو مخطوطاً) والتي زيّن بها مرى لاست مؤخرة كتابه؛ كما ولم يشر إليها عمر النقر، ولا محمد أحمد الحاج في أعمالهما التي تطرقت إلى موضوع الهجرة أعلاها بإسهاب.

هناك في رأينا ثلاثة احتمالات تكمن وراء التعتيم الَّذي اكتنف هذه الوثيقة:

١ - إن ظروف الناس في ذلك الوقت، وعدم استقرارهم النفسي، وانشغالهم بدخول الإنجليز، وبمسألة الهجرة؛ حالت دون نسخها ونشرها على نطاق واسع.

٢ - لقد خشي أصحابها على أنفسهم من نشرها وترويجها، خاصةً أيام سطوة الإنجليز، ثم نسوها من بعد... ولم يهتم بها الجيل الجديد، ولم يعرف صلتها بالتاريخ.

٣ - من المؤكد أن هذه الرسالة لا ترضي نزعات العلماء ورجال الدولة، من الَّذين فضلوا البقاء بديارهم، فلذا لم يولوها اهتمامهم حتى اختفت تدريجياً.

لعل الشعاع في التعرف على هذه الوثيقة ما ورد في رسالة العالم أحمد بن سعد - قاضي غواندو - إلى الوزير محمد بخارى؛ والمضمنة في: «رسالة الوزير إلى أهل العلم والتدبر» كان القاضي يرد على خطاب الوزير إليه، مطمئناً الأخير بأن بقاءه وجماعته ومهادنته للإنجليز بغية الحفاظ على دار الإسلام، هو عين الصواب من وجهة نظر الشريعة؛ يقول القاضي: «... وأما ما استدل به عبد الله في مهادنتنا معهم ذهاب للإسلام فليس كذلك، بل هو استنباطه وتخمين ظنه..» في الترجمة أرجع إدليبي:

(المترجم) ضمير المتكلم: (نا) في «مهادنتنا» إلى المسلمين عموماً، معتبراً أن عبد الله هنا الشيخ عبد الله بن فودي الَّذي سبق أن أشار إليه في موضوعين من رسالته، متناسياً أنه في الموضوعين إياهما كانت الإشارة إليه بلفظ: «الشيخ عبد الله»(وكذلك الشيخ عثمان) ومتناسياً ـ أيضاً ـ أنه لم يسبق قط أن أورد علماء خلافة سكتو أسماء الشيخ عثمان بن فودي، وأخيه عبد الله، وابنه محمد بلو، مجردة من صفات التقدير، كالشيخ، أو العالم، أو الأستاذ.

وأهم من ذلك كله أن عبارة: «بل هو استنباطه وتخمين ظنه» ليس بالأسلوب الَّذي عهدناه من كُتَّاب الخلافة السكتية عند التحدث عن شيوخهم الكبار، لما في ذلك من مجافاة للأدب؛ فمن هنا يتأكد ـ بما لا يدع مجالاً للشك ـ بأن القاضي أحمد بن سعد كان يتحدث عن شخصين مختلفين يحملان اسم عبد الله: الأول هو الشيخ عبد الله بن فودي، كما هو واضح من الصفة المرفقة: «الشيخ» مع ذكر كتابه: (ضياء الحكام) أما الثاني ـ والمشار إليه بالأخ عبد الله ـ فمن المرجح أن يكون كاتب: «رسالة ونصيحة» التي نحن بصدد تقديمها.

ومما يدفعنا إلى هذا الاعتقاد أيضاً:

أولاً: أن استعمال لفظ الأخ يوحي بأن الشخص المشار إليه معاصر للمتحدث ومساو له في المكانة.

ثانياً: أن استدلال الأخ عبد الله (إن) وفي مهادنتنا معهم ذهاب للإسلام» هي نقطة التركيز في: «رسالة ونصيحة» فالوثيقة تحتوي على عدة عبارات ـ وفي مواضع كثيرة ـ بهذا المعنى: وجاءت خاتمتها كما يلي:

«. . . لأن بقاءنا على هذه الحالة التي لا طاقة لنا معها في دفعهم عنا وعن الإسلام سبب لاستئصال الإسلام وأهله».

من هو إذن «الأخ عبد الله»؟.

بعد استفسار للعلماء والمسنين بمايرنو حول هذا الموضوع، اتضح أن أحد أشهر علماء خلافة سكتو ـ إبان الهجرة ـ كان عالماً يدعى مودى عبده: (مودى ترخيم لمودبو وتعني بالفولانية المؤدب أي العالم) ظلت دار أحفاده ـ ولعهد قريب ـ منتدى للعلماء والدارسين؛ وعند استجواب الطيب محمود ـ أحد أحفاده ـ أفاد بأن اسم جده (بالتحديد جد والده) هو الشيخ عبد الله بن محمد بلل، المعروف بـ: «حبة دنيجو» أي الحبة البيضاء، وهو ـ أصلاً ـ من آدماوا؛ وقد سبق أن استدعى إلى سكتو لتسلم مقاليد الشؤون القضائية لإمارة آدماوا، إلاّ أنه اعتذر بأنه يود التفرغ للعلم؛ وذكر ـ أيضاً ـ إنه كان لمودي عبده خلافات مع بعض علماء المنطقة إبان وصول الإنجليز، وكان الخلاف ـ أساساً ـ يدور حول الخيار بين الهجرة والبقاء.

أخيراً هاجر مودي عبده، يصحبه عدد غفير من أتباعه وتلاميذه، فتوفي قبل أن يصل ما يرنو، ودفن بالأضية زكريا بالقرب من الأبيض؛ وقد لعب حفيداه ـ الشيخ بشير أحمد والشيخ أحمد عبده ـ من بعد دوراً مقدراً في تعمير حلقات العلم والمعرفة بمايرنو؛ فكل ما تقدم يسوقنا إلى الإعتقاد بأن مودى عبده (عبد الله بن محمد بلل) هو المعني بالأخ عبد الله، وهو كاتب هذه الرسالة.

إن نشأة مودي عبده بآدماوا، التي تبعد كثيراً عن مركز الخلافة بسكتو، ليس سبباً لاستبعاد نسبة: (رسالة ونصيحة) إليه، إذ ظلت سكتو ـ دوماً ـ على اتصال مباشر بجميع إماراتها، ومنها آدماوا، بل إن سقوط يولا ـ عاصمة آدماوا ـ المبكر سنة ١٩٠١ في أيدي النصارى ـ أي الإنجليز ـ يوحي بأن: (رسالة ونصيحة) كتبت قبل: (رسالة الوزير) التي أشارت إليها؛ ثم أن الأمير زبير ـ أمير آدماوا ـ كان أول من بعث إلى أمير المؤمنين عبد الرحمن بأنه لن يهادن النصارى مهما كان الأمر.

الوثائق التاريخية التي سبقت وصاحبت الهجرة:

في مؤتمر برلين سنة ١٨٨٤ الَّذي حدد مصير القارة الأفريقية، تقرر أن تؤول خلافة سكتو وما جاورها إلى دائرة مصالح التاج البريطاني؛ ومن ثم نالت شركة النيجر الملكية البريطانية امتياز استثمار خيرات هذه المنطقة، فتطور نشاط هذه الشركة التجاري وشبه العسكري إلى تأسيس ما يعرف بمحمية شمال نجيريا (عاصمتها لكوجا عند ملتقى نهر النيجر بنهر بنوى) وتعيين ديلتري لوغارد كأول حاكم عام لها.

بعد أن وطد سلطته في الجزء الجنوبي من نجيريا، بعث لوغارد بقوات لاحتلال الإمارات الواقعة جنوبي وشرقي سكتو؛ وفي المدة ما بين سنة ١٩٠٠ و١٩٠٢، سقطت كل من كونتقورا، وبدا، ويولا، وبوتشي، وفي نفس الوقت كان لوغارد يراسل أمير المؤمنين عبد الرحمن في سكتو، لعقد اتفاق سلمي معه على أن تكون السلطة العليا في السياسة والاقتصاد للتاج البريطاني، ويتعهد الإنجليز بعدم التدخل في شؤون العقيدة؛ وقد كان أمير المؤمنين يعلم ـ علم اليقين ـ ما سيترتب على قبوله بالوضع الجديد، إذ كانت الأخبار تصله في حينها عما كان يفعله الغزاة في الإمارات التي استولوا عليها.

فقد قامت سلطات الاحتلال باستبدال أمراء جميع تلك الإمارات ـ ما عدا أمير الورن الذي تعاون معهم ـ وذلك بحجة استبدادهم وغاراتهم من أجل الاسترقاق، ولكن الدافع الحقيقي وراء إبعادهم يرجع إلى معارضتهم للغزاة؛ كان لا بد للأمراء الجدد من تسلم أوراق تعيينهم من السلطات البريطانية، ويتطلب من الأمير اتباع جميع القوانين التي وضعت لإدارة المنطقة، كتلك المتعلقة بإيقاف الغارات من أجل الرقيق، وتقديم العون للحاكم: (الإنجليزي) لأداء مهامه، وطلب المشورة إليه في أمر المحاكم المحلية؛ وبإيجاز، لا بد للأمير من طاعة الحاكم طاعة كاملة في جميع

الأمور مهما كانت، وفي المقابل يتعهد التاج البريطاني بحماية الأمير، وعدم التدخل في الأمور الدينية، ما لم تتعارض مع القوانين الإنسانية: (مسألة الرقيق) وتؤدي إلى الاستبداد تجاه الرعية؛ وأوراق التعيين هذه عبارة عن عقد بين سلطات الاحتلال والأمير الجديد، يخضع بموجبه الأمير للنظام الجديد؛ وهذا العقد يوضح جلياً ما يلي:

أ ـ الأمير ليس سوى أداة لتنفيذ سياسات التاج البريطاني، وأمير المؤمنين نفسه ليس مستثنى من ذلك.

ب ـ هناك ـ دائماً ـ مجال للتدخل في شؤون العقيدة، تحت ستار التعارض مع القوانين الأنسانية.

ج ـ هناك مجال للتدخل في السلطة التقليدية، تحت ستار منع الاستبداد تجاه الرعية.

نظراً لكل هذا، باءت محاولات لوغارد الدبلوماسية مع أمير المؤمنين عبد الرحمن بالفشل، وكانت خاتمة هذه الرسائل تلك التي رد عليها أمير المؤمنين بما معناه: أن ليس بيننا وبينكم إلاّ ما بين الكافر والمسلم ـ الحرب ـ كما أمر الله جميع المسلمين.

في نوفمبر سنة ١٩٠٢، توفي أمير المؤمنين عبد الرحمن، واتفقت هيئة التنصيب على الطاهر ابن علي الكبير بن محمد بلو، إلاّ أن محمد مرافا بن أحمد لم يكن راضياً بهذا الاختيار، وقد كان حينها خارج سكتو، وكان يرى أن شقيقه الأكبر الطاهر بن أحمد أحق بالخلافة، فما كان منه إلاّ أن قاد فرقة من الفرسان من قبيلة الأزبن وحاصر سكتو، وتجنباً للفتنة اجتمع عقلاء القوم وأقنعوا ابن علي بالتنازل للطاهر بن أحمد.

جاء الطاهر إلى السلطة في ظروف جد صعبة، فعلى الصعيد السياسي ـ الإداري، استولت قوى الاحتلال على الجزء الأكبر من أرض الخلافة، ثم ها هي سكتو عاصمة الخلافة تشهد خوفاً كبيراً في أمر من

يتولى إمارة المسلمين؛ أما على الصعيد العقائدي، فقد أدخل وصول النصارى بأسلحتهم الفتاكة إلى نجيريا، وقبلها إلى السنغال وماسينا، الخوف في نفوس المسلمين، ولئن كانوا حقاً يخشون العدو الجديد على أنفسهم وممتلكاتهم، فقد كانت خشيتهم من الفتنة في دينهم وعقيدتهم أكبر؛ وفي ظروف الفرقة، والفتن، وعدم إعداد أسباب القوة لمواجهة الباطل، تفتحت مجالات الفكر السلبي، ومن ذلك أخذت فكرة ظهور المهدي ونهاية الدنيا، والهجرة تطفح إلى السطح.

لقد أصبح توقع ظهور المهدي في آخر الزمان جزءاً من الموروثات العقائدية وسط مسلمي غرب أفريقيا؛ فعليه كلما هب شخص ينادي بإحياء الدين، ادعى أنصاره له المهدية أو ادعاها لنفسه؛ فعندما قامت حركة الشيخ عثمان بن فودي، أشاع جماعته بأنه هو المهدي المنتظر، مما دفعه إلى الكتابة بإسهاب باللغة العربية والفولانية، مؤكداً عدم صحة هذه الدعوى، ولم يقف عند هذا الحد، بل وصف لجماعته المهدي المنتظر وصفاً دقيقاً، وذكر أنه سوف يظهر في الشرق، وأهاب بالجماعة أن يهبوا لمبايعته ونصرته فور ظهوره.

أهم ما يخصنا هنا هو عدم تحديد الشيخ عثمان لتاريخ ظهور المهدي، بل على العكس تماماً حذر الشيخ الناس من مغبة تحديد ما لم يحدده الرسول ﷺ لهذا ظل الناس ـ فيما بعد ـ ينتظرون موعد ظهور المهدي، وكانوا على أهبة الاستعداد للهجرة لملاقاته؛ ففي خطاب من أمير المؤمنين محمد بلوا بن الشيخ عثمان، إلى مودبو آدم أمير أدماوا، ورد:

«. . . والأمر الّذي ذهبت به من عندنا، وهو إنقاذ الجيوش إلى جنوب وداي وجنوب: (دار) فور، وإلى ناحية بحر النيل؛ فاجتهدوا في ذلك وانفذوا العيون إلى تلك البلاد، فإن شيخنا (رضي الله عنه) أشار لنا بأن جماعته تنتقل إلى تلك النواحي عند قرب ظهور المهدي، هناك يتابعونه

ويبايعونه إن شاء الله».

وقد قيل إن من أهم علامات ظهوره حلول: «الفترة» أي وقت فتور الدين، وهي مائة عام بعد كل مجدد؛ وكذلك أن تحل بأرض المسلمين مصائب مختلفة لا حول لهم بها ولا قوة.

بمجيء الإنجليز أو النصارى ـ كما كان يطلق عليهم ـ انقسم الناس في آرائهم إلى ثلاثة أقسام:

قسم ينادي بالصمود والقتال، وقسم ينادي بالمهادنة والمصالحة، وقسم ينادي بالهجرة وعدم موالاتهم، أما القتال فقد تأكد ـ جلياً ـ بأنه لا قِبَل لهم به، وليس ذلك جبناً ولا خوفاً، ولكن لعدم تكافؤ السلاح؛ فقبل وصول هؤلاء الغزاة إلى نيجيريا، ورد إلى المسلمين هناك أمرهم، إذ من المرجح أن يكون النازحون من أقاصي الغرب ـ إثر هزيمتهم على أيدي الفرنسيين ـ قد نقلوا لإخوانهم صورة حية عن فظاعة أسلحة هؤلاء البيض؛ فها هو أحدهم يحكي: «وصل النصارى يوم الثلاثاء عند المغيب وهاجمونا بالجمعة، قاتلنا حتى منتصف النهار فانهزمنا، وذلك لاختلاف أسلحتنا وليس لعدم شجاعتنا».

لقد تحقق للجميع أن كل من لم يختر المهادنة فمصيره الهجرة، وهذه المجموعة ضمت كل الَّذين قاوموا وهزموا، وكل الَّذين تنتظرهم الهزيمة.

في هذه الظروف الصعبة لم يجد الأمراء المخلوعون في الأقاليم النائية، الَّذين رفضوا موالاة النصارى، ملاذا سوى سكتو؛ فمن هؤلاء الجولوف: علي بوري، الَّذي هاجر إلى سكتو بعد أن هزمه الفرنسيون في السنغال؛ في سنة ١٨٩٠ سقطت سيغو عاصمة خلافة البمبرا، التي أسسها الحاج عمر الفوتي، فقاد ابنه الأمير أحمد الهجرة وتوجه نحو الشرق، بغية مديد العون لسكتو؛ إلاَّ أن المنية وافته في الطريق، فتولى ابنه بشير

الخلافة، وواصل بالجماعة، وانضم إلى ركب الطاهر؛ أما من داخل الخلافة فقد خرج الأمير أحمد ميساو على رأس جماعته إثر اقتراب الغزاة من منطقته، قاصداً (كنو) لكي يتبع أميرها إلى سكتو (لمناقشة مسألة الهجرة) لكن قبل أن يصل بسقوطها (أي كنو) فكرَ راجعاً؛ وتحرك ـ كذلك ـ أمير كنو مصطحباً معه عدداً كبيراً من الفرسان وشاغلي الوظائف الهامة، لتأدية فروض البيعة والولاء للطاهر، بمناسبة توليه الخلافة، وللتفاهم حول ما يمكن فعله تجاه التطورات الجديدة للأحداث، لا سيما وقد سبق أن تبادل عدة رسائل حول هٰذا الموضوع مع الوزير محمد بخاري؛ وتشير الدلائل إلى أن أمير كانو لم يكن يرى ـ منذ أن ظهر تفوق الغزاة ـ حلاً سوى الهجرة؛ ففي طريق عودته فوجىء بخبر سقوط (كنو) فعندها كتب للوزير محمد بخاري رداً على خطاب سابق له ما يلي:

«لقد تشرفت برؤية خطابكم، وفهمنا منه أنك تتبع نصيحتي؛ فأنا وأنتم نسعى لما فيه خير ديننا في الدنيا وفي الآخرة؛ أما أنا فلم أجد طريقاً أجدى مما وضحت لك في خطابي الذي حمله لك رسولي، وهو أن نترك هذه الديار جميعاً».

مما سبق ذكره «نستخلص أن الهجرة ـ خاصة لدى الَّذين قاوموا وخسروا الجولة ـ كانت الخيار الأوحد؛ أما في سكتو نفسها فقد ذاع وانتشر عزم أمير المؤمنين الطاهر على الهجرة، مما أقلق الكثير من الشخصيات الهامة التي لا تشاركه هذا الرأي، وقد ضمت قائمة هؤلاء شقيقه محمد مرافا، الشخصية ذات النفوذ في الخلافة، والتي لعبت دوراً حاسماً في تنصيبه خليفة؛ لا غرو، فقد بعث محمد مرافا برسالة إلى أخيه، يعبر فيها عن أسفه البالغ لهذا القرار الَّذي قد يعرقل لهم خططهم، وخاصة أن العلماء وكثيراً من الناس قد بدؤوا يتحللون من البيعة عند سماعهم لهذا النبأ؛ ويختم الرسالة بالآتي:

«. . . أستحلفك بالله ألاّ تدع أحداً يسمع من فمك أننا نزمع الرحيل عن هذه الديار، لأن في ذلك نهاية لأمرنا؛ ودعنا ننتظر ونرقب سير الأمور، فالأمر بيد الله؛ فإذا اضطرتنا إلى الرحيل فلنهاجر وإلاّ فلا؛ دعنا نجهز أنفسنا إلى حين أن يكتب الله لنا الرحيل».

ومن المتوقع أن تضم قائمة المعارضين ـ أيضاً ـ جل أنصار الطاهر بن علي، الَّذي تنازل عن الخلافة في خضم هذه الأحداث كما ذكرنا آنفاً؛ كما ومن المرجح أن تضم الوزير نفسه، رغم أنه لم يفصح بذلك علناً؛ فعليه يمكن أن نتوقع في الأوساط الحاكمة في سكتو، أن تكون المجموعة المعارضة للهجرة أقوى وأنفذ كلمة من المجموعة المؤيدة لها؛ ولكن بما أن عامة الناس يدينون بالولاء للطاهر، الَّذي يرون فيه أمير المؤمنين الشرعي، والقائد المخلص لهم ببركة جده الشيخ عثمان؛ فليس غريباً أن يتغلب اتجاهه على اتجاه غيره.

أضف إلى ذلك المعارضين ـ رغم قوة شوكتهم ـ قد يمسكون عن إعلان معارضتهم، وذلك حفاظاً على وحدة المسلمين في تلك الظروف الحرجة، أو ربما تمثلاً بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩].

يصور لنا الوزير محمد جنيد بن محمد بخارى في كتابه: «ضبط الملتقطات» حالة أهالي سكتو إبان وصول الغزاة فيما يلي:

«عندما وصلت الأخبار: (سقوط سكتو) ناقشوا أمرهم بينهم، فبعضهم فضل المهادنة، وبعضهم القتال، والبعض الآخر فضل الهجرة؛ أمير المؤمنين نفسه كان ميالاً إلى الهجرة، فلذا بدأ الناس في الاستعداد لها، وأخذوا يشترون الأحذية، والبغال، والحمير، وبقية مستلزمات الرحيل؛ بل قد حددوا تاريخها، وبينما هم في هذا الشأن فإذا بالنصارى قد وصلوا، فما كان منهم إلاّ أن عدلوا عن فكرة الهجرة وقرروا القتال».

إذن: عندما وصل النصارى لم يكن أهالي سكتو على استعداد للقتال، ومن مظاهر ذلك عدم تحصينهم للمدينة، على عكس ما فعل أهالي كنو؛ فلم تدم المعركة (يوم ١٥ مارس ١٩٠٣) أكثر من ساعة واحده، حتى هجر الناس المدينة وتشتتوا بلا هدي؛ فتوجه الوزير شمالاً إلى مرنونا، وهناك تجمع الناس حوله يطلبون رأيه عما سيفعلونه، فأتاهم بأن يتصرف كل كما يرى؛ وبعد أربعة أيام عاد إلى سكتو للتفاوض مع الإنجليز على الإقامة؛ أما أمير المؤمنين الطاهر، فقد عزم على تنفيذ الهجرة؛ لأنه ـ كإمام للمسلمين ـ كان من واجبه الحفاظ على دار الإسلام، وعلى سريان الشريعة فيها؛ فإذا فشل في أي منها سقطت عنه البيعة.

ويجدر الذكر أنه قد سبق أن تعاملت الخلافة منذ أيام أمير المؤمنين محمد بلو مع أوروبيين في شكل أفراد وجماعات، إلاّ أن كل هذه المعاملات كانت تقوم على أسس شرعية صحيحة: الأفراد كانوا على أمان، والجماعات عوملوا كذميين وفرضت عليهم الجزية؛ فعليه لم يشأ الطاهر أن يكون أول خليفة «يبيع أمجاد أجداده» كما قيل.

أخذ الطاهر طريقه نحو الشرق، وأخذ الناس يتدافعون للحاق به، وكان بصحبته من الشخصيات الهامة القاضي وال: «أبان دوما».

انتظر الإنجليز أياماً عله يعود، خاصةً وقد أكدوا له عدم تدخلهم في أمور العقيدة، إلاّ أنه لم يرجع رغم عدم ابتعاده كثيراً من سكتو، فبتفويض منهم دعا الوزير كلاً من القلاديما والمرافا: (الشقيق) وسركن قلما، لمعاونته على تعيين خليفة جديد؛ ولم يكن هذا بالأمر الصعب، إذ أصبح من الطبيعي أن يقع الاختيار على شخص الطاهر بن علي، الَّذي تنازل للطاهر الأول قبل أشهر فقط من ذلك التاريخ؛ وهكذا وصلت خلافة سكتو إلى نقطة النهاية، وبدأت مرحلة جديدة في تاريخ تلك المنطقة، ومنذ ذلك الحين استبدل لقب: «أمير المؤمنين» بلقب: «سلطان».

شهدت الفترة بين مارس ١٩٠٣ (بداية الهجرة) ويوليو من نفس العام، سلسلة من الأحداث، تتلخص في اندفاع المسلمين من كل صوب للحاق بركب الهجرة (وفي نفوس الكثير منهم الأمل في ملاقاة المهدي المنتظر ظهوره) ومطاردة الإنجليز لهذا الركب؛ فقد تيقن هؤلاء - أخيراً - بأن الأمر بالنسبة للطاهر لم ينته عند حد «الهروب» كما كانوا يعتقدون، وبأن خروجه كان أخطر عليهم من بقائه؛ فبدؤوا يأخذون في حساباتهم احتمال أن يسعى إلى تجميع قواته، والعودة لمواجهتهم ومحاولة إجلائهم عن دار الإسلام؛ وقد ازدادوا تخوفاً عندما وردت إليهم التقارير عن خروج الناس أفواجاً للانضمام إليه في كل منطقة يمر بها، ولا سيما الشخصيات المرموقة ذات الوزن السياسي والديني، من أمثال: الأمير أحمد ميساو، وقاضي كنو دون ياموس: (مقاجن كفى) وأخيراً قادة المهاجرين من أقاصي الغرب من فوتاتورو، وماسينا، والسنغال، من أمثال: بشير بن أحمد بن الحاج عمر الفوتي؛ وقد بلغ الأمر قمة خطورته بالنسبة للإنجليز عندما فتح أنصار المهدي (محمد أحمد المهدي السوداني) حصنهم ببرمي (٤٠ كيلو متراً شمال شرق قمبى الحالية - ولاية بوتشي) أمام جماعة سكتو، واتفق الجماعتان على نبذ الخلافات العقائدية بينهما، ومواجهة النصارى ومقاتلتهم تحت راية: «لا إله إلا الله».

شهدت جبهة برمي في الفترة ما بين مايو ١٩٠٣ ويوليو من نفس العام حركة دائبة من حشد للمجاهدين، وتجهيز للحصون وحفر الخنادق؛ وفي نفس الوقت حرك لوغارد عدداً من فصائله ووجهها نحو الحصون؛ وفي ٢٧ يوليو، حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف ظهراً، بدأت المعركة ساخنة وعنيفة، ولم تنته إلاَّ بعد أن استشهد أمير المؤمنين (حوالي السادسة والنصف مساء) وتعتبر هذه أعنف المعارك التي خاضها الإنجليز في نيجيريا، وقد استبسل فيها المجاهدون من جماعة سكتو وأنصار المهدي أيما استبسال، إلاَّ أن سلاحهم لم يكن متكافئاً مع سلاح العدو.

بعد أن استشهد أمير المؤمنين الطاهر، انعقد الرأي على تسليم راية الهجرة إلى ابنه محمد بلومي ورنو، الَّذي كان يبلغ من العمر - حينئذٍ - الخامسة والعشرين؛ فواصل بها بجماعة تقدر بـ ٢٥,٠٠٠ حتى بلغ النيل الأزرق سنة ١٩٠٦، وعبره ونزل بقرية الشيخ طلحة، على بعد ١٥ كيلومتراً جنوبي سنار؛ وفي السنة التالية عبر المهاجرون إلى الضفة الغربية وأسسوا قرية: (مايرنو) الحالية، في نفس البقعة التي قيل إن الشيخ عثمان قد سبق أن تنبأ بنزول جماعته بها.

ما لم يذكره المؤرخون من أسباب الهجرة:

لعل أكثر ما ركز عليه الباحثون من دوافع الهجرة ما يلي:

١ - قرب قيام الساعة، وظهور المهدي ناحية الشرق، والهجرة لمبايعته تنفيذاً لنبوءة الشيخ عثمان.

٢ - الحلم بتأسيس دولة الفولاني بالشرق.

٣ - الهروب من الأقوى (أي من جور المستعمر).

كما ذكرنا آنفاً، فإن المسلمين في المغرب العربي وغرب إفريقيا، قد افتتنوا - منذ مدة طويلة - بمسألة قيام الساعة، وظهور المهدي كجزء لا يتجزأ من طبيعتهم الميالة إلى التعلق بالأمور الغيبية، والأسرار الخفية؛ ومن مظاهر ذلك، المكانة التي أخذها التصوف في قلوبهم، وما ارتبط به من الكرامات والخوارق؛ وكثيراً ما نسب مسلمو بلاد هوسا خوارق، مثل: الطيران، والمشي على الماء وقطع المسافات الطويلة في مدة وجيزة إلى الشيخ عثمان، الَّذي حاول مراراً وتكراراً نفي هذه الأشياء عنه.

ومسألة تأسيس دولة للفولاني في الشرق، قد لا تخرج - أيضاً - عن هذا الإطار، إذ ليس لدينا - حتى الآن - من الأدلة ما يثبت هذه النبوءة، اللَّهم إلاَّ ما كان يسمع من أفواه الناس؛ وقد لوحظ أن معظم المؤرخين قد

استقوا المعلومات السابقة من كتابات الإنجليز الغزاة وتقاريرهم السرية، ولا يخفى على المتأمل أن بغية هؤلاء: (الإنجليز) من وراء ذلك هو تجريد الهجرة من صبغتها الإسلامية، والنيل من مكانتها، والتقليل من شأنها؛ والمتمعن في كتاباتهم لا يجد صعوبة في ملاحظة أسلوبهم الساخر وكلماتهم المستهزئة عندما يكتبون عن هذا الموضوع؛ وفي تقرير في هذا الصدد، يقول الحاكم الإنجليزي المقيم بولاية برنو، بالمر: (Palmer).

«. . . الأعداد الكبيرة من مواطني غرب أفريقيا، الَّذين عبروا إلى السودان، جاؤوا لأسباب دينية، ويمكن القول خرافية. . . للاعتقاد السائد لدى الفولاني بأن هذا الشعب المختار سيقاد يوماً إلى وطن أجداده بواسطة المهدي. . .».

أما مسألة الهروب من الأقوى، والتي قال بها بعض قدامى المؤرخين، فهذا أمر لا يقبله العقل ولا المنطق؛ إذ ليس هناك ما يمنع عامة الناس من البقاء في ديارهم شأن إخوانهم؛ وفي الواقع لم يسجل لنا التاريخ أعمالاً وحشية ارتكبها المحتلون بنيجيريا، ضد المواطنين الَّذين أقاموا تحت حكمهم؛ ثم إن المشقة التي عانوها في طريق الهجرة: (من المحيط إلى النيل) من جوع، وعطش، وتعرض للاسترقاق؛ لهي أشد مما كان يمكن أن يلاقوه في حالة بقائهم.

إن الحجج التي تضمنتها: «رسالة ونصيحة» لوجوب الهجرة في ذلك الوقت، لشيء مختلف تماماً عما ركزت عليه كتب التاريخ؛ فهذه الرسالة تمثل حلقة في سلسلة المؤلفات التي ورثناها من علماء الخلافة السكتية، ليس فقط في خطها المغربي وبنيتها الخارجية، وإنما في طريقة سوقها الأدلة وأسلوبها في المناقشة؛ فقد كان علماء الخلافة الأوائل دقيقين كل الدقة في انتقاء الأدلة من القرآن والسنة، وأمهات كتب الفقه؛ وذلك على نهج أستاذيهم عثمان وأخيه عبد الله، اللَّذين ترعرعا في كنف مجموعة

منتقاة من العلماء الأجلاء، المشهود لهم بالتفوق في ضروب العلم وفنونه، من أمثال والدهما محمد فوديو، وخالهما محمد سمبو، وأستاذيهما: جبريل ابن عمر ومحمد راجي؛ فعندما بدأ الشيخ عثمان حركته التجديدية تصدى له عدد من العلماء (يشير إليهم في كتاباته بعلماء السوء) الموالين لسلاطين بلاد هوسا، من الَّذين اختلفوا معه في الرأي، لأمر كان في أنفسهم؛ وجل هؤلاء كانوا متفقهين في الدين حقاً، فكان لزاماً عليه ـ وعلى أعوانه: الشيخ عبد الله والشيخ محمد بلو ـ أن يقارعوهم الحجة بحجة أقوى وأمضى؛ وما من حجة أقوى من القرآن والسنة، وآراء الأئمة السلفيين؛ فمن هذا المنطلق تطور تقليد التدقيق والتمحيص عند البحث والتفقه وسط جماعة الشيخ.

وكذلك عرفت الخلافة في بداية تاريخها الكثير من الخلافات حول عدد من القضايا الفكرية؛ في هذا الصدد يبين عثمان سيد أحمد إسماعيل، أن حياة الشيخ عثمان وأعوانه كلها كانت سلسلة من النقاش الفكري حول المسائل المتعلقة بالجهاد، وتوطيد حكم الإسلام في بلادهم؛ وجل كتاباتهم كانت إما على شكل رسائل، أو ردود على رسائل من اختلف معهم في الرأي.

كانت آخر وأكبر قضية من هذا الطراز، ما نشب بين جماعة سكتو والشيخ محمد الأمين الكانمي، شيخ برنو، من نقاش فكري: (فقهي) استمر لسنين عديدة حول شرعية جهاد الشيخ عثمان في بلاد هوسا؛ فالكانمي لا يفهم كيف يعلن الجهاد في بلاد أهلها يدينون بالإسلام والكانمي لم يكن وحده الَّذي لم يستطع ـ أو لم يود ـ أن يفهم هذه المسألة، فلذا اجتهد الشيوخ عثمان، وعبد الله، ومحمد بلو كثيراً في تبرير حجية جهاد ملوك هوسا، الَّذين كانوا يخلطون أعمال الإسلام بأعمال الكفر، وشرح الشيخ عثمان هذه النقطة بإسهاب في كتابه: «نور الألباب» وفي قصيدته بالفولانية مودنوري: (المعلمة) وبنيج لسد هوسا: (مصائب

بلاد هوسا) فلم يأت في كل هذا بدليل واحد خارج القرآن، والسنة، والإجماع، والقياس؛ فها هي معضلة شبيهة بمعضلة جهاد بلاد هوسا، تطل برأسها على الخلافة بعد مائة عام من ذلك التاريخ: هجرة أم لا هجرة؟.

فعلى نمط ما تقدم كتبت: «رسالة ونصيحة»... خالية من كل ما لم يرد في القرآن والسنة، وأمهات كتب الفقه؛ لم تتعرض إلى مسألة المهدية، أو الهجرة إلى الشرق، أو تأسيس دولة للفولاني، ويبدو أنها وصلت إلى أيدي الطاهر قبل توليه الخلافة، مثلما وصلت إلى أيدي العالم أحمد سعد قاضي غواندو آنف الذكر، واحتمال اقتناعه بما جاءت به يكون أقوى إذا عرفنا من هو.

فالطاهر بن أحمد ـ كما ورد في كتاب مفت (ص ٧٠) ـ «رجل لم يعرف عنه الطغيان ولا الاستبداد، فهو هادىء الطبع، عرف عنه طلب المشورة من أهلها من ذوي العلم، وعدم إظهار الامتعاض على ما لا يتفق معهم فيه؛ حقيقة إنه رجل دين وتقوى وورع؛ كان مؤتمراً بما أمر الله به، ومنتهياً عما نهى عنه؛ باستثناء عمامته الملونة، يظهر ـ دائماً ـ في ثياب بيضاء ناصعة طاهرة كاسمه».

فمن هذا الوصف يظهر لنا حرص الطاهر على إرضاء ربه، وخشيته من الانحراف عن جادة الطريق؛ فحتى إذا افترضنا أن ميوله إلى الهجرة قد تبلورت قبل اطلاعه على: «رسالة ونصيحة» فإن هذه لا شك قد وقعت في نفسه موقعاً حسناً، واستناداً على ما جاءت به أصبح أقوى عزيمة على تنفيذ الهجرة، والَّذي لم يود المؤرخون ذكره هو أن هذه الهجرة ـ مثل اعتزال سيدنا إبراهيم قومه، واعتزال أهل الكهف قومهم، وهجرة الرعيل الأول من المسلمين إلى بلاد الحبشة، وهجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، وهجرة الشيخ عثمان من طغل إلى غدو ـ قامت في المقام الأول على أسس إسلامية، صرفة، كما أمر بها القرآن الكريم، ووضحتها الأحاديث النبوية.

عرض الرسالة:

تقع الرسالة في عشرين صفحة ذات الحجم ١٧ في ١١ سم ونصف، وكل صفحة تحتوي على ١٨ سطراً في المتوسط، وهي مكتوبة بالخط المغربي، كما ذكرنا؛ وقد قمنا بتقسيمها إلى فقرات، ووضع الفصلات والنقاط على الأسطر، واستعمال الأقواس، ورغم أن أسلوبها لا يختلف كثيراً عما كان سائداً في العصر الذهبي للخلافة السكتية، فإنها لا تخلو من بعض الأخطاء اللغوية، مثل: وضع أداة التعريف في غير ما حاجة إليها، أو أخطاء أخرى ناتجة عن السهو عند النسخ؛ وقد اتبع كاتبها طريقة أجداده التقليدية في التأليف، فلذا احتل الاقتباس الحيز الأكبر فيها، متمثلاً في الآيات القرآنية: (١٨ آية) والأحاديث النبوية (١٩ حديثاً) ومصادر فقهية أخرى: (١٨ مصدراً) وتتكون الرسالة من مقدمة وثلاثة مباحث (فصول) حول الخيارات الثلاثة: القتال، والمهادنة، والهجرة؛ ثم أخيراً خاتمة.

أما القتال أو الجهاد في سبيل الله فواجب باتفاق العلماء، وقد يرتقي إلى فرض العين، وذلك إذا تهدد بقاء الإسلام؛ ولم يترك الكاتب للمسلم حجة للتقاعس عنه والتخلف عن جماعة المسلمين، إلاَّ ودحضها بما لديه من الأدلة الفقهية.

وأما المهادنة أو المصالحة (بين المسلم والكافر) فلها شروط ثلاثة يجب مراعاتها:

١ ـ أن تكون لمصلحة بقاء المسلمين تحت حكمهم، أي ألاَّ يكونوا تحت حكم النصارى.

٢ ـ أن تكون لفترة محدودة.

٣ ـ وأن تخلو من أي شرط فاسد.

يرى الكاتب أن هذه الشروط ـ جميعها ـ يستحيل استبقاؤها في حالة

مهادنة المسلمين للنصارى الغزاة، فلذا يؤكد عدم جواز هذه المهادنة.

أولاً: لقد ثبت مما حدث في الإمارات المحتلة، أنه ستكون للنصارى السلطة العليا: «والناس على دين ملوكهم».

ثانياً: ليس من المتوقع أن يحدد الإنجليز مدة بقائهم بأرض المسلمين.

ثالثاً: ليس من المتوقع ألاّ تخلو مهادنتهم من شرط فاسد، وقد أخبرنا المولى العليم: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

ثم ذهب الكاتب إلى أبعد من ذلك مستقرئاً ـ من قرائن الأحوال ومن تجارب الأقاليم الأخرى، التي سبق أن دخلها النصارى ـ ما سيترتب على قبول المهادنة من مخاطر على مستقبل الإسلام. . . «ومهادنتهم تزيد الإسلام وأهله قلةً وضعفاً، لما يلزم فيها من مداخلتهم لأهل الإسلام، فيتسبب بذلك تطبع المسلمين بطباعهم الرديئة وعوائدهم الذميمة، واقتداء سيرتهم المنهية حتى يألف ضعفاء القلوب عوائدهم المشحونة بالعيوب، وينشأ على دينهم، ويفتتن النسوان والولدان بالتزيي بزيهم، والتحلي بحليهم إلى أن تمات السنة الغراء، وتحيا البدعة الظلماء، ويتغلب دينهم، ويعم ويذل المسلمون بدخولهم تحت حكم النصارى».

أما البحث الثالث ـ أي الهجرة ـ فهو الموضوع الرئيسي للرسالة، بلا أدنى شك؛ إذ أشار إليها الكاتب في مواضع أخرى في المقدمة والمبحثين السابقين؛ ففي نهاية البحث الأول وضح بأن كل ما لا يكون عذراً على ترك الجهاد، لا يكون عذراً على التخلف عن الهجرة؛ وفي نهاية المبحث الثاني؛ وبعد أن عدد مخاطر المهادنة، ختم قوله بأنه إذا كانت المهادنة بهذه المنزلة فالهجرة هي الواجبة؛ وأثبت وجوبها في القرآن، والسنة، والإجماع، بما جاء في هذا الصدد في بيان وجوب الهجرة على العباد؛

وكذلك بين عدم تقيدها بزمن محدد بالحديث: «لا تنقطع الهجرة ما كان الجهاد».

ثم ذهب يؤكد بطلان كل حجة سيقت في ذلك الوقت من أجل التخلف عنها؛ وختم بقوله: «وإذا تأملت هذا علمت أن هجرتنا واجبة في هذا الوقت، لأن حربنا مع الروم لا نكاية فيه، والمهادنة لا تجوز لما قدمنا، وتعين الفرار حفظاً للإسلام».

هذه هي مرافعة الّذين عزموا على الهجرة ونفذوها؛ وقد رأينا أن للّذين اختاروا البقاء مرافعتهم: «رسالة الوزير إلى أهل العلم والتدبر» فهؤلاء كانوا يرون أن في البقاء ـ أيضاً ـ إنقاذاً لدار الإسلام الّذي ربما انقلب إلى دار كفر إذا هجره المسلمون؛ على أي حال، ليس من مقاصد هذا البحث التطرق إلى الرسالة الأخيرة إلى أبعد من هذا الحد، فمن المؤمل أن تكون مقارنة محتوى الرسالتين: (المرافعتين) موضوع بحثنا القادم بإذن الله.

نص الرسالة:

بسم الله الرحمٰن الرحيم؛ صلى الله على سيدنا محمد، وآله وصحبه وسلم. هذه رسالة ونصيحة إلى المعاصرين المعتنين بما يدخلهم في زمرة المسلمين الناجين.

اعلم ـ وفقني الله وإياك إلى الصواب ـ أن المتعين على أهل الإسلام فيما بينهم، وبين الروم، وسائر الكفار واحد من ثلاثة أمور: **أحدها**: القتال، **والثاني**: الصلح، **والثالث**: الهجرة؛ فلكل واحد محل وحكم؛ ولذلك فصلت هذه الرسالة على ثلاثة مباحث بعد مقدمة.

المقدمة: في إخلاص النية وتصحيحها في كل الأعمال:

وقد روى البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن

كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إمرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه» وتحذير الناس من استفتاء كل من يتسمى بالعلم ولم يوقن أنه عالم تقي.

وعن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا» رواه البخاري ومسلم.

عن زياد بن جدير قال: قال لي عمر: «هل يهدمه إلاً زلة العالم، وجدال المنافق بالكتاب، وحكم الأئمة المضلين» رواه الدارمي.

و(في) بيان أن الدين وأهله لا ينقرض إلى قيام الساعة، قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين إلى الحق حتى يأتي أمر الله» أي الساعة كما صرح به في بعض طرق الحديث. رواه البخاري ومسلم. انتهى.

وأقول وبالله التوفيق: فاعلموا يا إخواتي أن أحوال الناس في القتال مختصرة في عشرة أحوال في الغالب، لأنه إما أن يقاتل لله، بأن يقصد بجهاده وجه الله باستحقاقه العبادة وأمره بها، من غير التفات إلى جزاء عليها في الآخرة؛ وهذا إن استشهد وهو أعلى الشهداء، أي كما روي: أن شاباً حمل في بعض الغزوات على الميمنة فطحنها، ثم على الميسرة فطحنها، ثم على القلب ثناه، ثم قال:

احسن بمولاك سعيد ظننا
هذا الَّذي كنت له تمنا
تنحين حور الجنان عنا
لا فيك قاتلنا ولا قتلنا
لكن إلى سيدنا اشتقنا

قد علم السر وما أعلنا

ثم قاتل حتى قتل.

والحالة الثانية: أن يحمله على القتال غيرة الإسلام، والحرص على إعلاء كلمة الله وإذلال كلمة الكفر، ولا شك في صحة هذه النية وفوز صاحبها، وإن استشهد صاحب هذه النية فهو شهيد؛ كما روى في الحديث: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله.

الحالة الثالثة: أن يقصد بجهاده الجنة والنجاة من النار من غير تذكر لغير ذلك؛ وهذا هو الأغلب؛ ولا شك أن صاحبها من الشهداء إذا قتل.

والحالة الرابعة : أن يدهمه العدو فيقاتل مقبلاً غير مدبر، ليس له نية غير الدفع عن نفسه؛ وهذا شهيد أيضاً، لأن من دفع عن نفسه حتى قتل فهو شهيد، وأما من فر حيث يحرم الفرار فقتل مدبراً، فإنه ليس بشهيد، وإن جرت عليه أحكام الشهداء في هذه الدار؛ وكذلك من غل في الغنيمة ليس بشهيد في الآخرة.

والحالة الخامسة: أن يخرج لتكثير سواد المجاهدين، نيته أن يقتل ولا أن يقتل؛ فهذا شهيد ـ أيضاً ـ إن قتل، للأحاديث الدالة على ذلك.

والحالة السادسة: أن يجاهد لوجه الله ونيل الغنيمة جميعاً، ولو انفرد قصد الجهاد عنده لنهض إليه، كما لو دعي إلى غزو طائفة شديدة ليس لها ما يغنم لذهب إلى جهادهم؛ ولو دعي إلى طائفتين لإحداهما غنيمة والأخرى لا غنيمة معها لرغب في جهاد ذات الغنيمة؛ فصاحب هذه النية في خلاف بين السلف، قال بعضهم: نيته فاسدة لإدخاله قصد الدنيا في عمل الآخرة؛ وذهب بعض إلى صحة نيته وإثباته على نية الجهاد؛ ولكن ثواب ناقص من حيث أن له قصداً في الغنيمة، ولكنه أنزل رتبته من أصحاب النيات الخالصات من طلب الغنيمة؛ وما جاء في الأحاديث: أن من قاتل لإعلاء كلمة الله فهو في سبيل الله، دون من قاتل للغنيمة محمول

على قصد الغنيمة وحدها؛ ويدل لذلك خروج النبي ﷺ ليغنم عير أبي سفيان، لأن ذلك طلب كسب حلال. انتهى.

والحالة السابعة: أن يجاهد لتحصيل عرض الدنيا من غير التفات إلى قصد نوع من العبادة، بحيث لو عرض عليه غزو الكفار بلا غنيمة، لم يغز؛ وهذا إذا قتل ليس بشهيد في الآخرة، وإن كان حكمه في الظاهر حكم الشهيد، ولا أجر له البتة، اختلف في عقابه بذلك.

والحالة الثامنة: أن يجاهد رياءً وافتخاراً، ونحو ذلك ولم يخطر بباله قصد التقرب إلى الله البتة، بحيث لو كان حيث لا يطلع عليه أو لا يتوقع الثناء لم يجاهد؛ فإن هذا إن قتل ليس بشهيد عند الله بلا خلاف، بل قد استحق العذاب الأليم.

والحالة التاسعة: أن يقاتل ليقتل فيستريح عما هو فيه من فقر أو دين لازم، أو مصيبة يتوقع نزولها، ولم يخطر بباله التقرب إلى الله؛ فهذا مما للنظر فيه مجال، ويحتمل أن يقال: ليس بشهيد أو يقال: إنه شهيد لكونه لم يسمح بنفسه إلاَّ في هذا الوجه؛ والله أعلم.

والحالة العاشرة: أن يخلص النية ثم يطرأ عليه الرياء بعد الشروع في أفعال الجهاد، فله أجر ما سلف قبل الرياء. انتهى.

رزقنا الله الإخلاص في كل الأمور. كل هذا ملخص من مشارع الأشواق لأحمد بن إبراهيم ابن النحاس.

المبحث الأول: في وجوب الجهاد:

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقال تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] إلى ﴿فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥] ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٢٩] إلى قوله: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

وقال عليه السلام: «الجهاد واجب عليكم مع كل أمير براً كان أو فاجراً».

ودخل رجل فقال: يا رسول الله، زعم أقوام أن لا قتال، أن قد وضعت الحرب أوزارها؛ فقال: «كذبوا، الآن جاء القتال، لا تزال أمة من أمتي يقاتلون في سبيل الله لا يضرهم من خالفهم حتى تقوم الساعة، ولا تضع الحرب أوزارها حتى يخرج يأجوج ومأجوج». رواه النسائي.

واتفق العلماء أن جهاد الكفار في بلادهم فرض كفاية، حتى قال بعضهم: إنه فرض عين؛ قال القرطبي في تفسيره فرض على الإمام: إغزاء طائفة إلى العدو كل سنة مرة، يخرج معهم بنفسه أو بمن يثق به، يدعوهم إلى الإسلام ويكف أذاهم، ويظهر دين الله، حتى يدخلوا في الإسلام أو يعطوا الجزية. انتهى.

وفي المختصر وغيره من كتب الفقه، إذا فاجأ العدو محلة قوم مسلمين وجب عليهم دفعهم، عيناً عن كل مسلم في تلك المحلة وإن امرأة؛ وقد أوعد الله على ترك الجهاد بقوله: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم...﴾ إلى قوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤].

وبقوله: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ﴾ [التوبة: ٣٨]. وقوله: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٩].

فتأمل وعيد الاستبدال على عدم القتال؛ قال القرطبي في تفسيره: هذا توبيخ على ترك الجهاد؛ والتثاقل على الجهاد مع إظهار الكراهية حرام

على كل أحد؛ وقد أوعد رسول الله ﷺ على ترك الجهاد بقوله ـ كما رواه أبو داود ـ: «إذا تبايعتم بالعينة ـ أي بالمرابحة ـ وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزروع، وتركتم الجهاد؛ سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه، حتى ترجعوا إلى دينكم». انتهى.

ومعنى الحديث أن الناس إن تشاغلوا بما ذكر وتركوا الجهاد سلط الله عليهم العدو، لا يتخلصون منه حتى يرجعوا إلى ما هو واجب من الجهاد، وإقامة الدين، ونصر الإسلام؛ ودل قوله: «حتى ترجعوا إلى دينكم» أن ترك الجهاد والسكون إلى الدنيا خروج عن الدين، وكفى به إثماً مبيناً. هذا ما ذكره العلماء في معنى الحديث.

وفي مشارع الأشواق، قال رسول الله ﷺ: «سيأتي على الناس زمان يقول فيه قراء منهم: ليس هذا بزمان جهاد؛ فمن أدرك ذلك الزمان فنعم زمان الجهاد، قالوا: يا رسول الله: واحد يقول ذلك؟ قال: نعم، من لعنه الله والملائكة والناس أجمعون».

وفي مشارع الأشواق أيضاً، إن قالت لك النفس: إنما يمنع من الجهاد خوف الموت، فقل لها: ألم تؤمني بقول الله: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١] وقوله تعالى أيضاً: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [العنكبوت: ٥٧] فالإحجام إذاً في العمر، والإقدام لا يقطعه؛ وللموت سكرات، والشهيد لا يجد من ألم القتل إلاّ كمس القرصة ـ أي النمل ـ وإن قلت: أخاف ضياع أهلي ومالي وأطفالي، فتذكر قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التغابن: ١٥].

وقوله عليه الصلاة والسلام: «الغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها».

مع أن جميع من ذكرت يكونون عن قريب من الأموات وتفرقهم

نوازل الآفات؛ ثم إنهم يفرون عنك يوم المآل، يوم يفر المرء من أخيه، ويود كل منهم لو نجا وحملك ما يهلك من الأثقال؛ أفتحزن على فراق ما إن قل أو كثر همك وعناك، وإن كثر أطغاك، وإن مت وتركته أرداك؟ وإن تذكرت ولدك، فاعلم أن الله أرحم به منك، وإن كان من السعداء فلا يضيعه الله، وسيجمع الله بينك وبينه في الجنان؛ فاستودعه الله؛ وإن يكن شقياً فليكن الفراق في الأول، ولا حيلة إلى دفع المضرة عنه؛ وإن قلت: يشق عليّ فراق الأحباب والإخوان، فاعلم أن الفراق كائن لا محالة؛ وإن كانت المحبة لله، فالاجتماع في الجنة، وإلاَّ فالفراق الآن أفضل مِنْ مَنْ يتوقع منهم من الجفاء وقلة الوفاء، لأنهم في الغالب إخوان السراء وأعداء الضراء؛ إن قل مالك ملوك، فأخوك ـ حينئذٍ ـ أخوك؛ وإن قلت: أخاف فوات منصبي وجاهي الرفيع، ومسكني وحجابي المنيع، فتذكر من نال ما نلت من ذلك وفاته، فذلك يفوتك؛ وإن قلت: أرغب في التأخير لزيادة صالح الأعمال، فاعلم أن ذلك كذب من النفس، ومن مكايد إبليس، إذ الجهاد في سبيل الله أفضل الأعمال، وقد جاء في الحديث: إن قيام الرجل في الصف في سبيل الله أفضل من عبادته في أهله سبعين عاماً. انتهى.

فتأمل يا أخ فافهم، وتعلم أن كل ما لا يكون عذراً في ترك الجهاد، فلا يكون عذراً في ترك الهجرة؛ فلا يمنعك من الهجرة خوف مفارقة الأوطان، وضياع الأموال، والضعفة من العيال؛ فإن التعلل بذلك تعذر كاذب، وميل إلى الدعة وركون إلى تأويل باطل؛ فأعرض عن الدنيا يعوضك الله خيراً منها، فليست هذه الدنيا بدار مقام، متى جاءت بوصلها جاءت بفصالها؛ فشرابها سراب، وعذبها عذاب؛ فمن رام في وصالها وقع في حبالها؛ فتيقظ قبل الهلاك، وأطلق نفسك قبل أسر الفكاك؛ والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل؛ وسائر أحكام الجهاد مبسوطة في كتب الفقه. انتهى.

المبحث الثاني: في المهادنة:

وهي كما قال ابن عرفة، المهادنة وهي المصالحة، عقد المسلم مع الحربي على المسالمة؛ أي المتاركة مدة ليس هو فيها تحت حكم الإسلام، فيخرج الأمان، لأن حد الأمان دفع استباحة دم الحربي ورقه وماله، حتى قتاله، أو العزم عليه، مع استقراره تحت حكم الإسلام مدة ما؛ إذا تأملت حد المهادنة، عرفت أن موضوعها لمصلحة بقاء المسلمين تحت حكم الإسلام، إذا أحسوا منهم الضعف لمقاومة الكفار؛ فيصالحون الكفار على المتاركة لكي يستعدوا للقتال، ويتقووا بالجهاد لمقاومة الكفار، بشرط ألاّ يكون المسلمون تحت حكم الكفار.

وقال الشيخ عثمان ـ نفعنا الله ببركته ـ في كتاب المسائل، قال الأبي: لا خلاف أنه يجب على المسلمين عزل الإمام إذا فسق بكفر إذا تحيلوا القدرة عليه، وإن تحققوا العجز عنه لم يجب القيام عليه، ويجب على المسلم الهجرة من أرضه إلى غيرها. انتهى كلامه.

قلت ولم يذكر أن المسلمين يهادنونه فيجلسون في أرضه، لأنهم تحت حكمه؛ وهذه المسألة قيد لما أطلق في جواز المهادنة، أي بشرط ألاّ يكونوا تحت حكم كافر؛ وهذه المصلحة، أعني مصلحة بقاء الإسلام وبقاء المسلمين تحت حكمه، وهي إحدى دواعي المهادنة؛ أو يهادنون الكفار ليجد بعض المسلمين الّذين في الكفار سبيلاً إلى الخروج؛ أو يداخلوا المشركين ليعلموهم دين الله وأحكام الإسلام، حتى يعلم من لا يعلم، ويسلم من قدر الله له الإسلام.

وهذه المصلحة هي إحدى دواعي صلح الحديبية قبل فتح مكة، وإسلام أهلها، ودخول الناس في دين الله أفواجاً؛ لأنه لما وقع الصلح اختلط الناس بعضهم ببعض، وجاؤوا إلى النبي ﷺ ودخلوا المدينة، وذهب المسلمون إلى مكة، فسمعوا منهم أحوال رسول الله ﷺ مفصلة،

ووقفوا على معجزاته الظاهرة، وأعلام نبوته، وحسن سيرته، وعاينوا بأنفسهم كثيراً من ذلك؛ فمالت قلوبهم إلى الإيمان، فآمنوا؛ فما أعظم هذه الفائدة التي هي زيادة الإسلام قوة وكثرة،ونقصان الكفر وقلته، حتى زهق الباطل. انتهى.

وإن كانت المهادنة بعكس هذا فلا يقول أحد بجوازها، كالمهادنة بالنصارى في هذه الأزمنة؛ لأن مهادنتهم تزيد الإسلام وأهله قلة وضعفاً، لما يلزم فيها من مداخلتهم لأهل الإسلام، فيتسبب ذلك تطبع المسلمين بطباعهم الرديئة وعوائدهم الذميمة، واقتداء سيرتهم المنهية؛ حتى يألف ضعفاء القلوب عوائدهم المشحونة بالعيوب، وينشأ الصبيان على دينهم، ويفتتن النسوان والولدان بالتزيي بزيهم، والتحلي بحليهم؛ إلى أن تمات السنة الغراء، وتحيا البدعة الظلماء، ويتغلب دينهم ويعم، ويذل المسلمون بدخولهم تحت حكم النصارى؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وإن احتج قائل لجواز مهادنتهم بالخوف، لأن سلاحهم أشد نكاية من سلاحنا؛ ولو قاتلهم المسلمون لاستأصلوهم بالكلية، ولذلك يرى جواز مهادنتهم وإن أدت إلى ما لا يجوز من الشروط؛ فالجواب أن مهادنتهم ـ أيضاً ـ تؤدي إلى استئصال الإسلام وهدمه برمته، بحيث لا تبقى رائحته كما رأينا في كثير من البلدان التي تغلبوا عليها من اشتراط شروط تهدم الدين شيئاً فشيئاً إلى ما لا نهاية. ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣] : ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠] .

فأخبرنا العليم الخبير أن مرادهم هدم دين محمد ﷺ ولا يرضيهم عنا الملاينة والمهادنة، فإذا كانت المهادنة بهذه المنزلة، فالهجرة هي الواجبة لا محالة، لإجماع المسلمين على تحريم إقامة مسلم تحت حكم كافر؛ قال شيخنا عثمان في كتاب المسائل: إن الهجرة من بلد الكفر أو البدعة والمعصية واجبة إجماعاً. انتهى.

ثم إن الهدنة جوازها مشروط بشروط منها المصلحة، ومنها المدة المحدودة، لئلا يستمر عدم القتال بين المسلمين والمشركين، ويتعطل الواجب، وهو القتال الَّذي كتب علينا؛ قال البهرام حاكياً ما في كتاب محمد بأن عبد الله بن هارون طلب منه الطاغية ترك القتال، على أن يبذلوا إليه مئة ألف دينار كل عام؛ فشاور الفقهاء في ذلك، وأفتوه بمنع ذلك لئلا يقطع الجهاد. انتهى.

ومن شروط جواز المهادنة خلوها من شرط فاسد، كبقاء مسلم تحت حكمهم وأن يحكموا بين مسلم وكافر، أو بقاء قرية المسلمين خالية منهم. انتهى.

واحذروا يا إخواني عن ما يميل إليه بعض الطلبة في زماننا هذا، من إجازة مهادنة الدوام واستدلالهم لذلك، بما في كتب الفروع من جواز المهادنة مطلقاً لخوف؛ فاعلموا أن الخوف المذكور في كتب الفقه هو خوف استئصال الإسلام وأهله، لا خوف على النفس والمال؛ فكيف يكون الخوف على النفس والمال عذراً لتوهين الإسلام، مع أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم؟ كما جاز قتل المسلمين مع المشركين إذا تترس بهم الكفار، خوفاً لاستئصال الإسلام؛ وأما إذا كانت المهادنة مع حكمهم على المسلمين بما شاؤوا، وإظهار دينهم على وجه التغلب والتفاخر، وعدم جريان حكم المسلمين عليهم أمراً ونهياً، ودخولهم في أي مكان شاؤوا من المساجد والمدارس؛ فهذا ينافي لما يجب على المسلمين من حفظ الدين، وترجيح مصالح الدين على مصالح الدنيا؛ كما يجب ترجيح حفظه على باقي الكليات الخمس التي هي: حفظ النفس، والعقل، والنسب، والمال؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون، على ضلة المسعى؛ وهذه الفتوى عين مكيدة الشيطان، وفي ذلك عين الهلاك؛ عصمنا الله من الزلل، ويرزقنا صالح الأعمال. آمين. انتهى.

المبحث الثالث: في بيان حكم الهجرة:

قال الشيخ عثمان في بيان وجوب الهجرة: إن الهجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام واجبة كتاباً وإجماعاً؛ أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ [النساء: ٩٧ ـ ٩٨] الآية.

قال البيضاوي وفي الآية دليل على وجوب الهجرة من موضع لا يتمكن فيه الرجل من إقامة دينه؛ وفي التكملة قوله تعالى: ﴿ظالمي أنفسهم﴾ بالمقام مع الكفار وترك الهجرة؛ وقال الخازن في اللباب: قوله تعالى: ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٧] بالشرك، وقيل المقام في دار الشرك. انتهى.

قال الخازن ـ أيضاً ـ عند قوله تعالى: ﴿۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [النساء: ٨٨ ـ ٨٩] الآية.

اختلفوا في سبب نزول هذه الآية، وقيل نزلت في الّذين تخلفوا يوم أحد؛ قيل: في قوم خرجوا إلى المدينة وأسلموا ثم استأذنوا رسول الله ﷺ في الخروج إلى مكة ليأتوا ببضائع لهم يتجرون، فخرجوا وأقاموا بمكة، فاختلف المسلمون فيهم... إلخ.

وقال عند قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٨٩] يعني يسلموا أو يهاجروا؛ قلت: وتأمل قوله: ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ﴾ [النساء: ٨٩] تفهم جواز استباحة دمائهم وأموالهم، إذا لم يهاجروا على أحد التأويلات في الآية؛ أما السنة فقوله (عليه الصلاة والسلام): «إن الله بريء من مسلم

ساكناً بين المشركين» وقوله (عليه الصلاة والسلام): «والمؤمن والكافر لا تتراءى نارهما» أوردهما المختار الكنتي في كتاب: «النصيحة الكافة» وقوله: (عليه السلام): «من جامع المشرك أو سكن معه فإنه مثله» رواه أبو داود عن سمرة. انتهى.

وأما الإجماع فقد قال الونشريسي في المعيارة والإجماع منعقد على وجوب الهجرة؛ وفي بيان وجوب الهجرة أيضاً: فإن قلت: هل يصح إسلام من أسلم في بلد كفر ولم يهاجر؟ قلت: جوابه كما قال النفراوي: ولو أسلم قوم كفار، فإن كانوا حيث تنالهم أحكام الكفار وجب عليهم الارتحال منهم؛ فإن لم يرتحلوا يكونوا عاصين لله ورسوله، وإسلامهم صحيح. انتهى.

وقد تولى المازري تبيين حكم شهادة هؤلاء، وقضاء قضاتهم، وغير ذلك.. فراجعه هناك؛ وقد ذكر أمير المؤمنين محمد بلو في كتابه: «مسائل» التقطها من مشاعر الأشواق وقال في كتابه ذلك: مسألة.

قال الرافعي والنووي وغيرهما: المسلم إذا كان ضعيفاً في دار الكفر لا يقدر على إظهار الدين، حرم عليه الإقامة هناك، وتجب عليه الهجرة إلى دار الإسلام، فإن لم يقدر فهو معذور إلى أن يقدر على إظهار الدين؛ فإذا قدر على إظهار الدين في محله ـ لكونه مطاعاً في قومه، أو لأن له هناك عشيرة يحمونه، ولم يخف فتنة في دينه ـ لم تجب عليه الهجرة، ولكن تستحب لئلا يكثر سوادهم أو يميل إليهم؛ وقيل تجب الهجرة، والصحيح الأول.

قال المؤلف: ومذهب أحمد موافق في جميع ما تقدم، وقال النووي: وإن كان يرجو ظهور الإسلام بمقامه هناك، فالأفضل أن يقيم، وإن قدر على الامتناع في دار الحرب والاعتزال وجب عليه المقام بها، لأن موضعه دار السلام، فلو هاجر لصار دار حرب فيحرم ذلك. انتهى.

قال المؤلف: وقد روى أبو داود عن سمرة بن جندب، قال: قال رسول الله ﷺ: «من جامع المشرك أو سكن معه فهو مثله» رواه الطبراني ولفظه: نهى رسول الله ﷺ أن يساكن المشركون أو أن يجامعهم؛ وقال: من ساكنهم أو جامعهم فهو منهم، فليس منا؛ ثم قال: وأخرج أحمد عن جندب: «أن الهجرة لا تنقطع ما كان الجهاد» وأخرج الطبراني عن خالد بن الوليد: أن رسول الله ﷺ بعثه إلى الناس من خثعم، فاعتصموا بالسجود فقتلهم؛ فوداهم رسول الله ﷺ بنصف الدية، ثم قال: «أنا بريء من كل مسلم أقام مع المشركين» قلت: يجب على كل مسلم له أدنى حبة من إيمان في قلبه، أن يجتنب حوم حول ما يجعل أحلم خلق الله بريئاً منه، أي السكن مع الكفار؛ أعاذنا الله.

فإن قلت: قد سلمنا أن الهجرة عن بلد الكفر وبلد البدعة واجبة إجماعاً، ولكن البلاد كلها اليوم ملئت بعضها جوراً وبدعة، وملئت بعضها كفراً، فأين أهاجر؟ فأقول: يكفي جواباً حديث البخاري الَّذي رواه حذيفة ابن اليمان، عن النبي ﷺ قال: «وكان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت يا رسول الله: إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا هذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم، قلت: فهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم وفيه دخن؛ قلت: ما دخنه؟ قال: هم قوم يهدون بغير هدى تعرف منهم وتنكر؛ قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها؛ قلت: يا رسول الله، صفهم لنا؛ قال: هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا؛ قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم؛ قلت: فإن لم يكن لهم جماعة وإمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك». انتهى.

فتأمل قوله: «فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة

حتى يدركك الموت» تعلم أن الهجرة غير مقيدة بوجود جماعة إسلام، حتى يكون عدم جماعة إسلام أو بلد إسلام يهاجر إليهم عذراً يسقطها؛ بل إن كان الإنسان عالماً لجميع ما كلف به من الدين، أو معه عالم يعلمه ذلك، فواجب عليه أن يهاجر من بلد الكفر، أو الفتنة، أو البدعة إلى حيث يتمكن له إقامة دينه، ولو فلاة خالية من الناس؛ لأنه إن هاجر إلى حيث يتمكن له إقامة دينه فأقام ذلك ـ ولو كان وحده في أرض خالية ـ فهو سني ومحله الَّذي أقام فيه محل سنة.

ويدل لذلك ـ أيضاً ـ حديث البخاري عن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنماً يتبع بها شغف الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن».

وحديث البيهقي في الزهد، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «يأتي على الناس زمان لا يسلم لذي (دين) دينه، إلاَّ من هرب بدينه من شاهق إلى شاهق، وحجر إلى حجر» الحديث؛ قلت: (ولم) يذكر في الحديثين الفرار إلى جماعة، فبان أن عدم الجماعة السنية التي يهاجر الإنسان إليها لا يسقط الهجرة؛ ألا ترى إلى أصحاب الكهف ما قصدوا جماعة تعينهم على إقامة الدين، بل فروا إلى حيث يخلص لهم إقامة دينهم بأنفسهم؟ كما حكي الله عنهم بقوله: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الكهف: ١٦] ألاَ ترى إلى إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) لما هاجر من أرض نمرود ما قصد جماعة معينة، ألا ترى إلى الصديق الأكبر لما فتن في مكة خرج وقال: «أسيح في أرض الله لأعبد ربي»؟ فلم يقصد جماعة أو بلداً يقام فيه الدين، إلى أن رده سيد الغار وطلب الجوار من قريش، كما في السير؛ ألا ترى أن شيخنا عثمان بن فودي ـ أفاض الله علينا من بركاته ـ لما هاجر (من) طفل فقد، علمت أنه ما قصد إلى بلد تقام فيه السنة ولا جماعة كذلك، بل أخرج يده من تحت حكم الكفار، وبقي في حكم الإسلام وتحت تصرفه. انتهى.

ثم إن قوله تعالى في شأن الهجرة: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً﴾ [النساء: ٩٧] وقوله: ﴿يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠] يدل على أن المهاجر لله لا يعدم محلاً ليتمكن له فيه إقامة دينه، لأن الله هو العالم المحيط بعلمه جميع الأزمنة والأمكنة؛ فسبحانه. انتهى.

خاتمة في حكم الفرار من الكفار، وفي بيان الهجرة لشيخنا عثمان:

فاعلم أن الفرار من الزحف حرام إجماعاً، ثم قال: «وفي القوانين لا يجوز الانهزام إلاَّ إذا زاد الكفار على ضعف المسلمين؛ والمعتبر في ذلك العدد في المشهور؛ وقيل القوة؛ وقيل إذا بلغ عدد المسلمين اثني عشر ألفاً لم يحل الانهزام، ولو زاد الكفار على الضعف؛ وإن علم المسلمون أنهم مقتولون، فالانصراف أولى؛ فإن علموا مع ذلك أنهم لا تأثير لهم في نكاية العدو، وجب الفرار.

قال أبو المعالي: لا خلاف في ذلك؛ وفي الخرشي فإن بلغ عدد المسلمين اثني عشر ألفاً، حرم الفرار، وإن زاد عدد الكفار على الضعف، حيث لم تختلف كلمتهم، وأن يكون معهم السلاح، فإن اختلفت كلمتهم، جاز الفرار؛ وكذلك إن كان العدو بمحل ولا مدد للمسلمين، وإن اعتبر هذا فيما إذا بلغوا اثني عشر ألفاً، اعتبر فيما إذا بلغ المسلمون النصف وكانوا دون اثني عشر (ألفاً) وفي بلغة السالك شرح أقرب المسالك: (الدرديري) وجاز إقدام الرجل المسلم على الكثير، والجواز المذكور بشرطين: أحدهما: قصد نصر دين الله، بأن لا يكون قصده إظهار شجاعة ولا طمعاً في غنيمة؛ ثانيهما: أن يعلم ـ أو يغلب على ظنه ـ نكايته لهم، وإلاَّ لم يجز؛ وإن مات يكون عاصياً، وإن كان شهيداً في الظاهر. انتهى.

وإذا تأملت هذا علمت أن هجرتنا واجبة في هذا الوقت، لأن قتالنا مع الروم لا نكاية فيه، والمهادنة لا تجوز لما قدمنا؛ وتعين الفرار حفاظاً للإسلام وإبقاءً له، لأن بقاءنا على هذه الحالة ـ التي لا طاقة لنا معها في دفعهم عنا وعن الإسلام ـ سبب لاستئصالهم للإسلام وأهله.

ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا يسراً. انتهى.

أعاذنا الله من الزيغ بجاه محمد ﷺ اللهم ارحم أمة محمد رحمة عامة... آمين.

* * *

ملحق رقم (٤)
الفلاتة والتكرور والقبائل العربية في السودان الشمالي

الفلاتة والعباسيون:

اتفق المؤرخون على مجموعة من قبائل تميم وجهينة السودانية تجمعت حول الأمير إبراهيم العباسي ـ الذي حسب الروايات ـ بن سعيد بن فضل بن عبد الله بن عباس عم النبي ﷺ، الذي لقب أخيراً بلقب (جعل) لما كان يجعله للقبائل التي تجمعت حوله بسبب مجاعات طاحنة مرت بهم في ذلك الزمان بالإضافة إلى مقولته «وجعلناكم منا»[١].

وكذلك اتفق المؤرخون بأن هذه القبائل قد وصلت إلى السودان بعد الإسلام من شمال أفريقيا متنقلة بين غربها ووسطها وركزت هذه المجموعات وجودها على ضفاف حوض نهر النيل وغرب السودان وذلك ما بين الخرطوم وبلاد النوبة وكردفان ودارفور ثم النيل الأزرق والنيل الأبيض، وباختصار فإنها تغطي السودان كله.

ولا يعرف على وجه التحقيق في أي قرن نزل (إبراهيم جعل)

---

(١) هذه الدراسة للأستاذ الطيب عبد الرحيم محمد. نقلاً من كتابه الفلاتة في إفريقيا ومساهمتهم الإسلامية والتنموية في السودان. الطبعة الأولى ـ ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٤م.

السودان. والذي يهمني كثيراً هو كيفية وصول العباسيين إلى السودان والعطاء الذي قدموه خلال ترحالهم إلى أن وصلوا إلى حيث يعيشون الآن، المعلومات التي سكت عنها التاريخ بلا مبرر واضح ومقنع، فلا يعرف الدولة أو الخلافة التي كان ينتمي لها إبراهيم العباسي. ولا الإمارة التي أرسلته وفوضته، فمكنته من ضم كل فروع القبائل الجهينية والتميمية في السودان.

ولأهمية الموضوع التاريخي ولصلته المباشرة ببناء الشخصية السودانية والمجتمع السوداني من خلال إعادة هذه الشريحة الكبيرة من الشعب إلى تراثها وماضيها العريق وعطائها الثري المستمر.

رأيت ضرورة البحث عن حقائق أو مؤشرات تسهل للباحثين من بعدي أو معاصري حقيقة الأمر كاملاً فتعمقت في البحث متخذاً وسائل عديدة منها الكتب والمجلات التاريخية والمجتمعات الدينية، والمناطق وأسمائها والألقاب وأصحابها، بالإضافة إلى أجداد العباسيين ومدى علاقتهم بألقاب وأسماء دول أفريقية عاشوا فيها.

وتقول الروايات: إن أسلاف (إبراهيم جعل) قد وصلوا إلى غرب أفريقيا قادمين من شمالها، وذلك في القرن التاسع الميلادي، مساهمين مع القبائل الأخرى في إنشاء مراكز ودول إسلامية في غرب ووسط أفريقيا، منها على سبيل المثال مركز «بلاشندي» الإسلامي، أي بلد شندي، وذلك ما بين القرن التاسع والحادي عشر الميلادي، ثم أنشؤوا مركز خسري بأرض كتكو التابعة أنذاك لدولة البرنو. ثم استمرت هجرة بعضهم إلى الشرق مارين بدارفور ثم كردفان حيث حط زعيمهم إبراهيم العباسي مؤسساً منطقة أطلق عليها اسم خرسي أو خسرى أسوة بمركزهم السابق، المنطقة التي صار (إبراهيم جعل) فيها أباً وزعيماً لقبائل عديدة اجتمعت حوله واستمرت الأسرة في خرسئ ببارة إلى عهد حسن كردم الفوار ـ الذي

حسب الروايات ـ الحفيد السابع أو من الجيل السابع بعد الأمير (إبراهيم جعل).

ويفهم مما ذكر آنفاً أن العباسيين عموماً وجد الجعليين خصوصاً وأهله قد مروا بغرب ووسط أفريقيا حيث أنشؤوا فيها العديد من المراكز الإسلامية واختلاطهم عن طريق التزاوج مع قبائل تلك المناطق والبلدان التكرورية وغيرها ويظهر ذلك في الأسماء والألقاب العديدة لزعماء الجعليين ذات الصلة المباشرة بغرب أفريقيا.

فمثلاً في سلسلة الجعليين أسماء وألقاب مثل:

١ ـ كردم (الفوار) فكردم يميل إلى العجمية أكثر منه إلى العربية وهو حسب الروايات ـ جد عبد الكريم ودا مؤسس دولة ودّاي في القرن السابع عشر.

٢ ـ حسن كردم (الفوار) جد الجعليين في السودان الذين أسسوا شندى والمتمة.

٣ ـ أبو الدس وهو اسم آخر غير عربي وهو ابن حسن كردم (الفوار) والمعروف أن دس Dissu أو دسو عند لغة الكتكتو تعني إدريس.

٤ ـ ترقم وهو اسم أميل إلى الأعجمية منه إلى اللغة العربية وهو أيضاً من أبناء أبو الدس دولا. الجدير بالذكر أن اسم دولا سنكرنق أو سكرنق SAKARANG والاسم ليس عربياً بل هو أقرب إلى اسم جامع سنكرى الذي يعتبر من أوائل الجوامع الإسلامية العالمية ينشأ في أفريقيا، والذي أسس عام ١١٠٠م أو بعد ذلك بقليل.

٦ ـ ومن أولاد حسن كردم الفوار: سرار الذي أنجب مسمار وسمرا وسميرا.

٧ ـ الميرافاب ومرفا اسمان يميلان إلى العجمية، والمعروف أن مرفا

قبيلة عباسية من قبائل ودّاي. أو من القبائل التي استقرت في أرض ودّاي، وتعني كلمة مرفا أو اسم مرفا عند أهل سكتو وقبائل غرب أفريقيا مثل: الغوبير QHUBAIR قائد الجيش ونائب سلطان البلد.

أما تقلى وتقلا فهي مملكة قديمة في أرض غانا القديمة في تمبكت وما حولها الحديثة حداثة التاريخ الإسلامي الأول. ومن ملوكها من يلقب سنكرنق وسنكرنق وكان آخرهم كيركير الذي خلفه أبو جريدة جيلى وخلفه سابو Sabo وغير ذلك من الأسماء غير العربية. وحاول أهل تقلى ـ الذين ينتسبون إلى الرباطاب الجعليين ـ تخريج كلمة جيلى التي تعني عندهم: الملك جاء إليه طوعاً، مع أنها من أعرق الممالك في غرب أفريقيا تحاربت مع مملكة غانا وناهضت السوننكي وواجهت التكرور مواجهات عديدة ولكنها انهزمت هزيمة اضطرت حكامها وأتباعهم إلى الهجرة للشرق وذلك ما بين القرن العاشر والثاني عشر الميلادي.

ويفترض أنهم هاجروا بعد الهزائم المتكررة التي لحقت بمملكتهم فاستقروا في عدة مناطق بما في ذلك مناطق العباسيين بين تشاد ونيجيريا إلى أن حطوا رحالهم حيث يعيشون الآن، بأرض وبلد أطلقوا عليه اسم تقلا، ولحق بهم علماء من سنكرى، أو من أحفاد ملوكهم الذين تعلموا في جامع سنكرى فحملوا لقب السنكريين أو هم من فروع الفلاتة سنكرا (امبرارو).

أما لقب سابو فهو أفريقي نوبي وما زال يستعمله علماء النوبي في نيجيريا، والحاكم الذي كان يحكم ولاية كانو ما بين ١/١/١٩٨٣ ـ ١/١/١٩٨٤ كان يسمى الحاج سابو باكن ذو Bakinzo وهو من أصل نوبي. وتعني سابو بلغة الهوسا «الجديد» فيقولون سابون قرى أي البلد الجديد.

فهل يحتاج أهل تقلى إلى تخريج لأصلهم العريق؟.

وتعني كلمة جيلى ومجيلى باللغة الفلانية: النور، والأبيض، وعادة يطلق الفلاني على كل من يسمى محمد لقب: جيلى ومجيلى.

وحسب الروايات فإن (إبراهيم جعل) قد أنجب فروعاً عديدة من الجعليين الذين لا يحملون أي اسم وانتماء غير نسبة واسم إبراهيم جعل كما انضم إليه آخرون وهم:

١ ـ الجعليون، الذين يمتد موطنهم من خانق سبلوقة إلى عطبرة.

٢ ـ الرباطاب الذين يمتد موطنهم إلى أبو حمد.

٣ ـ الميرفاب الذين يمتد موطنهم من عطبرة وحول بربر.

٤ ـ المناصير الذين يمتد موطنهم من أبو حمد إلى الشلال الرابع.

٥ ـ الشايقية الذين يمتد موطنهم من الشلال الرابع إلى إقليم الدبة.

٦ ـ الجوابرة (بني جابر) بين النوبة والمحس وأرض الجعليين.

٧ ـ الركابية الذين يمتد سكنهم حيث وسط بلاد المحس وكردفان.

٨ ـ الجموعية الذين يسكنون شمال أم درمان إلى حدود الكواهلة.

٩ ـ الجمع الذين يعيشون غرب النيل الأبيض.

١٠ ـ الجوامعة الذين يعيشون وسط كردفان وجزء من دارفور وشمال نيجيريا.

١١ ـ البديرية الذين يعيشون في كردفان وشمال السودان وشمال نيجيريا أرض يرنو باسم بدي Badde.

١٢ ـ الغديات الذين يعيشون في النصف الشمالي من البطانة.

فما علاقة الفلاتة التكرور بهؤلاء العباسيين؟

قد يرفض القارىء العباسي مجرد كلمة علاقة لأول وهلة ولكنه سيقبل بها إذا ما علم بأني أقصد من كلمة العلاقة إنما أعني بها العلاقة بالتزاوج والمصاهرة عبر التاريخ بين كل من ينتسب إلى العباسيين السودانيين

والتشاديين والكاميرونيين بدءاً بخسرى غرب بحيرة تشاد وانتهاء بحلفا وصعيد مصر مما يصعب التفصيل في هذا المجال، إلاّ أني سأركز في مناقشتي على العلاقة بين الفلاني التكرور وبين عباسيين الذين تزاوجوا مع الفلاني منذ قرون عديدة وبعيدة، ثم أمر مروراً سريعاً على القبائل التي لها صلة بالفلاتة والتكرور ولكنها ليست على درجة من العمق مثل غيرها. وأبدأ بالشايقية، فمن هم الشايقية؟.

الفلاتة والشايقية:

ينتسب الشايقية إلى شايق وهو أخ لغانم جد الجعليين العباسيين. وتمتد أوطان الشايقية على ضفتي النيل من نهاية الشلال الرابع إلى مصب وادي الملك وفي مسافة تزيد على مئتين من الكيلو مترات، وفي نهاية أوطانهم في الجنوب يلتوي النهر مرة أخرى ولكن يستأنف اتجاهه نحو الشمال، ومن نقطة الالتواء هذه تمتد نحو الجنوب الغربي فيافٍ تتخللها أودية وينالها بعض المطر الضعيف، وهذه المسافة يتوغل فيها الشايقية أيضاً، فيرعى فيها بعضهم إبله... وفي هذا الإقليم تصب في النيل أودية عديدة أهمها وادي أبو أدوم الذي يصب عند مروى ووادي مقدم الذي يصب عند كورتى، ووادي الملك الذي يصب عند الدبة، ويسكن الميرافاب هذه الأودية السفلى القريبة من النيل.

وأوصاف الشايقي بأنه: شاحب الوجه، نحيف الجسم، خفيف الحركة، وأنهم يمتازون على القبائل الأخرى بأنهم أكثر ميلاً للمغامرة والمشاجرة ويميلون إلى الجندية.

ووصفهم الألماني فرن بأنهم معتدلو التقاطيع، نحيلو الجسم.

وقسماتهم واضحة وجباههم عالية، والعيون حادة وواسعة وشفاههم معتدلة، وشعور لِحاهُم داكنة خفيفة، ولون البشرة أسمر سمورية وقوامهم

نحيل ولكنه مناسب مما يساعد على جميع ضروب النشاط الجسدي.

وأرجح وجودهم في السودان إلى ما قبل الميلاد وذلك لارتباطهم - على بعض الأقوال - بهجرة نمرود الكنعاني الذي مر بأوربى ومروى في طريقه إلى غرب أفريقيا واستقر أخيراً بنيجيريا حيث نشأت قبيلة اليروبا، وقد أورد مؤرخو نيجيريا بأن سبب وصول نمرود جد اليروبا الأعلى إلى أرض نيجيريا الحالية، هو الصراع بين إبراييم (إبراهيم) عليه السلام وبين نمرود، وكان النصر لإبراهيم مما أدى إلى هجرة نمرود الجماعية إلى أفريقيا سالكاً طريق الشام ثم مصر ثم أرض أوربى، المنطقة التي أخذ اليروبا اسمهم منها، أو التي تعني العربي، بقيادة أدودوا بمعنى عاد وثمود. وفي رواية أخرى تقول: إنّ أدودوا لم يغادر أرض كنعان بل غادرها نائبه ويدعى الودوماري إله الآلهة الأعلى لليروبا والذي يلقب بلقب شاينقو أو شانقو، وهو الذي استقر في أوربى فأخذت اسم القبيلة منها.

ويقدر عدد اليوروبا بأكثر من ثلاثة عشر مليوناً. ولهم صفات عديدة تشابه صفات الشايقية السودانيين، بالإضافة إلى شلوخ تطابق شلوخ الشايقية وخاصة شلوخ الأرباوين أهل أوربى التي تتكون من ثلاثة شلوخ وعليها شلخ من على تحتها، ولليربا عادة وضع النصب في الحدود التي يغزوها. وهي نفس عادة الشايقية الذين كانوا يقيمون نصباً على صورة إنسان ليعين الحدود التي غزوها.

للشايقية فروع عديدة عربية، منها ثمانية بعضها ذات علاقة مباشرة بالفلاتة والبعض الآخر ذو علاقة بالمغاربة والفروع هي:

١ - البزعة ويسكنون بالقرب من الزومة.

٢ - عراق ويسكنون حول نوري.

٣ - الطريفية وهم سكان الغريبة وكورتى وما جاورها الذين وصل جدهم الفلاني الفوتاوي المنطقة من الغرب عن طريق دارفور ثم سنار ثم

منها إلى الشمالية بسبب خلافات بينه وبين سلاطين الفونج.

٤ ـ البديرية وأتباعهم.

٥ ـ الشلوفات أو الشليفات.

٦ ـ التكارير الذين يسكنون غرب مروى الذين وفدوا منذ زمن بعيد من أرض الهوسا.

٧ ـ العدلاناب وهم من أصل فونجي تكروري يجري عليهم ما يجري على الفونج من حقائق تاريخية وأدوار إسلامية وبطولات عسكرية.

٨ ـ السواراب وهم من أم تنجراوية أتى أهلها من أرض برنو مرت أسرتها بأرض دارفور ثم انتقلت منها إلى شمال السودان.

أما سوار فهو من أبناء شايق جد الشايقية الذي أنجب عشرة من الأبناء وهم.

- سوار جد السواراب
- حوش جد الحواشاب
- شلوف جد الشلوفاب
- باعوض جد الباعوضاب
- قريش جد العامراب
- نافع جد النافعاب
- عون جد العونية
- مريس جد المريساب
- سالم جد البطن المسمى أم سالم
- وكدنجا جد الكدنجاب

ويعتبر هذا الفرع الأخير أهم فرع من فروع الشايقية وأكثرهم عدداً، وقد تفرع من الكدنجاب عدة فروع من بينها الحنكاب والعدلاناب والعمراب، وكان من الكدنجاب بيوت الملك التي تفرعت من جد واحد يدعى صالح، وأمه بنت أمير من أمراء الفونج يسمى عيسى الفلاتي ومقر ملكه في بلدة كجسي (Kagasi) وبعد وفاته قسمت البلد إلى ثلاثة أقسام وبالتحديد على أبنائه الثلاثة من الحنكاب والعدلاناب والعمراب، وكان آخر

ملوكهم صبير ملك الحنكاب. وشاويش ملك العدلاناب وحمد ملك العمراب.

ويفهم مما ذكر أن تأثير الفلاني والتكارير كبير على أرض الشايقية، والشايقية أنفسهم. هذا عدا الفروع الصغيرة المنتشرة في السودان كله وذلك لما أنجبته من قادة سياسيين وإداريين وعسكريين وعلماء قرآنيين، الفروع التي كان لتكوينها أثر زيارة علماء من الفلاتي والتكرور صالحين إلى المنطقة وهم في طريقهم إلى الحج فاستقروا بين الشايقية قبل وبعد إتمام الفريضة، بسبب علاج بنت أحد أعيان الشايقية من أمراض عصبية مستعصية ثم تزوجها فكانت جدة لأسرة كبيرة في صورة قبيلة. وخير مثال لذلك هو الشيخ أحمد سعد بن أحمد خليفة جد عدد كبير من الشايقية في الجيلي والقرير والبركل فهم من جدة شايقية وأب فلاتي من أرض مالي وفوتا، والشيخ ود حجر الذي دُفِن في منطقة كورتي ومنطقة البان، وقد أسس أحفاده كثيراً من القرى منها على سبيل المثال جلاس والبرصا شرق كورتى.

الفلاتة والهواوير:

يعتبر الهواوير فصيلة من فصائل المسلمية، وكان من ضوابط الترتيب هو ضمهم إلى فصل المسلمية في هذا الكتاب ولكني فضلت إيرادهم بعد بني العباس لما لهم من تأثير اجتماعي تزاوجي كبير على الشايقية والجعليين في شمال البلاد ابتداء من كردفان وانتهاء بصعيد مصر، فمن هم الهواوير؟.

تعتبر قبيلة الهواوير متوسطة الحجم في العدد ولها ثروة من الإبل لا بأس بها، وما زالت تتمتع بهذه الثروة، وموطنها الرئيس يمتد من غربي وادي الملك إلى صحراء بيوضة ويقول محمد عوض محمد في كتابه «السودان الشمالي» ص ٢٤٨ أن الهواوير قد هاجروا من المغرب إلى مصر ثم هاجروا منها إلى السودان، والأصح أنهم هاجروا من الغرب إلى

السودان عن طريق شمال وغرب أفريقيا ثم انتشروا في أرض جمهورية مصر العربية وقد شكك القلقشندي في عروبتهم والأصح أنهم عرب حميريون جهينيون من الأصل البعيد، لهجرتهم ضمن القبائل التي هاجرت إلى أقصى المغرب الأدنى وهم يمتازون بالصفات القوقازية واللون الحنطي. واختلط كثير منهم بقبائل الغرب عامة والفلاني خاصة. وفي رواية أخرى أنهم من أمم الروم الجلالقة وبلادهم الأندلس. اعتنق جلهم دين النصرانية تبعاً للروم، ومعهم الأمم التي تداخلت معهم من السودان والحبش والنوبة ومنهم الفقيه علي الحسن بن موسى بن حر الهواري الطرابلسي المولود عام ٦٠٩ هـ.

وللهواوير فروع عديدة أهمها وأكبرها فرع هوارة أو روبة الذين هم من جد فلاتي من مالي، الذي وفد إلى السودان الشرقي من ماسنا (masina) فوجد أحد زعماء الهواوير له بنت اسمها آمنة أم روبة، وكانت بالغة الجمال، يموت كل من يتزوج بها فخاف الناس أن تكون زوجة لجن، فعرضت على الحاج محمد الفلاتي الفوتاوي الملاوي حالتها لعلاجها وهو كان في طريقه إلى الحج، فوافق ولكنه اشترط زواجها بعد إتمام فترة العلاج، وكان ذلك في القرن الحادي عشر الميلادي تقريباً، فعالجها وتزوجها فولدت له حامد المدفون في قرية ود حامد، المنطقة التي سميت باسمه «قرية ود حامد».

ثم أنجب حامد ابناً سماه محمد، وأنجب محمد ابناً سماه حماد وهو الذي يعتبره الهواوير «أم روياب» الجد الكبير والأعلى.

وتفرعت هذه القبيلة لعدة فروع منها:

١ ـ أولاد الأمين
٢ ـ العماشين
٣ ـ الحميراب
٤ ـ الفكياب
٥ ـ البتولاب
٦ ـ السجيداب

ومن فرع أم روبة اللورقة والخواوير وعبد السلاماب، وقد أثر أولاد حاج محمد الفلاتي جد الهواوير أم روبة في الشمالية تأثيراً تزاوجياً واسعاً، حتى أنه لا تكاد أي أسرة من الجعليين والشايقية والجوابرة والبديرية إلا ولها علاقة نسب عميقة وقديمة بأولاد محمد الفلاتي الملاوي الفوتاوي ذلك لأنهم ينتشرون في كل شمال السودان ابتداء من شمال أم درمان، قرية ود الحبشي التي أنشأها علي ود الحبشي أحد أحفاد الحاج محمد وانتهاء بصعيد مصر، فقد تزاوجوا مع كل فروع الجعليين وعلى الخصوص الإنقرياب بالمتمة والمناطق الأخرى، وتزاوجوا بنطاق واسع مع الشايقية وخاصة مع أهل الغربية والقرير وكورتي، وسركتي.

أما مع البديرية فتزاوجهم غير محدود وبنفس القدر مع الجوابرة أولاد جابر.

وهناك رواية أخرى تقول: إن والد أم روبة كان من العرب «الرحل» العركيين وهو عبد الله بن عبد الله العركي.

ويفهم مما ذكر أن الهواوير من أصل عربي هاجروا من المغرب الأدنى مارين بغرب ووسط أفريقيا إلى السودان وأن فرع الهوارة أم روبة أحفاد الحاج محمد الفلاتي، وآمنة أم روبة العركية أو الهوارية واسع الانتشار وارتباط اجتماعي فعال عن طريق التزاوج مع الجعليين والشايقية والرباطاب والمناصير والجوابرة والإنقرياب، ابتداء من أم درمان من قرية ود الحبشي إلى صعيد مصر، وقد أيد د/عبد الوهاب أصلهم المغربي ولم يرفض علاقتهم بقبائل السودان. جذور مصر الحديثة لدانيال كريسيليوس (ترجمة) ص ٨٦ ـ ٨٧ في الهامش. قائلاً: انتشر الهوارة في إقليم جرجا حيث علا شأنهم في نهاية القرن الرابع عشر ١٣٨٣ في عهد أول أمراء المماليك البرجية (برقوق) حيث منح زعيمهم إسماعيل بن مازن قطاع

جرجا. وتولى خليفته عمر المتوفي في (١٣٩٦ ـ ٧) تأسيس فرعة (بنو عمر) وهو الفرع الذي ساد في المنطقة على مدى القرنين التاليين، وفي عهد الزعيم التالي (محمد أبو سنون) بدأت فترة من الازدهار الزراعي تغمر منطقة جرجا وسادت فيها زراعة قصب السكر وفي نفس الوقت كانت الهوارة تتوسع في مصر العليا حتى هاجمت أسوان في عام ١٤١٢ ـ ١٤١٣ التي كان يسيطر عليها في ذلك الوقت (بنو كنز).

كانت السلطة المملوكية في ذلك الوقت ممثلة في أقاليم الهوارة بحاكم قوص وإخميم. ولكن مع الفتح العثماني لمصر تلاشى هذا المنصب وسلطاته. وبعد ذلك اعترف النظام الحاكم بالأمير «علي بن عمر» كحاكم على مصر العليا. ويصفه ابن إياس بأنه «متولي جهات الصعيد» وشيخ عربان الصعيد، وقد ظل حكم أسرة «بنو عمر» لمدة ستين عاماً لكن الإدارة العثمانية لم تستطع عليه في النهاية صبراً.

وفي ١٥٦٧ حرم بنو عمر من سلطتهم وعيّن سليمان بك. . . حاكماً للصعيد. في القرن الثامن عشر أُحييت سلطة الهوارير مرة أخرى على يد زعيمهم الأمير «همام بن يوسف» الذي طغت شهرته وسمعته على الحكام الرسميين الذين انشغلوا بالمنازعات الحزبية السياسية المملوكية. وتمتعت مصر العليا بفترة من الهدوء النسبي والازدهار.

انتمى الهوارير إلى حزب نصف حرام وهو الحزب الذي اتحد مع جماعة القاسمية المملوكية. وبعد سقوط القاسمية في عام ١٧٣٠ دخلت بقاياها في خدمة همام وانصهروا مع الأهالي المحليين. وقد لعب همام دوراً بارزاً في السياسة المصرية.

واستمرت قوة الهوارير إلى وفاة همام في ديسمبر ١٧٦٩. حينما انتقلت إلى دورها الاقتصادي والاجتماعي حتى عهد محمد علي عام ١٨١٣ الفترة التي ضعف فيها تأثير همام.

الفلاتة والكبابيش:

تعتبر قبيلة الكبابيش من أعظم قبائل السودان وأشهرها، تعمل في تربية الإبل والضأن والكباش التي أخذوا منها اسمهم، وموطنهم وادي الملك، ويمتد وطنهم جنوباً إلى تخوم البقارة، وليس لهم حدود واضحة سوى الصحراء الليبية، وينتشرون في الشرق إلى وادي المقدم في فصل الشتاء وبعضهم ينتشر إلى دنقلا وصعيد مصر.

وأنهم يتكونون من عدة قبائل اندمج بعضها في بعض، ولهم أقسام تزيد عن العشرين قسم، ولكنها تحت قيادة نظارة واحدة استطاعت توحيد كل عناصر القبيلة والذين انتموا لها في قبيلة عرفت باسم الكبابيش.

ولا شك أن هذه الأقسام لا تمثل كلها هجرات عربية خالصة. بل تشتمل على وحدات متعددة من النوبة والبجة والفلاتة أولاد عقبة ويسمون كبابيش أولاد عقبة الذين يعتبرون من أكبر فروع الكبابيش.

وفي رواية أخرى تقول: إن لعقبة بن نافع أخ يسمى ربيع الذي أنجب ما تبقى من الكبابيش» أحفاد أبناء أخيه عاقل ومحمد، وحامد وكبيش، بمعنى أن الكبابيش من فرعين أساسيين هما أولاد ربيع بن نافع وأولاد عقبة بن نافع.

وللكبابيش فروع عديدة منها أولاد عقبة، وكرام وأولاد إحيمر وفراعنة أو فراحنة وشليواب وأولاد عمر، والحسناب. ولأولاد عقبة تأثير واسع عن طريق التزاوج ـ على قبائل منطقة دنقلا إلى حلفا ثم إلى صعيد مصر، ويظهر ذلك في وجود أسر وفروع لقبائل عديدة يرجع أصلها إلى الكبابيش أولاد عقبة مثل:

الحسناب، الخطيباب، والمويساب، وسلقى، دمبو، الحصايا الذين يستوطنون ما بين الخندق ودنقلا.

وخلاصة القول هو أنّ الكبابيش عبارة عن تجمع لقبائل متعددة بدليل عدم وجود وسم موحد لحيواناتهم. ويرجع أصله إلى عقبة بن نافع وابنته فاطمة شلفو وأخيه ربيع بن نافع. وأنهم يعملون بتربية المواشي مثل الجمال والضأن وقليل من الأبقار.

وإن للكبابيش أولاد عقبة عطاءً اجتماعياً كبيراً عن طريق التزاوج بدأ بكردفان ومروراً بالخندق ودنقلا وانتهاء بصعيد مصر.

الفلاتة والجوابرة أو الجابرية:

يعيش الجابرية ما بين كبوشية مروراً بالدبة فدنقلا إلى أسوان وغرب مصر وليبيا، وتساكنهم قبائل عديدة مثل الجعافرة والبديرية والكبابيش وأولاد عقبة والهوارير أولاد أم روبة.

وسماهم مكمايكل بالدناقلة مع أن دنقلا بلد وليست قبيلة. ومركزهم الرئيسي في جزيرة بدين وتمتد مناطقهم إلى جزيرة أرقو وجزيرة مقاصر وبلدة «أبو فاطمة» وكرمة على الضفة الشرقية للنيل ودنقلة وتيتي على الضفة الغربية من النيل ويسكن بعضهم وادي حلفا والدر وأخيراً انتشروا في جميع أنحاء السودان، يحترفون شتى المهن بما في ذلك التجارة. وأنهم قد وفدوا إلى السودان من شمال أفريقيا مروراً بغربها ووسطها متنقلين في بلدان التكرور الإسلامية ويظهر ذلك فيما ورد من روايات بأن «جد الجابرية السيد جابر هو ابن عم السيد أبو العباسي المرسي بالإسكندرية. وأن أول من دخل من الجوابرة أرض دنقلا هو الإمام نفيع بن عامر. ومن أحفاده الذين صحبوه في رحلته محمد وسعد وسالم وابن أخيه النور بن عطية بن عقبة وابن أخيه الفقيه سالم بن عبد الله وذلك عام ٧٣٥هـ وإن الأمير نفيع وأولاده وأحفاده قد استوطنوا أرض حفير مشو وكابتوت غرب جزيرة مقاصر وتزوج نفيع بنت ملك النوبة فأنجب منها ثلاثة أولاد وهم:

١ ـ ملك الجوابرة ومن ذريته الملك الصالح محمد قرجة ملك عموم الجوابرة وأولاده سابل جد السابلاب وبنته خيرية التي تزوج بها ملك البديرية فأنجبت بشير ملك الخندق ومعرية التي تزوج بها إدريس فأنجبت ملوك أرقو الذين منهم: الشيخ ساتي النور والشيخ خيري والشيخ بشير بن محمد، والعلامة الشيخ حامد عمارة العلامة الشيخ محمد سوركتي الذي نشر الإسلام بجزيرة جاوه أو ساهم في نشر الإسلام بتلك الجزيرة، ومنهم: الشيخ بخيت الكتيابي، وذرية النور بن عقبة الجابري جد كثير من الكبابيش أولاد عقبة الفلاتة. ومنهم: الشيخ جنيد جد الجنيداب، ومنهم الشيخ علي الجوابرة وأولاده الشيخ الرومي وغيرهم من علماء جزيرة مقاصر. ومنهم أسرة الشيخ زمراوي بأرض المحس ودنقلا الذين تزاوجوا مع الكبابيش أولاد عقبة بنطاق واسع.

وخلاصة ما ذكر هو أن الجوابرة أولاد جابر الأنصاري قد وصلوا إلى السودان من شمال أفريقيا مارين بغربها ووسطها عبر القرون فنبغ منهم: علماء في السودان وبلاد التكرور. وتظهر علاقتهم ببلاد التكرور في صلة قبيلة سقدان السودانية بقبيلة السوقيين المالية والتكرورية وجزيرة بدين السودانية، بجزيرة بدين المالية. ومن علماء الجوابرة وبالتحديد علماء بدين أولاد نفيع وسالم السقداني، وعلماء وجزيرة بدين السوقيين، أمثال بقيع وسالم السوقي وغيرهم. هذا بالإضافة إلى علاقة الجابرية بأولاد عقبة الكبابيشي.

الفلاتة والمسلمية:

تغطي قبائل المسلمية كل السودان شماله وشرقه وغربه ووسطه فهم يغطون السودان بعطائهم الإسلامي والاجتماعي والسياسي والعسكري والاقتصادي الثر، فمن هم المسلمية؟ ينسب كثير من المسلمية؟ أنفسهم إلى البكرية أحفاد «أبو بكر الصديق» رضي الله عنه مبتعدين بنسبهم عن كل

الجعليين والجهينية، ولكن النسابين السودانيين ينسبونهم إلى المجموعة الجهينية.

أما أنا فأفضل نسبتهم إلى «أبو بكر» فلات بن عقبة بن نافع الفهري جد الباكراب والبكرية والمسلمية في غرب أفريقيا والسودان ومصر، وهو عندي أقرب إلى الحقيقة، ولا أمانع نسبة بعض فروعهم إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه لأن السيد محمد بن أبي بكر الصديق وأخاه عبد الرحمٰن قد اشتركا في جيش عقبة بن نافع فاتح أفريقيا فتزوجا وتزاوج أبناؤهما وأحفادهما من الفلاتة أحفاد «أبو بكر فلات» بن عقبة بن نافع فأنجبوا بعض فروع المسلمية.

تستوطن قبائل المسلمية في الجزيرة وحول النيل الأزرق والمناطق التي تقع شمال الخرطوم إلى الدبة، فهم يشكلون نسبة كبيرة في قرى حجر العسل، وود الحبشي، والكمر، والجزيرة بندى، وحجر الطير، والعريفاب، وبعض مناطق الدامروشنقى، وحلة القويز، والعمدة، والزراقنة، والكندرية والشيخاب وحجر الدل ووادي العبيد والبسابير التي يدفن فيها الشيخ البسبار المسلمي، وقرية بانقا القبة، وحوضي بانقا، وقوز المطرق، وفنقول، والجريف حمدنا الله، وسلوى، والهويجي، والصلعاب، والمتمة، سيال الفكي سعد وضبعه، والجوير، وقلعة البكرية، وحلة أولاد ملاح والمغاربة بحلفا القديمة والجديدة هذا بالإضافة إلى مناطق حول عطبرة أسسها أحفاد الشيخ سليمان ود الفلاتي المتوفي في القرن الخامس عشر، والمدفون في عطبرة وتسمى المقبرة باسمه «مقبرة ود الفلاتي»، والمناطق هي: جزيرة نواوي التي أسسها الشيخ أحمد عثمان أحمد نواوى الفلاتي، والسيالة والقرى التابعة للسيالة، والمنبع وخليوة، والجزء الجنوبي من قرية كنور والمقرن. ومصر حول الزقازيق والقاهرة وهم أحفاد الشيخ مسلم المسلمي المتوفى بمصر عام ١٦٦٨.

أما وجودهم في شرق النيل الأزرق فيتمركزون ما بين منطقة الشبارقة إلى ود الركين.

ومن المسلمية والبكرية:

ـ المريوماب أحفاد الشيخ حمد ود أم مريوم. المدفون بالخرطوم بحري.

ـ الحضارة الذين يسكنون الجريفات ومنهم الزنارخة سكان الفتيحاب بأمدرمان.

ـ سكان المسلمية في الجزيرة التي تنقسم إلى قسمين مسلمية عبابسة وهم جعليون، ومسلمية بكرية وهم فلاتة أحفاد «أبو بكر فلات».

ـ سكان شرق وغرب كبوشية ـ المجانين في دار حامد في كردفان.

ـ الطالباب الذين يعيشون حول الحصاحيصا والحاج عبد الله، وود الحداد.

ـ أولاد حاشي بقوز رجب.

ـ البادراب، سكان أم ضوابان.

ـ الطراريف شرق الخرطوم الذين أوصلوا نسبهم إلى حجازي بن عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق.

ومن البكرية دقلل؛ قيادات بني عامر في شرق السودان وعلى رأسهم الشيخ إبراهيم محمد عثمان بن حامد بن محمد بن أكد همه بن موسى بن إدريس بن أكد بن ناصح بن عامر، وأمه بنت ملك البجة من البلويين بن علي ثابت، وأمه بنت القاسم من عائلة قمور ملهيتكناب ذرية «أبو بكر الصديق» يستوطن بعضهم في القاش مع الهدندوة وغرب طوكر، ويقال لهم: العجيلاب وهم دقلل أنفسهم. تكون لهم نظام حكم عشائري يتمثل في نظام الطبقة الأرستقراطية المتمثلة في البيوتات الحاكمة التي كانت تدعى

جماعات البلل، وليس معروفاً لدى المؤرخين من هم البللو ومن أين جاؤوا. وهم يشبهون بكل أوصافهم الهدندوة.

ليس من الصعب الوصول إلى حقيقة وأصل البلويين، إذا ما علم المؤرخون بأن هؤلاء من أحفاد أبي بكر الصديق الفهري «وأبو بكر فلات» بن عقبة بن نافع الفهري جد الفلاتة الذين يستخدمون بللو ويسمى بها أحد زعمائهم وهو الشيخ محمد بيلو ١٧٨٠م - ١٨٣٧م/ ١١٩٥م - ١٢٥٣م ابن الشيخ عثمان بن فودى الفلاتي، هذا بالإضافة إلى أن الفلاتة يتداولون اسم بيللو بينهم في كل من السنغال ومالي إلى السودان الشرقي، فمثلاً قد ورد في كتاب «فتح الشكور في تاريخ أعيان علماء تكرور» اسم الشيخ محمد بن شل البلوي التنبكتي المتوفى عام ١١٤١هـ، وبحثي الميداني أكد بأنهم من المسلمية البكرية.

ومن نسل «أبو بكر» رضي الله عنه:

- السيقولاب - والرقيبات - وقبائل وردو - وقبائل همد.

- وبعض فروع الأرتيقا ومنهم أسرة سر الختم باداتي، فرع العالياب من أم مسلمابية. ومنهم كذلك فروع البوشاب والدلاياب، والمريقى والأمنوياب، والنقراب والعتمن والكرباب.

أما قبيلة قديت الفلانية الذين وفدوا من منطقة سنار أرض الفونج، ولهم عمد ومشايخ ونظارة بأرض أرتيريا والسودان، ومن أهم العموديات التي تتبع لهم، عمودية عبد عيسى مالي والفلاني.

ومن نسل أبي بكر رضي الله عنه البصيلية الذين ينسبون إلى الهواوير أحفاد الشيخ أحمد زروق، الذين يستوطنون منطقة الخرطوم والهلالية وأبو حراز، وحلفا، ومدنى، والدر واسنا وقنا بالقطر المصري.

وروى سلجمان عن كتاب ألفه رجل مجهول الاسم ولكنه برتقالي،

ترجم إلى اللغة الإنجليزية في القرن السابع عشر بعنوان «موجز في وصف النيل» جاء فيه أن جزيرة سواكن يسكنها مئة من الترك وهي في الأصل تابعة لملك قوي محارب تسمى مملكة بللو. ويصفها سلجمان نقلاً عن الأب «لوبو» أن مملكة بللو الإسلامية كانت منتشرة إلى الغرب من سواكن وذلك في القرن السادس عشر الميلادي، وكان بينها وبين الأتراك نزاع شديد وطويل على اقتسام الأموال التي تجبى من تجارة جزيرة سواكن، وروى الدكتور علي أبو بكر في كتابه «الثقافة العربية في نجيريا» قائلاً: لقد أثر البلويون أهل سواكن لغوياً على لغة الهوسا. وأيده في ذلك الشيخ ناصر كبرا زعيم القادرية في نجيريا العربية من عشرين إلى تسعين ثم إنه ربط بين الخاسة والهوسة في لفظ كاكاكاً التي تعني: لا أعرف مع صيغة تعجب و«كي كي» التي تعني: لا أعرف عند الهوسا.

ويروي مترنجو في كتابه «دراسات عن شرق أفريقيا» عندما استولى الترك على مصوع في القرن الخامس عشر وجدوا البللو فيها، وقد خلفوا حامية من الجند لم تلبث أن اختلطت بالسكان. وأخيراً تغير اسم البللو إلى دقلل علماً على زعماء بني عامر النابتاب حسب رواية بني عامر التي تقول:

«وجاء أحد الفقهاء الجعليين من النيل الأبيض ونزل في ديار بني عامر وتزوج امرأة من البللو وهي حفيدة الملك نفسه إلاّ أن أهل البنت ثاروا على الفقيه رافضين الزواج وقُتل نتيجة لتلك المشاكل، ولاذت زوجته بالفرار إلى بلدة نائية من أرض البللو حتى ولدت لها ولداً فاق أقرانه بأساً وعزماً، فلما كبر عرف ماذا حَلَّ بوالده، فبادر إلى طلب الثأر، فوقع الحرب بينه وبين أخواله، إلى أن هزمهم، فكوَّن دولته التي أطلق عليها اسم النابتاب لتحل محل البللو». ومن أحفاد «أبو بكر» رضي الله عنه ابركراب، أسرة عبد اللطيف وبشارة الغرباوي الجد الرابع لإسماعيل الولي. ومن أحفاد «أبو بكر» رضي الله عنه قبائل دار حامد التي تضم بني جرار والزيادية والبزعة، والشنابلة والمعالية وجزء منهم يعيش مع الكبابيش

والكواهلة ـ ويطلق النسابون على هذه اسم مجموعة فزارة. الذين يسكنون على الجهة الشرقية والوسطى من كردفان، وبعضهم يعيش في دارفور.

أما رفاعة فأمرهم عظيم، فهي تضم عدداً من الفروع منها العركيين والقواسمة والطوال والعبدلاب وأبناء المناجل. ومنهم أولاد رافع الذي سُمي برافع لأنه رفع والدته من القتل. تقول الرواية:

«إن أحد الحجاج الصالحين مر بمناطق شرق النيل الأزرق في طريقه إلى الحج فتزوج بنت أحد قادة العرب في تلك المنطقة، ولم يمكث معها زمناً، مواصلاً رحلة حجه إلى مكة، فحملت. وقد كان الزواج بغياب أشقائها، فلما عادوا قرروا قتلها بتهمة حملها حملاً غير مشروع، ولكن والدهم ومعه أهل المنطقة شهدوا بصحة الزواج من أحد الحجاج الذي سيعود بعد انتهاء موسم الحج، وبالفعل قد عاد هذا الرجل فولدت ولداً سماه رافع لرفع أمه من القتل فصار جداً لفروع كبيرة من رفاعة مع أن رواية أحفاده تقول بأنه شريف جاء من مصر، والأصح أنه جاء من بلاد التكرور ماراً بمصر ولا مانع عندي أن يكون من الأشراف الذين عاشوا بين التكرور في غرب أفريقيا فصار منهم تزاوجاً.

ويظهر من خلال ما عرض عمق علاقة رفاعة بأبناء أبي بكر ويظهر ذلك في العلاقة بين القواسمة والعركيين والفلاتة، وكذلك في العلاقة العميقة بين العبدلاب والفونج بالإضافة إلى قصة الحاج الذي وصل إلى منطقة شرق النيل من مصر قادماً من بلاد التكرور الذي سبب في التزاوج الواسع النطاق بين قبائل المنطقة والمسلمية عبر التاريخ وما زال مستمراً.

ـ ومن أحفاد أبي بكر رضي الله عنه أصحاب القبب والمقامات بكبوشية، ومنهم الهنوناب والهوارة بحلفاية الملوك، ومنهم الشعارنة والضكيراب بكردفان ودارفور.

ـ ومن أحفاد «أبو بكر فلات»: الحلنقة فرع أندا والحفرة من بني

عامر، والأمرار والقريعاب في الهندندوة، وتفاصيل العلاقة هي:

أن أصل الحلنقة من قبيلة هوازن وبعضهم ينسب إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه هاجروا من الحبشة إلى السودان بسبب اضطهاد الأحباش لدينهم متبعين في هجرتهم طريق خور القاش حيث يستوطنون حوله، ولهم فروع عديدة منها:

ـ أندا وهداي أندا وشقاليت، أما الفرع الذي يربط بين الفلاتة والحلنقة فهو فرع هداي أندا الذين ينسبون إلى الفلاتة بأنهم الفلانية الفونجية التي تضم فرع الحفرة من بني عامر الذين يستوطنون بين السودان وأرتيريا، ومنهم من تقلد مناصب قيادية في الثورة الأريتيرية.

ـ وأما الأمرار، فقد اتفقت الروايات على أن آمر قد أنجب خمسة من الذكور وبنتين، فتزوجت إحداهن رجلاً يدعى محمد قل بينما تزوجت الأخرى وهي مريم رجلاً من زعماء الفلاتة من أمراء الفونج فأنجبت له ولداً سماه عثمان وأن عثمان تزوج امرأة من الأمرار فأنجب منها أربعة من الذكور وهم علي ونور وقرب وجويلاي، وكان جويلاي أصغرهم وأكثرهم حيلة وأقواهم مراساً، فتزوج خمساً من النساء لم تكن منهم واحدة من الأمرار، بل كلهن كن من الأرتيقا والبشارين، إلاَّ أن أوطانهم أقل مساحة من البشارين ومظهرهم لا يختلف كثيراً عن سائر البجة ولكنهم أصفى جوهراً من غيرهم فهم يمتازون بمظهر أكثر رشاقة وملاحة من الباقين، ونسبة تزاوجهم مع القبائل.

ومن أحفاد «أبو بكر فلات»، فرع القريعات الهدندوة، فمن هم الهدندوة وما صلة الفلاتة بهم؟ يرجع نسب الهدندوة إلى أمير بجاوى يدعى شكايتك أو شكايتو، ولا يُعَرف عن تاريخه شيء سوى أنَّ ملكاً من ملوك البجة قد هاجر من أرض الحجاز إلى أرض البجة، وكان الرجل يسمى محمد هداب فتزوج أميرة من هنيدات شكايتلو وأنجب منها فتى يدعى

محمد المبارك الذي أطلق عليه الهدنوة محمد براكويت أي محمد الجريء الذي لا يهاب شيئاً، كما تزوج فتاة أخرى من هداب بعد إنقاذها من خاطبها الأمير الفلاتي أحد أمراء دولة الفونج وأنجبت له ستة أولاد وثلاث بنات فتزوجت إحداهن «كقلق» التركي فولدت فرع السمرار وتزوجت أخرى بشارة من الشكرية، وتزوجت الثالثة فلاتيا وكنيته «أبو قرعة» فنشأ من هذا الرجل أسرة القراعيب. ويقال إن هذه التسمية تحمل اسم القرعة التي كان يحملها أحد الحجاج الفلاتة وعليها نقوده، فسقطت من على رأسه وتحطمت فآل على نفسه ألا يبرح مكان سقوط هذه القرعة. وفي رواية أخرى أنه كان في طريقه إلى الحج فهجم عليه لصوص فسرقوا منه نقوده بعد أن هشموا عليه قرعته فآل على نفسه ألا يبرح مكان الحادث حتى يسترد ما سلب منه، وكان ذلك بالقرب من جبيت، وتزوج هناك من إحدى الهدندويات فصار جداً لفرع القريعاب، ويقال إن هذا الفرع ما زال مولعاً بالحرص على المال، وعلامة إبلهم دائرة تشبه الريال. وهي الشعبة الوحيدة التي تسمح الشيخ عمر أبو آمنة. واستمر القراعيب في المنطقة حتى سيطروا على أركويت، واشتهر ويلالي محمد ـ الذي يقترح أنه عاش عام ١٧٦٠م ـ بالتوسع نحو الجنوب إلى أن احتل أحفادهم دلتا القاش وذلك عام ١٨٠٠م، وجعلوا من المنطقة مركزاً لهم إلى اليوم.

ومن خلال ما عرض فإن تأثير المسلمية والبكرية وأحفاد أبي بكر الصديق والفلاتة أحفاد «أبو بكر فلات» كبير على الشرق والغرب ووسط وغرب السودان تحت أسماء عديدة ومختلفة ولكنهم جميعاً يلتقون في عطائهم الإسلامي الثر.

الفلاتة والجوامعة:

ينتسب الجوامع إلى رجل اسمه جامع، ويتمسكون بنسبهم العباسي وبقرابتهم لسائر الجعليين ويستوطنون كردفان ودارفور حول امكدادة وأرض

برتى وأرض ودّاي وأرض المحسو وشمال نجيريا ضمن قبائل العرب الشو.

ويعتبر تأثير الفلاتة كبيراً على الجوامعة لدرجة أنه من الصعب أن تجد أسرة في الجوامعة خالية من العلاقة الاجتماعية التزاوجية مع الفلاتة، وبنفس القدر بالجمع والجموعية، ويعتبر سبب التأثير قديماً قدم هجرة سبعة من علماء الفلاتة من أرض «ماسينا» إلى الشرق قاصدين الحج بقيادة الشيخ موسى إبراهيم، وفي عودتهم استقروا في مناطق كردفان ودارفور، فمثلاً استوطن أربعة منهم خورطقت بالأبيض، وتزاوجوا مع قبيلة البديرية الذين يشابهون الجوامعة في نسبة التزاوج مع الفلاتة، وكذلك تزاوجوا مع الحوازمة، وذلك في بداية القرن الحادي عشر الميلادي، فأنجب موسى ابناً من زوجته الجامعية وسماه آدم، وتزوج أخوه محمد زوجة من الكبابيش وأخرى من الهواوير فولد منها ولداً سماه إبراهيم بجزيرة نسرى، بالقرب من شندى الحالية، وتزوج أيضاً من الشايقية فأنجب إناثاً وذكوراً؛ ويعتبر إبراهيم الفلاتي غير الحاج محمد جد الفلاتة أم روبة.

أما آدم، فقد نشأ بين أهل أمه الجوامعة ولم يدر عن والده شيئاً، ذلك لأن أباه تركه صغيراً، وفي ذات يوم فاز بسباق الخيل على مجموعة أولاد القرية، فسبه أحد أصدقائه قائلاً: فاز علينا من لم يربه أبوه.

فأخذ آدم يبحث عن والده، فأخبرته والدته بحقيقة أمر أبيه بعد أن سلمته ما تركه له من وصية، من كتب إسلامية ثم أخبرته بمقر أهل والده الذين يعيشون في أرض ماسنا وبعضهم بمنطقة الرميلة السودانية، فتوجه إلى مكان يسمى الضرع حول الرميلة، فتزوج منهم فأنجب ولداً سماه عمر الملقب بالفلاتي وتعلم عمر القرآن والعلم حتى صار محبوباً بين أهله.

وتزوج كذلك من قبائل دار حامد فأنجب منها ولداً سماه زروق، وهو جد الفلاتة الزرقاب، الذين يسكنون في كردفان وشمال الفونج

وبالتحديد مناطق السوكى. وتزوج عمر بنتاً من الهواوير بكردفان فأنجب منها بنين وبنات، منهم: سالم وعبد السلام وعبد الله وعبد الجليل ويوسف وطويل. ومما يذكر أن الملك بادي أبي شلوخ قد استدعى أحد أحفاد آدم ويدعى سالم بن عمر الفلاتي من قرية الرميلة بكردفان إلى سنار عاصمة الفونج، فأجاب الدعوة بصحبة عدد كبير من الفلاتة، فأعطاه قسماً كاملاً بالضفة الغربية للنيل، تمتد من قرية كبوش إلى قرية ود الفلاتي جنوب سنار، ولكن الشيخ سالم لم يواصل استقراره هناك، فقد عاد إلى الرميلة بعد أن سلم قيادة مجموعته إلى أحد أقربائه وهو الشيخ حجير، طالباً منه تشييد قرى كثيرة، وأنشاء خلاوي قرآنية، ويعين مشايخ للقرى التي ستؤسس. وتوفي الشيخ سالم في الرميلة، وخلفه عبد السلام المنينة الذي كان زعيماً لقبيلة أم جبو وفريجو السندقاويين والسمباويين، وأخيراً انتشروا في معظم مناطق السودان متكلمين بلهجات المناطق التي عاشوا فيها، والتزموا بتقاليدها فصاروا جزءاً منها، وخير مثال لذلك الجوامعة فرع الغنيمية الذين ينتشرون في بلاد الحمر.

وشاركوا بأدوار بارزة في الثورة المهدية معلنين تأييدهم للمهدي في كردفان، بل وانضموا لجيشه وكان عدد الفوج الأول أربعمائة مجاهد كلهم من علماء وزعماء عشائر وشيوخ طرق صوفية، فاستشهد منهم الشيخ الطيب سالم مع عدد كبير منهم في موقعة الجمعة بالأبيض، ومن بينهم الشيخ عبد الله جابر بن عمر، بينما انتقل معه إلى فتح الخرطوم العديد منهم.

وخلاصة القول: فإن ارتباط الفلاتة والجوامعة قديم قدم هجرة عرب جهينة وتميم إلى أفريقيا قبل الإسلام وبعد الإسلام، فهم كانوا يعيشون مع بعضهم في أرض برنو ووداي، ومركز بديري الإسلامي في تشاد الذي تعلم فيه عبد الكريم ودا الجامعي العباسي أباً، والتنجراوي أماً، ثم استمرت معايشتهم بل وزاد نطاق تزاوج مجموعة موسى إبراهيم بالجموعية منذ القرن الحادي عشر الميلادي، التزاوج الذي أنجب جيلاً محارباً مجاهداً مثل

الضو ود الخواجة وآدم ود الأعيسر، الذين شاركوا في المهدية مشاركة أساسية وقيادية.

* * *

ملحق رقم (٥)

دخول الفلاتة ـ الفُلاَّنيين إلى السودان

كان السودان طوال تاريخه قِبْلة للمهاجرين، سواء من الشرق أو الشمال أو الغرب، وكان معبراً وملتقى فيه تمازجت الثقافات والحضارات العربية والإسلامية والإفريقية، كان المضطَهدون والملاحقون سياسياً يجدون فيه الملاذ والأمان، ويجد فيه من ينشد الكلأ والمرعى، المياه الوفيرة، والمراعي الخصبة، وظلالاً وارفة يفيء إليها من وهج الصحراء وجدبها. أما الفارون بدينهم والمبشرون به، فيجدون فيه التربة الخصبة التي تخرج نبتاً طيباً، ومن كان يريد تجارة يصيبها فهو واجدٌ كذلك تجارة لا تبور. وعندما وجدوا الترحيب والتقدير استقروا وتزاوجوا مع السكان الوطنيين، وطاب لهم المقام فلا غرو إذن أن نجد الغالبية العظمى من السودانيين ترجع أصولهم إلى هجرات خارجية، عربية كانت أو إفريقية، وداخل هذا الإطار، يمكن لنا أن ننظر إلى أسباب دخول الفلاتة ـ الفلانيين إلى السودان وارتباطهم به.

فإذا أخذنا الهجرات العربية إلى السودان فسنجدها متعددة، وممتدة إلى فترة قد تصل إلى سبعة قرون أو أكثر، ويرى الدكتور حسن أحمد إبراهيم[١] إنها بدأت منذ القرن السابع الميلادي، وبلغت ذروتها في القرن الرابع عشر وجاءت آخر الهجرات العربية إلى السودان في حوالي عام

---

(١) هذه الدراسة للدكتور محمد أحمد بدين نقلاً من كتابه «الفلاتة والفلانيون في السودان» «الأصل والتأريخ» الطبعة الأولى مركز الدراسات السودانية، القاهرة.

١٨٢٠م عندما هاجرت مجموعة من الرشايدة من الجزيرة العربية إلى السودان كما يخبرنا بذلك الدكتور أحمد عبد الرحيم نصر، واختلط العرب بالسكان الوطنيين عن طريق الزواج والتجارة واندمجوا معهم. ولقد كانت هجرات الفلاتة ـ الفلانيين إلى السودان في فترات متباينة، وبكثافة متفاوتة كذلك، ويمكن تقسيمها إلى أربع فترات:

١ ـ الفترة السابقة لسلطنة الفور (؟ ـ ١٦٧٠م).

٢ ـ فترة سلطنة الفور (١٦٧٠ ـ ١٨٧٤م).

٣ ـ فترة الثورة المهدية (١٨٨١ ـ ١٨٩٨م).

٤ ـ فترة بداية الإستعمار الأوروبي في أفريقيا (١٨٩٨ ـ ١٩٠٦م).

وسنتناول كلاً من هذه الفترات على حدة؛ وسيكون تركيزنا هنا منصباً على مديرية دارفور العريقة بصفة خاصة، لأنها بوابة السودان الغربية التي دخل عن طريقها الإسلام والمهاجرون.

١ ـ الفترة السابقة لسلطنة الفور:

إن أقدم وثيقة لدينا تدل على دخول الفلاتة ـ الفلانيين إلى السودان في هذا الوقت المبكر، هي مخطوطة كتبها محمد بلو عن تاريخ والده عثمان دانفودي، يقول فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه تسليماً. السلطان العالم المجاهد الشيخ عثمان بن فودي هو عثمان بن محمد بن فودي ابن عثمان بن صالح بن هارون بن محمد غورطو بن جبو بن محمد ثمبو بن أيوب ابن ماسرار بن أيوب بن زايد بن يوسف المهاجر بجماعته من فوته تورو إحدى عواصم الفلانيين الثلاثة وهي فوتة تورو وفوتة جلو وفوتة ملي، لما وقعت ثورة عظيمة بتلك البلاد في القرن الثالث عشر الميلادي فهاجر موسى بجماعته على قصد الهجرة إلى الحجاز، فوصل بعضهم إلى دارفور وباقرمى

فاستوطنوها. وتأخر بعضهم في بلاد هوسا واختلطوا بهم حتى ظهر بينهم الشيخ عثمان».

فهذه الوثيقة تُرجِع دخول الفلاتة ـ الفلانيين إلى السودان إلى القرن الثالث عشر الميلادي، وليس من اليسير تتبع آثار تلك الهجرة في ذلك الوقت الذي لم تعرف فيه دارفور سلطة مركزية، إضافة إلى شح المصادر المكتوبة، لكن مما لا شك فيه أنهم انصهروا مع القبائل المحلية هناك.

٢ ـ فترة سلطنة الفور:

أما أقدم وثيقة لدينا ـ غير منشورة ـ تؤرخ لعلاقة سلطنة الفور بالفلاتة ـ الفلانيين فهي تعود إلى عهد السلطان موسى (١٦٧٠ ـ ١٦٨٢م) حيث دار نزاع حول قطعة أرض؛ فحكم القاضي بأن حاكورة خريبان أعطاها السلطان موسى لأسلاف أولاد برناي (فخذ من الفلاتة ـ الفلانيين) في شمال شرقي الفاشر، وليس لأحد الحق في منازعتهم فيها ـ وهي ممهورة بتوقيع القاضي ومختومة بالختم الرسمي، ويذكر نعوم شقير أن «السلطان موسى كان أول من جعل الأرض ملكاً للدولة وقسمها إلى حواكير تمنح بواسطة السلطان للمفضلين من أتباعه»، فهي بالتأكيد لا تمنح جزافاً.

وكما ذكرنا سابقاً، فإن سلاطين الفور كانوا يقومون بمحاولات تشجيعية لجلب العلماء المسلمين إلى بلادهم شأنهم في ذلك شأن سلاطين الفونج، ومن هنا نشأت العلاقة الوطيدة بينهم وبين الفلاتة ـ الفلانيين.

وكما تروي الروايات الشفوية فإن الجد الأكبر لهذه المجموعة التي اتصلت بالسلاطين يعرف باسم علي بن يوسف الفوتاوي الذي دخل السودان في عهد السلطان أحمد بكر (١٦٨٢ ـ ١٧٢٢م) ويؤكد ذلك ناختيجال فيما ترجمته: (جد سلامة[1] هو على بن يوسف الفوتاوي من

---

(١) سلامة: هو سلامة بن مالك علي يوسف الفوتاوي نائب الملك حسين (١٨٣٩ ـ ١٨٧٣م) وسوف يأتي الحديث عنه لاحقاً.

فلاتة فوتة، وأعطاه السلطان أحمد بكر حاكورة شاسعة في غرب دارفور عندما عاد من الحج). ويؤكد علاقتهم بهذه الفترة كذلك ماكمايكل[1] الذي يرى مع أن هناك جماعات من الفلاتة ـ الفلانيين هاجرت من موطنها الأصلي إلى دارفور في أزمنة حديثة، إلاّ أن غالبيتهم هاجرت إليها منذ زمن بعيد، ويرى أن أكبر هجرة لهم كانت في عهد السلطان أحمد بكر.

ثم أشار إلى وجودهم في السودان بعد ذلك، براون الذي زار دارفور في عهد السلطان عبد الرحمن الرشيد (١٧٨٧ ـ ١٨٠٢م). وجاء في وصفه لمدينة جلي بمنطقة جبل مرة ما ترجمته: «كانت واحدة من أكثر مدن دارفور انتعاشاً والجزء الأكبر من السكان إما كروبات أو فلاتة»[2].

وبمرور الزمن استقر الفلاتة ـ الفلانيون في دارفور، وتناسلوا وتكاثروا حتى أن الرحالة محمد التونسي الذي زار دارفور أثناء حكم السلطان عبد الرحمن الرشيد، اعتبرهم ضمن القبائل التي لا تحصى ولا تعد من حيث الكثرة، أثناء وصفه لمملكة دارفور قائلاً: «وقد أحاط بجانبها الشرقي والجنوبي كثير من عرب البادية كالمسيرية، والحمر، والرزيقات والفلاتة، وكل قبيلة من هذه القبائل لا تحصى كثرة»[3]، ونرى أن التونسي قد صنفهم ضمن القبائل العربية، وفي أكثر من موضع ـ كما فعل غيره من المؤرخين. ولا أظن أن ذلك كان اعتباطاً؛ فالمؤلف عربي الأصل، وخالط هؤلاء القوم عن قرب، ولو أحسّ أنهم عجم لما تردد لحظة في النأى بهم عن بني جلدته ـ خاصةً وإن التونسي يمكن أن يكون «سليطاً» جداً عندما يريد ذلك، وأرجو ألا يتهمه الأخ أحمد موسى كما أتهم الأستاذ الطيب عبد الرحيم: «بتأثير النسمة الفلاتية على حياته وشدة الإعجاب!» أو إنه حاول «أن يجعل لهم أصولاً عربية» كما يعتقد الأخ أحمد درو.

---

(١) انظر صفحة ٣٥ ـ الفلاتة الفلانيون في السودان د. محمد احمد بدين.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) المرجع نفسه.

ومن الذين يؤكدون دخولهم السودان في عهد السلطان أحمد بكر، السيد علي أبو سن أول مدير سوداني لمديرية دارفور (١٩٥٥ ـ ١٩٥٨م)، في كتيبه عن تاريخ دارفور حيث يقول: «الفلاتة من القبائل التي تسكن جنوب دارفور ويعتمدون في معيشتهم على الأبقار. . . وتحركاتهم الرئيسية نحو السودان كانت في زمن السلطان أحمد بكر أي حوالي القرن السابع عشر، للفلاتة دار خاصة بهم في دارفور وهي جنوب جبل مرة، وأيضاً لهم نظارة كاملة، ويتمتعون بالجنسية السودانية ولا ينظر إليهم كالغرباء مطلقاً»[١] وهي شهادة إداري قدير عرفهم عن كثب.

٣ ـ فترة الثورة المهدية:

إن العلاقة بين المهدية والفلاتة ـ الفلانيين تحتاج إلى فصل كامل، وذلك لعمقها وتشابكها فقد كانت ملابسات العقيدة المهدية عاملاً أساسياً في تحبيب الهجرة إلى الشرق بالنسبة للأفراد والجماعات من غرب أفريقيا بصفة عامة، وللفلاتة ـ الفلانيين بصفة خاصة؛ حيث أنه ترسب في أذهان الفلاتة ـ الفلانيين، المتشبعين بروح الجهاد وإحياء الدين، أسطورة مفادها أن هناك مملكة إسلامية كبيرة في الشرق ستقودهم الأقدار رويداً رويداً لإحتوائها، وتتكون بذلك دولة فلانية تمتد من المحيط إلى النيل! ونجد إشارات متعددة في كتابات المفكرين من الفلاتة ـ الفلانيين إلى هذه العلاقة مع المهدية والهجرة إلى الشرق، فيذكر محمد بلو قائلاً: «وأخبرت الكل بأن الوالد حياهم وأمرهم بالمبايعة على السمع والطاعة. . . وقبلوا النصيحة وأخبرتهم بما بشر به من قرب ظهور المهدي وأن جماعة الشيخ طلائعه؛ ولا ينقضي هذا الجهاد حتى يفضي إلى المهدي»[٢] فقول كهذا من شأنه أن يهيىء الأذهان إلى الهجرة المرتقبة وخاصة عندما كتب المهدي إلى كل من سلطان سكوتو وسلطان برنو طالباً منهما الإستجابة إلى ثورته. وثار رابح ـ أحد قواد الزبير باشا السابقين ـ إستجابة للمهدي وأسقط سلطنة البرنو في

---

(١) المرجع نفسه.
(٢) المرجع نفسه.

ودّاي التي لم يتجاوب سلطانها الشيخ البكر مع دعوة المهدي. ومن سكوتو إستجاب الشيخ حياتو حفيد الشيخ عثمان دانفودي لهذه الدعوة، وتحرك مع أتباعه إلى الشرق، واتصل برابح وتزوج ابنته، وما لبث أن اختلفا، فقتله فضل الله بن رابح، وفر جيشه شرقاً ودخل جزء منه في جيش المهدية، ومن هنا جاءت الهجرة الكبيرة الثانية إلى السودان، وكانت هجرة نجدةٍ ودعم للثورة المهدية، وبعد سقوط المهدية استقروا في أنحاء متفرقة من البلاد، وسوف يأتي الحديث عن الدور الذي لعبوه في السودان.

٤ ـ فترة بداية الاستعمار الأوروبي في إفريقيا:

جاءت الهجرة هذه المرة فراراً بالدين، وخوفاً من المصير المجهول بعد أن بدأ الفتح الأوروبي في أواخر القرن التاسع عشر، وتساقطت الإمبراطوريات الإسلامية تباعاً على أيدي الفرنسيين والبريطانيين، وخرج السلطان الفلاني محمد بلو مهاجراً، وتبعه بالإضافة إلى الفلاتة ـ الفلانيين مجموعات مختلفة من القبائل كما أشرنا إلى ذلك في الفصل الأول، واستقرت هذه المجموعة في بداية هذا القرن (١٩٠٤م) بصفة أساسية في قرية (مي ورنو) التي أسستها، وهي تعرف الآن بـ «مايرنو» ثم بدأت تتحرك جنوباً حتى وصلت إلى الروصيرص، حيث أنشأ الفلاتة ـ الفلانيون في طريقهم قرى مثل سِرو وجلقنى ومسرة، وحمدنا الله، وقشيش، والقبلة، وسيمة وغيرها وعمروا تلك الأرض وحفروا فيها الكثير من الآبار. واستقر بعضهم مع ذويهم الذين سبقوهم قبل فترة طويلة في الشيخ طلحة وما جاورها.

وبهذا نستطيع القول إن آخر هجرات الفلان ـ الفلانيين إلى السودان حدثت قبل ما يقارب قرناً من الزمان، وحتى هؤلاء الذين وصلوا متأخرين نسبياً تمازجوا بدرجات متفاوتة مع السكان المحليين ومارسوا مختلف مناشط الحياة، ومنهم من نسي لغته وأصبح لا يتحدث سوى العربية، ومنهم من احتفظ بها شأنه شأن أبناء العديد من القبائل السودانية الأخرى.

بالطبع لم يبق جميع الذين دخلوا السودان من الفلاتة ـ الفلانيين عن طريق إقليم دارفور، في هذا الإقليم. فبعد أن انتشروا في ربوع دارفور، شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، واصل البعض الآخر المسيرة شرقاً، كدأبه دائماً. وذلك لما ذكرناه آنفاً من رغبة في الحج، أو الرجوع إلى الجذور، أو اللحاق بالمهدية، أو البحث عن المكان الأفضل، أو الرحيل من أجل الرحيل.

وتأتي مديرية النيل الأزرق في المرتبة الثانية في الإستيطان بعد دارفور من حيث الكثافة السكانية للفلاتة ـ الفلانيين، وكانت تأخذ نصيبها من كل فترة من فترات الهجرات الأربع التي تعرضنا لها في الحلقة السابقة، وكما تذكر الأستاذة محاسن جيلاني في بحث لها عن هذه المنطقة قدمته في عام ١٩٧١م إلى جامعة الخرطوم، فإن بعض التقارير البريطانية تشير إلى وصول بعض هؤلاء القوم في عهد السلطنة الزرقاء إذ جاء في أحد التقارير عن الشيخ أحمد البدوي حفيد الشيخ طلحة ما نصّه: «شيخ أحمد وُلِد في حلة الشيخ طلحة التي أسسها محمد عيسى الفلاتي منذ السلطنة الزرقاء». هذا بالرغم من الاعتقاد الشائع أن قرية الشيخ طلحة أسسها الشيخ طلحة بن سليمان في عهد التركية، ويروي الشيخ بشير أحمد عبدو الفلاني الذي يعتبره الجميع هناك من خير الملمين بتاريخ المنطقة أن القرية أسست قبل مجيء الشيخ طلحة، لكن الشيخ طلحة استوطنها وجعلها مقراً لأهله وعشيرته من بعد، وتزوج الشيخ طلحة إبنة الشيخ الطاهر الفلاني الذي ترجع جذوره إلى فرع الفلاتة ـ الفلانيين «أم جبو» في كردفان ـ وكان الشيخ الطاهر قد استقر هنا حوالي عام ١٧٩٠م، وقد أسس حفيده الشيخ محمد هاشم الطاهر قرية «ود هاشم».

وللفلاتة ـ الفلانيين في منطقة النيل الأزرق أربع عموديات هي: عمودية الشيخ طلحة وتريرة ومينا، وعمودية جلقنى جنوب شامية، وعمودية أبو تيقا، وعمودية كماتير الروصيرص، وكما ذكرنا آنفاً فإن الشيخ طلحة

التي تقع على الضفة الشرقية للنيل الأزرق على بعد حوالي ٢٠ ميلاً جنوب سنار، تعتبر حاضرة الفلاتة ـ الفلانيين في النيل الأزرق. والشيخ طلحة وُلِد في السودان في قرية الواصلية بالقرب من الحاج عبد الله، ووالدته من الكواهلة، وجده الأكبر «محمد وجج» كان رجل علم ودين، وكان يعيش عند قدومه إلى السودان في قرية التِّرية بالقرب من رفاعة، ثم تحرك مع عشيرته تدريجياً إلى الحاج عبد الله.

وعند مجيء الثورة المهدية هاجر الكثيرون من هذه المنطقة للحاق بها، وواصلوا مع المهدي إلى أمدرمان التي استقر جزء منهم فيها وواصل البعض هجرته إلى القضارف وكسلا والقلابات، وعاد جزء منهم إلى موطنه في النيل الأزرق.

«وأثناء المهدية، تذكر الروايات أن الأمير يعقوب أعطى جماعة الفلاتة البقارة، المنطقة الواقعة بين مشرع قشيش إلى مشرع الصابوني جنوب سنجة على بعد ١٢ ميلاً من الضفة الغربية للنيل الأزرق. ونزل هؤلاء الفلاتة البقارة هناك، وتجاوروا مع كنانة. وقاموا بحفر العديد من الآبار في البادية نذكر منها بئر مسرة، وبئر عصلنقة، وبئر شاوه، وبئر أم سيقان، وبئر/خور فيل، وبئر كوع النمل، وصار للفلاتة عمودية تابعة لنظارة كنانة. وكانوا ينشقون في الخريف ببهائمهم إلى جبل موية، وأم الجديان، ويرجعون في زمن الشتاء إلى الرهد والدندر، والدريسة، وهم يشبهون في ذلك الفلاتة البقارة في جنوب دارفور، كما أنهم يعيشون في «فرقان» شأنهم شأن عرب البادية المنتشرين في مختلف بوادي السودان، وكان من أشهر رؤسائهم السيد أمين إسماعيل البدين ـ وقد استقيت منه معظم معلوماتي في هذا الشأن ـ الذي أصبح تاجراً من بعد واتخذ من سنجة وأمدرمان مقراً له. وكان من كبار مؤيدي المهدية، ومن المهتمين بتاريخ قبيلته، ولقد كان جواداً وسخياً حتى أن أحد الشعراء المحليين مدحه قائلاً:

البدين ولد حسن من كافة أمهلوت(*)
نشق في البطانة ورحل من السنطة
وأوطة في القردود
اشترى الغيب ووقف الحدود
من قشيش إلى صابون أبو دقنا كبيرة
تشبه الجود
دفّاع السمال كبار في تستر العروض

ونتيجة للإحتكاكات التي تحدث عادة بين القبائل الرعوية، حدثت بعض المشاكل بينهم وبين قبائل كنانة ـ فهاجر معظمهم إلى الشرق إلى قلاديمو، والسوكي منضمين للفلاتة ـ الفلانيين الذين استوطنوا هذه الأماكن. وكونوا الكثير من القرى نذكر منها: أم قناطير، والعلبة، وأم درابة، وسليمة، ومسرة، وعصلنقة، وأم سيقان، وحمدنا الله، (ونذكر الروايات أن المهدي تزوج من فلاتة حمدنا الله هؤلاء بعائشة بنت إدريس ـ ولقد ذكرها نعوم شقير ضمن زوجات المهدي وهنّ «فاطمة بنت أحمد شرفي التي تزوجها في الخرطوم قبل المهدية، وتوفيت في قدير، وعائشة بنت أحمد شرفي وتزوجها في الأبيض بعد وفاة أختها، وفاطمة بنت حاج إبنة عمه تزوجها في كرري قبل المهدية. وفاطمة بنت حسين الحجازي تزوجها بشات [كذا!!] قبل المهدية. وعائشة بنت إدريس الفلاتي تزوجها بقدير. ولقد أكد لي في جدة أحد أحفادها الذي ينتمي إلى بيت من أكبر وأشهر بيوت الإدارة الأهلية في السودان أن جدته عائشة هذه ولدت للمهدي السيدة قمر وهي والدة السيد الفاضل محمود عبد الكريم ابن عم المهدي)، والنيلة وأم لبن، وشاوه، وصابون، وتيقة، ورواحب، وأم شوكة، وأم جمينة، والحجيرات، وحلة البير.

(*) لعلها اسم منطقة.

وبعد سقوط المهدية تجمعت أعداد غفيرة من الفلاتة ـ الفلانيين حول قرية الشيخ طلحة، مما دفع بالإنجليز إلى إتهام الشيخ محمد التوم، الذي خلف والده في الرئاسة، بأن الأنصار يريدون تجديد دعوة المهدية إنطلاقاً من الشيخ طلحة، وأكثروا من إستجوابه ومضايقته، مما جعله يرفض كسوة شرف قدمت له في بعض المناسبات، وفضل أن يهاجر إلى الحجاز حيث توفي ودفن.

ونلاحظ أن هناك اختلافاً في نمط الحياة المعيشية للفلاتة ـ الفلانيين الذين دخلوا السودان مؤخراً نسبياً، وبين بقية القبائل التي هاجرت معهم، وبصفة خاصة الهوسا ـ الذين لهم صلات قوية مع الفلاتة ـ الفلانيين يفضلون العيش على ضفاف النيل الأزرق، ويخططون قرى خاصة بهم، ويعتمدون في حياتهم على النمط الرعوي ـ الزراعي agrico- Pastoral، وهم مغرمون بشراء الأبقار من المواطنين في المدن واقتنائها ومد التجمعات السكنية في المدن بمستخرجات الألبان، أو يصبحون معلمين قرآن، وفي الجانب الآخر نجد الهوسا يفضلون العيش في المدن الكبيرة في أحياء خاصة بهم، ويفضلون الزراعة على الأراضي المنبسطة ويشتغلون في التجارة، وإمتهان الكثير من الحرف اليدوية.

وبمرور الزمن استقرت أعداد كبيرة من الفلاتة ـ الفلانيين في مدن المنطقة، مثل: سنار، والسوكي، والدمازين، وسنجة، والروصيرص.

ويحتفظ الكثير من الفلاتة ـ الفلانيين في هذه المناطق ـ على النقيض من ذويهم في دارفور ـ بالملامح الأصلية للفلان من حيث اللون والتقاطيع العربية، والسبب وراء ذلك يعود أولاً إلى أنهم نزلوا في أماكن تكاد تكون غير مأهولة، قاموا هم بتعميرها، وكان عليهم أن يتزاوجوا فيما بينهم، وثانياً حتى عندما تزاوجوا فقد تمّ ذلك مع القبائل التي من حولهم، وهي ذات أصول وملامح عربية، مثل المحس، والكواهلة، والدناقلة، والجعليين، والشايقية وغيرها من القبائل، وثالثاً لأن الجزء الذي وصل في

آخر الهجرات لم ينصهر تماماً بعد؛ فثلاثة أو أربعة أجيال لا تغير الملامح تغييراً جذرياً.

أما فيما يخص كردفان، فإن استيطان الفلاتة ـ الفلانيين فيها قد بدأ خلال القرنين السابع عشر، والثامن عشر الميلادي إبان حكم المسبعات، واستوطنوا أواسط وشمال كردفان، وسكنوا المدن الرئيسية كالأبيض، وبارا، والنهود، وأبى زبد، ولا توجد لهم هنا صلات قوية مع البلاط الحاكم كما كان الحال مع ذويهم في دارفور. وتذكر الروايات أن جدهم الأكبر موسى تزوج من الجوامعة، وله العديد من الأبناء والأحفاد، وأشهرهم حفيده «عمر» الذي يُعرَف بالملاوي. نسبة إلى مالي، وقام بتأسيس عمودية الرميلة بشمال كردفان، وكانت تحت إدارة البديرية. ثم انتقل شمالاً وتزوج الجد موسى بـ «أم روبة» من الكبابيش، حيث يعرف أحفاده هناك بأولاد أم روبة، ولعل هؤلاء هم الذين نسبهم المؤرخون إلى بني عقبة. وواصل «زحفه» [بعد أن صار لهم في كل بلد ولد] حتى وصل إلى مناطق الجعليين حول شندي. وتذكر الروايات أنه استقر على وجه التحديد في جزيرة نسري، وأكّد لي المواطن على عمر قنجوب[1]، الذي إلتقيته أثناء بحثي في عام ١٩٧١م في الخرطوم، أن أحفاد الفلاتة ـ الفلانيين يعرفون هناك بالبكرية في تلك المنطقة، وهو شخصياً والده شايقي، ووالدته فلاتية بكرية. وذكر أن أغلب البكرية بالبرياب بالقرب من جزيرة نسري، وهناك في الشمالية أسرة الشيخ جبريل عثمان هانة، الذي كان عالماً متفقهاً في الدين، ولا يزال أحفاده يستقرون في كنور شمال عطبرة، كما استقرت جماعة من الفلاتة ـ الفلانيين في منطقة الشيخ حجير في الشمالية في ديار الشايقية[2].

---

(١) انظر الفلاتة الفلاتيون في السودان د. محمد أحمد بدين ص ٤١.

(٢) المرجع نفسه.

وعاصر عبد السلام المنينة ـ حفيد عمر الملاوي ـ المهدية، وهاجر مع المهدي إلى الأبيض، ومن هناك إلى أمدرمان، ومن شيوخ الفلاتة ـ الفلانيين الذين هاجروا معه: الشيخ آدم الأعيسر، والشيخ السماني، ولقد ذكرهما أيضاً السيد إسماعيل عبد القادر الكردفاني في حديثه عن الوفود الأولى التي قدمت لمبايعة المهدي: «وقدِم عليه وفد فلاتة وفيهم آدم الأعيسر والسماني وهما من أعيان قومهما، فبايعوه على السلام، ودعا لهم بخير»[1]، والشيخ الجزولي، والشيخ إسماعيل بريمة، والشيخ عبد الله أبو الصرة، والشيخ محمد ود أحمد، والشيخ آدم القدال، والشيخ الخيري. وبعد الهجرة افتقدوا عمودية الرميلة.

ومن الفروع الأخرى في كردفان، فرع أم جبو الذي استقر في بارا، ثم تحرك إلى كوستي، وتندلتي، وسنار، والشيخ طلحة وأمدرمان، وكان جدهم الأكبر الشيخ محمد عمر ود أم جبو معلماً للقرآن، وفتح العديد من الخلاوي في كردفان.

كما أصبح اثنان من مشايخ الفلاتة ـ الفلانيين من خلفاء السيد إسماعيل الولي وهما: الشيخ أحمد أبو زمام، والشيخ على البليل. وبالإضافة إلى اختلاطهم مع بقية القبائل في المدن، لهم في كردفان أكثر من عشرين قرية، منها: الدانقة، وأم لامس، وأم عشيرة، وأم عشوش، والحقينة، وأم جبو، والعقيلة، والبوسينس، والغبشة، والقنادق، والرميلة، وطرطر، وضليف الغزال، وأم كجو، وباتقة، ومسرة، والتيارة، وحجيبو، والروكب، وأم دبوس، وأم قديتي، والصقور، والقطنة، وطوم الكوع، ويد النمر، والشاورابة؛ هذا بالإضافة إلى عموديتهم في البرداب في جنوب الجبال، التي تقدم الحديث عنها.

---

(١) اسماعيل عبد القادر الكردفاني ـ سعادة المهتدي بسيرة الإمام المهدي صفحة ١١٠.

وواصل الفلاتة ـ الفلانييون مسيرتهم نحو الشرق، واستوطن منهم من استوطن في القضارف، والقلابات، وكسلا. إلاّ أن انتشارهم في شمال السودان نادر نسبة لأنهم لم يألفوا البيئة الصحراوية أو شبه الصحراوية، كما أن وجودهم في الجنوب يكاد يكون معدوماً، لأسباب دينية وجغرافية كذلك، ومجمل القول إن استيطان الفلاتة ـ الفلانيين قد غطى معظم أجزاء السودان، وسنرى في الفصول القادمة الدور الذي أدّوه، وما هي المساهمات التي قدموها.

* * *

الدور الذي لعبه الفلاتة ـ والفُلاَّنيون في السودان (١)

مالك بن علي بن يوسف الفوتاوي

كان من أعظم الوزراء في سلطنة الفور

أوضحنا في الباب السابق أن الفلاتة ـ الفلانيين بقوا في السودان لمئات السنين، ولكن لم يكن بقاؤهم بقاء الذي «يبقى فلا يدري به أحد». ولم يكونوا في يوم من الأيام كمّاً مهملاً، أو طبقة دنيا توفر الأيدي العاملة الرخيصة لطالبيها؛ بل كان لهم القدح المُعَلى، والحضور المشرف، والمساهمة الفعّالة في مختلف جوانب الحياة، من سياسية، ودينية، واجتماعية، وثقافية. وسيكون حديثنا في هذا الفصل مُنْصبّاً على دورهم السياسي في السودان.

أشارت المصادر كما أسلفنا إلى اتصال علي يوسف الفوتاوي ببلاط السلطان أحمد بكر، وببلاط السلطان محمد دورة حين كان له دور استشاري وكان مقرباً من الحكام، لكن الدور الأكبر الذي قُدِّر لهذه الأسرة أن تلعبه، كان من نصيب ابنه مالك الذي أصبح وزيراً للسلطان عبد الرحمٰن الرشيد (١٧٨٧ ـ ١٨٠٢م). ولقد تعرف عليه التونسي خلال زيارته لدارفور في هذه الفترة وكتب الكثير عنه. ونقتطف هنا بعضاً مما أورد عنه، فهو يقول: «والفقيه مالك المذكور أعظم الوزراء من أولاد

العرب». وفي موضع آخر: «فدخلنا دار الفقيه مالك فوجدناه جالساً بين خدم وحشم وأرباب الحوائج محتفون به». ويذكر أيضاً: «فبقينا عند الفقيه مالك ثلاثة أيام ونحن في أكرم ضيافة وألذّ إئتناس». ويصفه في مكان آخر بأنه: «من أغنى أرباب الدولة، وكان له من الاقطاع ما ينيف عن خمسمائة بلد وذلك غير إقطاع أخوانه». ورجل يحتل منصباً رفيعاً كهذا ـ في دولة وصف عاصمتها المؤرخ محمد عبد الرحيم بقوله: «كانت الفاشر في طورها الأول غاصة بأفاضل العلماء والأغنياء، حتى كانوا يقولون: من لم يحفظ ابن عاشر لا يقدل في الفاشر» لابد وأن يكون من عليّة القوم، وصفوة المجتمع.

ومات الوزير مالك الفوتاوي في عهد السلطان محمد فضل (١٨٠٢ ـ ١٨٣٩م) وتذكر الروايات أن ابنه عبد الحميد كان مساعداً له في الإدارة وأُرسِل في بعثة دراسية إلى الأزهر حيث درس، وتوفي ودفن في مصر. ولا نعرف على وجه الدقة إن كان ابنه سلامة خلفه مباشرة كوزير أم لا، رغم وجود إشارة في كتاب ناختيقال إلى دور لعبه الفقيه سلامة في البلاط، فهو الذي صحب الأمير محمد الحسين وجاء به إلى القصر ونُصِّب ملكاً. لكننا واثقون من أنه أصبح نائباً للسلطان محمد الحسين كما ورد في وثيقة بشأن نزاع حول قطعة أرض، أيّد فيها السلطان حكمه وكتب عليها: «أما بعد فقد ثبت وتقرر بالحكم الشرعي الكائن على متوليه، الحاكم بما فيه الفقيه سلامة مالك نايب أمير المؤمنين البار». ومن الطريف أن الفقيه سلامة أشار في حكمه إلى «مختصر الخليل» واقتبس منه، مما يدل على سعة علمه ومعرفته بأمهات كتب الفقه الإسلامي.

وكما يبدو فإن حفيد الوزير مالك الفوتاوي «الفكي أمين عبد الحميد» كان له دور استشاري في بلاط السلطان إبراهيم قرض، حيث يخبرنا نعوم شقير قائلاً: «وقبل انضمامه إلى المهدية اشتهر الفكي أمين بالتقوى والورع، وسداد الرأي في بلاط السلطان إبراهيم قرض».

وكان رؤساء الفلاتة ـ الفلانيين يعتبرون من الأعيان والوجهاء الذين يستشارون في القضايا الكبرى، فيذكر شقير كذلك أن الفقيه سلامة كان من أوائل العلماء الذين كتب إليهم الزبير باشا مستفتياً إيّاهم في موقف السلطان إبراهيم قرض منه.

وبعد سقوط دور الفور الأولى في عام ١٨٧٤م، فقد الفلاتة ـ الفلانيون صلتهم بالبلاط، واتجه بعضهم إلى الجانب العسكري في عهد التركية، وشجعهم على ذلك سياسة غردون في دارفور في عام ١٨٧٧م والتي كانت ترمي إلى تعيين بعض الشخصيات البارزة من السودانيين وتعيين جنود سودانيين بدلاً عن الجنود المصريين، كما يخبرنا مكي شبيكة. وكان أيضاً للفلاتة ـ الفلانيين نصيب في هذه السودنة والعسكرة شأنهم في ذلك شأن بقية القبائل. وبرز منهم كل من محمد خليل الملقب بـ «تِيّه»، وجلال الدين علي، وعباس بيه، وحاز ثلاثتهم على لقب بيه. وكان محمد خليل أشهرهم، ووالدته حفيدة مالك الوزير. وعمل أولاً مساعداً لقاسم أفندي أثناء مطاردة سلاطين للسلطان هارون، وترقى حتى أصبح ضابطاً في جيش سلاطين، وقتل في إحدى المناوشات بين سلاطين وبين الرزيقات. وأسِف سلاطين لموته وكتب عنه ما ترجمته: «وسقط معسكر مادبو في يدنا وغنمنا نحاسات مادبو ولكن للأسف قتل محمد بيه تيه وهو واحد من أحسن ضباطي وأخلصهم، وكان في المقدمة دائماً يطارد الفارين».

ومن فرط شجاعته غنت له الحكّامات. فهناك أغنية وردت على لسان نساء بعض المتمردين على الحكومة الذين يفرون من دورهم نهاراً من تيه خليل، ثم يعودون إليها ليلاً. فتسخر منهم نساؤهم ويتظاهرون بعدم معرفتهن لهم، بل يشبهنهم بالكلاب. وتقول الأغنية بلهجة قبائل دارفور العربية:

هِـــيَّـــه! هِـــيَّـــه![*] كـــان كـــلـــب
داك خُـمـارة الـدقـيـق فـي الـفـضـايـا فِـيًّـا[**]
وكـان زول؟! تـيـه داخُـل فـي الـسـريـر فِـيًّـا

أما جلال الدين علي الذي كان شيخاً لقبيلته في بركة، فقد ترك جيش التركية والتحق بالمهدية. ويبدو أن مهديته حسنت إلى درجة أنه كان ضمن وفد الأعيان الذي صحب محمد خالد زقل عند قيامه من الفاشر عندما استدعاه الخليفة إلى أمدرمان؛ ومَثَّل الفلاتة ـ الفلانيين فيه إلى جانبه الفكي أمين عبد الحميد، والذي أصبح أميناً للجبخانية في عهد الخليفة كما يخبرنا بذلك نعوم شقير، وكان يساعده أخوه صالح في حفظ الجبخانة ـ أي السلاح.

لكن هذا التعاون الوثيق بين هؤلاء الفلاتة ـ الفلانيين من جهة وبين الأتراك المصريين من جهة أخرى جلب لهم الكثير من المتاعب بعد سقوط التركية. فقد أكسبتهم هذه الحملات التي اشتركوا فيها حقد القبائل المتمردة، ووصفهم البعض بأنهم غير مسلمين لأنهم تعاونوا مع قواد مسيحيين مثل سلاطين ومسالديه وأملياني لقتل المسلمين. وسبّب هذا الحقد ثورة كامنة في النفوس، ما لبثت أن وجدت طريقها عند بدء الحركة المهدية، وذلك عندما بدأت حاميات الحكومة التركية تضعف في دارفور، وقامت الثورات من مكانٍ لآخر مؤيدة وثائرة ضد الأتراك، ودخل وسط هؤلاء أصحاب الغرض، وشجعهم إنشغال الحكومة بأمر المهدي، إلى الميل للسلب والنهب، والقتل والتعذيب. ومرت دارفور بفترة حرجة من عدم النظام عُرفت محلياً باسم «الأم كُواكِية». وهي تعني الفوضى وسلطة القوي على الضعيف.

(*) كلمة تستعمل لطرد الكلاب كقولك (جر! / جر!).

(**) فياً تعني موجودة أو موجود.

وجلبت هذه «الأم كُواكية» النحس والشؤم على مقر الفلاتة ـ الفلانيين في «كريو» فهاجمها الثائرون والخارجون عن النظام من كل جانب، خاصة من جيرانها في الشرق. وقتلت أعداداً كبيرة من البشر، وأحرقت المنازل. وأسوأ ما فيها أنها أحرقت كمية كبيرة من الكتب والوثائق التاريخية، التي كان من الممكن الإستفادة منها كثيراً في كتابة «تاريخ دارفور». وقتل أثناء هذه الغارة الفقيه سلامة بن مالك نائب السلطان حسين. ولا نستطيع تحديد الوقت الذي حدثت فيه هذه الفوضى على وجه الدقة، إلا أننا نرجح أنها حدثت بعد معركة «أبو ورقات» بقليل، وهي المعركة التي هزم فيها الرزيقات جيش التركية بقيادة سلاطين باشا في سنة ١٨٨٢م، لأن الميما أصبحوا خارجين عن القانون وخلعوا ملكهم داؤود بعد هذه المعركة، واتحدوا مع جيرانهم الخوابير وهددوا الطريق بين الفاشر وداره كما يخبرنا بذلك موسى المبارك في كتابه «تاريخ دارفور السياسي».

الفلاتة ـ الفلانيون تبوأوا منصباً في أرفع هيئة إستشارية في المهدية.. ألا وهي مجلس الأمناء

كانت فكرة المهدية متعمقة في أذهان الفلاتة ـ الفلانيين كما أسلفنا سابقاً، وكانوا توّاقين إلى الجهاد ونصرة الدين، ومهيئين نفسياً لقيام ثورة الإصلاح. لذلك نجدهم كانوا من أوائل الذين استجابوا لدعوة المهدي وهاجروا إليه في قدير، والأبيض، وأمدرمان، وانخرطوا في صفوف جيشه محاربين أشاوس، يضحون بالغالي والنفيس في سبيل المبدأ الذي آمنوا به وساندوه.

وهناك إشارات كثيرة إليهم في منشورات المهدي، نشير هنا إلى البعض منها. ففي أحد المنشورات يستنفر المهدي جماعة منهم للهجرة إليه

في قدير، «ـ أولها من المهدي إلى الشيخ سليمان في ١٢٩٨هـ - ١٨٨١م - قد وردت بشاير. . . يطلب منه ومن أهله أن يقوموا مع الفلاتة ويسبقوه إلى تقلي. وخطاب آخر في نفس المضمون من المهدي إلى قبيلة فلاتة ومن معهم خصوصاً الفقيه بركات وسعيد ولد أبو فراجة وكافة الأنصار، في ١٢٩٩هـ - ٢٣ فبراير ١٨٨١م، أوله: ﴿إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٧٣] .

ملحق رقم[٦]

تاريخ عقبة بن نافع

م	سنة هجرية	سنة ميلادية	موجز الأحداث
١	١ق. هـ	٦٢١	ولادة عقبة بن نافع الفهري القرشي في مكة المكرمة[١].
٢	٢٠	٦٤٠	اشترك عقبة مع عمرو بن العاص في فتح مصر.
٣	٢١	٦٤١	تولي عقبة بن نافع قيادة جيش للمسلمين وفتح ذويلة.
٤	٢١	٦٤١	وجه عمرو بن العاص قوة للمسلمين بقيادة عقبة لفتح النوبة.
٥	٢٢	٦٤١	عاد عقبة إلى أفريقية، وتولى قيادة حامية برقة.
٦	٢٦	٦٤٦	اشترك عقبة مع والي مصر الجديد عبد الله بن سرح في فتح طرابلس.
٧	٣٩	٦٥٩	غزا عقبة بن نافع الروم في البحر بأهل مصر.
٨	٤١	٦٦١	غزا عقبة بن نافع الروم وقبائل لواته المتمردة في أفريقيا.
٩	٤٢	٦٦٢	قاد عقبة المسلمين في برقة وفتح

(١) انظر: كتاب «فتوح أفريقيا والأندلس»: عبد الرحمٰن بن عبد الله بن عبد الحكم وكتاب: «العالم الإسلامي في العصر الأموي»، دراسة سياسية، د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف، ص ٢٢٨ (٣) وكتاب «سلسلة مشاهير قادة الإسلام» ـ بسام العسلي ـ الذي نقلنا هذا الجدول منه.

			غدامس.
١٠	٤٣	٦٦٣	فتح عقبة كورا (أقاليم) من السودان.
١١	٤٦	٦٦٦	نزل عقبة بمغداش من سرت وفتح خادر «كادار».
١٢	٤٩	٦٦٩	غزا عقبة بن نافع الروم في البحر، فشتا هناك بأهل مصر.
١٣	٥٠	٦٧٠	اختط عقبة مدينة القيروان وصيرها قاعدة متقدمة للمسلمين يرابطون فيها للغزو والحرب ويقيمون فيها أثناء السلم.
١٤	٥٥	٦٧٤	تولى ولاية مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري لمعاوية بن أبي سفيان، فعين مسلمة مولاه أبا المهاجر دينار لولاية أفريقيا، وعزل عقبة عن ولايته، وأساء أبو المهاجر معاملة عقبة وسجنه ثم أطلقه عندما طلب معاوية ذلك وسيره إلى الشام، فوعد معاوية بإنصافه.
١٥	٦٢	٦٨١	أعاد يزيد بن معاوية القائد لولاية أفريقيا.
١٦	٦٣	٦٨٢	قاد عقبة جيش الشام إلى برقة، ثم جهز المسلمين، وسار بهم حتى وصل الأطلسي؛ وخاض خلال مسيرته مجموعة من العمليات القتالية، واصطدم مع قوات البربر والروم خلال عودته فاستشهد في تهوذة.

يظهر مضمون الجدول السابق أن حياة عقبة بن نافع العسكرية قد مرت بمراحل مختلفة

ملحق رقم (٧)

عثمان بن فودي

ذكر عدد من الباحثين أن الشيخ (عثمان بن فودي) الَّذي ظهر بنيجيريا بغرب أفريقيا، متأثر بحركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب: (د. الزحيلي ٣١ والغنيمي ٧ ـ ١٩، ود. عويس ١٧، وعطية محمد سالم ٣٥، ومصطفى محمد مسعد ١ ـ ١٨، ومحمد فتحي عثمان ١١٧، وأبو طامي ٧٧. وشلبي ٦/٢٢٦).

ولد (عثمان بن فودي) سنة (١١٦٩هـ) (١٧٥٤م) وتوفي سنة (١٢٣٣هـ) (١٨١٧م) والآن نرد على الأساتذة الباحثين الَّذين يقولون: إن (عثمان بن فودي) متأثر بالشيخ (محمد بن عبد الوهاب):

١ ـ يقول المثبتون: إن الشيخ (عثمان) قد حج فاقتبس من أتباع الدعوة؛ ونقول: إن الشيخ (عثمان) لم يحج؛ وقد أكد لي هذا عالم جليل من علماء نيجيريا هو الشيخ (محمد المنتقى) رحمه الله الذي توفي منذ سنة تقريباً؛ وقد زرته في السفارة النيجيرية بجدة في أواخر حياته وتحدثت معه عن الشيخ: (عثمان بن فودي) واستفدت منه (رحمه الله) وقد ذكر الدكتور: (أحمد شلبي) في كتابه (التاريخ الإسلامي الجزء السادس، ص ٢٢٦) ما يلي: «وفيما يلي موجز حياة هذا الزعيم مقتبسة من عبارات أخيه: (بدأ الشيخ بعد عودته من الحجاز يدعو الناس إلى دين الله. . . إلخ)» وهو يقول: إن هذا النص في كتاب: (تزيين الورقات) تأليف: (عبد الله بن فودي) وهو أخو: (عثمان بن فودي). وأقول إنني حصلت

على هذا الكتاب وقرأته مراراً فلم أجد ـ مطلقاً ـ فيه أي نص يبين أن: (عثمان بن فودي) ذهب إلى الحجاز، ولكن فيه قصيدة لعثمان يعبر فيها عن شوقه إلى المدينة المنورة؛ وهذا شيء آخر.

٢ ـ ولكن الشيخ (جبريل بن عمر) هو شيخ (عثمان بن فودي) وثابت أنه أثر فيه تأثيراً عميقاً، و(جبريل بن عمر) حج مرتين، ولكن لا: (جبريل بن عمر) ولا(عثمان بن فودي) ذكرا (محمد بن عبد الوهاب)، ولا الوهابية، ولا الوهابيين قط؛ وقد أطلعت على ست رسائل وكتب لهم لا أثر فيها للوهابيين.

٣ ـ (عثمان بن فودي) وجماعته صوفيون قادريون من أتباع الشيخ (عبد القادر الجيلاني) وقد قال (عثمان) في بيت شعر له في كتابه: (نصيحة أهل الزمان) (ص ٥).

نحمد الله حزبنا حزب عبد القادر الغوث سيد العارفينا.

وجاء في كتاب ابنه: (محمد بلو) وعنوانه: (كتاب التحرير في قواعد التبصير للسياسات) (ص ١٥).

«. . . كما قال غوث الثقلين سيدنا ومولانا الشيخ عبد القادر الجيلاني. . إلخ».

٤ ـ (عثمان بن فودي) وجماعته يؤمنون بالتوسل؛ ولعبد الله بن فودي الَّذي هو أخو (عثمان) قصيدة من أربعين بيتاً لها قافية واحدة هي (عبد القادر) تتكرر أربعين مرة، وهي مشحونة بالتوسل:

يا رب عالم باطن كالظاهر	أجب الذي يدعو عبد القادر
إن المسيء لدى الأكابر يلتجىء	فلجأت عند الشيخ عبد القادر
ما كنت أهلاً أن أجاب أجب أكو	ن وسيلتي درجات عبد القادر
ودعاء كل المؤمنين تقبلن	نظمي، وسليتنا بعبد القادر

تـاريـخ هـجـرتـنـا بـشـيـراً أبـشـروا   وتـوسـلـوا بـالـشـيـخ عـبـد الـقـادر
عـربت مـا لأخـي وشـيـخـي عـجـمـة   مـتـوسـلـيـن مـعـاً بـعـبـد الـقـادر
أرجـو بـشـركـتـه الـقـبـول لأنـنـي   تـلـمـيـذ تـلـمـيـذ لـعـبـد الـقـادر

«تزيين الورقات ٣٦ ـ ٣٨) والبيتان الأخيران يشير فيهما إلى أن: (عثمان بن فودي) هو الَّذي نظم هذه القصيدة أولاً باللغة الأعجمية، ثم جاء أخوه: (عبد الله) فترجمها شعراً باللغة العربية.

وقال: (محمد بلو) وهو ابن: (عثمان) في كتابه «إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور» (ص ٥٨) يحدث عن أبيه: «وأخبرني أنه حين حصل له الجذب الإلٰهي ببركة الصلاة على النبي ﷺ... أمده الله بفيض الأنوار بواسطة الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه وجده الرسول ﷺ» والابن يتوسل إلى الله بالأب... فمن أمير المؤمنين وسلطان المسلمين، سيدنا ووسيلتنا إلى ربنا: (عثمان بن فودي) إلى العالم العلامة (محمد الأمين الكانمي)...» ـ إنفاق الميسور ١٨٧) فالمرسل (عثمان) والكاتب ابنه (محمد).

٥ ـ يعتقد (عثمان بن فودي) أن المهدي المنتظر الَّذي ورد ذكره في الأحاديث النبوية الشريفة هو (محمد بن الحسن العسكري) الَّذي يؤمن به الشيعة الإثنا عشرية، والَّذي ينفي أهل السنة وجوده؛ ويورد قصة للشعراني عن رجل عراقي، ويدعي فيها العراقي أنه التقى بالمهدي؛ وهي قصة خرافية.

ولكن (عثمان بن فودي) يؤمن بصحة هذا الخبر، بل يظهر السرور بأن ذلك العراقي الَّذي اخترع القصة أحد شيوخه، ثم يتمنى: (ابن فودي) أن يلتقي بالمهدي شخصياً، كما التقى به عن طريق سلسلة مشايخه؛ قلت: «قد تقدم أن مولده رضي الله عنه سنة خمس وخمسين ومائتين، وعمره الآن على هذا تسعمائة سنة وإحدى وسبعون؛ وقد اتصلت به من جهة

سلاسل أسانيد شيوخي؛ لأن من شيوخي أبا الأمانة (جبريل بن عمر) وشيخه (محمد بن سالم الحفناوي) وشيخه (البديري) وشيخه (محمد بن القاسم) وشيخه عمه الإمام (موسى) وشيخه (عبد الوهاب الشعراني) وشيخه العارف بالله (الحسن العراقي) وشيخه (الإمام المهدي) المذكور. اللهم قدر لنا لقاءه والاجتماع به الاجتماع الحسي الَّذي يحصل بالأبدان، كما قدرت لنا الاجتماع به الاجتماع المعنوي الَّذي يحصل بسلاسل الإسناد بجاه جده (عليه الصلاة والسلام) ـ (نصيحة أهل الزمان، لعثمان فودي ٥٥، ٥٦) والعجيب في ذلك الخبر المزعوم، أن المهدي أمر العراقي بأن يصلي في كل ليلة خمسمائة ركعة ـ (المرجع السابق ٥٤، ٥٥).

٦ ـ نفى الشيخ: (محمد المنتقى) ـ رحمه الله ـ نفياً قاطعاً أن يكون الشيخ: (عثمان بن فودي) متأثراً بالوهابيين.

* * *

ملحق رقم (٨)

محمد بن ناصر العبودي

محمد بن ناصر العبودي: أحد الأدباء السعوديين الحائزين على (ميدالية) الاستحقاق في الأدب، ولد في مدينة بريدة عاصمة منطقة القصيم عام ١٩٣٠ م. وتعلم في مدارسها وتلقى العلم على مشايخها ثم على مشايخ آخرين في المملكة العربية السعودية.

شغل وظائف رئيسية منها مدير المعهد العلمي في بريدة من عام ١٣٧٣ هـ إلى عام ١٣٨٠ هـ ثم نقل إلى وظيفة الأمين العام للجامعة الإسلامية في المدينة المنورة عندما افتتحت وكان من الموظفين المؤسسين للجامعة. وذلك لمدة ثلاث عشرة سنة.

عين بعدها وكيلاً للجامعة الإسلامية لمدة سنة واحدة.

ثم نقل إلى وظيفة (الأمين العام للدعوة الإسلامية) برتبة وكيل وزارة (المرتبة الخامسة عشرة) وبقي فيها ثماني سنوات.

ثم (الأمين العام المساعد لرابطة العالم الاسلامي) الحالية.

له بحوث عديدة واشترك في عشرات المؤتمرات الإسلامية والأدبية.

أولاً ـ مؤلفاته المطبوعة:

١ ـ **معجم بلاد القصيم**: ستة مجلدات، نشر دار اليمامة للطبع والنشر.

٢ ـ **الأمثال العامة في نجد**: خمسة مجلدات، ساعدت دارة الملك عبد العزيز في نفقات طباعته.

٣ ـ **في إفريقية الخضراء**: نشر دار الثقافة في بيروت.

٤ ـ **صلة الحديث عن إفريقية**. نشر دار العلوم في الرياض.

٥ ـ **كتاب الثقلاء**، نشر الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون (سلسلة الكتاب العربي السعودي).

٦ ـ **كتاب شهر في غرب إفريقية**، طبع المطابع الأهلية للأوفست في الرياض.

٧ ـ **كتاب رحلات في أمريكا الوسطى**، طبع المطابع الأهلية للأوفست في الرياض.

٨ ـ **كتاب جولة في جزائر البحر الزنجي** طبع المطابع الأهلية للأوفست في الرياض.

٩ ـ **شهر إطلالة على نهاية العالم الجنوبي** ـ نشر النادي الأدبي في الرياض.

١٠ ـ **«مأثورات شعبية، وسلسلة الكتاب السعودي»**.

١١ ـ **«سياحة في كشمير»** طبع مطابع الفرزدق التجارية في الرياض.

١٢ ـ **«رحلة إلى جزر مالديف»** إحدى عجائب الدنيا... نشر دار العلوم في الرياض.

١٣ ـ **«رحلة إلى سيلان»** نشر الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون.

١٤ ـ **«في غرب البرازيل»** طبع مطابع الفرزدق التجارية في الرياض.

١٥ ـ **«في بلاد المسلمين المنسيين»** بخارى وما وراء النهر ـ طبع مطابع الفرزدق التجارية.

١٦ ـ **«بقية الحديث عن إفريقية»**، طبع مطابع الفرزدق التجارية.

١٧ ـ **«جولة في جزائر البحر الكاريبي»**، المطابع الأهلية للأوفست في الرياض.

١٨ ـ **«جولة في جزائر المحيط الهادي»**، مطابع الفرزدق التجارية.

١٩ ـ **«جولة إلى أقصى الجنوب الأمريكي»**، مطابع الفرزدق التجارية.

٢٠ ـ **«مشاهدات في بلاد العنصريين»** نشر نادي القصيم الأدبي في بريدة.

٢١ ـ **«نفحات من السكينة القرآنية»**، نشر دار العلوم ـ الرياض.

٢٢ ـ **«على ضفاف الأمازون»**، نشر النادي الأدبي في أبها.

٢٣ ـ **«سوانح أدبية»**، طبع بمطابع الفرزدق التجارية.

٢٤ ـ **«أخبار أبي العيناء اليمامي»** نشر دار اليمامة للطبع والنشر بالرياض.

٢٥ ـ **«داخل أسوار الصين»** مجلدان: طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.

٢٦ ـ **«مع المسلمين البولنديين»** مجلد: طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.

٢٧ ـ **«بلاد الداغستان»** مجلد: طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.

٢٨ ـ **«جمهورية أذربيجان»**، طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.

٢٩ ـ **«مدغشقر بلاد المسلمين الضائعين»**، نشر النادي الأدبي في الرياض.

٣٠ ـ **«بين الأرغواي والباراغواي»** طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.

٣١ ـ **«صورة ثقيلة»**، طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.

٣٢ ـ **«في نيبال، بلاد الجبال»** طبع مطابع نجد.

٣٣ ـ **«زيارة لسلطنة بروناي الإسلامية»** مطابع الرياض الأهلية للأوفست.

٣٤ ـ **«على قمم جبال الإنديز»** طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.

٣٥ ـ **«في أعماق الصين الشعبية»** نشرته مجلة المنهل التي تصدر في جدة.

٣٦ ـ **«بورما: الخبر والعيان»** طبع في بيروت.

٣٧ ـ **«مقال عن بلاد البنغال»** طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.

٣٨ ـ **«ذكريات من يوغسلافيا»** طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.

٣٩ ـ **الرحلة الروسية**، طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.

٤٠ ـ **«كنت في بلغاريا»**، طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.

٤١ ـ **أيام في النيجر** (طبع في بيروت).

٤٢ ـ **«نظرة في شرق أوروبا وحالة المسلمين بعد سقوط الشيوعية»**، طبع في بيروت.

٤٣ ـ **ذكرياتي في إفريقية** ـ محاضرة ـ نشرتها رابطة العالم الإسلامي.

الخاتمة

هذا ما قد أردت بيانه، محاربة العنصرية من منطلق إسلامي وبأسلوب أظهرت فيه مكانة الغرابة عامة، مؤكداً ما لا يحتاج ثبوته إلى تأكيد من أن «الغرابة» البرقو، والزغاوة، والكانم، والبرنو، والفلاتة. هم عناصر أساسية في تكوين القومية السودانية، وإنهم كانوا على صلة قوية بشعب وادي النيل تبعاً لارتباطهم بسلطنة دارفور التي امتدت نفوذها إلى الشرق حتّى بلغت شواطىء النيل، وغرباً حتى وصلت نيجيريا[1]، وأنهم امتزجوا بالقبائل التي استوطنت منطقة شندي، وعطبرة، فكراً ولغة، وثقافة، وقلباً، وعاطفة.

مما جعل المؤرخ ك. باربر أستاذ الجغرافيا بجامعة لندن والخرطوم يؤكد في كتابه سكان السودان. أن أصول الجعليين ترجع إلى الفور[2].

ولقد أبرزت ما لهذه القبائل «الغرابة» من تأريخ مجيد، إعتزاز بالنفس، واستمساك بالإسلام، وإنتساب إلى العرب، وصراع مع الاستعمار، وحب وتقدير لجميع القبائل النيلية، بل وحدة شعور، وإحساس، وأماني، وأهداف، مما يؤكد نظرية أن الفونج هم البرنو، ويرجح الرأي القائل أن سلطنة سنار الإسلامية أسسها الملك (عثمان) الذي طرد من برنو عام ١٤٨٦ ـ وأن (عمارة دنقس) من سلالة (ماي عثمان).

وأظهرت الدراسة أن الدم العربي في عنصر الغرابة اغزر، وأعمق،

---

(١) موجز تاريخ نيجيريا ـ آدم عبد الله الألوري، ص ٣٥، وموسوعة «التأريخ الإسلامي»، د. أحمد شلبي، ج ٦، ص ١٤٢.

(٢) انظر: «سكان السودان» ص ١٩.

من الجنسيات التي تعتز بنسبة الدم العربي في عروقها، لارتباط الفلاتة بالبربر أرومة وارتباط غيرهم بالعنصر الزنجي أساساً، مؤكداً أن نظرية «إنتقاء الدماء» في جنس من الأجناس قد أصبحت نظرية بالية، وعتيقة، فمثل ما تأثرت السلالات الأفريقية بالهجرات العربية التي تدفقت إلى غرب أفريقيا وجنوبها مثل الجراد المنتشر، تأثر العرب أيضاً بالعناصر الأفريقية، مما يحتم على المثقف السوداني المعاصر مناقشة قضايا القوميات، والهويات، والشخصيات، لا على أساس الأعراق، والسحنات، ولا على أساس آصرة الدم، أو الأرض، وإنما على أساس العقيدة، والدين، ثم تأتي الأواصر الأخرى لتقرب، ولتقوم بدور مساعد كاللغة والجوار ووحدة الأهداف.

وأكدت الدراسة أن هجرة الغرابة إلى السودان الشرقي لم تجىء من قبيل الصدفة أو هرباً من الزحف الصحراوي أو نتيجة لضغوط اقتصادية أو بحثاً لموطىء قدم، وإنما جاءت استجابة لدعوة سلاطين دارفور للعلماء، ثم تنفيذاً لتوجيه الشيخ المجاهد الكبير «عثمان دان فوديو» الذي تنبأ باستيلاء الكفار على ديارهم، وظهور المهدي في سودان وادي النيل، أو الحجاز، وأمرهم بالهجرة إليه حين يظهر. فكانت هجرتهم مغايرة لهجرة كل القبائل الأخرى، لأنها ارتكزت على مبدأ ديني، مبدأ الفرار إلى الله من دار الكفر إلى دار الإسلام، وإلى حيث يوجد للمسلمين دولة.

ومن هنا ترى للفلاتة مواطىء أقدام لا في كل سودان وادي النيل بل في سودان القارة.

فقد كان لهم أكثر من دولة، قبل أن يعظم خطرهم في القرن الثامن عشر، كانت لهم دولة في ماسنة على النيجر، وأخرى في فوتا تورو أو فوتا السنغالية، وثالثة في فوتا جالون، ورابعة في منطقة هنبر في أعالي نهر فولتا، ثم كانت دولتهم الكبرى في بلاد الهوسا[١].

---

(١) انظر: دولة مالي الإسلامية د. إبراهيم علي طرخان، ص ١١٢.

لذا جاء إعجاب الإمام المهدي بهم ومصاهرتهم وقوله فيهم: «إنهم ردائي وإزاري شعري ودثاري شمسي في النهار وقمري في الليل».

ومثل ذلك كان إعجاب السادة المراغنة بهم، فقد قال عنهم السيد حسن المرغني بكسلا - إنهم أبناء ديني وجلدتي أنا وهم من شجرة واحدة وأشركهم في المصاهرة من أرحامه وجعل زوجاتهم أخوات نسائه وخالات أبنائه[١] والسيد حسن هو أخ للسيد محمد عثمان المرغني ابن عمه شقيق أبيه[٢]. مما يؤكد القول بأن البيوت الدينية العريقة في السودان لها علاقة وطيدة وقرابة قريبة بالفلاتة، عصباً وأرحاماً، ومن ينكر بأن للإمام المهدي أبناءاً وأحفاداً من زوجته عائشة الفلاتية؟[٣].

وأبرزت الدراسة[٤] أيضاً خطورة الإشادة بالقبلية وخطورة رعاية الدولة لها وإقامة مؤتمرات لتصعيدها وتحفيزها، وذلك أمر يعد في غاية الخطورة، وبخاصة في دنيا الأنانية المفرطة وحب الذات.

وأوضحت أن النزعة إلى القبلية، برغم تجدد الحياة والتقدم الحضاري، وإشاعة الوعي الثقافي، لا تزال باقية، ذات أثر في الحياة، تتحكم بشعور الفرد مثقفاً كان أو غير مثقف إلى حد يصعب ضبطها من

---

(١) السيد حسن تزوج بنت الشيخ محمد كرم الشايقي، والشيخ سعيد عمر الفلاتي وشقيقه الشيخ علي تزوجا بنتي الشيخ الماحي كرم وذلك بتوجيه ومباركة السيد حسن. انظر: «حل النزاعات بين الرحل»، بحث تكميلي لنيل درجة الماجستير، جامعة برمنجهام، بريطانيا للسيد كرم محمد كرم والي ولاية الخرطوم سابقاً.

(٢) السيد حسن هو ابن السيد أحمد بن السيد محمد عثمان الأغرب بن السيد الحسن الجد، والسيد محمد عثمان المرغني، هو ابن السيد علي بن السيد محمد عثمان الأغرب بن السيد الحسن الجد.

(٣) انظر: «الفلاتة الفلاتيون في السودان» د. محمد أحمد بدين ص ٣٩ - ٤٢، وقيل مثل ذلك في علاقة شيخ الإسلام أحمد البدوي، أستاذ السيد عبد الرحمٰن المهدي بهذه القبيلة وانظر: كتاب «دليل المعارف»، لمؤلفه عثمان بن حمد الله، ص ١٦ وكذلك علاقة السيد إسماعيل الولي.

الانفلات، مما يجعل الإشادة بالقبلية من المحظورات، وأن اللجوء إليها تعد من قبيل الضرورات، لجمع شمل القبائل، كعلاج وقائي لحسم ظاهرة النهب المسلح، وتأمين المارة، وحراسة الحدود، والمرابطة الطوعية، والرقابة الذاتية تحت راية امتازوا لنرى اليوم بلاء كل حي. وعندئذ لا بد من ربطها بالإسلام ربطاً محكماً، وبمبادئه في المساواة، والعدالة في توزيع الفرص، والشورى في الحكم، والمشاركة في مواقع النفوذ والسلطة.

ولقد سلطت الأضواء على عبارات الاستخفاف والتعالي والترفع بأسلوب المعارضة والمصارحة، والمكاشفة، لتوضيح مفاسدها، وتخفيفاً للمشاعر المتوترة والمعادية لوحدة الأمة.

ولقد ناشدت رجال الأقلام، للمطالبة بإعادة كتابة تاريخ السودان بالصورة الصحيحة والمشرفة لأمتنا السودانية، إذ لم يعد هناك عنصر، ولا دم يفترق عن دم، ولا جنس يعلو على جنس.

وإن التاريخ الذي يصنف الشعب الواحد إلى غرابة، وأولاد بلد، وأن أهل دارفور، وسكان جبال النوبة، والانقسنا، هم أجناس أقل أهمية بالنسبة لقبائل السودان الأخرى. وإن غالبية طلبة جامعة الخرطوم سنة ١٩٠٦ من السودانيين السود من سلالات عهد الاسترقاق.

مثل هذه الكتابات المثيرة للعصبية، يجب أن تصحح، وأن تعاد صياغتها. إذ لا يصح بحال من الأحوال الاعتماد على كتابات رجال المخابرات الانجليزية والمستشرقين، والرحالة الغربيين، علينا أن نعيد النظر في كل ما كتب في تاريخ السودان، سواء ما كتبه الأجانب أم ما نقله عنهم كتاب سودانيون، وعلينا أيضاً أن نهتم بالبحث والتحقيق في تاريخ الشعوب المجاورة لنا لنوضح للأجيال القادمة مدى قوة صلتهم بنا، وصلتنا بهم، مؤكدين الواقع الذي يقول: إن كل مجموعة من الناس تنتمي إلى العنصر الذي أثر فيها أكثر من غيره من العناصر.

ولقد خصصت باباً كبيراً لملاحق تضمنت بحوثاً جامعية، ودراسات علمية متخصصة ليعين الآخرين على المتابعة والبحث للوصول إلى الحق وهذا ما ينبغي.

فالقصور مني حاصل، وحرصي على إبراز الفكرة وأهداف الكتاب كانت مسيطرة على بواعث التفكير. مما جعل المعلومات متداخلة وأنه قد يحتاج إلى تنسيق أكثر.

ومهما يكن من شيء، فإن تناول السلبيات في المجتمع الذي يعيش فيه الداعية وإظهار مضارها على البلاد، والعباد، وتقديم البديل الذي يؤدي إلى تحسين الأوضاع وازدهارها، وإلى وحدة الأمة وجمع شملها يعد بلا شك إسهاماً في تقديم البلاد، وتطويرها اجتماعياً، وإقتصادياً، وسياسياً.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

المراجع

١ ـ محمد عمر بشير: (تطوير التعليم في السودان) دار الثقافة للطباعة والنشر، الخرطوم ١٩٧٠م.

٢ ـ يوسف فضل حسن: (أثر حركة دانفوديو على دعوة المهدية في سودان وادي النيل) «بحث مقدم للندوة العالمية للاحتفاء بالشيخ المجاهد عثمان دانفديو، جامعة أفريقيا العالمية» ١٩ ـ ٢١ نوفمبر ١٩٩٥م ـ الخرطوم.

٣ ـ ضرار صالح ضرار: (تاريخ السودان الحديث) مطابع سحر، الطبعة العاشرة، ١٩٨٩م.

٤ ـ محمد عمر بشير: (تاريخ الحركة الوطنية في السودان) ١٩٠٠م ـ ١٩٦٩م، الدار السودانية للكتب، سنة ١٩٨٠م.

٥ ـ الطيب عبد الرحيم محمد: (الفلاتة في أفريقيا ومساهماتهم الإسلامية والتنموية في السودان) دار الكتاب الحديث، ١٩٩٤م.

٦ ـ عزام أبو بكر علي الطيب: (العلاقات بين الخليفة عبد الله التعايشي وقبائل السودان) رسالة ماجستير، دار جامعة الخرطوم للنشر، ١٩٩٢م.

٧ ـ مكي شبيكة: (مختصر تاريخ السودان الحديث) الطبعة الثانية، سنة ١٩٦٥م.

٨ ـ د. حسن أحمد محمود: (الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا) دار الفكر العربي، الطبعة الثالثة، سنة ١٩٨٦م.

٩ ـ د. أحمد شلبي: (موسوعة التاريخ الإسلامي) جزء ٦، الطبعة الخامسة، ١٩٩٠م، مكتبة النهضة المصرية.

١٠ ـ د. إبراهيم علي طرخان: (امبراطورية البرنو الإسلامية) المكتبة العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥م.

١١ ـ د. عبد الله مبشر الطرازي: (انتشار الإسلام في العالم في ٤٦ دولة آسيوية وأفريقية) الجزء الأول، عالم المعرفة، سنة ١٩٨٥م.

١٢ ـ د. حسن عيسى عبد الظاهر: (الدعوة الإسلامية في غرب أفريقيا، وقيام دولة الفلان في القرن الثاني عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي) دار الثقافة والنشر، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٩٨١م.

١٣ ـ محمد إبراهيم سليم: (في الشخصية السودانية) دار جامعة الخرطوم للنشر، ١٩٧٩م.

١٤ ـ ك م. بابر: (سكان السودان) ترجمة هنري رياض وكرم شفيق، دار الثقافة، بيروت، ومكتبة النهضة السودانية، الخرطوم.

١٥ ـ عبد العزيز حسن الصاوي: (حوارات الهوية والوحدة الوطنية) مركز الدراسات السودانية، سنة ١٩٩٤م.

١٦ ـ تاريخ الفتاش.

١٧ ـ المقريزي تقي الدين أحمد: (الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام) مصر، ١٨٩٥م.

١٨ ـ السعدي، عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي: (تاريخ السودان) باريس، ١٨٩٨م.

١٩ ـ د. حسن إبراهيم حسن: (أثر الفلان في انتشار الإسلام في غرب أفريقيا) مطبعة النهضة المصرية، ١٩٦٤م.

٢٠ ـ عبد المجيد عابدين: (تاريخ الثقافة العربية في السودان) بيروت، ١٩٦٧م.

٢١ ـ آدم عبد الله الألوري: (موجز تاريخ نيجيريا) دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥م.

٢٢ ـ د. يوسف فضل حسن:

١ ـ (مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي) ١٤٥٠م ـ ١٨٢١م.

٢ ـ (من معالم تاريخ الإسلام في السودان).

٢٣ ـ المقريزي: (كتاب الخطط) الجزء الأول.

٢٤ ـ د. جمال زكريا القاسم: (الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ١٩٧٥م.

٢٥ ـ د. عبد الرحمن زكي: (الإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا) معهد الدراسات الإسلامية.

٢٦ ـ تومات أورلوند: (الدعوة الإسلامية، بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية) مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧١م، ترجمة د. حسن إبراهيم حسن ود. عبد المجيد عابدين.

٢٧ ـ ود ضيف الله: (كتاب الطبقات).

٢٨ ـ الشيخ أحمد التيجاني سني: (الإسلام في السنغال) دار مكتبة الحياة، بيروت.

٢٩ ـ د. حسن إبراهيم حسن: (انتشار الإسلام في القارة الأفريقية) مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية، ١٩٦٤م.

٣٠ ـ مصطفى علي بسيوني أبو شعيشع: (برنو في عهد الأسرة الكانمية ١٨١٤م ـ ١٩٦٩م، دار العلوم للطباعة والنشر، ١٩٨٤.

٣١ ـ الشاطر بصيلي عبد الجليل:

١ ـ (تاريخ وحضارة السودان) القاهرة، ١٩٧٤م.

٢ ـ (معالم تاريخ سودان وادي النيل) القاهرة، ١٩٥٥م.

٣٢ ـ د. محمود شاكر:

١ ـ (تشاد، سلسلة مواطن الشعوب في أفريقيا) مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، ١٩٧٢م.

٢ ـ (السودان) المكتب الإسلامي، ١٩٨٨م.

٣٣ ـ أبي الفدا: (تقويم البلدان).

٣٤ ـ د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ: (دول الإسلام وحضارته في أفريقيا) دار اللواء الرياض، ١٩٨٣م.

٣٥ ـ اليعقوبي أحمد بن واضح: (كتاب البلدان) ليدن، ١٨٩١م.

٣٦ ـ السالاوي: (الاستقصاء في أخبار المغرب الأقصى) الدار البيضاء، ١٩٥٤م.

٣٧ ـ جواد علي: (تاريخ العرب قبل الإسلام) بغداد، ١٩٥٤م.

٣٨ ـ د. عبد المجيد عابدين: (تاريخ الثقافة العربية في السودان) بيروت، ١٩٦٧م.

٣٩ ـ عبد العزيز أمين عبد المجيد: (التربية في السودان) القاهرة، ١٩٤٩، ٣ أجزاء.

٤٠ ـ دفي دسم بازل: (أفريقيا نحو أضواء جديدة) ترجمة جمال محمد أحمد، مصر، ١٩٦٢م.

٤١ ـ دافيد سن (بازل): (أفريقيا تحت أضواء جديدة) ترجمة جمال أحمد، مصر، ١٩٦١م.

٤٢ ـ مكي شبيكة: (السودان عبر القرون) مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ١٩٦٤م.

٤٣ ـ إبراهيم طرخان:

١ ـ (دولة مالي الإسلامية) الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣م.

٢ ـ (إمبراطورية غانا الإسلامية) مصر، ١٩٧٠م.

٤٤ ـ د. عطية القوصي: (تاريخ دولة الكنوز الإسلامية) الطبعة الأولى، دار المعارف مصر، ١٩٧٦م.

٤٥ ـ عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الكريم: (فتوح أفريقيا والأندلس) دار الكتاب اللبناني ١٩٦٤م.

٤٦ ـ نعوم شقير: (تاريخ جغرافية السودان القديم) بيروت، ١٩٦٧م.

٤٧ ـ قداح: (نعيم قداح): (أفريقيا الغربية في ظل الإسلام) كوناكري، ١٩٦٠م.

٤٨ ـ د. محمود بيومي مهران: (تاريخ السودان القديم) دار المعرفة الجامعية، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.

٤٩ ـ د. شوقي الجمل: (تاريخ سودان وادي النيل).

٥٠ ـ ياقوت (أبوعبد الله ياقوت الحموي الرومي): (معجم البلدان) مصر، ١٩٠٦م.

٥١ ـ مندور مهدي: (تاريخ السودان من أقدم العصور) طباعة بخت الرضا.

٥٢ ـ سلجمان: (السلالات البشرية في أفريقيا) ترجمة يوسف خليل، مصر، ١٩٥٩م.

٥٣ ـ التونسي: (تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان) تحقيق خليل محمود عساكر ومصطفى محمد مسعد، القاهرة، ١٩٥٩م.

٥٤ ـ د. عبد الرحمن أحمد عثمان: (مقارنة بين حركتي الإخوان المسلمين

والشيخ عثمان دانفوديو) بحث مقدم للندوة العالمية للاحتفاء بالشيخ المجاهد عثمان دانفوديو، جامعة أفريقيا العالمية، قاعة الصداقة، الخرطوم من ١٩ ـ ٢١ نوفمبر ١٩٩٥، الخرطوم.

٥٥ ـ د. إبراهيم دياب: (تطور الحركة الوطنية في السودان).

٥٦ ـ الحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي: (الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ) مطبعة الساعي، ١٩٨٩م.

٥٧ ـ د. زاهر رياض: (الممالك الإسلامية لغرب أفريقيا).

٥٨ ـ سيوبولد، دائرة المعارف.

٥٩ ـ د. عبده بدوي: (دول إسلامية في أفريقيا، شخصيات أفريقية مع حركة الإسلام في أفريقيا).

٦٠ ـ محمد عوض: (السودان الشمالي).

٦١ ـ د. عون شريف قاسم: (مجلة حروف) نشر دار جامعة الخرطوم المجلد الأول، العدد الرابع.

موسوعة القبائل والانساب في السودان واشهر اسماء الاعلام والاماكن (٤ اجزاء).

٦٢ ـ الشيخ عثمان دانفوديو: (بيان وجوب الهجرة على العباد) دار جامعة الخرطوم للنشر ١٩٧٧م.

٦٣ ـ د. عبد الله الطيب: (بين النير والنور) بيروت، ١٩٧٠م، الطبعة الأولى.

٦٤ ـ البكري: (في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب) وهو جزء من كتابه: (المسالك والممالك) نشره واندون، الجزائر، ١٨٥٧م.

٦٥ ـ د. عبد الله محمد قسم السيد: (الصادق المهدي وأزمة الديمقراطية في السودان) مطابع سحر، الطبعة الثانية، ١٩٩١م.

٦٦ ـ رولاند أو ليفر وجون فيح: (موجز تاريخ أفريقيا) ترجمة د. دولت حمد صادق، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

٦٧ ـ د. أحمد إبراهيم دياب: (تطور الحركة الوطنية في السودان) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، بغداد، ١٩٨٤م.

٦٨ ـ د. محمد عبد الله محمد التقيرة: (التأثير الإسلامي في غربي أفريقية) مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٩٨٨م.

٦٩ ـ أبو سليم محمد إبراهيم: (الفونج والأرض) وثائق تمليك شعبة أبحاث السودان، الخرطوم، ١٩٦٧م.

٧٠ ـ د. صلاح الدين المنجد: (مملكة مالي عند الجغرافيين المسلمين) دار الكتاب الجديد بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م

٧١ ـ محمد بن أحمد الفهاشم الفوني (ت ١٣٤٩هـ): (تعريف العشائر والخلان بشعوب وقبائل الفلان) طبع مصر.

٧٢ ـ كعت (القاضي الفع محمود كعت بن الحاج المتوكل كعت، الكرمني داراً، التنبكتي مسكناً، الوعكري أصلاً):

(تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، وذكر وقائع التكرور، وعظائم الأمور، وتفريق أنساب العبيد من الأحرار) نشره دلافوس وهوداس، باريس ١٩١٣م.



فهرس الموضوعات

الباب الرابع

الملاحق